دكتور
عبد الغفار محمد عزيز
عميد كلية الدعوة الاسلامية
جامعة الأزهر

الخطابة الدينية
بين النظرية والتطبيق

القاهرة
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

يوجد بعض الصور المماثلة للأصل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد :

مع احترامنا لأساتذة كبار وعلماء أفاضل تصدروا للدعوة إلى الله واستعملوا الوسائل المتعددة للوصول إلى ماينشدونه ، ومع إيماننا بإخلاص هؤلاء الأفاضل واعترافنا بعلمهم وفضلهم إلا أننا نود أن ننبه فقط إلى مانرى فيه مصلحة الإسلام والمسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية التى هى فى أشد الحاجة الآن إلى تكتل الجهود واستعمال كل الوسائل الممكنة والمتاحة لإقناع الناس والتأثير فيهم بما يتناسب مع هذا العصر الذى يعيشونه .

فالمعروف أن كثيراً من هؤلاء العلماء الأفاضل لايزالون يستعملون نفس الطريقة التى كان يستعملها من قبلهم وتتناسب مع عصورهم — كذلك أرى بعضهم لايغير من لهجته ولا طريقة إلقائه مع كل المستويات وفى كل المناسبات ، وسواء كان يخاطب الناس فى حديث صباح إذاعى . أو حديث سهرة ، أو يلقى محاضرة بل حتى حين يرد على استفسار لأحد السائلين ، ولايراعى مايفرضه علم الخطابة من ضرورة مراعاة المتحدث لاعتدال صوته وموافقته للأحوال والظروف وضرورة تفننه فى هذا الصوت بما يجعله مطابقاً للمعانى التى يصورها بالألفاظ ويمثلها بالصوت وضرورة اهتمامه بطبقة الصوت واللفظ ، وتضافر الصوت واللفظ مع هيئة الوجه وحركات الجسم لبيان مافى النفس وتصوير مافى الخاطر ولايصح أبداً أن يسير على نسق واحد فى الإلقاء والتعبير ، وإنما لابد أن

يعطى الاستفهام أو التفخيم أو التهديد أو غير ذلك حقها فى النطق والتصوير ، حتى يؤثر فى السامع بالرغبة أو الرهبة أو الندم أو الفرح تبعاً لما يصير عليه المعنى الذى يتحدث فيه ولقد كان النبى ﷺ يحب أن يسمع القرآن من ابن مسعود رضى الله عنه ويطلب منه أن يقرأه أمامه حيث كان يجد فى سماعه من الارتياح مالا يجده عند الآخرين ، كما أن بعض الناس يستمتعون بسماع غيرهم أكثر مما يستمتعون من قراءتهم لصحيفة أو يستمعون إلى مايسرده عليهم غيرهم سرداً متتابعاً متشابكا وذلك حين يحسن المتحدث التعبير ويراعى الأحوال والظروف وكم من خطب كثيرة تضيع وتضيع ثمرتها حين لاتؤدى بطريقة صحيحة جيدة ، وذلك كأن يحدث الناس بلهجة فاترة أو حماسة دائمة أو بأسلوب واحد ، لايتغير مع حاجة الموضوع للتغيير والتلوين ، فخلو الكلام من تلوين الصوت والتفنن فى الإلقاء يؤدى إلى سآمة المخاطبين بسبب الرتابة المملة والأسلوب الواحد الذى لايتغير ، ومن هنا كان اهتمام أمم الأرض جميعاً بعلم الخطابة ومعاهد الخطابة المتخصصة منذ آلاف السنين ، فقد اهتم به قدماء المصريين واليونان والفرس وغيرهم وفتحوا المعاهد المتخصصة لتخريج الخطباء المجيدين ومن يحسنون فن الإلقاء والإقناع .

وقد عرف من قديم أن الخطابة علم له أصول وقواعد وقوانين مثل أى علم من العلوم ، وقد قصد بدراسة هذه القواعد معرفة طرق التأثير ووسائل الإقناع وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات وآداب وإلمام بميول السامعين مع معرفة ماينبغى أن تكون عليه أساليب الخطبة وترتيب أجزائها لإمكان التأثير بها فى المستمعين وإقناعهم بما يقال (وقد اعتبر علماء هذا الفن المران والتدريب على الخطابة طريقاً أساسياً من طرق تحصيل الخطابة وضرورة لابد منها للوصول إلى الغاية من الخطابة ، لأن الخطابة ملكة نفسية لاتوجد دفعة واحدة بل لابد من الممارسة والمران حتى تنمو مواهب الخطيب — كما أنه بتدرب الخطيب على مواجهة الجمهور يمكن التغلب على خجله ومعالجة بعض عيوب النطق وطريقة الإلقاء وهو المرض المتفشى والأسف عند كثير من خطباء هذا العصر — حيث

لم تعالج عيوب النطق وطريقة الإلقاء عند الكثيرين منهم — ولم يدربوا على الإلقاء الصحيح والسليم .

وكما قيل :

اللسان عضو إن مرنته مرن كاليد تخشنها بالممارسة وكالبدن تقويه برفع الحجر ، والرجل إذا عودتها المشى مشت)(١) .

ولعل بعض الناس يتصور أننا نقصد بالخطابة هنا إلقاء الكلام بصورة حماسية وصوت مرتفع أو نقصد به مااصطلح عليه الناس فى عصرنا ، وهو فى نظرهم بمجرد صوت مرتفع وانفعال شديد كما يحدث فى خطب الجمعة والخطب السياسية وغير ذلك ، ولكن الخطابة كعلم يشمل جميع فنون القول والكلام كالمحاضرات والندوات والمناظرات والدروس بجميع أنواعها ويهتم بتعلم أصول وقواعد كل هذه الأمور لمعرفة طرق التأثير ووسائل الإقناع وخاصة إذا عرفنا أن الخطابة كما عرفها العلماء .

[هى فن مشافهة الجمهور بإقناعه واستمالته]

والغريب أن الغرب يهتم إهتماماً كبيراً بفن الإلقاء فيفتتح المعاهد المتخصصة لهذا الغرض ويستعينون بمعامل صوتية وأفلام تجريبية وغير ذلك من الوسائل المؤدية إلى إجادة الإلقاء وفن التعبير بل إن دول الغرب لا تختار سفراءها إلا من بين المجيدين لفن الحديث والإلقاء الدارسين لأصول هذا العلم .

لقد فشلت الخطابة عندنا فشلا ذريعاً حين تهاونا فيها ومارسناها دون اهتمام بأصولها وقواعدها وابتعدنا عن الوسائل العلمية الصحيحة الموصلة إليها ، ثم نسينا وللأسف ما للخطابة الدينية أو الحديث الدينى من أثر على النفوس فى كل

---

[١] الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٥

ضروب الإصلاح، وأن ذلك مرتبط بالعاطفة الدينية مما كان يحتم الاهتمام بهذا العلم ودراسته دراسة علمية تتناسب مع عصرنا ووسائله العلمية المتاحة، وذلك بتخريج المتحدثين المتمرنين الذين يخاطبون الأمى على قدر طاقته والمثقفين بما يتناسب معهم .

نحن نريد خطباء ومتحدثين يقربون البعيد بأسلوبهم ويذللون الصعب أمام من يرى صعباً فى طريقه ويوجزون لمن لا يجد الوقت من أصحاب الأعمـــال ويركزون المعانى الكثيرة فى كلمات قليلة ويقدمونها لمن توجه مشاغل الحياة .

يجب على الدول الإسلامية أن تهتم اهتماما كبيراً بتدريس هـذا العلم خاصة معاهد إعداد الدعاة فالخطابة هى الأسلوب الأساسى من أساليب الدعوة إلى الله — وإذا كان هذا العلم كما قلنا علم له قواعده وأصوله فإننا نحب ألا أن يكون اهتمام المسئولين به بمجرد التدريس لأصول وقواعد هذا العلم تدريساً نظرياً وإنما لابد من التركيز على التدريب العملى والمران الجاد، وهو أحد الأركان الأربعة التى اعتبرها علماء هذا العلم أساساً لتحصيل الخطابة وإذا كان هؤلاء العلماء قد أضافوا إلى المران والتدريب وجود الاستعداد الغريزى ومعرفة الأصول والقوانين لهذا العلم والاكثار من مطالعة أساليب البلغاء ودراستها فلعلكم معى فى أنه بدون التدريب والمران لا تفيد موهبة ولا تنفع معرفة أصول وقواعد هذا الفن .

كما لا تضيف إليه دراسة أساليب البلغـاء شيئاً على الإطلاق — كذلك فالتدريب والمران لا يكفى فيها عملية الممارسة الشخصية للإلقاء وإنما يحتاج هذا إلى المراقبة والإشراف لتقويم وإصلاح الأخطاء والعيوب ، أولا بأول — كذلك تدوين الملاحظات ومحاولة تلافيها عند كل ممارسة لهـذا العمل — ومن هنا يتحتم وجود المتخصص الدارس لهـذا الفن العارف لأصول هـذا العلم

للإشراف والتعليم والتدريب — لأن التدريب يحتاج إلى مشافهة ويعتمد على السماع أكثر مما يعتمد على الدرس المجرد، فمع معرفة الخطيب بضرورة اشتمال خطبة الجمعة مثلا على الآيات القرآنية إلا أنه لابد أن يعرف ويتمرن على إلقاء الآيات القرآنية فوق المنبر ويتمرن على إلقائها فى الصلاة ولابد أن يعرف بأن إلقاءها فوق المنبر غير إلقائها فى الصلاة كما أن إلقاء الآية فوق المنبر يختلف أيضاً باختلاف نوعية هذه الآية فآيات الوعد غير آيات الوعيد والترهيب غير الترغيب وهكذا .

وهنا يأتى دور المعلم لتوجيه الدارس للطريقة الصحيحة وكيفيتها عن طريق المشافهة وهى الطريقة المتبعة فى كثير من البلاد لتعليم القرآن الكريم وكذا تعليم اللغات الأجنبية .

والملاحظ فى كثير من البلاد الإسلامية أن معظم خطباء المساجد لا يجيدون إلقاء خطبهم مع أن موضوعاتها أحياناً تكون على مستوى جيد ، ولكنها لا تؤتى ثمارها لافتقارها إلى طرق التأثير ووسائل الإقناع وهم حقيقة معذورون لأن معظمهم لم يتدرب على الإلقاء الصحيح ولم يوجه إليه مع عدم دراستهم لأصول هذا العلم الذى يجب أن يهتم به اهتماماً كبيراً .

ولما كان علم الخطابة من العلوم الهامة التى تفيد الإنسان فى كافة المجالات كان واجب العلماء أن يتعهدوه بالدرس والبحث والتجديد حتى ينال نصيبه فى التطور العلمى ولا يقف جامداً عند مرحلة من مراحل التاريخ .

ولا شك أن الدعاة إلى الله هم أولى الناس بدراسة الخطابة وتفهم قواعدها وممارستها عملياً ولذا فإنى أقدم هذا الكتاب لهم قبل غيرهم ، وقد راعيت فيه عدم الدخول فى كثير من التفاصيل التى اهتم بها واضعوا العلم قبل ذلك والتى

لاتمنيهم كثيراً وركزت على ما يحتاجه الخطيب الداعية وقدمته بأسلوب سهل مبسط حتى يستفيد منه أيضاً كل من يرغب فى التزود بالموضوعات التى تعينه على الخطابة وحتى يستطيع أن يفرق بين كل فن من فنون القول كالمحاضرة والندوة والدرس والمناظرة وغير ذلك ، وإن كانت بعض الموضوعات تصلح استعمالها للخطبة أو للدرس أو للمحاضرة والندوة مع تغيير طفيف فى الأسلوب .

هـذا وقد اشتمل الكتاب على قسمين :

القسم الأول: جعلته عن الخطابة النظرية .

والقسم الثانى : جعلته خاصاً بالخطابة العملية .

ولذا أسميت الكتاب [الخطابة الدينية بين النظرية والتطبيق] .

وقد تحدثت فى القسم الأول : عن تعريف الخطابة ، والغاية منها ، وأقسامها وطرق تحصيلها ، وعن الخطيب والصفات التى يجب أن يتحلى بها وعن كيفية تعامله مع الجمهور ، وطريقة الإلقاء الصحيحة التى يجب أن يتبعها ، ثم تحدثت عن الخطبة وأقسامها وشروطها ثم أنهيت الجانب النظرى بالحديث عن المخاطبين وكيفية مخاطبتهم والتعامل معهم .

أما القسم الثانى : وهو الجانب العملى التطبيقى : فقد راعيت فيه اشتماله على معظم فنون القول تقريباً ، وتعمدت الإكثار من النماذج لتكون زاداً للخطيب يمكنه الاستعانة بها فى ممارسة الخطابة عملياً ، ولذا فقد اشتمل هذا القسم على : —

١ — نماذج من الأحاديث الإذاعية الصباحية .

٢ — نماذج من الأحاديث الثقافية (حديث سهرة) .

٣ — نماذج من الأحاديث العامة التى تصلح لأحاديث الصباح والمساء .

٤ — نماذج من الأحاديث الدينية الموضوعية [حديث من القرآن لإذاعة القرآن الكريم] .

٥ — نماذج لبرنامج دينى متكامل فى موضوع واحد (يصلح لإذاعة القرآن أو لخطب جمعة فى مجتمع مثقف) .

٦ — نماذج من الخطب المنبرية الاكاديمية .

٧ — نماذج من الخطب المنبرية الحديثة : أى المشتملة على نواح علمية ، والتى تصلح لمجتمعات المثقفين .

٨ — نماذج من المحاضرات ،

وأسأل الله تعالى أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين .

والله الموفق والمعين .

د/ عبد الغفار محمد عزيز

القاهرة : فى مساء الجمعة ١٨ من يونيو سنة ١٩٨٢ م

الموافق ٢٦ من شعبان سنة ١٤٠٢ هـ

القسم الأول

الخطابة النظرية

أولا : تعريف الخطابة :

الخطابة فى اللغة مصدر كالخطابة بمعنى توجيه الكلام نحو الغير للافهام ، وفى اصطلاح الحكماء [1] مجموع قوانين يقتدر بها على الاقناع الممكن فى أى موضوع .

والاقناع هنا معناه حمل السامع على التسليم بصحة القول وصواب الفعل أو الترك ولذلك عرفها ابن رشد بأنها (قوة تتكلف الاقناع الممكن فى كل واحد من الأشياء المفردة [2]) .

وأما ارسطو : فقد عرفها بأنها (هى القدرة على النظر فى كل ما يوصل إلى الإقناع فى أى مسألة من المسائل) [3] .

وان كان المحدثون قد عرفوها بتعاريف أخرى فقد عرفها الدكتور احمد الحوفى بأنها (فن مشافهة الجمهور واقناعه واستمالته) . [4]

وعرفها الشيخ ابراهيم الصباغ بأنها « خطاب يلقى من فرد على جماعة بقصد التأثير فى نفوسهم واقناعهم بأمر من الأمور » [5]

وبصرف النظر عما يؤخذ على هذه التعاريف من قصور فان الفلاسفة ومن قديم اعتبروا الخطابة علماً له أصول وقوانين تمكن الدارس لها من التأثير بالكلام وتعرفه وسائل الاقناع بالخطاب فى أى غرض من الأغراض الكلامية وان هذا العلم (علم الخطابة) يعنى بدراسة طرق التأثير ووسائل الاقناع وما يلزم أن يكون عليه الخطيب من صفات وآداب والمام بميول السامعين وما ينبغى أن تكون عليه أساليب الخطبة وأجزائها ولذلك كانت غاية الخطابة عند الحكماء الحصول على قوة التمكن من الاقناع .

---

[1] راجع مذكرة الخطابة للشيخ على محفوظ صفحة ٤ .
[2] تلخيص الخطابة لابن رشد تحقيق عبد الرحمن بدوى ص ١٥
[3] الخطابة لارسطو جزء أول ص ٩٠
[4] فن الخطابة للدكتور احمد الحوفى (ص ٩
[5] البلاغة والأدب حـ ٢ ص ٩١

فضلها عظيم وشرفها كبير إذ فضل العلوم وشرفها بشرف الغاية ، والغاية من الخطابة (إرشاد الناس إلى الحقائق وحملهم على ما ينفعهم فى العاجل والآجل) .

ولذلك جعلوا الخطابة وسيلة من وسائل السيادة والزعامة وكانوا يعدونها شرطاً للامارة فهى تكمل الانسان وترفعه إلى ذرى المجد والشرف .

وحسب الخطابة شرفاً أنها وظيفة : قادة الأمم والشعوب من الأنبياء والمرسلين ومن على شاكلتهم من العلماء العاملين وعظماء الملوك وكبار الساسة .

والحقيقة أنه بالخطابة نستطيع أن نمتلك القلوب ونستميل النفوس ونحرك العواطف .

وبالخطابة يمكن إدراك كل غاية شريفة حيث ترشد قوانينها إلى مواضع الضعف وأماكن السهو والذلل فيقوى بها الراغب فيها على دحض حجة المناظر وتزييف سفسطة المكابر ، فهى التى تثير الحماس فى النفوس الفاترة وتهدىء النفوس الثائرة وتقيم العدل وترد الظلم وهى التى تفض النزاع وتقطع الخصومات وتهدى الضال إلى سواء السبيل .

فالخطيب البارع يقف بين ذوى النزعات المختلفة والآراء المتضاربة فلا يزال يبين النافع لهم من الضار والصواب من الخطأ حتى يجعل الجميع فى قبضة يده ،

والخطيب البارع يقوم بين طائفتين استشرت بينهما نار العداوة والبغضاء فيذكرهم بعواقب التقاطع ويحذرهم من نتائجه السيئة فاذا القلوب مؤتلفة وإذا النفوس متآخية .

ولذلك يرى بعض العلماء أن أنسب التعاريف لعلم الخطابة انها (علم يقتدر بتطبيق قواعده على مشافهة المستمعين بفنون القول المختلفة لمحاولة التأثير فى نفوسهم وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم واقناعهم . (١)

---

[١] قواعد الخطابة وفقه العيدين احمد غلوش ص ٩

تاريخ ظهور الخطابة :

الخطابة مخلوقة مع الانسان وكان البحث عنها قبل الجاهلية والاسلام عامة وأن تأثير البلاغة فى النفوس لا يخص أمة بعينها ولا جيلا بعينه .

وقد قال (ابن سينا) ان صناعة الخطابة عظيمة النفع جداً لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن أفضل نفعاً وأعظم من أضدادها فائدة . والانسان لا يعيش وحدة فكان لامحالة محتاجاً إلى التعامل والتجاور وهما محتاجان الا أحكام صادقة وهذه الأحكام تحتاج الى أن تكون مقررة فى النفوس ممكنة فى القلوب والبرهان قليل الجدوى فى حمل الجمهور على الحق ، فالخطابة هى المعنية بذلك . (١)

ولما كان الله تعالى قد فطر الناس على قوة البيان وملكة التأثير فاستطاعوا بها حمل غيرهم على ما أرادوا منهم ورأى غيرهم مانا له هؤلاء بسبب هذه الملكة وانهم لم ينالوا ما ناله أصحابها حاولوا أن يبحثوا فى الأسباب فنظروا واختبروا ودققوا النظر والاختبار ودونوا نتيجة أبحاثهم وسموها ، حتى جاء أرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد فجمع ما عرفه من شتات هذا الفن فى كتاب ضمنه قواعد هذه الصناعة سماه (الخطابة) .

وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية (بشر بن متى) ولخصه (ابن رشد) وأخذ عنه فلاسفة العرب كابن سينا والفارابى(٢) .

ولذلك عده كثير من هؤلاء الفلاسفة جزءاً مكملا لعلم المنطق وجعل ابن سينا الخطابة قسما منه ، والسبب أنهم رأوا أن أرسطو فى كتاب الخطابة تكلم عن الحد والرسم والدليل وكيف يتألف القياس الخطابى كما تكلم على التصديق الذى يكفى فى الخطابة .

---

[١] نقلا عن مذكرة الخطابة للشيخ على محفوظ ص٦

[٢] تلخيص الخطابة لابن رشد ص ١٣

وقد استمر أمر الفلاسفة على هذا الحال إلى أن قصر المتأخرون منهم النظر في المنطق على القياس وأشكاله ، وقد عرف أن أول من دون قواعد هذا العلم ثلاثة من فلاسفة اليونان في أواخر القرن الخامس وأوائل الرابع قبل الميلاد (بروديكوس — وبروتاغوراس) معاصره ثم (غورجياس) سنة ٣٨٠ ق . م . وفي أواخر القرن الرابع ٣٢٢ ق . م . ظهر أرسطو زعيم فلاسفة اليونان فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة من أصول هذا الفن إلا دونه ونشره في كتابه الخطابة الذي أشرنا إليه(١) .

علاقة الخطابة بغيرها من العلوم :

الحقيقة أن فن الخطابة ليس له صلة وثيقة بفن المنطق وحده بل أن له صلة بسائر العلوم الإنسانية كلها يستمد منها ويعتمد عليها ، فعلم المنطق خادمه الأمين وبعض قوانين الخطابة يعتمد على مبادىء المنطق ، ولأن الهدف من الخطابة الإقناع واستمالة القلوب ومحاولة التأثير في النفوس وحمل المستمعين على مايراد منهم بترغيبهم وإقناعهم ، فذلك لايتم إلا إذا أحاطت الخطابة بالأدلة وأنواعها ولذلك اعتبرها المناطقة (قياساً مؤلفاً من مقدمات مقبولة لصدورها عن يعتقد فيه لاختصاصه بمزيد عقل أو تدين) كقوله العمل الصالح يوجب الفوز وكل ماكان كذلك لاينبغي إهماله(٢) .

كما أن الخطابة لاتستغني أبداً عن علم النفس وعلم الاجتماع إذ أنه لابد من مراعاة الاعتبارات النفسية للمستمعين ، فما دامت الخطابة تهدف إلى التأثير في جماهير الناس ، وهي أساس التوعية الهادفة ، لحملهم على الإقناع برأي معين ـ القيام بعمل أو الامتناع عن عمل فيجب على القائم بها لكي يحقق هدفه أن يعرف كيف يصل إلى قلوب الناس ويؤثر فيهم ويحملهم على الانقياد له ولن

---

[١] الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٧

[٢] المرجع السابق ص ٤

يستطيع أن يصل إلى شيء من ذلك بغير أن يدرس نفسية الجمهور الذى يتعامل معه ويعرف خصائصه واتجاهاته وعناصر تكوينه والعوامل التى تؤثر فيه والدوافع التى تحركه .

ومن هنا كانت علاقة الخطابة بعلم النفس علاقة وثيقة أيضاً :

والخطبة تختلف باختلاف المكان والمجال فقد تكون موجهة إلى جمهور مسجد أو جمهور حفل عام وقد تكون إلى أهل مدينة أو قرية أو طائفة بعينها من الناس كما يمكن أن يكون هدفها عدداً محدوداً من الأفراد وفى كل حالة من هذه الحالات يختلف أسلوب الخطبة باختلاف نطاقها وميدانها لأن مايصلح للشخص المنفرد ويؤثر فيه قد لايكون له أثر يذكر فى الجماهير المحتشدة خاصة وأن سلوك الفرد يختلف عن سلوك الجماعة والشخص الذى قد يسلك وهو بين الجماهير سلوكا قد يستنكره لو كان منفرداً يتصرف بإرادته وحدها .

ولذا كانت هناك أيضاً صلة وثيقة بين الخطابة وعلم الاجتماع بفروعه المختلفة فالمجتمع هو المقصود بعملية التغيير والناس هم عادة هذا المجتمع وهم المقصودون ، والمراد ترغيبهم وإقناعهم والتأثير عليهم .

والخطبة الجيدة هى التى تهتم بحال الناس وتتناول ظاهرة من ظواهر المجتمع الفاسدة التى تحتاج إلى إصلاح وعلاج .

ويقول الفارابى :

أن الخطيب إذا أراد بلوغ غايته وحسن سياسة نفسه فليتوخ طباع الناس وتلون أخلاقهم وتباين أحوالهم(١) .

---

[١] علم الخطابة د . أحمد غلوش ص ١٢ .

ومن هنا كان من الضرورى أن يحيط الخطيب الناجح بسائر العلوم الإنسانية ليتمكن بهذه الإحاطة من معالجة أمراض وعلل المجتمع ويقصد الداء وهو يعرف دواءه وما أصعب هذا العلاج ، علاج أمراض النفوس والقلوب .

ومن هنا كان لابد للخطيب زيادة على ماقلناه من ضرورة معرفته بعلم الاجتماع وعلم النفس وفن المنطق ومعرفته بعلم الأخلاق والتاريخ والحضارة وغيرها مما تدور حول الانسان تماماً كما يحيط طبيب الأبدان ، بجميع أنواع الأدوية ومفعول كل واحد منها ومقدار مايحتاج إليه المريض من هذا الدواء .

الخطابة أسلوب من أساليب الدعوة الإسلامية :

لأمر ما جعل الله الخطابة شعار كل إمام فى حفل دينى أو سياسى كالجمعة والعيدين وموسم الحج وعند أخذ العدة للجهاد وفى كل أمر جامع لنشر فضيلة أو نهى عن رذيلة أو إعلان نصر أو تأكيد وصية عامة أو خاصة إلى غير ذلك من الأمور ذوات البال .

والدعوة الإسلامية كان لابد لها من دعاة يدعون الناس إليها ويردون على خصومها بالحجة وبالمنطق القويم وعرضها على المستمعين المضللين أو المنحرفين عرضاً حسناً تستمال به الوجدان وتقتنع به العقول والقلوب ولن يكون ذلك إلا إذا وجدت الألسنة القوالة القادرة على الإقناع بالحجة والموعظة الحسنة (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن) . (١)

وقد كانت الدعوة الإسلامية من أعظم البواعث على انطلاق الألسنة من عقالها فأثارت الخطابة من مكمنها وأغرت وفتحت العقول بأحكامها فتفنن خطباء الإسلام فيها واختلبوا الإلباب بسحر بيانها فوق ماكانت عليه فى جاهليتها .

---

[١] سورة النحل آية ١٢٥

وقد ابتدأ تطور الخطابة الإسلامية بظهور رسول الله ﷺ خطيباً غير شاعر ، وقد وقف النبي ﷺ الخطيب على الصفا يخطب قومه ويدعوهم إلى الإسلام ويستثيرهم إلى الخير ويدخل عليهم مدخلا حسناً فيقول ليلفت أنظارهم :

(أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى)

قالوا : نعم . ماجربنا عليك كذباً . قال : (فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) فكان ماكان ، وقد ورث النبي ﷺ الخطابة من بعده خلفائه الراشدين بل كان النبي ﷺ يرسل إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام من اشتهروا بالخطابة وعرفوا بالفصاحة وقوة الإقناع .

وها هو جعفر بن أبى طالب يقف بين يدى النجاشى خطيباً فى أول بعثة النبي ﷺ فيقنعه بقوة منطقه وفصيح كلماته ويستميله إلى جانب المسلمين حتى فشل رسولا قريش (عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة) فى التأثير على النجاشى وإقناعه بإعادة المسلمين إلى مكة .[١]

وقد أعطى القرآن الكريم والسنة المحمدية للخطابة فى الإسلام قوة وكان الاقتباس منهما دائماً مدداً لاينفد ومعيناً لاينضب ، وكان أمراء الجيوش والسرايا يسيطرون على جيوشهم وسراياهم عن طريق الخطابة حيث كانوا خطباء مصاقع .

وإذا كانت الخطابة فى الجاهلية والصدر الأول للإسلام قد ارتقت وظهر فى هذين العصرين خطباء كثيرون خصوصاً فى الخطابة الأدبية فى الجاهلية ، والخطابة الدينية فى الصدر الاول فإن ذلك كان بسبب ماكان عليه العرب فى الجاهلية من النعرة والحمية وشهر الغارات فى المدافعة عن النفس والمال والعرض والمفاخرة بالشعر والخطب فى الحسب والنسب وقوة العصبية وشرف الخصال

[١] سيرة النبي لابن هشام تحقيق المرحوم محمد محيى الدين عبدالحميد ج١ ص٣٥٨

من الشجاعة والكرم والنجدة وحماية الجار وإباءة الضيم وغير ذلك مما هو مشهور عنهم .

وكانت الخطابة فيهم فطرية فهم قد اشتهروا بقوة البيان وذلاقة اللسان حيث دعت إليها حالتهم الاجتماعية التى كانت تمتز بمفاخرها وتفخر بمجدها وتخلد آثارها وقد كانت الحروب المستمرة بين قبائل العرب دافعاً لاستعمالها عندهم للتحريض على القتال كذلك استعملت عند تحمل الديات وإصلاح ذات البين والتحكيم فى الخصومات والمنافرات والوصايا والوفادة على الملوك والأمراء .

وقد ارتقت الخطابة فى الصدر الأول للإسلام وتهذبت ، وذلك لانهـــا اعتمدت كثيراً على القرآن الكريم والحديث الشريف ، وحيث أخذت اللغة العربية عند ظهور الإسلام صبغة دينية من القيام بالدعوة بالنصح والارشاد وتبيين العقائد الصحيحة وقواعد الاسلام وأصوله المحكمة .

وإذا كان هذا شأن الخطابة عند العرب فى الجاهلية وفى صدر الاسلام وكانوا مفطورين عليها وتمنها ظروف مجتمعهم فان الحال يختلف فى هذا العصر فلم تعد الخطابة فى هذا العصر الحديث من الفنون السهلة التى لاتحتاج إلى تدريب ومران بل لابد عند تحصيلها من معرفة طرق هذا التحصيل وتعلمها والتمرين عليها ، فلا يوجد الآن خطيب بالسليقة كما كان قديماً ولا يمكن وجود هــذا الخطيب الآن دون إعداد وصقل ومران .

أركان علم الخطابة

يعتمد علم الخطابة على أركان ثلاثة وهى الأركان التى لابد عن معرفتها ودراستها لمن يريد أن يتعلم هذا العلم أو يتعرف عليه وهى :

١ - الخطبة ٢ - الخطيب . ٣ - المستمعون .

وقد انحصر هذا العلم فى هذه الأركان الثلاثة . لأن الكلام المقنع الذى يراد توجيهه إلى جماعة من الناس لاقناعهم بفكرة معينة هى (الخطبة) سواء كان ذلك خطبة بمعناها الشائع الآن بين الناس ، أو كان درساً أو محاضرة ، أو ندوة ، أو غير ذلك مما سنعرفه إن شاء الله عند حديثنا عن أنواع الخطابة وفنونها .

كما أن الشخص المتقن لهذا الفن الذى يستطيع أن يشافه الناس ويخاطبهم بما يريد اقناعهم به والتأثير فيهم بما يريد هو (الخطيب) .

ولاشك أن الكلام الذى يتكلمه الخطيب لابد أن يوجه إلى مجموعة من الناس يستمعون إليه إما عن طريق المشافهة أوعن طريق وسيلة من وسائل الإعلام . وهذه المجموعة التى تستمع ويخاطبها المتحدث هى (المستمعون) .

يقول ابن رشد (١) « إن الكلام مركب من ثلاثة : من قائل وهو (الخطيب) ومن مقول فيه وهو الذى يعمل القول فيه ، ومن الذين يوجه القول اليهم ، وهم المستمعون .

وهذه الأركان الثلاثة تنقسم إلى أقسام عدة تبعاً لاعتبارات متنوعة ، وعلم الخطابة يحيطها بالدراسة العميقة ليستفتح منها القوانين الموجهة وبذلك يضمن الخطبة أن تكون منظمة الفكرة واقعية الغرض جميلة الأسلوب مقنعة هادفة .

مع ملاحظة أنه لاقيمة إطلاقاً للخطابة التى تفتقر إلى ركن من هذه الأركان

---

[١] تلخيص الخطابة ص ٢٨ - الخطابة لارسطو ص ١٦

لأنه لايغنى ركن عن الآخر ولذا فإنه إن أردنا خطابة جيدة ناجحة كان لابد من مراعاة هذه الأركان الثلاثة .

وسنحاول أن نتعرف على كل ركن من هذه الأركان .

ونبدأ هنا الحديث أولا : عن الخطيب على خلاف ما جرى عليه البعض من تقديم الخطبة أولا (١) ، ذلك أن الخطيب فى نظرى هو الأهم وهو الأداة التى تؤدى عن طريقها الخطبة والذى لو أحسن إعداده لأدت الخطبة دورها كما يراد لها ، كما أنه بأسلوبه ونصائحه واتباعه للوسائل الصحيحة للخطابة يستطيع أن يؤثر فى المستمعين حتى وإن قصرت خطبته ولم تكتمل عناصرها وبخاصة إذا عرفنا أن من صفات الخطيب الجيد اختياره للموضوع المناسب وترتيبه وتبويبه التبويب المناسب .

طرق تحصيل الخطابة :

وطرق تحصيل الخطابة إجمالا أربعة : —

١) الفطرة والاستعداد الغريزى ، وهذا هو الأصل والأساس .

٢) معرفة الأصول والقوانين والقواعد التى وضعها الحكماء لهذا الفن .

٣) الاكثار من مطالعة أساليب البلغاء ومصانع الخطباء ودراستها دراسة عميقة لمعرفة نواحى التأثير وجهات الاقناع فيها وتذوق ما فيها من متانة الأسلوب وحسن العبارة وجودة التفكير .

٤) المران والتدريب عليها وممارستها وهى الخطابة العملية ، ويسميها البعض الارتياد والاحتذاء(٢) .

والحقيقة أنه لايصلح كل انسان لأن يكون خطيباً ناجحاً فالخطيب كالفنان يجب أن يكون لديه الاستعداد الفطرى والموهبة الطبيعية التى تؤهله لممارسة فن الخطابة بنجاح ، وأول عناصر هذه الموهبة القدرة على مواجهة الجمهور

---

[١] راجع الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٥ وراجع علم الخطابة للدكتور احمد غلوش ص ٣٢

[٢] راجع كتاب الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٥

والتحدث اليه بغير اضطراب وإذا كان فى الامكان تدريب بعض النـاس على الخطابة وتمرينهم على مواجهة الجهور والتغلب على خجلهم فانه مما لاشك فيه أن هناك بعضاً من الناس لا يفلح معهم التدريب لأن طبيعتهم تنفر من مواجهة الجماهير ، فالمران والتدريب لايفيدان عند كل الناس ، ويوجد بين كبار الأدباء والكتاب من يخلب ألباب النـــاس ويأسر عقولهم بكتاباته لكنه مع ذلك لا يستطيع أن يقف خطيباً فى مكان عام لمواجهة الجمهور واذا اضطر واحد منهم إلى ذلك تلعثم ولم يستطع أن يقول شيئاً .

وقد كان أمير الشعراء احمدشوقى يهز الدنيا بقصائده ولكنه لم يكن يستطيع أن يلقى أبياتاً من شعره فى محفل من المحافل أو جمع من الناس وكان يعهد بإلقاء قصائده فى الحفلات العامة الى طائفة من الخطباء المعروفين بحسن الإلقاء .

ومن عناصر الموهبة الخطابية أيضاً الصوت المعبر الذى يملك الاسماع بحلاوة جرسه وعذب رنينه .

فالخطيب الذى وهبه الله مثل هذا الصوت يكون أقدر على التأثير فى النـاس من خطيب ضعيف الصوت أو يصك الاسماع بصوت متحشرج منفر .

ولابد أن تتوفر فى الخطيب القدرة على التعبير المتدفق بفصاحة ونطق سليم حتى يكون تأثيره فى النـاس قوياً وسريعاً ونحن لا نتخيل خطيباً ناجحاً وهو لا يحسن النطق لاصابته بالفأفأة أو التأتأة أو غير ذلك من العيوب التى قد تشوب النطق منذ الطفولة .

ومن المواهب الطبيعية التى تساعد على أن يؤثر الخطيب فى جمهوره مع ما سبق ان يكون مقبول الصورة خفيف الظل وليس معنى هذا اشتراط أن يكون جميلا وإنما المقصود ألا يكون منفراً يؤذى العين بدمامته وقبحه .

ومع ذلك فان قوة شخصية الخطيب وجهارة صوته وبلاغة أسلوبه وبراعة إلقائه قد تتغلب على دمامته ، بل قد يجعل منهـا وسيلة للتأثير على السامعين إذا كان الخطيب عبقرياً من طراز (ميرابو) .

وقد كان (ميرابو) وهو خطيب الثورة الفرنسية ، دميم الشكل ، فقد أصيب بالجدرى فى صباه فترك آثاراً على وجهه زادته جهامة وكان ضخم الجسم عريض المنكبين له رأس هائل يحيط به شعر غزير كعرف الأسد ونظرات نافذة تقدح بالشرر عند الغضب وصوت جهير يجمع بين القوة والعذوبة إلا أنه استطاع برغم دمامته أن يكون أعظم خطيب فى فرنسا ، وكان (ميرابو) يقول عن نفسه (إنهم لايدركون مالقبح وجهى من قوة بيانى) ، (١)

ولكن هل تكفى الفطرة والاستعداد الغريزى وحدهما ؟ وهل يمكن بهذه الموهبة أن يكون خطيباً ؟ .

الحقيقة إنه لا تكفى الموهبة وحدها لإظهار الخطيب بل لابد مع الاستعداد الغريزى والموهبة والفطرة من توافر الشروط الثلاثة الأخرى وهى على التوالى وكما قلنا :

١) معرفة الأصول والقوانين التى وضعها الحكماء .

٢) الاكثار من مطالعة أساليب البلغاء ومصاقع الخطباء ودراستها دراسة يتعرف منها على نواحى التأثير وجهات الاقناع فيها .

٣) التدريب والتمرين والممارسة ، وإن كانت هذه الأشياء كلها مترتبة على وجود الاستعداد الغريزى والموهبة ولذلك كانت أولها وأهمها على الإطلاق .

ومعرفة الأصول والقوانين التى وضعها الحكماء ضرورة حتى تؤتى الخطبة ثمارها المرجوة ويستفيد منها المستمع وإلا كانت مجرد كلمات تقال لا تجدى نفعاً ولا تؤتى ثمراً .

وأما الإكثار من مطالعة أساليب البلغاء وخطب الخطباء ودراستها لمعرفة

---

(١) التوعية الاجتماعية للأستاذ أنور احمد من مطبوعات إدارة المعلومات والعلاقات العامة بوزارة الشئون الاجتماعية ص ٥١

مناحى التأثير فيها فهو من الضرورة بمكان فلا الخطيب ولا الخطبة يمكن نجاحهما بغير هذا الزاد .

ويقول ابن الأثير فى المثل السائر (١) : — إن فى الاطلاع على أقوال المتقدمين من المنظوم والمنثور فوائد جمة ، لأنه يعلم منه أغراض الناس ، ونتائج أفكارهم ويعرف منه مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته فى ذلك فهذه الأشياء مما تقوى الذهن وتزكى الفطنة — وإذا كان صاحب الصناعة عارفاً بها تصير المعانى التى تعب فى استخراجها كالشىء الملقى بين يديه يأخذ منها ما أراد وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعانى المسبوق إليها ، قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه وعلى الجملة فدراسة كلام البلغاء تقدم للقارىء ألواناً من المعانى والأساليب تنمى فيه ملكة الخطابة .

أما التدريب والمران فذلك بسبب أن الخطابة ملكة نفسية لا توجد دفعة واحدة ، بل لابد لطالبها من الممارسة والمران كى تنمو مواهبه .

وقد قلنا إن الموهبة تحتاج إلى صقل وتمرين وممارسة لأن الموهبة وحدها لا تكفى لصنع الخطيب .

وقد قلنا أيضاً انه يمكن تدريب الخطيب على مواجهة الجمهور والتغلب على خجله كما يمكن أيضاً بالتدريب معالجة بعض عيوب النطق وطريقة الإلقاء .

والإنسان إذا دُرب على شىء تعوده واعتاد عليه ، بل إن الغرائز فى حاجة إلى تدريب وتمرين : وقد قال خالد بن صفوان وإنما اللسان عضو ، إن مرنته مرن فهو كاليد تخشنها بالممارسة وكالبدن تقويه برفع الحجر ، والرجل إذا عودت المشى مشت . (٢)

وقد روى المؤرخون أن (ديمستين) أعظم خطيب فى تاريخ الإغريق ، كان

---

[١] الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٥

[٢] نفس المرجع السابق

فى شبابه ضعيف الصوت قصير النفس وكانت بلسانه لثغة تغرى بالسخرية منه ، فلم ينجح فى محاولاته الاولى كخطيب وهزءوا به فى الجمعية الوطنية ، وفى غمرة اليأس التى أسنولت عليه صادفته (ساتيروس) وكان ممثلا شهيراً يعرف مايتمتع به (ديمستين) من عقل يتوقد ذكاء وقلب يشتعل حماسة ، فعطف عليه وشجعه وأعاد إليه الثقة بنفسه وأقنعه بأن لديه مواهب الخطيب ولا ينقصه إلا حسن الإلقاء وإجادة النطق وهو شىء يمكن أن يكتسب بالمران .

وبدأ (ديمستين) رياضة شاقة بعزيمة وصبر لكى يصل إلى مايريد ويروى المؤرخ (بلوترخوس) أنه أنشأ حجرة تحت الأرض كان ينفرد فيها ليتمرن على الخطابة .كان يقف أمام المرآة ليتخير الإشارات المناسبةوقت الإلقاءويضع الحصى فى فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه ، ويصعد الجبل عدواً وهو يقول أبياتاً من الشعر بصوت مرتفع ، وبعد سنوات من التدريب الشاق تكلل جهاده ولم يعد يخشى الجمهور ، فلما ارتقى بعـــد ذلك منبر الخطابة ملك الاسماع والقلوب وأصبح خطيب الجمعية الوطنية الاول بل أعظم خطيب فى التاريخ القـــديم . (١)

وقد رأينا فى التاريخ المعاصر زعماء وقواد أصبحوا خطباء مهرة بعد التدريب والمران حيث فرضت عليهم مناصبهم ومراكزهم القيادية أن يواجهوا الجماهير وأن يكونوا خطباء فيهم .

وأذكر وأنا طالب بالثانوى الأزهرى أنى كنت أقف أمام المرآة فى حجرة نوم وأغلق على نفسى الباب ثم أمرن نفسى على الخطبة بصوت مرتفع وأنا انظر إلى تعبيرات وجهى لأرى كيف يمكن التأثير بهذه التعبيرات على الجمهور وكنت أعيد الكلام مرة ومرات حتى أصل إلى ما أرجوه من طريقة ترضى لها نفسى .

ولا زلت حتى الآن أجد نفسى فى بعض الأحيان مضطراً إلى تزوير بعض

---

[١] التوعية الاجتماعية . أنور احمد ص ٥١

الجمل والعبارات وترديدها بصوت عال خاصة عند التحضير لخطبة أريد أن أجدد فيها أو اطمئن إلى تأثيرها وتقبل الناس لها .

والحقيقة أن الخطيب فى حاجة دائمة إلى التدريب المستمر وهو حين يتدرب قد يتوسع فى شرح بعض المعانى فيبينه بأوجه شتى ويزينه بما يراه من وسائل تؤثر فى السامعين ثم يحاول أن يتعود على تلخيص العبارات المبسوطة فى عبارة وجيزة جامعة للمعانى التى حواها الموضوع لتبقى فى ذهن السامعين .

كما يحاول أن يعود نفسه على وصف المعانى التى يصل إليها من المشاهدات بحيث ينقل ذلك إلى نفس السامع وكأنه مشاهد لها ، فالخطيب أحوج الناس إلى ضرب الأمثال وأنواع التشبيه للوصول إلى مايرجوه من التأثير فى نفس السامع وله أن يبتكر ماشاء من وسائل التأثير التى يراها أرجى للوصول إلى مايريد .

ولذلك كان له أن يغير من الطريقة الأكاديمية المعروفة لخطبة الجمعة هذه الطريقة التى أصبحت سبباً من أسباب هجر المساجد وعدم الاهتمام بالخطبة الدينية حيث أصبح الكثيرون من أئمة المساجد وخطبائها يكررون أنفسهم وينهجون نهجاً واحداً فى الطريقة والإلقاء مما سبب عدم الإقبال على أمثال هذه الخطب .

ولايعنى هذا ترك أساليب المتقدمين نهائيـــاً والاستعاضة عنها بأساليب أخرى مبتكرة فاحتذاء أساليب المتقدمين جزء من التدريب على الخطابة وطريق من طرق تحصيلها ، واقتفاء أثر أساليب المتقدمين الصالحة والنسج على منوالها لاغنى للخطيب عنه فلابد له من الاقتداء بالسابقين والاقتباس من الأولين فيما اخترعوه من معانيهم وسلكوه من طرقهم ، والتقليد عريق فى بنى الإنسان :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   أن التشبه بالرجال فلاح

وقد روى أن العرب كانوا يأخذون أنفسهم بالتدرب على الخطابة حتى تصير لهم سجية وعادة ، ويقولون أن عمرو بن سعيد بن العاص الأموى كان لا يتكلم إلا اعترته حبسة فى منطقه فلم يزل يتشادق ويعالج إخراج الكلام حتى مال شدقه ولذا لقب بالأشدق وفيه يقول الشاعر :

تشدق حتى مال بالقول شدقه　　　وكل خطيب لا أبا لك أشدق(١)

فالخطيب بالدربة والمران يمكنه أن يتغلب على كثير من عيوبه — أنه فى هـذا يشبه الممثل الموهوب الذى يلتحق بمعهد التمثيل ليدرس أصول الفن وقواعد الإلقاء ويتدرب على التمثيل تدريباً عملياً .

وقد روى أن (نابليون بونابرت) كان يلجأ إلى صديقه الممثل العظيم (تالما) كى يدربه على الإلقاء فقد كان نابليون يخطب جنوده فى كثير من الأحيان قبل المعارك فيلقى عليهم خطباً رائعة ملتهبة تلهب حماسهم وترفع روحهم المعنوية .

وقد عرف عن واصل بن عطاء أحد شيوخ المعتزلة أنه وجد نفسه عاجزاً عن الخطابة الجيدة بسبب اللثغة التى نشأت معه فى حرف الراء ، ولما وجد نفسه كذلك لم ييأس ويترك الخطابة ويبتعد عن الناس وإنما أخذ يقوم نطقه فلجأ إلى الراء وأسقطها من كلامه . حتى استقام لفظه وصار من أوائل الخطباء ، يقول الجاحظ معلقا على هذه الظاهرة عند واصل ، ومبيناً غرابة الجهد المبذول .لولا استفاضة هـذا الخبر ، وظهور هـذا الحال ، حتى صار لغرابته مثلا ولظرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له ، ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة الأكفاء ، ومفاوضة الأخوان . (٢)

---

[١] الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٦

[٢] البيان والتبيين جـ ١ ص ٥

ويشير (بشار بن برد) إلى هذه الظاهرة فى خطب واصل فيقول :

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا ... وحبروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تغلى بداهته ... كمرجل القين لما حف بالهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد ... قبل التصنع والإغراق فى الطلب [١]

وقد عرف أن (نلسكولن) مؤسس أمريكا الحديثة كان لا يجيد الخطابة إلا أنه اكتسبها بعد قليل بالتلقى والمران تقول (هورندن) :

كان (لنكولن) يبدو من العسير أن يلائم بين موقفه وبين ما يحيط به وقد ناضل بعض الوقت تحت وطأة شعور ظاهر من التردد وكان صوته يبدو شبيها بالولولة والصياح ، ولكن هذا كله لم يلبث إلا وقتاً ثم اختفى بعد ذلك [٢] .

ولاشك أن ممارسة الخطابة فى بدايتها عملية صعبة عند بعض الناس مثلها مثل أى عمل آخر يحتاج إلى تدريب ومران حتى يمكن ممارسته ممارسة سليمة ولسنا مع من يقول بالفطرة المجردة للخطيب وإلا كان معنى ذلك إلغاء دور التربية وأثرها فى تكوين الإنسان وتنشئته، وحتى على فرض وجود هذه الفطرة فإن الخطابة الفطرية لا تتمكن من القيام بدورها فى هذا العصر ولابد للخطيب من الممارسة والاستعداد بالإضافة إلى الفهم والتعلم حتى يستطيع النجاح .

ولابد أن نعرف أن الخطابة عند الخطيب صفات بيانية وملاحظات نفسية وترتيب عقلى منظم ومن المعلوم أن الصفات البيانية نتاج طبيعى لتعلم علوم اللغة والبلاغة ، والملاحظات النفسية آثار ضرورية لإجادة علوم الاجتماع والنفس بفروعها المختلفة والتنظيم العقلى المرتب أحد الآثار التى يحققها تفهم علوم المنطق والفلسفة .

---

[١] علم الخطابة د / احمد غلوش ص ١٣٣ نقلا عن معجم الادباء .
[٢] التأثير فى الجماهير عن طريق الخطابة (ديل كارنيجى) ترجمة رمزى يسى ص ١٤

وما دامت الصفات الأساسية الموجودة للخطبة آثاراً لعلوم مختلفة فإنها تكون اكتساباً يتحقق بالدراسة والتعلم .

إن العلوم الحديثة تعتمـــد فى تعلمها على المنهج النظرى والطريقة العملية والخطيب يمكنه أن يكتسب فنه بالمنهج النظرى والعملى معاً .

كيف يتمكن الخطيب من الإجادة بسرعة :

(١) أولا : يجب على من يريد أن يكون خطيباً ناجحاً أن يبدأ عمله برغبة قوية لأن الرغبة الهزيلة لا تحقق النجاح وأن يثق فى نفسه تماماً ويستسهل الوصول إلى غرضه ويتفهم دراسته الذاتية ويقتنع بمنفعتها ويفكر فيما تعنيه بالنسبة له .

وفى رأيى أنه لا يوجد من هو أكثر شهرة وجاهاً من خطيب يرضى الناس ويجذب انتباههم ولقد رأينا خطباء ومتحدثين يبلغ بهم التأثير الجماهيرى درجة أكبر بكثير من تأثير رؤســاء الدول يقول (فيليب ارمور) وهو أحـــد كبار الرأسماليين فى العالم الغربى :

(كنت أفضل أن أكون خطيباً مفوهاً على أن أكون رأسمالياً عظيما ،) (١)

ثانيا : على الخطيب ألا يخجل من نفسـه وألا يحجم حين يخفق مرة أو يرى نفسه فى بداية الممارسة على غير المستوى المطلوب ـ فالحديث لا يقويه إلا حديث يشبهه والخطابة لا تجود إلا بتكرارها ، ولابد أن يعلم أن من يريد أن يتعلم السباحة عليه ان يلقى نفسه فى المـاء ـ ولو خاف الغرق ما أقدم على تعلم السباحة أبداً .

يقول روز فلت : أن أول مبتدىء معرض لحمى الكلام وهذا معنـاه حالة هياج عصبى شديد يترتب عليهـا أن يطلق الخطـــابة كلية وهذه .

---

[١] المرجع السابق ص ١٥

قد تؤثر فى الشخص فى أول موقف خطابى له أمام جمهور المستمعين ومثل هذا الرجل لا تنقصه الشجاعة ، ولكن ضبط الاعصاب ورباطة الجأش يجب عليه عن طريق التعود والتدريب المتوالى على ضبط النفس وأن يجعل أعصابه باستمرار خاضعة لسيطرته وهذا أمر مرده فى معظم الحالات إلى العادة ، ويعنى أنه جهد معاد وتدريب متكرر لقوة الإرادة ، فاذا كان لدى الشخص المادة الملائمة فإن قوته ستتزايد مع كل تدريب . [1]

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة : [2] « ورياضة النفس على الخطابة تكون بأمور كثيرة بعضها يتعلق بالأسلوب والفكرة لأن الخطابة فكرة وأسلوب وإلقاء محكم ، ومن الرياضة التى تتعلق بالفكرة أن يعود نفسه ضبط أفكاره ووزن آرائه ، وعقد صلة بينها وبين ما يجرى فى شئون الناس وعامة أمورهم .

ومنها أن يكون كثير التأمل فى شئون الحياة ، وأن يتعود الاتصال بالناس ليخالط نفوسهم بنفسه .

---

[١] نفس المرجع السابق ص ٢٠

[٢] أصول الخطابه للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢١

أهمية اختيار القائم بالتوعية (الخطيب)

الخطابة فى الإسلام مظهر الحياة المتحركة فيه ، الحياة التى تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ويثب من فكر إلى فكر وهذا هو السر فى أن النبى ﷺ كان يخطب كل أسبوع وكل عيد ويخطب وينيب عنه أميراً يخطب فى وفد الحجيج عند جبل الرحمة ، ودعماً للحق جعل الله الخطابة من شعائر الإسلام ، وجعل المسلمين يحتشدون كل أسبوع فى المسجد ليسمعوا داعية إلى الله يذكر به ويعلم دينه .

وجعل فى كل عيد خطبة يسمعها الرجال والنساء حين يجتمعون فى الميادين أو فى الخلاء الواسع ، أو فى المصليات المحيطة بالقرية أو المدينة ، ليسمعوا التوجيه المناسب بعد صلاة العيد .

وفى كل موسم من مواسم الحج تلتقى وفود الأمة الإسلامية المترامية الأطراف حول عرفة لتستمع إلى خطاب خطير يتناول شئونها ويشرح قضاياها .

وللأسف فأنا لا أستطيع أن أعتبر الخطابة التى يرى الآن شبحها والتى نراها ونسمعها فى مساجدنا ومصلياتنا خطابة إسلامية أو هى الخطابة فى الإسلام .

إن مهمة الداعية فى الإسلام جد خطيرة وصعبة المراس ، ونجاح الدعوة فى كثير من الاحيان يتوقف على شخصية الداعية الذى يقوم بها وهذه الوظيفة لا يصلح لها كل إنسان لانها تتطلب مواهب وصفات خاصة لاتتوفر لكل الناس

فمهنة الداعية تستلزم الاتصال بالناس ومواجهة الجماهير والتحدث إليها والتأثير فيها، فهى نوع ، من القيادة تحتاج إلى كفاءة خاصة ويجب أن يكون لدى الداعية الموهبة الفطرية والاستعداد الشخصى لمواجهة الجمهور والتحدث إليه . وأن يكون على قدر من الذكاء ، وصاحب شخصية جذابة وقدرة على التأثير فى الغير .

وليس أصعب من مهمة الداعية الذى يريد توجيه الناس إلى أمر يخالف

معتقداتهم الراسخة ، إنه محتاج إلى أكبر قدر من الذكاء والبراقة وعليه أن يبدأ في التشكيك في صحة ما يعتقدونه حتى ينتهى إلى نقضه والإقناع بغيره ، ولذلك كان لابد من شروط خاصة لنجاح الداعية الذى ينوب عن النبى ﷺ فى هذا الأمر الخطير .

صفات الخطيب الجيد

الدعاة أمناء الله تعالى على شرعه والحافظون على دينه القويم القائمون على حدود الله ، لذا كان لابد من توفر صفات معينة حتى يكون قادراً على أداء واجبه على الوجه الأكمل وأن يكون كلامه مقبولا فى السامعين وبعض هذه الصفات صفات خُلقية وبعضها صفات خِلقية ، وبعضها فطرى والبعض الآخر يكتسب ، ومن هذه الصفات على وجه الاختصار :

١) العلم بالقرآن والنظر فيه قبل كل شىء إلى كونه هدى وموعظة وعبرة وما صح من أقوال الرسول وسيرته وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح وبالقدر الكافى من الأحكام وأسرار التشريع مع الصدق فى نشرها .

٢) العمل بعلمه فلا يكذب فعله قوله ولا يخالف ظاهره باطنه بل لا يأمر بالشىء مالم يكن هو أول عامل به ولا ينهى عن الشىء ما لم يكن هو أول تارك له ليفيد وعظه ويثمر إرشاده وإلا فلو كان يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر وهو واقع فيه يكون هو نفسه عقبة فى سبيل الإصلاح وهيهات أن ينتفع به ففاقد الشىء لا يعطيه .

وقد قال الله تعالى توبيخاً لأحبار اليهود (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) .[1]

ويقول الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

---

[1] سورة البقرة آية ٤٤

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع مايقول ويشتفى بالقول منك وينفع التعليم

وقال مالك بن دينار .

إن العالم إذا لم يعمل بعلمه ذات موعظته عن القلوب كما يذل القطر عن الصفا . فإن من حث على التحلى بفضيلة وهو عاطل منها أو أمر بالتخلى عن نقيصة وهو ملوث بها لايقابل قوله إلا بالرد ولايعامل إلا بالاعراض والإهمال بل يكون موضع حيرة البسطاء ومحل سخرية فى نظر العقلاء ، فإن من تناول شيئاً وقال للناس لاتتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس منه واستهزؤا به واتهموه فى دينه وعلمه وورعه وزاد حرصهم على مانهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ما كان يستأثر به . (١)

٣ ـ الصفة الثالثة :

الحلم وسعة الصدر حتى يستطيع أن يعالج أمراض النفوس وهو هادىء النفس مطمئن القلب لايستفزه الغضب ولا يستثيره الحق فتنفر منه القلوب وتشمئز منه النفوس وقد دعا الله تعالى النبى ﷺ إلى الحلم وسعة الصدر فقال له : (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) . (٢)

٤ ـ الصفة الرابعة : الشجاعة :

حتى لايهاب أحداً فى الجهر بالحق ولاتأخذه على نصرة الحق لومة لائم ، وفى حديث عبادة بن الصامت (بايعنا رسول الله ﷺ) على أن نقول بالحق أينما كنا لانخاف فى الله لومة لائم . (٣)

---

[١] هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة للشيخ على محفوظ ص ٩٠
[٢] سورة آل عمران آية ١٥٩
[٣] صحيح البخارى الجزء الثامن ص ١٢٢

وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : (إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم ياظالم فقد تودع منهم)[1] .

وروى ابن حيان فى صحيحه عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال(أوصانى خليلى بخصال من الخير ، أوصانى أن لاأخاف فى الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق ولو كان مراً) .

والحقيقة أن الداعية لابد أن يكون شجاعا فى الحق لايهاب أحداً ولا يخشى فى الله لومة لائم ، إلا أنه فى حاجة إلى لباقة وحسن تصرف حين يحاول إظهار الحقيقة ومكافحة الباطل لا بالمداهنة والنفاق ، وإنما بالحكمة والموعظة الحسنة وخاصة إذا عرف أن المجاهرة بكشف كل الحقائق ستكون عاقبتها على نفسه وخيمة وبالتالى تخسر الدعوة واحداً من رجالها ، فى هذه الحالة يكون امتناعه عن محاربة الباطل لا بسبب خوفه على نفسه ولكن بسبب خوفه على الدعوة نفسها ، ومن أجل استمرارها ، وليس هذا من قبيل المداهنة بمعنى السكوت على المنكر لداعى الهوى ولكنه مداراة لداعى الدين نفسه خصوصاً إذا كانت النتيجة المتوقعة من إظهار المنكر ومحاربته غير مضمونة والمداراة فى هذه الحالة مطلوبة شرعا للحديث المشهور (داروا سفهاءكم) .

(اللباقة) :

والداعية يجب أن يكون ذكياً لبقاً فى دعوته ، ويمكن محاربة الظلم وعدم السكوت عليه عن طريق التلميح لا التصريح إذا كان التصريح سيوقعه تحت طائلة العقاب المانع له من الدعوة خصوصاًإذا كان فى زمن كبتت فيه الحرية واستعمل الحكام فيه القهر والشدة دون التزامهم بالقانون ، ولذلك كان الأمر الإلهى من

---

[١] رواه الحاكم . وقال صحيح الإسناد .

المولى عز وجل (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) .[1]

وهؤلاء الذين لايستطيع الداعية أن يجهر بكل الحقيقة بسببهم لاخوفا على نفسه وإنما خوفا على الدعوة نفسها كما قلنا . حيث لن تجد لها دعاة بعد تقتيلهم وتشريدهم إنما هم تماماً كالمشركين ، وقد دعا الله تعالى المسلمين إلى نصحهم وعدم مخاشنتهم فقال : (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً) .[2]

وقال أيضاً : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) .[3]

وأحب أن أوضح أنه لايجب السكوت نهائياً على الباطل وترك المنكر حتى وإن أصاب الداعي بعض الضرر فقد دعا لقمان ابنه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على مايصيبه بسبب الدعوة فقال له كما يحكي القرآن (يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور) .[4]

وقد روى سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لايحقرن أحدكم نفسه ، قالوا : يارسول الله وكيف يحقرن أحدنا نفسه ؟ قال يرى أن لله عليه مقالا ثم لايقول فيه . فيقول الله عز وجل يوم القيامة ، مامنعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول فإياى كنت أحق أن تخشى) رواه ابن ماجة ورجال ثقات ، والمراد بالخشية فيه ، مجرد رهبتهم مع القوة .

٥ ـ الصفة الخامسة :

العفة واليأس مما فى أيدى الناس فمن يئس مما فى أيدى الناس استغنى عنهم

(١) سورة النحل آية ١٢٥
(٢) سورة الاسراء آية ٥٣
(٣) سورة الانعام آية ١٠٨
(٤) سورة لقمان آية ١٧

فيبقى سيداً محبوباً جليلا يستمع إليه وينتفع به ، أما إذا كان غير عفيف وتطلع إلى مافى أيدى الناس فقد باع دينه بدنياه وصار فى نظر الناس ممقوتاً محقراً ثقيل الظل مرذولا وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أن رجلا قال يارسول الله أوصنى واوجز فقال : عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإنه الغنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاتك وأنت مودع وإياك ومايعتذر منه(١) ، وقال : الحسن البصرى رحمه الله (لايزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع فى دينارهم فإذا فعلوا ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وانفضوا : وقال أعرابى لأهل البصرة من سيدكم ؟ قالوا الحسن : قال بم سادكم ؟ قالوا : احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دينارهم ، فقال ما أحسن هذا . (٢)

والحقيقة أن الداعية يجب أن يكون كريم النفس محتفظاً بكرامته واحترام الناس له وإلا سقط من أعينهم ، وما يصنعه بعض المشايخ ممن وكل إليهم مهمة الإمامة أو الوعظ من تطفلهم ومطالبتهم باستضافتهم للطعام ، والانقياد معهم بسهولة حين يدعونهم لطعام إنما هى محطة ومذلة ومحقرة لهم ولإخوانهم ممن سلكوا طريقهم .

٦ ـ الصفة السادسة :

القناعة فى الدنيا وعدم الظهور أمام الناس بالحرص الشديد عليها والانهماك فى طلبها ، ولايعنى هذا ترك الدنيا نهائياً وعدم البحث عن رزقه ومن يعولهم وإنما يجب أن يكون ممن يقبلون عليها بغير شراهة أو نهم قد يدفعه إلى المحظور أى يجب أن تكون الدنيا فى يده لافى قلبه وقد قال بعض الحكماء (وجدت أطول الناس غما الحسود وأهنأهم عيشاً القنوع واصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط) (٣)

وعلى قدر قناعة العلماء فى الدنيا تكون مكانتهم فى نفوس الناس والتفافهم حولهم والاستماع لنصائحهم والانقياد لهم .

---

(١) رواه العسكرى والحاكم وغيرهما وصحح اسناده

(٢) هداية المرشدين الشيخ على محفوظ ص ٩٧

(٣) المرجع السابق ص ٩٨

٧ – الصفة السابعة :

أن يكون متواضعاً مجانباً الكبر أو العجب وأن لا يبخل بتعليم ما يحسن ولا يمتنع من إفادة الناس ما يعلم فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال. من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار ، ومن الصفات التى يجب أن تتوفر أيضاً فى الداعية : الوقار والرزانة والإمساك عن فضول الكلام والتحفظ من التبذل بالهزل القبيح ومخالطة أهله وحضور مجالسه وضبط لسانه .

فلا يذكر ما أفحش من الكلام ويبتعد عن المزاح السخيف خاصة فى المحافل ومجالس المحتشدين ويجب أن يقلل من الظهور فى غير حاجة . وأن يبتعد عن الجلوس ما أمكن فى مجالس اللهو أو الجلوس فى الأسواق وقوارع الطرق من غير ضرورة فإن الإكثار من ذلك مخل بكرامته ، وأعظم الناس قدراً من ظهر اسمه وخفى شخصه .

٨ — ومن آداب الداعية أيضاً التقوى والأمانة والورع باتقاء الشبهات والبعد عن مواضع الريبة ومسالك التهمة وأن يكون صبوراً كبير الهمة عالى النفس قوى الثقة فى الله موقناً من حصول الفائدة وإن طال الأمد .

شروط لابد من توفرها فى الخطيب الجيد :ـ

١ — يضاف إلى ما سبق من الصفات الخلقية للخطيب أن يكون قوى البيان فصيح اللسان وإلا كان النفع بعيداً وليست قوة البيان وفصاحة اللسان بمعنى أن يختار من الكلمات العربية أصعبها دون ما حاجة إليها فالعبرة بالبيان الإفهام والتفهيم وقد سألها موسى عليه السلام ربه حين بعثه إلى فرعون لتبيين حجته والإفصاح عن أدلته فقال : (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى)(١) وقال أيضاً : (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى)(٢) وقال : (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى)(٣) كل ذلك رغبة منه عليه السلام فى غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة .

وسنوضح ذلك أكثر فى مكان آخر من هذا الكتاب إن شاء الله .

---

(١) سرة طه آية ٢٧ - ٢٨ (٢) سورة القصص آية ٣٤

(٣) سورة الشعراء آية ١٣

٢ — والصوت في الخطابة التأثير الأكبر لأنه المترجم عن مقاصد الخطيب والكاشف عن أغراضه لصاحبته للألفاظ ، ولأنه الطريق إلى قلب السامع والممثل لصورة المعاني أمامه فيجب أن يهتم الخطيب بطبقة الصوت واللفظ وهما يتضافران مع هيئة الوجه وحركات الجسم على بيان ما في النفس وتصوير ما في الخاطر ، فيراعي من جهة الصوت حسن اللفظ واعتدال الصوت والتفنن فيه ، بمعنى أن يعطى كل حرف حقه ومخرجه من مخارجه الطبيعية مع اجتناب لهجة العامة المبتذلة ما أمكن ، إلا إذا كان ذكر لفظة أو جملة سيؤدي إلى توضيح المعنى أكثر ، ويحس أنه سيفيد في توضيح الصورة والتأثير في المستمعين وإن كان التزام العربية الفصحى في الخطابة ألذ على الإسماع وأشهى للنفوس وأقرب إلى قلب السامعين — مع مراعاة مقتضى الحال والابتعاد عن ذكر الكلمات العربية الغير مطروقة ، والتي لا يفهمها معظم السامعين ، وأن يحاول أن يعبر عما في نفسه بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس والخفاء .

٣ — الخطيب الجيد هو الذي يراعي اعتدال صوته وموافقته للأحوال والظروف فالخطبة يختلف إلقاؤها باختلاف الحضور والمكان .

فالمكان الواسع يحتاج نظراً لكثرة السامعين إلى صوت أدق وأجهر .

أما المكان الضيق والموجود به عدد قليل من المستمعين فلا حاجة فيه لارتفاع الصوت المطلوب في المكان الواسع .

وهو حين يتحدث يتفنن في هذا الصوت حيث يجعله مطابقا للمعاني التي يصورها بالألفاظ ويمثلها بالصوت . ويكيف الصوت بكيفيات خاصة

وانفعالات تتناسب مع المعنى الذى يقصده . فيعطى الاستفهام والتفخيم والتهويل والندم والتحسر وغير ذلك حقها فى النطق . وبذلك يؤثر فى نفس السامع بالرغبة أو الرهبة أو الندم أو الفزع أو الارتياح تبعا لمـــا يسير عليه المعنى الذى يتحدث فيه .

ويخفض صوته فى مواضع الخفض واللين ويشتد فى موضع الشدة ويتأفف فى موضع التأفف . ويشمخ بأنفه مظهرا للعزة وعلو النفس فى مواضـــع الفخر والحماسة . أو ذكر شرف العلم والتقوى . وأن يعيش الموضوع بكيانه وعقله ينفعل معه انفعالا كليا . يظهر أثر الانفعال (المعتدل) فى صوته واشاراته وملامح وجهه فيكون التأثير فى السامعين أقوى وأشد ، وكم من خطبة يحسن الخطيب القاءها فيجد الناس فى سماعها من الارتياح وهزة الطرب فوق ما يجدون عندما يقرؤنها فى صحيفة أو يستمعون إلى من يسردها عليهم سردا متتابعا متشابها .

والخطبة حين لا تؤدى بطريقة جيدة شأنها شأن الشجرة غير المثمرة والجسم الذى لا روح فيه .

٤ — ومن صفات الخطيب الجيد أيضا أن يكون مرنا لين العريكة يمتزج بمن يخطبهم ويقرب بينه وبينهم حتى يسيطر عليهم كربان السفينة يلين الريح ويسايرها بمركبه لئلا يتحطم دون الشاطىء .

٥ — ومن صفات الخطيب الجيد أيضا أن يكون حاضر الذهن سريع البديهة إذا احس بملل المستمعين أو بعضهم عرف كيف يغير الحديث وينتقل إلى فكرة جديدة ويخاطبهم بأسلوب شائق يدفع عنهم هذا الملل ويعيد الانتباه .

وإذا ما قوطع أو تعرض لسؤال أو معارضة عرف كيف يرد بجواب مقنع مسكت يفحم المعارض ويكسبه عطف السامعين . ويجب أن يكون ساكن الجوارح . لا يضيق صدره إذا هوجم وإذا استغضبه أحد من المستمعين ، لا

يستولى عليه الغضب فالمرء إذا لم يكن سيداً على أهواء نفسه لا يستطيع أن يتحكم فى أهواء غيره .

٦ ـــ والخطيب الجيد صادق اللهجة ينبض كلامه وأسلوبه بعاطفة صادقة تشعر السامعين بأنه يحدثهم عن اقتناع عميق بمـــا يقول . والا ففاقد الشيء لا يعطيه .

والخطيب الذى يقف أمام الناس يحدثهم بلهجة فاترة وأسلوب ينبىء عن تردده وصوته خال من الحماسة والتفنن لن يستطيع أن يقنع الناس بشيء .

هذا مع معرفته بنفسية السامعين وادراكه لاهوائهم وميولهم حتى يستطيع أن يدخل إلى قلوبهم وبذلك يستطيع أن يلعب بأوتار القلوب .

٧ ـــ ومنها أيضاً العلم بحال المخاطبين وأن يخاطبهم على قدر عقولهم : فلا يلق عليهم ما لا تقبله عقولهم ولا تسعه مداركهم لأن ذلك ينفرهم منه ويحرمهم الاستفادة ويوقعهم فى الحيرة وذلك افساد لا اصلاح .

وقـــد روى بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ (أمرنا معاشر الانبياء أن نعلم الناس على قـــدر عقولهم) وقد أثر عن عيسى عليه السلام (لا تضعوا الحكمة فى غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم وكونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء .(١)

وفى لفظ آخر من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ومن منعها أهلها فقد ظلم ، إن للحكمة حقا وإن لها أهلا فأعط كل ذى حق حقه .(٢)

هـــذا مع ضرورة إلمام الخطيب بالكثير من العلوم الانسانية كالتاريخ والجغرافيا وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاخلاق ومعـــرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها والعلم بلغات الأمم التى يراد دعوتها وحينذاك يستطيع بما

---

[١] كتاب الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٨

[٢] نفس المرجع السابق .

بما لديه من علوم أن يكيف خطبته وأن يقنع العامة والخاصة بما يريد إقناعهم به وأن يدلل على صحة ما يقول بما يراه مناسباً من هذه العلوم وألا يكون قد أغلق على نفسه باباً من أبواب الإقناع وظل حبيس موضوعات معينة يكررها فيكرر بها نفسه فيمله السامع ويهرب منه المستمعين .

هذا مع مراعاة الدخول إليهم من مداخل التشويق والإثارة وتحريك نفوسهم ومشاعرهم ووجدانهم .

وبهذه العلوم التى قلنا إن الخطيب لابد أن يلم بها يستطيع أن يملك زمام الجميع ، فمسالك القول فى الخطابة متشعبة كمسالك الكتابة، وكما يكون الكاتب ملماً بكل العلوم كذلك يكون الخطيب وإذا فلابد أن يكون واسع الاطلاع خاصة وأن الخطابة تتناول جميع الشؤون الدينية والدنيوية ، ولهذا لا يسمى من يخطب خطبة محفوظة أو يجيد الخطبة فى شىء دون غيره خطيباً ، فلو برع بعض الخطباء فى نوع من أنواع الخطابة كالسياسية والقضائية فإن هؤلاء لا يسمون خطباء على الإطلاق إلا إذا كانوا يحسنون سوى ما برعوا فيه وإن كان دونه .

٨ — ولابد أن يظهر الخطيب بمظهر لائق به وبمركزه لأن مظهر الخطيب من الأشياء التى يجب الاعتناء به خصوصاً فى هذا الزمان الذى يحترم فيه المرء بمجرد حسن هيئته .

شروط أخرى لابد من توفرها في الخطيب الديني

يتوقف نجاح الدعوة فى كثير من الأحيان على شخصية الداعية ، ولذا قلنا إن هذه الوظيفة لا يصلح لها كل إنسان ، لأنها تتطلب مواهب وصفات خاصة لا تتوفر لكل الناس ، فتوجيه الجماهير والسيطرة على أهوائها عمل عسير لا يقوى عليه كل إنسان ، ومهنة الداعية تستلزم الاتصال بالناس ومواجهة الجماهير والتحدث إليها والتأثير فيها ، فهى نوع من القيادة التى تحتاج إلى كفاءة خاصة ، ولذلك قلنا إن من أهم الشروط التى يجب توافرها لدى الخطيب الموهبة الفطرية والاستعداد الشخصى لمواجهة الجمهور والتحدث اليه مع باقى ما عرضناه من شروط أساسية وفرعية .

وبرغم تنوع وسائل التوعية واستخدام المخترعات الحديثة من إذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح وتقليل هذه المخترعات للأهمية الكبرى التى كانت تعقد على الداعية العبقرى القادر على التأثير فى الجماهير ، إلا أنه سيبقى لشخص الداعية الأهمية الأولى كلما احتاج الأمر إلى الاتصال المباشر بالجمهور .

والخطيب ليكون مقنعاً ومؤثراً لابد أن يكون لبقاً حين يعرض على الجمهور ما يريد إقناعهم به ، ومعروف بل من الأصول المقررة فى فن الدعاية أن الدعاية الناجحة هى التى لا تسفر عن وجهها ، وإنما تصل إلى الناس وتؤثر فيهم بطريق غير مباشر ، خصوصاً إذا كان الموضوع مما لم يألفه الجمهور قبل ذلك .

والانسان بطبعه يكره النصح والوعظ لأنه ينهاه عادة عن شىء يحبه ويفعله أو يدعوه إلى فعل شىء لا يفعله ولا يميل إليه ، والنصح يشعر الانسان بنقصه وامتياز الناصح الذى يحاول إرشاده وتوجيهه .

ولما كان الانسان يكره أن يعترف بنقصه ، فإنه يتولد فى نفسه حصانة خفية يقيمها عقله الباطن ضد النصح و الإرشاد ، ولهذا كان على الداعية ألا يشعر المدعوين بأنه يجلس منهم مجلس أستاذ ، ويحاول ما استطاع أن يقرب بينه وبينهم ليبدد هذه الحصانة النفسية ، ولذا كان من المستحسن أن يتجنب النصح المباشر فى جميع الأحوال .

وإذا كان يريد أن يقنع المستمعين بوجهة نظره ويبدد من نفوسهم وجهة نظر أخرى ألفوها ، كان عليه أن يستدرجهم إلى غايته بطريق غير مباشر ، وإلا اصطدمت أفكاره بجدر من الرفض وصكوا آذانهم عن الاستماع اليه بل قد يقفوا فى طريق هذه الدعوة التى يدعو لها ، وهذا النصح الذى ينصحهم به .

والمفروض فى الخطيب انه طبيب معالج ، فيجب أن يتصرف مع مرضاه بلباقة وحسن تصرف وإلا هرب المرضى من الخطيب ودوائه .

ويجب أن يتجنب الخطيب كما قلنا الاصطدام بمشاعر الجماهير ومعتقداتها الراسخة ، وإلا يكون حين يقع فى هذا الخطأ ، قد حكم على نفسه بالفشل المحقق لانه يثير ضده الجماهير التى يريد إقناعها .

كيف يعالج الخطيب مشاكل مجتمعه :

لقد عالج ابراهيم عليه السلام هذه القضية علاجاً رائعاً حين وقف ابراهيم عليه السلام بين قومه موقف الناصح لهم الراغب فى هدايتهم .

كان قومه فريقين ، فريق منهم كان يعبد الأوثان من دون الله والفريق الآخر كان يعبد الكواكب ، وهؤلاء وأولئك لهم وجهة نظر فى هذه العبادة .

فعبادة الأوثان صنعوها من المواد التى اشتهرت بها الكواكب لتقربهم

هذه الأوثان إلى الكواكب ، كى تقربهم الكواكب من الروحانيات التى تسكنها لتقربهم هذه الروحانيات إلى الله تبارك وتعالى .

أما عبدة الهياكل (الكواكب) فقــد تقربوا إليها أيضاً لتقربهم إلى الروحانيات حتى تقربهم هذه الروحانيات إلى الله وقالوا « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .[1]

وقد كانوا جميعاً يتقربون إلى الكواكب حتى وجد بعضهم أنه من الأجدر بهم أن تكون آلهتهم قريبة منهم فصنعوا هذه الأوثان وتقربوا إليها لأن الكواكب بعيدة عنهم وتظهر وتختفى .

وكان على ابراهيم عليه السلام أن يقنع هؤلاء وهؤلاء بخطأ هـذه العبادة فماذا صنع ؟ .

اتجه إلى عبدة الأصنام محاولا إقناعهم بخطأ هذه العبادات : مستدلا على صحة ما يقول بالأدلة العقلية المقنعة ، ولما لم تجد هذه النصائح ولم تغير فيهم هذه الإرشادات ، اتجه إلى الأصنام نفسها فكسرها ، ليحاول أن يثبت لهم عملياً أن هذه الأصنام ما هى إلا مواد صماء لا تنفع ولا تضر .

ثم ما لبث ابراهيم أن اتجه إلى عبدة الكواكب محاولا إقناعهم أيضاً بترك هذه المعبودات وأن يثبت لهم بالدليل خطأ هذه العبادة من غير أن يصدمهم أولا فيما اعتقدوه حتى لا يثيرهم ضده ، بادىء ذى بدء ، وحتى يشككهم فى صحة ما يعتقدونه لينتهى الى نقضه وإقناعهم بوجهة نظره ، فاذا به يجاريهم لا إيماناً منه بما يعتقدونه ولكن ليشكك كما قلنا فى صحة هذا الاعتقاد ، وكما يحكى القرآن :

(فلما رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) .[2]

---

[1] سورة الزمر آية ٣ [2] سورة الانعام آية ٧٧ - ٧٩

وهكذا استدرجهم ابراهيم عليه السلام وبدأ فى تشكيكهم فيما يعتقدونه حتى يمكنه بعد ذلك إقناعهم بغيره .

والدعاة يقابلون فى حياتهم مصاعب ومتاعب حين يخلصون لدعوتهم ، إنهم كما قلنا إما ناهين عن عادة درج الناس عليها وألفوها وأحبوها ، أو داعين إلى فعل شىء لايفعلونه ولا يميلون إليه ، وقد يجر الداعى إخلاصه للدعوة إلى الإهانة من بعض المستمعين ممن يخالفون مايدعو إليه ويريدون الاستمرار على ماهم فيه ، بل قد يتعرض للسجن أحيانا حين يجهر بكلمة تغضب حاكم ظالم .

خصوصاً وأن بعض الدعاة لايحبون التورية ولايرضون بغير الجهر بكلمة الحق بديلا ، ويندفعون حين يعظون من غير أن يفكروا فى العواقب .

ولقد دل الواقع العملى على أنه غالباً مايتعرض دعاة الحق إلى الإيذاء وليس عجيباً أن ينصح لقمان الحكيم ابنه بالصبر على مايصيبه من أذى من جراء أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، ولقد حكى القرآن ذلك حين قال :

(يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .(١)

وإن كان من الأصوب ، من أجل الدعوة والداعية على السواء أن يكتفى بالتلميح بدلا من التصريح خصوصاً حين يؤدى التصريح إلى حرمان الداعى من الكلام أو إيذائه إيذاء قد يودى بحياته عند التأكد من ذلك خاصة فى وقت غياب القانون فى عصور كبت الحريات وذلك حتى يعود القانون ويصبح لكلمة الحق صداها وتأثيرها فى من توجه إليهم .

---

(١) سورة لقمان آية ١٧

مراعاة عدم مصادمة الجماهير فى معتقداتهم : (١)

حدث حادث طريف فى الثلاثينات فى قرية من قرى المنوفية وقت أن كان الجهل يخيم على كثير من المجتمعات الإسلامية .

فقد كان فى القرية قبر متواضع لرجل يرون أنه ولى من أولياء الله الصالحين يكاد يكون مجهول الاسم والأصل ، لايزوره أحد ، ولايقام له مولد كل عام كعادة أهل هـــذه البلاد ، وكل مظاهر ولاية الشيخ المجهول قبة صغيرة تعلو الضريح الذى يقبع عند طرف المزارع بمدخل القرية ، وعاد إلى القرية ذات يوم شاب من أبنائها كان قد ذهب إلى العاصمة لتلقى العلم بهـــا فلم يفلح وترك الدراسة بعد أعوام قليله يحاول كسب رزقه فى العاصمة من أعمال مختلفة لايعلم بها أحد على وجه التحقيق .

فلما عاد إلى قريته كان يعتبر بمـا حصل من علم قليل ، عالمـا فذا بين أهلها البسطاء الطيبين ، ولم يضيع صاحبنا وقتاً طويلا فى استغلال سذاجة أهل القرية، وتفتق ذهنه عن خطة شيطانية قام بتنفيذها على الفور .

لقد وجد القرية بغير ولى من أولياء الله ، يقام له مولد كل عام ويزوره الناس للتبرك ويسألونه الشفاعة وقضاء المصالح ويقدمون بين يديه النذور .

ورأى أهل القرية يقصدون بعض البلاد المحيطة بقريتهم لزيارة الأولياء ولكل بلد ولى تعرف به وتفاخر غيرها من البلدان ، وفوجىء أهل القرية ذات يوم بعد صلاة الجمعة بصاحبنا يعتلى منبر الجامع ، ويخطب فيهم بصوت مؤثر ويزف إليهم بشرى عظيمة ، لقد زعم أن ولى الله الشيخ (فلان) صاحب الضريح القائم عند طرف مساكن القرية جاءه أثناء نومه وأخبره أنه عاتب على أهل القرية لأنهم يجهلون قدره ولاينتفعون ببركته ولايحتفلون بمولده وأنه قد اختاره ليبلغ إلى الناس رسالته وليكون خادمه ، وقدم إليه منديلا كبيراً

---

[١] نقلت هذه القصة من كتاب التوعية الاجتماعية بقلم أنور أحمد ص ٣٧ (مطبوعات وزارة الشئون الاجتماعية) .

أخضر ليجعله شالا يلف به عمامته وقال صاحبنا أنه ظن أن الأمر ليس سوى حلم ولكن قام من نومه فوجد إلى جواره الشال الأخضر وأخرج الشال ولوح به للناس ثم لفه حول رأسه وهو يقول أنه يشهدهم على أنه منذ اليوم خادم ولى الله ، يصلح ضريحه ويعده للزائرين ويقيم مولده وينفذ مشيئته ، وأقبل أهل القرية على صاحبنا يهنئون ويبايعون ويقبلون المنديل الأخضر المعطر في خشوع ورهبة ، وشرعوا يصلحون الضريح وأقاموا إلى جواره زاوية ليقيم فيها الخادم ويستقبل الناس ، وبدأت كرامات ولى الله تظهر للناس بتدبير الخادم الذكى الذى وضع صندوقا للنذور ، وانهالت عليه التبرعات والهدايا والألطاف .

وتحول الخادم إلى دجال كبير يكتب الأحجبة والتعاويذ ويبيعها للناس وأقبل عليه طلاب الشفاء بدلا من الذهاب إلى الطبيب .

وكان طبيب المركز من أهل القرية المجاورة وسمع بما يجرى فضايقه الامر وجاء فى زيارة إلى القرية ، وقابل خادم الولى المزعوم ، وحذره من الاسترسال فى أعماله وهدده بسوء المصير إذا اقحم نفسه أو وليه فى شئون الطب والعلاج ، وثارت بينهما مناقشة عاصفة . فأخبره الطبيب بأنه سيصلى الجمعة فى مسجد القرية ثم يتحدث إلى الناس ويفضح لهم عن دجله وألاعيبه .

وفى صبيحة يوم الجمعة شاهد أهل القرية خادم الضريح وقد جلس على قارعة الطريق عارى الرأس ، وهو يبكى ويحثو على رأسه التراب ، ويرفع صوته بالدعاء والتوسل والابتهال ، وسألوه عن الخبر ، فقال سوف يرحل الشيخ عن القرية كلها لانها تسمح لرجل غريب زنديق أن يتعدى على كرامته ويهينه فى بيت الله ، ومضى الخادم الذكى يقول إنه بكى وتوسل إلى الشيخ ألا يهجر القرية وأهلها ويؤكد له أنهم لا يمكن أن يسمحوا بشىء من ذلك .

وجاء الطبيب يصلى الجمعة ، فلما انقضت الصلاة وقف يريد أن يخطب فى

الناس وهو يظن أن الأمر لايحتاج إلى شيء من الفصاحة والمنطق ، فلا يلبث أن يقنع الناس ، ولكنه لم يكد يبدأ حديثه مهاجماً خادم الضريح ، قائلا : إن ولى الله نفسه لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً ، وأن المسألة كلها عملية نصب واحتيال حتى أطبق عليه الناس وانهالوا عليه ضرباً بالأحذية والمراكيب وكادوا يفتكون به وهم يصيحون به فى ذعر : (العفو والسماح ياولى الله) .

وأدركه العمدة والخفراء فخلصوه من أيديهم وأخرجوه من القرية .

أن الطبيب الطيب القلب لم يدرك أنه لا يكفى أن يكون الحق فى جانبه وأنه لاينبغى لمن يريد أن يخاطب الجماهير ويؤثر فيها أن يصدم شعورها أو يهاجم مقدساتها .

مراعاة الاعتبارات العملية فى موضوع الخطبة :

ومن الامور الضرورية للخطيب أن يراعى فى موضوعه الاعتبارات العملية فهو حين يدعو الناس للتخلى عن أمر مرذول مدللا على صحة مايقول باعتبارات [illegible] صحية أو اجتماعية أو دينية ، لا يكتفى أن يدعو إلى التخلى عن هذا الأمر المرذول بل يجب عليه أن يكون مستعداً لتقديم الحل البديل عن الأمر الذى يدعوهم للتخلى عنه .

انفرض مثلا أنه يتحدث عن انحرافات الشباب ، فلا يكفى أن يجعل كل خطبته ذكراً لصور من هذا الانحراف ، وأسباب هذا الانحراف دون أن يعطى المستمعين ويقدر كاف حلا أو حلولا لهذه المشكلة ، وإلا فلن تجد لخطبته أى أثر أى تأثير فى الناس ويكون هذا الذى به نحو أمراً يدعو إلى السخرية والضحك فالمفروض فيه أنه يدعو إلى الإصلاح العام ، ويعالج مشاكل المجتمع ، فيقدم العلاج للمريض ، والمريض ليس فى حاجة لأن يقال له أنت مريض وإلا فسيقال (ومافائدة الدين إذا لم يعالج مشاكل الحياة) ؟ .

وإذا كان الخطيب يعظ الناس ويدعوهم مثلا إلى الإسلام . فإن عليه أن يتخير من مبادىء الإسلام مايكون أحب لقلوب المستمعين . وأن يعتصم بالمنطق والدليل على صحة ما يقول مع ابتعـــاده عن الشروح الفلسفية وعن مواضع الخلاف . ويجعل أكثر استدلالاته بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

وإذا كان موضـــوع العظة أو الخطبة فى الاصلاح العام للمجتمع فإن على الخطيب أو الداعية أن يتخير عيبا واحدا ويجعله موضوع خطبته ويجمع حوله الأدلة المفيدة ، فلا يتحدث فى أكثر من موضوع حتى لا يشتت أفكار المستمعين مع ضرورة ملاحظة محتويات الخطبة وأقسامها ليوفى كل قسم حقه .

التكرار والالحاح على الفكرة :

المفروض أن علاج المشاكل الذى هو وظيفة الداعية الخطيب ليس بالأمر الهين السهل ، ولن تحل المشاكل بمجرد سماع خطبة أو خطبتين ، بل إن بعض المشاكل تظل موجودة برغم المحاولات المتكررة لمعالجتها ، وبعضها الآخر يطول علاجه ، لذلك كان من الضرورى على هذا المعالج أن يحاول التكرار والالحاح على الفكرة التى يدعو لها أو يعالجها ، فهى فى حاجة إلى دعاية ، والدعاية فن وفى حاجة أيضاً إلى تكرار ، ولذلك كان هتلر يقول : —

(إن فن الدعاية هو التأثير فى خيال كتلة الجماهير التى تسيطر عليها الغريزة ، حيث تجـــد — بعد أن تتخذ شكلا سيكولوجيا ملائما — الطريق إلى قلبها ثم يقول : إن الدعاية تستطيع فقط أن تؤثر فى النفوس عن طريق التتابع والاستمرار والتنظيم ، يجب علينا أن نعيد ونكرر نفس الشىء من زوايا مختلفة[1]) .

وهذا القول ينطبق على كل أنواع الدعاية بما فى ذلك الخطبة الدينية التى هى من الناحية العملية (دعاية فى الميدان الاجتماعى) .

---

[١] الرأى العام والدعاية للدكتور حسنين عبد القادر ص ٤٠

وإذا كنا نريد اقناع الناس بفكرة معينة، ونحاول حملهم على سلوك معين فلا يخطر ببالنا أن ذلك يمكن أن يتحقق بخطبة أو مقال أو نشرة مكتوبة ، إن الأمر يحتاج إلى التكرار والاعادة والحاح على الفكرة حتى يقتنع بها الناس .

إن هـــذا التكرار يساعد على استمرار التأثير المطلوب وتعميقه ، ويمنع الاستجابة للتأثيرات المضادة ، على أنه يجب التنويع فى الأسلوب والوسيلة عند التكرار والإعادة حتى لا يمل المستمع .

أما من ناحية الأسلوب فيجب أن يتناول الموضوع كل مرة من زاوية مختلفة ويعالجه بطريقة تخالف المرات السابقة ، ويمكن تقسيم نقط الموضوع وتوزيعها على مرات التوعية بحيث تغطى الموضوع فى النهاية من جميع النواحى دون أن تكرر التوعية نفسها وإن كان هدفها واحد فى النهاية .

(ويقول كيرت لندن) أن سر الدعاية الفعالة يكمن — لا فى إذاعـــة بيانات تتناول آلاف الأشياء ، ولكن فى التركيز على بضعة حقائق فقط وتوجيه آذان الناس وأبصارهم إليها مراراً وتكراراً(١) .

وقـد يعتمد السياسيون فى الدعاية على أسلوب الاثارة العاطفية لكن الذى يجب أن يعتمد عليه الداعية المسلم فى دعوته (دعايته) هو أسلوب عرض الحقائق الذى يطلق عليه عادة كدعاية لفظ الإعلام ، وهذا الأسلوب يعتمد أساسا على وصول الحقائق إلى أكبر عدد ممكن من الناس ومحاولة إيصاله فى النهاية إلى كل الناس باعتبارة دعوة الخير التى فرض الله تبارك وتعالى الدعوة لهـا على القادرين عليها وفرض استماعها والعمل بما تأمر به على بقية الناس .

أما أسلوب الإثارة العاطفية الذى يعتمد عليه السياسيون غالبا فى دعايتهم فلا ينبنى على المناقشة والاقناع بل ينبنى غالبا على احتقار دفين للجماهير واعتبارهم

---

[١] نفس المرجع السابق

رعايا للدولة عليهم أن يسمعوا ويطيعوا لا كمواطنين يشاركون في حكم البلاد ومن حقهم أن تصلهم الحقائق وأن يناقشوها قبل الوصول إلى رأى نهائي فيها .

وقد كان هتلر يعتقد أن الجماهير فيها الكثير من خصائص النساء ، وأن استجابة الجماهير تكون استجابة عاطفية أكثر مما هي عقلية ، ولذلك فقد كان يدعو إلى أن تتجه الدعاية إلى العواطف وخاصة عاطفة الحقد ، وأيسر السبل إلى إثارة الحقد التشهير وإكالة التهم فيجب تشويه سمعة الناس وتزييف الحقائق .

وكان هتلر يرى أنه لا صلة تربط الدعاية بالحقائق ، فالداعية حر في أن يكذب طالما أوصله ذلك إلى تحقيق غرضه ، أما الدعاية فيجب أن تبنى على البساطة وأن تنزل إلى أدنى المستويات العقلية للجماهير[١] .

ومن هنا قلنا أن هناك فرقا كبيراً بين أسلوب السياسيين وأسلوب الدعاة المسلمين .

ولذلك قسم اهل الفن (فن الخطابة) الخطابة إلى أقسام ، منها الخطابة الوعظية الدينية والخطابة السياسية ، والخطابة القضائية ، والخطابة العسكرية والخطابة المحفلية وغير ذلك من الأنواع .

وقد اقتصرنا في هذا الكتاب على الخطابة الدينية باعتبارها أهم أنواع الخطابة بالنسبة للمسلمين وباعتبار أن الأنواع الأخرى للخطابة تدخل تحتها بالنسبة لدولة الإسلام . التي يرى اتباعها أن الإسلام هو الحياة بكل دقائقها وتفاصيلها) .

هل من الضروري أن تقتصر خطبة الجمعة على الأمور الدينية البحتة وحدها؟

لا يفوتنا أن نذكر أن هذا لا يعني أن الخطيب الديني يجب أن تنحصر موضوعات خطبة في الموضوعات الدينية الصرفة ، بل على العكس فالمجتمع كله

---

[١] المرجع السابق ص ٤٢

موضوع خطبته ، ولافرق بين الدين والدنيا فى الإسلام ، بل هما جزأين لشىء واحد اسمه الإسلام .

ولذلك قلنا أن الخطيب يجب أن يتزود بجميع أنواع الثقافات فيجب أن يكون عارفا بالسياسة وبالقانون والتاريخ والاجتماع وعلم النفس بل والجغرافيا والفلك والكيمياء والطبيعة والطب وغير ذلك من العلوم الإنسانية ، لا بمعنى أن يكون متخصصاً فيها جميعها ولكن بمعنى أن يكون عارفا بمضمونها أو بشىء منها ليستعين به فى خطبه ، وليرضى جميع الأذواق وتكون حجته أقوى ودليله أوقع .

ولنضرب لذلك مثلا :

هب أنك قمت خطيباً فى يوم جمعة وكان موضوع الخطبة (الوقاية من الأمراض) فماذا تصنع وماذا تقول ؟

المفروض أن الخطوة التالية بعد تحديد الموضوع هو الوصول إلى المرحلة الثانية فى إعداد الخطبة وهى مايسمونها (التركيب) والتى سماها (ابن سينا) بـ (العمود) لأنها الأساس المكين فى الخطبة وهى المرحلة الوسطى بين مرحلة الخلق ومرحلة التعبير وعليها المعول الأكبر فى الترتيب والتنسيق .

وفى هذه المرحلة يختار الخطيب عناصر الخطبة ويجمعها ويميز كل عنصر على حدة ويجعل هذه العناصر تدور كلها حول موضوع واحد ويحاول أن يجمع الأدلة المناسبة لكل عنصر ، ثم يبدأ إلقاء خطبته بعد اختيار الأدلة وتحديد مصادرها حتى يكون لكلامه أثر فى النفوس ولخطبته القدرة على الإقناع .

وقد قلنا أن علاج أى مشكلة يحتاج إلى تكرار وملاحقة ، والمفروض أن هذا الموضوع وغيره من الموضوعات العامة قد طرق أكثر من مرة فلو ركز الخطيب على نفس الأدلة التى ذكرها قبل ذلك وذكرها غيره لسبب ذلك مللا

عند المستمعين كما قلنا ، ولذلك كانت معرفة الخطيب لكثير من العلوم الإنسانية دافعاً له على اختيار أدلة قوية جديدة تقوى فكرته وتؤيد أدلته التقليدية وتعطيه فى كثير من الأحيان القدوة على استخراج بعض نفائس مافى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الذين تعتمد عليهما خطبة الجمعة اعتماداً كبيراً .

لنفرض أن هذه الآية الكريمة كانت من بين أدلة الخطيب التى أراد الاستدلال بها على دعوة الإسلام للوقاية من الأمراض (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولاتقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) فإذا ماشرح الخطيب أن رأى الطب الحديث أن فرج المرأة فى حالة الحيض يكون رطباً وأنه يفرز إفرازات مضرة بالرجل إذا ماجامعها فى هذه الحالة وأن جماع الحائض يسبب أمراضاً تناسلية من بينها الزهرى والسيلان . لو حاول الخطيب ذلك واستطاع أن يشرح وجهة نظر الدين بأسلوب طبى مبسط لاستحوذ على إعجاب الناس أولا وأقنعهم بهذا الدليل القرآنى إقناعا لايشوبه شك ولاثبت لهم أن هذا القرآن ماجاء من عند بشر وإنما من عند خالق القوى والقدر .

ولو كان من بين أدلة الموضوع مثلا حديث كحديث رسول الله ﷺ الذى يقول : (اتقوا الملاعن الثلاث) :

أو حديث الرسول ﷺ .

(إذا ظهر الطاعون بأرض فلا تدخلوها ... إلخ) .

وحاول أن يدلل برأى الطب مثلا فى الحديث الأول فيما يؤدى إليه التبول أو التبرز فى الطرقات العامة أو فى الماء الراكد أو الجارى ، ومايؤدى إليه ذلك من انتشار أمراض الانكلستوما والبلهارسيا وهو مايعانى منه بعض

المجتمعات أو حين يدلل بالحديث الأخير على أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا إلى الحجر الصحى قبل أن يدعو إليـــه الغرب بأربعة عشر قرنا من الزمان .

ألا تكون هذه الأدلة وهذا التطوير فى الخطبة من مبررات الاستماع إليها الذى قد يؤدى للاقتناع بها ويكون ذلك أيضاً من مبررات احترام الخطيب والاقبال على سماع خطبه ومواعظه ؟

كيف ينجح الخطيب الدينى فى اقناع الجمهور

١ ـ لابد من توفر بعض الأمور حتى تؤدى الخطبة دورها كما ينبغى ومن هـذه الأمور :

أولا : الا تكون الخطبة طويلة مملة لارتباط المستمعين لها بحالة الطهارة مع التزامهم الصمت والجلوس أو القيام فى مكان محدود مزدحم وقد يكون معهم النساء والاطفال والضعفاء وقد يكون الوقت شديد الحرارة أو شديد البرودة فيتأذى المصلون؛ وهذا بالنسبة لخطبة الجمعة أو العيدين على وجه الخصوص .

ثانيا : الا يتعمد الخطيب تجريح الاشخاص أو الجماعات أو المبالغة فى الثناء عليهم فلم تشرع خطبة الجمعة للسب والشتم وإنمـا شرعت لتذكير الناس بشئون الآخرة على سبيل الاجمال وتعليم أمور دينهم بمـا يصلح دنياهم دون الدخول فى تفاصيل ووقائع محددة معينة إن كان ثمة ما يدعو لاصلاح عيب أو تغيير منكر .

ثالثا : على الخطيب أن يراعى حسن الاختيار فى مادته بأن يختار الموضوع المناسب والأسلوب المناسب للمستمعين وأن يراعى فى اختياره الموضوعات التى تضيف جديداً إلى ثقافة المستمعين مثل الكلام والصمت والمشورة وكتمان السر ، والصبر ، والجزع ، والمروءة ، آداب المعاشرة ، مظاهر الإحسان ، التعاون ، والمواساة بين الناس ، إلى غير ذلك من الموضوعات الاجتماعية التى يحتاج إليها المسلمون .

رابعا : اختيار اللفظ والعبارة :

فالمعروف أن مستمعى الخطبة ليسوا على مستوى واحد من الثقافة ولذا فلابد أن يراعى الخطيب أن تكون الالفاظ التى يعبر بها عن موضوعه من الالفاظ السهلة المألوفة والتى يمكن الناس استيعابها وفهم مقاصدها ، وليس من الضرورى

أن يأتى بالألفاظ الوحشية الغريبة فلا داعى مثلا لأن يقول (اشرأبت) وإنما يمكنه أن يقول (تطاولت) ولا داعى لأن يقول مثلا (يجشمها) وإنما يمكن أن يقول (يكلفها) ولا (تفاقت) ويقول (اشتدت) فهذا تكلف غير مرغوب فيه وصدق الله حين يقول لنبيه ﷺ :

قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين(١) .

وبالنسبة لخطب العبادات يجب أن يعتمد الخطيب على المقاطع الواضحة القصيرة وليس السجع المتكلف ولابد أن يعرف الخطيب أن بعض السامعين سيحرف الكلام عن مواضعه بحسن نية أو بسوء نية فلا داعى لإيراده كلاما يحتمل سوء التأويل .

ومن الخطأ أن يصطدم الخطيب بالأمور المسلم بصحتها لدى الجماهير — دون مقدمات مقنعة كما أنه من الخطأ التورط فى المسائل الخلافية التى تحزب الناس وتشتت الانتباه .

وإذا أثير الخلاف من غير الخطيب فعليه أن يعالجه بأيسر سبيل ، وعليه أن يعرف أنه مطالب بإزالة الفرقة ودواعيها ليؤلف بين الناس لأن تجميع الجمهور هو فى حد ذاته هدف من أهداف الدعوة التى يقوم بتبليغها للناس ولا داعى لكثرة إيراد التعبيرات المألوفة بل يحسن أن يبتكر ويجدد وبالعلم بالتعلم.

ويجمل بالخطيب أن يتعلم ما يقال فى المناسبات كالتعزية والتهنئة والزواج وعيادة المريض وغير ذلك ، ولابد أن يحفظ بعضا من القطع الأدبية ومختارات من أشعار العرب بالإضافة إلى القرآن الكريم والحديث الشريف الذى يجب أن يكون حافظا لكثير من آيات القرآن ونصوص الحديث وذلك للاستشهاد بها والاقتباس منها عند الحاجة .

---

[١] سورة ص آية ٨٦

خامسا : على الخطيب أن يتحرى الوقت الملائم لموضوعه والزمن المناسب الذى لا يشق على السامعين أن يحضروا فيه ، فليس جميلا أن يشرع الخطيب فى حديثه عقب حديث طويل لخطيب آخر فى سرادق أقيم مثلا لأخذ العزاء ، ولا أن يشرع فى حديثه عقب خطبة طويلة من خطب الجمعة حيث يتهيأ الجميع للانصراف إلا إذا كانت عادة مألوفة فى بعض المساجد تعود الناس عليها ، وعلى ألا يطيل الخطيب أكثر من اللازم ولا يصح أن يفعل ذلك فى أوقات الحر الشديد والبرد الشديد ، وكذلك عندما توجد مناسبة عاجلة كتجهيز ميت أو حلول موعد إلقاء بيان هام من قبل الحاكم وينتظره الجميع ، أو اللحاق بقطار ونحو ذلك .

هـذا بالإضافة إلى ضرورة تخير المكان المناسب ، وليست كل الأماكن تصلح لإقامة حفل ما ، فلا يصلح مكان وسط مصانع ذات ضجيج ، أو حين يتأكد الأذى للجيران وكذا إقامة الحفل بجوار مستشفى أو دور اللهو أو فى دور أحد الزعماء المتنافسين على الآخر ، أو الأماكن النائية عن العمران .

سادسا : على الخطيب أن يراعى عدم الاطالة أكثر مما ينبغى وهى للأسف آفة الخطباء المحدثين وهى تضر غالبا أكثر مما تنفع ، ولهذا وجب على الداعى أن يحذر الإطالة التى تنشأ غالبا من أعجاب المرء بنفسه ، وتصوره أن علمه جديد على الناس إذا لاحظ بعضهم استحسانا من الناس وثناء . وهذا ولا شك غرور يجب ألا يقع فيه الخطيب وقد تكون الاطالة حبا فى الشهرة والمديح والانشغال بالنفس وهو من الرياء الذى يجب على الداعين أن يخافوا على أنفسهم منه لأنه شرك خفى والعياذ بالله .

وقد تكون الإطالة بسبب الغفلة والنسيان وعدم تقدير مصلحة الآخرين وربما يكون التطويل مقصودا من بعض الخطباء لما يظنونه من تحقيق المنفعة أو لأن الموضوع فى ذاته طويل ومتشعب ، ولابد لنا أن نعرف ونعلم أن الشعوب العربية والإسلامية قد طالت محنتها وكثر عليها الكلام الذى لم تجن منه إلا القليل

لهذا قد أصبح الناس يزهدون فى كثير الكلام وقليله على السواء، وخير للمرء أن يعرف أشياء قليلة معرفة تامة على أن يعرف أشياء كثيرة معرفة عامة .

ولابد للخطيب أن يعرف أن الطاقة الذهنية محدودة ولا يمكن السامع فى العادة أن يتابع بانتباه لاكثر من ربع ساعة وبعدها يصيبه الاعياء أو الشرود ويتمنى أن يستريح حتى يجد مشوقاً آخر . ولابد أن يعرف الخطيب أن الكلام فى المجال الدينى معروف للمسلمين خاصة فى كل موضوع دينى جاءت آيات وأحاديث معينة ، والمستمع الذى عاش ثلاثين عاما لابد أنه سمع هذه النصوص عشر مرات على الأقل ولذا قلنا قبل ذلك أنه لابد للخطيب أن يجدد ويتجدد وإن لم يستطع فعليه أن يجتهد ويختصر .

وبعض الخطباء يحاول أن يبرر حرصه على الاطالة بقوله (أخشى أن أطيل عليكم) كأنما يطلب تجديد الثقة وهذا غير مستحسن وبعضهم يخشى أن يتهم بالتطويل فيترك الموقف مبتوراً لايسده غيره وهذا أيضاً غير حسن ولذا فإن على الخطيب أن يحدد الوقت والموضوع من قبل وأن يحترم ذلك بدقة .

سابعا : لا ينبغى أن يبدأ الخطيب حديثه بالاصطدام بالآراء والمعتقدات المستقرة عند الناس . ويمكن أن يساق القول حكاية عن الآخرين ، ويلاحظ فى بعض البلاد وجـــود طوائف متنافرة من الأسر والجماعات فعلى الخطيب أن يعرف أن الانحياز لاحدهما يكفى لاستثارة حقائد الآخرين ولابد أن يعرف أن الجدال والمراء لايأتى بخير — فإذا استدرج إلى شىء من ذلك فلينتبه لما يراد به وذلك كالمفاضلة بين حزبين أو جماعتين وعلى أن يختار الموضوعات التى تبعده عن مثل هذه الأمور الجدلية .

وعلى الخطيب أن يراعى عدم احراج الاشخاص أو الجماعات وأن يتفادى ذلك فليس له مثلا : أن يورط السامعين فى عمل شىء ما أو دفع شىء ما قبل أن يتأكد من إمكانية التنفيذ ولا يكلف أحدا بعمل أو تضحية دون اتفاق سابق

معه حتى يكون مستعداً لما يراد منه أو مصدقا لما قيل عنه فليس له مثلا : أن يعلن على الناس أن فلانا سيتبرع بأرض لعمل مشروع معين أو سيدفع مبلغا معينا لهذا المشروع دون أن يأخذ رأيه أو يتفق معه عليه ، وكثيراً ما يحدث ذلك ويضع الخطيب نفسه بعد ذلك فى موضع حرج حين يكذب أمام الجمهور .

وإذا كان على الخطيب أن يتفادى الاحراج كما قلنا فعليه أيضاً أن يكون لبقاً حسن التخلص من المواقف المحرجة وما أكثر ما يتعرض الدعاة والخطباء لمواقف محرجة تستدعى سرعة البديهة وحسن التخلص والتصرف .

وقد يعد بعض السامعين أسئلة دقيقة يتعمد القاءها عليه ليختبر بها اتجاهه أو ميوله الخاصة ، أو يلقى عليه بعض الاستفسارات التى ليست من اختصاص الخطيب أو يسأله عن أشياء خارجة عن نطاق الموضوع الذى يتحدث فيه ولذا كان على الخطيب أن يتعلم كيف يخرج من هذه المآزق من غير مأخذ عليه فلا ينقطع ولا يبطىء الجواب .

ذكر أن زعيماً أشتهر بالقدرة الخطابية فاجأه ذات مرة أحد السامعين أثناء المحاضرة بقوله « هــذا غير صحيح » وكان الخطيب ذكياً ففطن إلى ما يريده المعترض فاكتفى لقوله « هذا رأيك » واستمر دون أن ينقطع .

ويحكى أن طالباً كان يؤدى اختبارا فى دروس التربية العملية تحت إشراف أحد الأساتذة فوقف أحد التلاميذ ووجه إليه سؤالا كان لايعرف الإجابة عليه إلا أن الطالب المدرس، كان سريع البديهة وقال للتلميذ «ذكرنى فى آخر الدرس» وبمجرد أن دق الناقوس خرج التلاميذ يهرعون إلى فناء المدرسة ونسى التلميذ سؤاله فكتب المشرف الملاحظة الآتية « الطالب ذكى حسن التخلص »[1] .

ثامنا : على الخطيب أن يتدرج فى كلامه من المعلوم إلى المجهول ، وهو من

---

[1] راجع كتاب كيف ندعو الناس للاستاذ عبد البديع صقر ص ٤٦ بتصرف

طرق الاقناع فعليه أن يتدرج بالسامع من الحقائق المقررة إلى مايراد تثبيته فى الإذهان كأن يقول مثلا « إن الله اعطانا العقل وميزنا به على سائر المخلوقات فنحن نتحمل من المسئولية بقدر هذه النعمة وعلينا لأجل ذلك ضريبة لازمة هى معرفة الحق والدعوة إليه . . الخ » وعليه أيضاً أن يراعى الالتفات للدقائق التى قد لا يهتم بها كثير من الخطباء ويؤدى عدم اهتمامهم بها إلى مشاكل وتوريطات .

فلا يصح مثلا أن تكون له عادة أو لازمة من قول أو حركة غير طبيعية .

ولا يصح أن يشير إلى جماعة من الحاضرين وهو يتحدث عن أهل الكفر والنفاق — أو يضرب المثل المنكر بواحد من الحاضرين .

ولابد أن يراعى عدم المبالغة فى نقده العادات الاجتماعية المستقرة عند بعض الناس بما يسىء إلى مشاعرهم أو يكون فى لباسه أو مظهره أو رائحته ما يخالف المألوف أو أن يتجاهل زملاءه الخطباء أو يسفه أقوالهم بما يشعر أنه يستعلى عليهم .

هذا مع ضرورة أن يكون الموضوع واضحا فى ذهنه ولا يمنع من أن يحتاط بتدوين رؤوس المسائل فى وريقة صغيرة يرجع إليها بلمحة سريعة حتى لايرتج عليه فى الخطابة ثم يعود يبحث ويخلط أو يستطرد أو يبحث عن المعانى فلا يجدها على أنه إذا فرغت ذاكرة الخطيب من المعانى المرتبة فعليه أن ينهى الحديث دون إبطاء .

ويلاحظ الخطيب ضرورة اتزان النبرات ولا يصح أن تحمله الرغبة فى الإسراع على شحن العقول بالافكار المهوشة المكدسة — كما لا يصح أن يتكلف الهدوء والاناة فيمطط الكلام مما يدفع على تبليد الاذهان وأثارة الاستياء العام وقد قيل : الإسراع يرهق الأذهان فتكل والبطء الشديد يعزل الخطيب عن الجمهور كما لا يصح أن يتكلم فترة بصوت معتدل ثم يخرج صوته تدريجيا ثم يرتفع فجأة

ثم يرجع فيكرر نفس الطريقة — وبعض الخطباء يبدأ هادئا ثم تأخذه الحماسة فلا يتوقف إلا وقد تهدج صوته وتعبت حنجرته وينتهى وقد تصبب عرقه ولا يزال هذا دأبه دائما . ولذا فإن عليه أن يحاول ادراك الوسط وهذا لا يأتى إلا بعد المران على أن يصطفى بعضاً من زملائه يذكرون له ملاحظاتهم باخلاص حتى يصل بعد ذلك إلى حد الاعتدال .(١)

تاسعاً: من الأمور المستحبة تشويق المستمعين وبراعة استهلال الخطيب لخطبته ويأتى ذلك بالتمهيد للموضوع بمقدمة مناسبة أو حكاية طريفة أو نكتة بارعة ، ولا بأس من قراءة بعض النصوص من المقطوعات والاستدلال بنماذج واقعية من واقع البيئة، أو احصاءات أو غير ذلك، إذ كلما أحس السامع بمجهود الخطيب وباخلاصه فى التحضير ، كلما كان أكثر احتراما له وهذا يتطلب ضرورة تقسيم الخطيب لموضوعه وأن يجعل له عناصر أساسية يوضحها للمستمعين فيقول مثلا (تقوم هذه القضية على ثلاثة أصول) .

أو يقول (سنتحدث اليوم فى أربع مسائل أولاها كذا ثانيها كذا . . الخ) ثم يلتزم بهذا التقسيم أثناء الكلام ويعود لعناصر البحث بترتيب ويقظة كلما هم أن يستطرد ، وميزة هذه الطريقة أن الناس إن عجزوا عن استيعاب التفصيلات فلن يعجزوا عن استيعاب العناصر الاساسية التى عرضها المتحدث واضحة مقسمة وبامكان كل منهم أن يفسرها لنفسه . وبهذا يظل الموضوع حيا واضحا فى الأذهان باقيا ببقاء القرينة وهى التقسيم . فتحديد الفكرة وحصر الأهداف من البداية يساعد على الفهم . وعلى العكس من ذلك سترى الكلام الكثير المهوش ينسى بعضه بعضاً ويضيع أوله آخره .

وقد ذكر أحد العلماء أن أحد الخطباء ألقى خطبة طويلة استغرقت ساعتين وبعد أن انتهى منها توجه إليه أحد المستمعين وكان نائماً وقال له :

---

[١] كيف ندعو الناس ص ٥٣

سامحنى ياسيدى : (ماذا قلت الليلة) وكان الخطيب مرهقاً فأجابه قائلا : سامحنى ياسيدى فقد نسيت . (١)

عاشراً لابد أن يعيش الخطيب واقع الناس ولا داعى لأن يجر السامعين إلى أعماق التاريخ إذ لافائدة من ذلك إذ أن التاريخ يدرس لنا لنأخذ منه الحكم والعبر نقيس عليها أو نستفيد منها لواقعنا لا ليجعله مادة للوعظ والتربية إذ أن التربية والتوجيه تستمد منهاجها عادة من الواقع الحى لكل مجتمع بذاته بمعنى أنها تختلف باختلاف الزمن ثم تختلف باختلاف البيئة ، وإذاً فالانشغال دائماً بقصص التاريخ يعتبر خروجاً على الموضوع ، ولا مانع من عملية المقارنة بين القديم والجديد على أساس ضرب المثل للعظة والاعتبار ، لكن لا يصح كما قلنا أن نحكى التاريخ القديم كتاريخ فقط .

حادى عشر : لعل من أهم الأمور التى يجب أن يهتم بها الخطيب الداعية اتقان التلاوة للقرآن الكريم وحسن إيراد الحديث الشريف وهذا يفرض على الخطيب أن يعيش فى معانى القرآن الكريم ويميز بين الجمل الإنشائية والخبرية وبين ماهو تساؤل وما هو تقرير ، فعدم اهتمامه بالوقف عند أماكن الوقف .

وقراءة القرآن بطريقة واحدة دون مراعاة لاستفهام أو وعد أو وعيد أو غير ذلك لا يؤدى إلى نتيجة ، والمعروف أن حسن الأداء للقرآن الكريم يجعله عند المستمع كأنه مفسر .

كما أن حسن إيراده الحديث الشريف يقتضى منه الإلمام بمصطلح الحديث وهو أمر غير عسير ، وذلك لإمكان تمييز الصحيح من غيره .

وبعض الخطباء يسمع كلاما فيعجبه معناه فيطرحه ويستشهد به استناداً لهذا الإعجاب — وقد لا يكون حديثاً أصلا — وقد يكون موضوعاً أو مقلوباً أو غير مسند ، ويتداوله غيره من بعده فيكثر الخطأ ويتضاعف .

---

[١] المرجع السابق ص ٥٣ بتصرف

ولذا فعلى الخطيب اما أن يذكر الحديث بسنده وتخريجه كما ورد فى كتب الصحاح واما ان يكتفى بذكر الصحابى وذكر صاحب التخريج فيقول مثلا جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : . . . .

ولابد أن يتحرز من ذكر الأحاديث التى لم يتأكد من صحتها ، لأن الحديث دين يحل حلالا ويحرم حراماً ولذا فلابد من العناية به والحذر من الخلط فيه لقوله ﷺ (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) .

ولا مانع عند الضرورة ، من ذكر الحديث بمعناه ولكن بشرط أن يكون متأكداً من صحته أساساً .

ولابد أن يلاحظ الخطيب أن هناك اضطراباً عند كثير من المسلمين بين المنهاج العقلى والمنهاج النقلى ، ولذا كان لابد على الخطيب الداعية أن يخاطب الناس بما يعقلوه وبما يفقهوه فإن الحجة المقنعة كالطعام الجيد يهضمها العقل وينتفع بها ، ولذا فإن الخطباء مطالبون دائماً بأن يسوقوا تفسيراً مقبولا لما يدعون الناس إليه ، ولا يلام أحد إذا رفض ما يستسيغه عقله (مادام الأمر داخلا فى دائرة اختصاص العقل) .

ونعنى بذلك الأمور التى يعرض لها الخطيب مما لم يقرر الدين فيها حكماً معيناً أو التى تقع تحت طاقة الحواس الخمس وخصائص العلاقات الإنسانية والسلوك البشرى لأن دور العقل فيها هو الدور الرئيسى ، ولولا ذلك ما تقدمت البشرية خطوة واحدة .

أما الأمور التى لا تقع تحت طائلة المدركات وهى ما تعرف باسم (الغيب) كوجود الله واليوم الآخر والجنة والنار . . . الخ ، . فإنه برغم أن المسلم مطالب بأن يؤمن بها ، وأن يصدق المنقول عنها ، إلا أن على الخطيب أن يراعى عدم الخوض فى التفاصيل ، وبخاصة ما لم يثبت فى هذه التفاصيل من نصوص ، حتى لا يحدث بلبلة وخللا بعقول الناس .

وقد روى عن على رضى الله عنه قوله : « أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون » (١) ، وعلى الخطيب أيضاً أن يتجنب الأحاديث النبوية التى تشكل على جمهور الناس ولا تسيغها عقولهم وثقافتهم ، لأن لها تفسيرات وتأويلات قد لا يهضمونها ـ وربما كانت أعلا من مستواهم ، أو تغص فى حلوق بعضهم ، مثل حديث الذباب أو حديث سجود الشمس كل يوم تحت العرش أو ما شابه ذلك من الاحاديث .

فليس من فقه الداعية أن يتلو على مسامع الناس هذه الاحاديث بغير ضرورة تقتضيها ، ولا مناسبة توجبها بل الداعية الفقيه هو الذى يعنى بالاحاديث التى لها صلة بواقع الناس ويتحرى البعد عن المتشابهات والمشكلات ومالا تبلغه عقول الناس . (٢)

ثانى عشر :

على الخطيب أن يعرف أن التركيز والتلخيص هما من أسباب نجاح خطبته ويتم ذلك بعرض المعلومات التى يتناولها الموضوع ثم يعيدها بشكل موجز مختصر ـ وهذه الطريقة مع كونها مفيدة للمستمعين إلا أنها تمثل الانطباع الاخير الذى يحمل المستمع ينصت للخطيب كما أن التلخيص الاخير يزيده علماً بما فات ويذكره بما نسى ويجعل له ما كان متصلا فيقول المحاضر مثلا :

لقد عرضنا عليكم موضوع كذا . . . وكذا . . .

وقلنا فيه كذا . . . ثم انتقلنا إلى كذا . . .

وخرجنا بالنتيجة الاخيرة . . . وهى تشمل كذا نقطة . . .

أولاها . . . وثانيها . . . وثالثها . . . إلخ . .

---

[١] ثقافة الداعية للدكتور يوسف القرضاوى ص ٧١

[٢] المرجع السابق

ما الذى يصنعه الخطيب ليجيد الخطبة ؟

إذا كان الخطيب لايستغنى عن الاطلاع الدائم فى كافة العلوم، وسائر أنواع المعارف ، فإن عليه أن يعرف أنه لا يمكنه القيام بدوره هذا إلا بعد جهد كبير وبحث متواصل فى التحليل العلمى والبحث الموضوعى . وقد ذكرنا كيف أنه فى حاجة إلى معرفة كل الثقافات ، وقراءة الكثير من الكتب واستخلاص الأفكار والنتائج ، إلا أنه يجب عليه أن يعرف أن الذاكرة الضعيفة تنسى كثيراً من المعارف ، وتحرج الكثير من العباقرة . لأن المرء قد يكون مثقفاً . غزير المادة ، واسع الاطلاع . ومع ذلك إذا صادفه موقف حساس ارتج عقله وخانته ذاكرته . وقديماً قالوا : « إن المرء بأصغريه . قلبه ولسانه » .

وقوة الذاكرة وضعفها إنما هو ناتج من الممارسة والتعود ، أو عدم الممارسة والتعلم . وكل شىء فى هذه الحياة يحتاج إلى تدريب وتعويد ، وتعليم وتكرار .

يقول أحد علماء النفس الغربيون : « إن الرجل العادى لا يستخدم أكثر من عشرة فى المائة من قدرته الموروثة فى الاستذكار . وتضيع منه تسعون فى المائة بإخساره قوانين التذكر الطبيعية » (١) :

صحيح أن الله تبارك وتعالى يمنح بعضاً من عباده قوة ذاكرة قد لا يمنحها لآخرين . إلا أنه قد ثبت أن الذاكرة يمكن تحسينها بالتدريب والتعليم . وقد درس العلماء طرق تحسين الذاكرة وحصروها فى ثلاثة طرق : —

١ — التركيز : —

بأن يركز من يريد تحسين ذاكرته على المطلوب عند قراءته حتى لا يفلت منه ويضيع . ويكون التركيز باستحضار المعنى عند قراءة كلماته وترتيب أفكاره حسب ورودها فى الألفاظ :

---

[١] القائل هو كارل سيشور . راجع كتاب « التأثير فى الجماهير » ص ٦١

وقد قالوا : « حبذا لو ارتبطت هذه الأفكار بصورة حية فى النفس . لأن التشبيه أسلوب مبين ، لأنه يربط المشبه بما هو معروف وحى . ولذلك كان ارتباط الأفكار بصورة حية مؤدياً لتحسين الذاكرة » [١] .

ويرى العلماء أن التركيز أيضاً يأتى بالقراءة بصوت مرتفع حيث تشترك حاستان فى التقاط المعنى . لأن اللسان والأذن فى هذه الحالة يمدان العقل بالمعانى . وهذا يؤدى إلى تحسين الذاكرة .

كما يأتى التركيز كذلك بتسجيل ما يقرأ كتابة ، لأن العقول تعتمد على رؤية المكتوب اكثر من المسموع خمساً وعشرين مرة . ويقولون إن من الإمكان أن تنسى اسم الشخص فى وقت تحافظ فيه على تذكر صورته . [٢]

وفى إمكان الخطيب أن يسجل ما يقرؤه فى جمل قصيرة .

يقول مارك توين : « كنت ألقى محاضرة كل ليلة وكان لابد لى أن استعين بمذكرات تملأ صفحة كاملة حتى لا يختلط على الأمر . وكانت هذه المذكرات عبارة عن بداية الجمل :

الطقس فى ذلك الاقليم . . .

جرت العادة فى ذلك الوقت . . .

ولكن لم يسمع فى كاليفورنيا أن . . .

جمل من هذا الطراز يتكون منها أول الموضوع تقى صاحبها من الحصر والارتجاج . [٣]

ويمكن التركيز أيضاً بإبعاد كافة المعوقات الحسية وقت القراءة لأنها تصرف بعض الفكر إليها . ولذلك نجد بعض الناس لا يفهم جيداً إلا فى مكان بعيد عن الناس والضوضاء والتكلف .

---

[١] قواعد الخطابة وفقه للعيدين . الدكتور احمد غلوش ص ١٧٢

[٢] نفس المرجع السابق بتصرف .

[٣] التأثير فى الجماهير ص ٦٥ .

وقد يتعود الناس على استعمال طرق أخرى للتركيز وتحضير موضوعات خطبهم . فبعض الناس يقطع الغرفة جيئة وذهاباً . ويُشغل ذهنه بالموضوع دون أن ينطق بما فى نفسه . وبعضهم قد يصنع ذلك ويلقى بالكلام بصوت مرتفع . وبعضهم يركز وهو جالس . وبعضهم لايركز على موضوع إلا وهو يمشى فإذا توقف توقفت أفكاره :

وقد تعجب أخى القارىء حين تعرف أنى لا أستطيع التركيز ، ولا أجيد تحضير موضوع من الموضوعات إلا إذا دخلت غرفة النوم ، وأسلمت نفسى للسرير ، وأحياناً لا يتم ذلك إلا فى دورة المياه . وإذا ما فوجئت بندوة أو محاضرة لا أجد وقتاً كافياً لتحضيرها لايسعفنى إلا دورة المياه أو حجرة النوم .

ولابد أن نعرف أن دقائق قليلة من التركيز الفعلى النشيط تأتى بنتائج أعظم من التفكير الذاهل الموزع لمدة أيام عديدة .

٢ ـ الطريقة الثانية لتقوية الذاكرة هى « التكرار » : ـ

والتكرار عملية مضمونة النتيجة ، وهى طريقة يمكن للكثيرين أن يحفظوا عن طريقها النصوص الطويلة ، ولعلنا نلاحظ أننا لانحفظ القرآن إلا بالتكرار .

إلا أنه يجب ألا يكون التكرار آلياً . يجب أن يكون ذاكياً ، بمعنى أن يستمر التكرار مدة طويلة على فترات متقطعة ، لأن العقل الباطن يكون مشغولا بين فترة التكرار بتكوين ترابطات أكثر ضماناً ، ولأن العقل حينما يقوم بعمله على فترات لايرهقه التعب المتواصل .

ولا يجب أن يعتمد الخطيب على قراءته للموضوع أكثر من مرة ، أو تكراره له تكراراً كثيراً ، فلابد أن يعرف أن العقل ينسى فى الثمانى ساعات الأولى أكثر مما ينسى فى خلال ثلاثين يوماً بعد ذلك . ولذا وجب عليه النظر فى الموضوع قبل إلقائه . (١)

---

[١] راجع كتاب «قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين» صفحة ١٧٣ بتصرف

٣ ـ الطريقة الثالثة لقوة الذاكرة : « الترابط » : ـ

يجب ألا يكون الخطيب مجرد جهاز تسجيل يسجل ما يقرؤه ويسمعه ، ثم يلقيه كما هو دون تصرف منه . وعرضه بأسلوب قد لا يتناسب مع المستمعين . والخطبة المرتجلة على وجه الخصوص تحتاج من الخطيب أن يكون غزير الاطلاع حاضر الذهن ، واثقاً من نفسه ولذا كان عليه أن يربط موضوع خطبته ونقاطه بشيء موجود في العقل حتى يستطيع أن يتذكر نقاط الموضوع ، أو يربط بعضها ببعض حتى يسهل إيرادها وقت الإلقاء ويعرضها بأسلوب يتناسب مع المستمعين .

وهكذا كان على الخطيب بأن يحسن ذاكرته ليتمكن من النجاح في مهمته .

حاجة الخطيب إلى معرفة كل العلوم والثقافات : ـ

قلنا قبل ذلك أن الخطيب كالفنان يجب أن تكون لديه الموهبة الطبيعية والاستعداد الفطري التي تؤهله لممارسة فن الخطابة بنجاح ـ هذه الموهبة وهذا الاستعداد لا يغنيان عن ضرورة استعداد الخطيب الدائم علمياً واطلاعه على سائر أنواع المعارف حتى يصل إلى مبتغاه ـ وحتى يمكنه أن يتعادل مع دوره الهام الذي يقوم به والذي يضعه في موضع الصدارة فهو المفتي والناصح والموجه ، ولذا فإن الخطيب لا يتمكن من قيامه بهذا الدور الكبير إلا بعد جهد طويل وبذل متواصل في التحليل العلمي والبحث الموضوعي .

والخطيب ليس مجرد ناقل لكلام أو مردد لفكر ـ ولذا فهو يعرض عقله على الناس كلما التقى بهم لأنه يخاطبهم بما وصل إليه من كافة الأدلة والعناصر المرتبطة بالموضوع ـ وقديماً قيل لعبد الملك بن مروان :

(عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين) قال : وكيف لا يعجل على وأنا أعرض عقلى على الناس من كل جمعة مرة أو مرتين .[1]

ومن أهم المعارف التى يجب على الخطيب المسلم أن يهتم بها : —

١) القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والملل والنحل وعلوم اللغة والعلوم الانسانية الأخرى — ونستطيع أن نقول إن على الخطيب الداعية ضرورة الإلمام بالثقافة التاريخية والثقافة الادبية واللغوية والثقافة الانسانية — والثقافة العلمية — والثقافة الواقعية .

ولا أحب أن أخوض فى شرح أهمية هذه الثقافات بالنسبة للخطيب الداعية وضرورة أن يتمثل هذه الثقافات ويهضمها ، ويكون منها مزيجاً جديداً طيباً نافعاً أشبه شىء بالنحلة التى تأكل من كل الثمرات، سالكة سبل ربها ذللا لتخرج بعد ذلك شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس .

فلسنا فى حاجة لأن نبين ضرورة معرفة الخطيب بالقرآن الكريم الذى يجب أن يهتم به حفظاً وفهماً ويقتبس منه فى خطبه وكلماته ويتلوه المستمع للتدليل على صحة مايقول باعتباره المصدر الأول للاسلام وبالتالى للثقافة الإسلامية لأن تعاليم الإسلام ترجع فى أصولها إلى القرآن الكريم الذى اشتمل على العقائد والمفاهيم والقيم والموازين والعبادات والشعائر والأخلاق والآداب والقوانين والشرائع التى وضع القرآن نصوصها جميعاً ، وأرسى دعائمها ،وجاءت السنة لتبين وتفصل وأقامت عليها بنياناً شامخاً لاتنال منه الأيام والليالى .

ولسنا فى حاجة لأن نبين بأن القرآن الكريم هو مقياس الإجادة عند الخطيب لأنه هو كتاب الله الذى لايكتفى بإيراد الحقائق عن الموضوع المعنى به

---

[١] جمهرة خطب العرب - جـ ٣ ص ٣٧٦

فقط ، وإنما يخرجها بصورة تلائم عقول المستمعين وأرواحهم ، وتهتم بالشكل والمضمون .

ولذا نجدها فى لفظ بهيج ومعنى مرتب دقيق ، والكل يعرف أن الحديث النبوى هو المصدر الثانى من مصادر التشريع ، وهو الذى يبين من القرآن ماأجمل ، ويشرح ويوضح مااختصر ، كما أن التاريخ هو ذاكرة البشرية وسجل أحداثها وديوان عبرها والشاهد العدل لها أو عليها ، ولاشك أن الخطيب الداعية فى حاجة إلى توسيع آفاقه ومعرفة أحوال الأمم وتاريخ الرجال وتقلبات الأيام بها وبهم ، وفى التاريخ نرى كيف تعمل سنن الله فى المجتمعات بلا محاباة ولاجور وكيف ترقى الأمم وتهبط ؟ وكيف تقوم الدول وتسقط ؟ وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم ؟ ، وكيف تحيا الحضارات وتموت ؟ وكيف ينجح القادة ويفشلون ؟ وكيف تنام الشعوب وتصحو ؟ ثم هو مع ذلك كله أصدق شاهد على مايدعو إليه الدين من قيم ومفاهيم ، وفيه ولاشك عبر بليغة وعظات حية الناس فى حاجة إليها ، والخطيب يصل إلى مبتغاه حين يسردها ويذكرها ويستخلص منها العظات والعبر ، وصدق الله القائل عن بنى إسرائيل :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب »(١) وصدق أيضاً حين يقول :

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا فى البلاد هل من محيص . إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »(٢) .

كما أن الثقافة الإنسانية وهى التى تشتمل بجانب التاريخ على علوم : النفس ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والفلسفة ، والاخلاق لايستغنى عنها الخطيب الداعية لأن موضوعها له علاقة وثيقة بموضوع الدعوة ، فموضوعها هو الإنسان فى الماضى

---

[١] سورة يوسف آية ١١١

[٢] سورة ق ، آية ٣٦ — ٣٧ ، وراجع ثقافة الداعية ص ١٠٢ ، ١٠٣ بتصرف .

أو الحاضر فرداً أو مجتمعاً والإنسان هو المخاطب ولابد للخطيب أن يعرف الكثير عنه من ناحية نفسيته ومجتمعه والظروف الاقتصادية له وغير ذلك مما يتعلق بهذا الإنسان وبخاصة أن المسلم مطالب بأن يخاطب الناس على قدر عقولهم وأن يبين لهم بلسانهم ليفهموا عنه، ولن يتمكن من ذلك مالم يكن بينه وبينهم جسر مشترك من الثقافة يقرب المسافة ويزيل الهوة أو الفجوة العقلية والنفسية بين عالم الدين والمثقفين بالعلوم الحديثة.

أما مرادنا من معرفة الخطيب الداعية بالثقافة الواقعية فهو معرفته للثقافة المستمدة من واقع الحياة الحاضرة ومايدور به الفلك في دنيا الناس الآن في داخل العالم الإسلامي وفي خارجه، فلابد أن يعرف عالمه الذي يعيش فيه ومايقوم عليه من نظم، ومايسوده من مذاهب، ومايحركه من عوامل، ومايصطرع فيه من قوى، ومايجري فيه من تيارات، ومايعاني أهله من متاعب وبخاصة وطنه الإسلامي الكبير بآماله وآلامه، وأفراحه ومآسيه، ومصادر قوته وعوامل ضعفه بالإضافة إلى وطنه الصغير وبيئته المحلية ومايسودها من أوضاع وتقاليد، ومايقاسيه من صراعات ومشكلات، ومايشغل أهلها من قضايا وأفكار، فهو لاينجح في دعوته ولافي إقناع الناس بفكرته مالم يعرف من يدعوهم ويعرف كيف يدعوهم، وماالذي يقدمه لهم أو يمنعه عنهم.

ولعل ماينقص دعاة اليوم عدم معرفتهم لواقع العالم الإسلامي، أو واقع القوى العالمية المعادية للاسلام، وكذا واقع الأديان المعاصرة والمذاهب السياسية المعاصرة، بل الحركات الإسلامية المعاصرة، وقد لايسمع بعضهم عن واقع التيارات الفكرية المعارضة للاسلام أو يدرس واقع الفرق المنشقة على الإسلام، ولعل بعضهم أيضاً لايعرف إلا القليل عن مشكلات الأقليات والأكثريات الإسلامية المضطهدة في الفلبين وفي قبرص، وفي أرتيريا وفي الحبشة، وفي الاتحاد السوفيتي وفي أوربا الشرقية وفي ألبانيا ويوغوسلافيا والصين والهند.

إنه فى حاجة إلى معرفة الأوضاع الجغرافية والاقتصادية والسياسية للعالم الإسلامى مع معرفة أسباب تخلفه وتفرقه وعوامل تقدمه ووحدته .

إنه فى حاجة إلى دراسة الأسباب والدوافع وراء كيد القوى العالمية المعادية للاسلام وإلى معرفة وسائل هذه القوى فى حربنا وخطورة الحرب الفكرية التى تتمثل فى التبشير ومؤسساته ومحاولات التنصير فى العالم العربى والإسلامى وإلى معرفة طرق الغزو الشيوعى من الداخل والخارج ، وهو بالإضافة إلى كل ذلك وحتى ينجح فى إقناع الجماهير لابد أن يدرس البيئة التى يعيش فيها ويعرف أوضاعها وتقاليدها ويتعمق فى فهم مشكلاتها ونفسيات أهلها ومايؤثر فيها(١) .

الصفات البيانية للخطيب :

عرفنا مما سبق كثيراً من الصفات البيانية للخطيب والتى تساعده على الإجادة وتسهل له عملية الإقناع وتجمع الناس حوله وتلفتهم إليه وقد جاءت هـــذه الصفات متفرقة فى ثنايا الكلام ، وهنا نركز على أهم هذه الصفات وهى :

النطق الحسن :

الذى قال عنه بعض العلماء [إنه الدعامة للالقاء الجيد وأنه إذا اعترى النطق مايفسده ضاع الإلقاء ، وإذا ضاع الإلقاء ضاعت الخطبة وفقد الخطيب مايسمو إليه من وراء البيان](٢) .

والنطق الجيد يجعل الخطيب يجود لفظه ويخرج الحروف من مخارجها الصحيحة فلا ينطق بالثاء سينا ولا بالذال زايا ، ويجعله يبتعد عن التشدق بالكلام وتمطيط الألفاظ لأن التشادق يوقع المتكلم فى نقيض مايرغبه ، إذ ينطق

---

[١] من كتاب ثقافة الداعية . بتصرف ص ١٠٣ ، ١٠٤ .
[٢] راجع قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين للدكتور أحمد غلوش ص ١٨٢ .

بالحرف من غير مخرجه ، و لعلنا نلاحظ أن بعض الخطباء يدفعهم التشدق إلى أن ينطقوا الجيم شينا .

والنطق الجيد يدفع الخطيب لتصحيح الكلام الذى ينطق به ويلاحظه فى مفرداته وعباراته فالحركة الواحدة تغير اللفظ وتنقله من معنى إلى معنى آخر .

كما أن النطق الجيد يجعل الخطيب يتقن إلقاء ألفاظه بشكل يجعل المعانى مصورة من خلال الألفاظ ، وذلك يبرز الاستفهام بطريقته ، والتقرير يجسمه والسرور يبرزه ، والحزن يخفيه . وهكذا .

كما أن النطق الجيد أيضاً يجعل الخطيب يتمهل فى إلقاء خطبته إذ أن النطق السريع المتعجل يشوه اللفظ — ويضيع المعنى — ويجعل المستمع لا يستطيع متابعة سرعة الخطيب .

وحتى يكون النطق جيداً فإن على الخطيب أن يضغط على بعض المقاطع دون بعض بحيث يختار الكلمات الهامة الدالة على الموضوع أو المؤيدة للعناصر أو الموجزة للخطبة كلها — ولا يصح أن يكون الخطيب عشوائياً .

هذا إلى ضرورة تغيير الصوت بالارتفاع والانخفاض بما يوضح المعنى ويؤثر بالصوت وبالمعنى معاً وبما يتناسب مع سعة المكان أو ضيقه ومع كثرة المستمعين أو قلتهم ، ويقولون عن تغيير سرعة الصوت إنها من الأمور السارة التى تمكن الخطيب من الوصول إلى هدفه .

يقول (ديل كارنيجى) « إن هذه كانت إحدى الوسائل المحببة عن (لنكولن) حين يريد الوصول بفكرته إلى الهدف وكان ينطق بعدة كلمات بسرعة كبيرة حتى يصل إلى الكلمة أو العبارة التى يريد تأكيدها ثم يبطىء من صوته عندها ويضغط عليها ، ولا يلبث أن يندفع مسرعاً فى الحديث حتى يصل إلى نهاية العبارة كالبرق الخاطف ، وكان يخصص أطول وقت مستطاع للكلمة أو الكلمتين اللتين يريد تأكيدهما » .(١)

---

[١] التأثير فى الجماهير ص ١٠

ولا يخفى أن الإلقاء الحسن أو النطق الجيد يجعل الخطيب يركز على أقسام خطبته الأساسية ويوقف المستمع على هـــذا التركيز ويفعل ذلك بالمؤثرات الصوتية فى الإلقاء التى تأتى عن طريق التوقف عن الإلقاء قبل كل فكرة وبعدها ولو لحظات قليلة ، لأن المستمع سيجد نفسه مضطراً للبحث عن سر هـــذا التوقف وخلال بحثه سيجد الفكرة المقصودة فيفهمها باتقان[١] .

٢ ـ المعانى المعقولة والمفيدة :

لاشك أن المستمع يأتى للخطيب ليستفيد منه وليخرج فى النهاية بمعنى مقبول يبقى فى ذهنه ويفيده فى حياته ـــ وعلم الخطابة كما عرفنا يهدف فى النهاية إلى إمداد المستمع بشىء يؤثر فيه ويفيده ، ويوضح له منهجاً صالحاً للقضايا التى تساعده فى حياته .

وهذا هو الذى جعل ابن رشد يعرف الخطابة (بأنها قوة تتكلف الإقناع الممكن فى كل واحد من الأشياء المفردة)[٢]

وضرورة الاقتناع بما يلقى على الناس من كلام هو الذى جعل عالماً آخر يعرفها بأنها « خطاب يلقى من فرد على جماعة بقصد التأثير فى نفوسهم وإقناعهم بأمر من الأمور »[٣] .

وجعل آخر يعرفها بأنها (فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته)[٤] .

---

[١] من كتاب قواعد الخطابة وخطابة العيدين بتصرف شديد ص ١٨٠ إلى ص ١٨٤

[٢] تلخيص الخطابة لابن رشد ص ١٥

[٣] البلاغة والأدب الدكتور ابراهيم الصباغ ٢/٩١

[٤] فن الخطابة الدكتور أحمد الحوفى ص ٩١

فالخطبة لايكفى فيها أبداً أن تكون ذات لفظ جميل وهى خالية من المعانى الدقيقة والآراء الواضحة والأدلة الصحيحة المقنعة .

وعلى الخطيب أن يراعى أنه يخاطب عقول المستمعين وعليه حينئذ أن يجود كلمته وأن ينظم عناصرها وأن يجعلها فى مستوى أفهام الناس بالإضافة إلى ضرورة استعمال الصور البيانية المتعددة .

وعلى الخطيب أن يحسن الاستدلال بآيات القرآن ويتحرى ذلك ويحرص عليه ويحكمه ، حتى يتمكن من تقرير وإثبات مايريده من أحكام وتعاليم وأفكار .

وحين يحسن الاستدلال بالنص القرآنى ووضعه فى موضعه الصحيح ، يزيل كل شبهة ويخرس كل معارض ، لأنه لادليل بعد القرآن ، ولاحديث بعد كلام الله ، ومن أصدق من الله حديثاً ،(١) ومن أصدق من الله قيلا ،(٢) .

ولذا وجب على الخطيب أن يستدل بالمتفق عليه ، لابالمحتمل والمختلف فيه لأن الدليل الذى يتطرق إليه الاحتمال يسقط الاستدلال به ، كأن يستدل على شمول القرآن بقوله تعالى : (مافرطنا فى الكتاب من شىء)(٣) . لأن الآية تحتمل أكثر من معنى .

كما يجب عليه أن يتجنب الاستدلال بما ليس بدليل ، كما يفعل بعض الناس حين يستدلون على أن من ثمار تقوى الله أن يعلمه مالم يكن يعلم وذلك أخذا من قوله سبحانه فى سورة البقرة (واتقوا الله ويعلمكم الله)(٤) .

---

[١] سورة النساء آية ٨٧
[٢] سورة النساء آية ١٢٢
[٣] سورة الأنعام آية ٣٨
[٤] سورة البقرة آية ٢٨٢

ولو بحثنا لعرفنا أن هذه الآية لاتدل على هـذه الدعوى لأنها ليست أمراً وجواباً وكان يصح ذلك لو كان لفظها (واتقوا الله يعلمكم الله) .

ولذا كان على الخطيب إذا أراد لكلامه القبول والنجاح ، أن يحـذر من من الانحراف والتحريف وسوء التأويل لآيات القرآن الكريم وحملها على معان تخرجها عما أراد الله بها وهذا نوع من التحريف الذى ذم الله عليه أهل الكتاب فقد حرفوا كتبهم لفظياً بالزيادة والنقص ومعنوياً بسوء التأويل .

وإن كان القرآن الكريم لاسبيل إلى تحريف لفظه لأن الله حفظه فى الصدور والمصاحف وتعهده بحفظه ، إلا أنه قد يدخل فى تفسيره سوء التأويل وهو (التحريف المعنوى) الذى ظهر فى عصور سابقة وزاد وللأسف فى هذا العصر ، حيث أراد بعض العلماء وللأسف إخضاع النصوص للواقع الزمنى فأولوا الآيات تأويلا بعيداً عن الظاهر لتبرير الواقع بإعطائه سنداً من الشرع ، كما رأينا بعض من يسوغ نظام الفائدة فى البنوك ومن يبرر التأميم والمصادرة للملكيات المشروعة وذلك إرضاء للحكام وتقرباً إليهم طمعاً فى منصب دنيوى .

وفى سبيل تأكيد آرائهم المنحرفة جزءوا النصوص وفككوها ولم يربطوا بعضها ببعض كما يتطلب البحث العلمى السليم ، وفى سبيل ذلك أيضاً اتبعوا المتشابهات وتركوا المحكمات مع أن ذلك أصل من أصول الزيغ والضلال .

وقد يكون من أسباب التأويل المنحرف أيضاً تبنى مذهب أو فكرة أو اتجاه سابق ثم تتخذ النصوص بعد ذلك دليلا عليه .

وقد صنع ذلك وللأسف كثيرون من علماء الكلام والفلاسفة والفرق المختلفة والمقلدين فى الفقه ، حيث جعلوا مذاهبهم أصلا ، ثم شدوا النصوص شداً لتأييد المذهب حتى وصل الأمر ببعضهم أن لجئوا إلى القول بالنسخ حين لم يجدوا مجالا للتأويل ، مع أن النسخ لايثبت بالاحتمال .

وقد رأينا ابن سينا وأمثاله من كبار الفلاسفة فى العصور الإسلامية ، يعتقدون صحة ماذهب إليه أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان فى الإلهيات والطبيعيات وغيرها ، فلما اصطدم ذلك بآيات القرآن الوفيرة طفقوا يؤولونها تأويلات ترفضها اللغة ، كما يرفضها الدين ، حتى كفرهم الغزالى ومن بعده فى ثلاث مسائل معروفة أنكروا فيها ماهو معلوم من الدين بالضرورة[١] .

لهذا فإن على الخطيب الداعية ، أن يحذر من الإسرائيليات التى كدرت صفاء التفسير ، كما عليه أن يحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة التى تحشى بها كثير من كتب التفسير .

ويقع كثير من خطبائنا وبخاصة الشبان منهم فى أخطاء كبيرة حين يتصورون أن كل مايجدونه فى كتب التفسير سواء كان مرفوعا إلى النبى أو موقوفاً على بعض الصحابة مثل على وابن عباس وغيرهما وما كان منسوباً إلى بعض التابعين مثل مجاهد وعكرمة والحسن وابن جبير وغيرهم ، أو منسوباً إلى غيرهم من أهل العلم ، يخطئون حين يظنون أن ذلك صحيحاً مع أن معظمها روايات ضعيفة وموضوعة حشيت بها أكثر كتب التفسير ، ولابد لهؤلاء من أن يعرفوا أن ابن أبى حاتم وابن مردويه ، وابن جرير الطبرى يجمعون فى تفسيرهم الصحيح والحسن ، والضعيف والمنكر بل الموضوع أحياناً من الأحاديث المرفوعة والروايات المقطوعة والموقوفة وليس كل ماينسب إلى ابن عباس صحيحاً لأن الطرق إليه تختلف قوة وضعفاً وقبولا ورداً .

ولذا فإن على الخطيب الداعية أن يتحرى مايقوله وأن يتأكد من صحة سنده وعدم شك المستمعين فى صحة مايقول وليس كل ماكتب يقال . ولا كل ماعرف ينشر .

---

[١] راجع كتاب ثقافة الداعية د/يوسف القرضاوى، ص ٣١ إلى ص ٣٥

المحذورات الأخرى التي يجب أن يبتعد عنها الخطيب

الوقوع في الروايات الموضوعة والضعيفة : ـ

إذا كان على الخطيب الديني أن يحـــذر الوقوع فى الروايات الموضوعة والضعيفة التى حشيت بها كتب التفسير . فإن عليه أيضاً أن يحذر من سوء الفهم للأحاديث الصحاح والحسان التى وردت بها كتب السنة وتلقاها علماء الأمة بالقبول لحرفها بعض الناس عن مواضعها وتأولوها على غير تأويلها . وبعدوا بها عما أراد الله ورسوله .

وقد فعلت بعض الفرق ذلك مع الحديث كما فعلوا مع القرآن لتؤيد مذاهبها وتعضد أفكارها حيث اتخذوا المذاهب أصلا . وجعلوا النصوص لها تبعاً .

ووقع فى ذلك أيضاً القدامى والمحدثون ورأينا فى عصرنا الحاضر من يفهم بعض الأحاديث فهما خاطئاً ويستدل به استدلالا خاطئاً . لغرض أو لغير غرض . كمن يستدل بحديث رسول الله ﷺ « بدأ الإسلام غريباً ـ سيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » على أن هذا سنداً له وحجة للقعود عن واجب الدعوة إلى الإسلام وترك فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويعارض به كل دعوة جادة لاستعادة حكم القرآن وإقامة دولة الإسلام .

ولا يتصور أبداً أن الرسول قد قال هذا الحديث ليثبط به عزائم أمته عن الدعوة والعمل لدينهم أو ليطفىء جذوة الأمل فى قلوبهم .

وإنما أراد الرسول ﷺ أن يحذرهم لينتبهوا أو ينبههم ليحذروا . كما أن المدقق فى الحديث يرى فيه دعوة صريحة إلى إصلاح ما أفسد الناس من منهج الإسلام . وفيه دعوة للعمل الجاد لرد الشاردين إلى الطريق المستقيم . وبخاصة

حين يقف أمام نهاية الحديث الذى يقول : « قيل ومن الغرباء يارسول الله ؟ قال الذين يصلحون ما أفسد الناس بعد من سنتى[١] »

وقد قلنا قبل ذلك إن على الخطيب أن يتجنب الأحاديث التى تُشكل على جمهور الناس ولا تسيغها عقولهم وثقافتهم لأن لها تفسيرات وتأويلات قد لا يهضمونها . أو كانت أعلى من مستواهم .

وقد حذر علماء السنة من رواية الحديث الموضوع إلا مع التنبيه عليه ، وبيان أنه موضوع ليحذر منه قارئه أو سامعه . ويقول النووى عليه رحمة الله (تحرم روايته مع العلم به فى أى معنى كان — سواء الأحكام والقصص والترغيب وغيرها إلا مبينا أو مقرونا ببيان وضعه[٢])

ولذا فعلى الخطيب أن يحذر من الأحاديث الواهية والمنكرة ، والموضوعة ولعل من أسباب تسرب هذه الأحاديث الموضوعة الساقطة اعتماد كثير من الدعاة على كتب لاتعنى بانتقاء الاحاديث التى توردها ـ وترى الاكثرين منهم ينقلون من كتب الوعظ والتصوف والتفسير من غير تمحيص أو بحث فى مدى صحة ما ينقلون ، ويظنون أن نقلهم من هذه الكتب يعفيهم من البحث فى درجاتها والاطمئنان عليها . مع أنه لابد من أن يعرفوا أن هذا مما يسىء إليهم وإلى الدعوة التى يدعون إليها .

ولذا فإن عليهم أن يتحرزوا ويتحفظوا فى عدم الاعتماد على كتب الوعظ والرقائق بالنسبة لنقل الحديث لأنها تجمع بين الغث والسمين . ولا تدقق فيما ترويه من أحاديث أو آثار . أو قصص وأخبار . بدعوى أنها لا تتعلق بحكم شرعى .

ولعل هذا هو السبب فى هروب المدعوين عن أئمة المساجد ونفور كثير

---

[١] رواه الترمذى

[٢] راجع ثقافة الداعية ص ٧٣

من الشباب منهم وبخاصة المثقفين منهم الذين يعرضون كل ما يسمعونه على عقولهم . ولا يقبلون إلا ما تستسيغه هذه العقول ،

٢ — المبالغة فى تعليل العبادات :

يجب على الخطيب الا يبالغ فى تعليل العبادات بأمور دنيوية ويتحرز من ربطها بهذه الأمور ربط العلة بالمعلول — فعليه أن يعرف أن العبادات مطلوبة لذاتها بغض النظر عما وراءها من منافع وثمرات ولذا فعليه أن ينظر إليها نظرة الغايات والمقاصد لا نظرة الادوات والوسائل — وقد تؤدى المبالغة فى هذا الجانب بقصد أو بغير قصد إلى الهجوم عليها من أعداء الاسلام أو محاولة نقض ما يثبته الخطيب فلا تؤدى عظته ولا خطبته إلى ما يرجوه لها من اقناع وتأثير فقد يقول بعض الناس مسلمين أو غير مسلمين إذا كان هدف العبادات هو تربية الضمائر وتسلية الأنفس وتقويم الأخـــلاق فعندنا وسائل أخرى توصلنا إلى الهـــدف .

وهذا لا يمنع الخطيب من أن يبين المستمعين أن العبادات التى فرضها الله فيها فوائد ولا شك لبنى البشر وأنها فرضت من أجل مصلحتهم وأنه يمكن استخلاص بعض هذه الفوائد التى نستطيع أن نتعلمها من حكمة التشريع وأنها كذا وكذا ثم يبين أن هذه الأمور ليست هى كل الغايات والمقاصد وأن الجانب التعبدى فيها هو الأصل والأساس وأن الالتزام بها أمر ضرورى لأنها أوامر إلهية وجب على الناس أن يقبلوها وأن ينفذوها دون مناقشة أو تعليل — ولذا فإن على الخطيب أن يحذر تعليل الحكم الشرعى بأمر غير جامع — وإن كان فى الإمكان تعليل بعض الأحكام على ألا يؤكد للمستمعين بأن العلة التى ذكرها أو استخلصها من حكمة التشريع ليست هى كل الأسباب التى أدت إلى هذا الحكم .

وذلك كأن يعلل تحريم لحم الخنزير بأن سبب التحريم هو أكله للقاذورات ، لأنه قد يرد على ذلك بأن هذا لا ينطبق إلا على الخنازير السيئة التغذية —

وفى هذه الحالة يكون التعليل غير صائب وغير مقبول وبخاصة حين يعرف أن هناك خنازير تربى فى حظائر خاصة ويشرف عليها مختصون يعنون بها ولا تأكل القاذورات .

والتعليل الغير جامع ولا مانع ينطبق أيضا على قول من يرى أن الخنزير حرم لحمه لأن اعتياد أكله يورث فقدان الغيرة على النساء والحرمات .

وقد يحاول البعض أن يستدل على وجهة نظره هذه بما يشاهده لدى الأوربيين من فقدان الغيرة عندهم ، ولا شك أن هذا تعليل متهافت ، لأنه سينقض بقول من يقول : إن ذلك يكون مرجعه للبيئة والتربية وليس إلى لحم الخنزير ، ويمكن للمعترضين أن يستدلوا بأن النصارى فى صعيد مصر وفى البلاد الشرقية عامة لا تنقصهم الغيرة مع أكلهم الخنزير . كما أن اليهود أيضاً فى الغرب وهم يحرمون الخنزير كما يحرمه الإسلام يسلكون فى أمر الغيرة ما يسلكه مواطنوهم من المسيحيين .

وهكذا يجب ألا يجازف الخطيب الداعية بالتعليل فى مثل هذه الأمور مالم يكن تعليلا ثابتاً محكماً ، ويكون مطرداً فى كل الأحوال تقوم عليه الأدلة العلمية الناصعة التى لا مطعن فيها .

وقد سمعت مسلماً يناقش أحد خطباء المساجد فى العلة التى ساقها لسبب تحريم أكل لحم الخنزير ، حيث ذكر الخطيب أن علة التحريم ما اكتشف من ديدان شديدة الخطر على صحة الإنسان كالدودة الشريطية ، وقال له : إن هذه الديدان ياأخى توجد فى لحوم الأبقار أيضاً وقد أحل الشرع أكلها .

وكما قلت إنه لا بأس من أن يستدل بمثل هذه الأمور على أنه مجرد تلمس بشرى لحكمة التشريع لا على أنه هو العلة والسبب المباشر للحكم ، وعليه أن يبين أنه إذا كنا قد اكتشفنا أو عرفنا بعض أسباب التحليل أو التحريم فإن على

الناس أن يعلموا أن هناك حكمة جلية فى إخفاء المولى سبحانه لبعض حكمه وأسرار شرعه ليتم الابتلاء وتظهر حقيقة العبودية للخالق سبحانه .

والخطيب الداعية يجب أن يحرص كثيراً على عدم تعريض نفسه لاعتراضات الناس من هذا وذاك ومن هنا وهناك . وهذا يدخل فى باب اللباقة التى ذكرنا قبل ذلك ضرورة أن يتحلى بها الداعية .

وما أكثر ما نراه من بعض خطباء المساجد الذين يحصرون أنفسهم فى تعليلات الأحكام الشرعية بطريقة جعلت جمهورهم لا يقتنع بكلامهم ولا تعليلاتهم التى يسهل الاعتراض عليها . فلا يصح مثلا أن يعلل الخطيب تحريم الزنا بمنع اختلاط الأنساب ويحصره فى ذلك ، لان هذا يعنى بناء على هذه القاعدة أنه لاحرج من زنا الحامل ، ولا حرج أن تزنى المرأة العقيم أو من تتناول أقراص منع الحمل لانه لا خوف على أية واحدة من هؤلاء أن تحمل وتلد دون أن يحدث اختلاط الانساب .

وهكذا بالنسبة لمثل هذه الاحكام يجب ألا تقال الحكم والتعليلات للناس إلا بعد دراسة وتثبت وإلا اكتفى بالحكم الإجمالية العامة .

٣ — على الخطيب الداعية أن يحذر حين يريد ذكر الحكمة والعلة الاقتصار على التعليل بالامور المادية الحسية وبخاصة فيما يتعلق بالعبادات الشعائرية كالوضوء والصلاة والصيام والحج ونحوها .

ونحن نلاحظ أن كثيرين من خطباء المساجد حين يتحدثون عن الوضوء وحكمة التشريع له يقفون عند النظافة على أنها هى الحكمة من تشريع الوضوء والصلاة فى نظرهم حكمتها تمرين الجسم على الرياضة والحركة واتباع النظام . كما أن الصوم عندهم لم يشرع — من وجهة نظرهم — إلا لإراحة المعدة شهراً فى كل عام .

أما الحج فهو فى نظرهم ليس إلا رحلة كشفية للتدريب على تحمل المشاق .

وهكذا يوقعون أنفسهم فى مآزق وتوريطات حين يفتحون على أنفسهم أبواباً لايقدرون على إغلاقها ، وكما قلنا : قد تستعمل هـذه الأدلة سلاحاً فى أيدى الذين يريدون أن يتفلتوا من تكاليف الدين وشعائره ، أو يقدمونها سلاحاً للأعداء يحاربون بها الإسلام

وأولى بالخطيب الداعية أن ينهج نهج القرآن الكريم ويعطى التعليل بالأمور الدينية والروحية الأولوية حين يريد ذكر الحكمة من تشريعها .

والخطيب ولاشك يلاحظ كثيراً من هذه الحكم للتشريعات كلها بما فيها العبادات مثل قوله تعالى عن الصلاة :

« إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »(١) .

وعن الصيام :

« ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »(٢) .

وعن الزكاة :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »(٣) .

وفى الحج :

« ليشهدوا منافع لهم »(٤) .

إلى غير ذلك من حكم التشريع التى نراها منتشرة بين ثنايا المصحف الشريف

---

[١] العنكبوت : ٤٥
[٢] البقرة : ١٨٣
[٣] التوبة : ١٠٣
[٤] الحج : ٢٨

مراعاة الأحكام المهمة :

على الخطيب الديني أن يعمل على تطعيم عظاته ودروسه بالأحكام المهمة التى يحتاج إليها الناس فى وقتها ، ولا يصح أن يقتصر حديثه على محض الترغيب والترهيب ، كما يفعل كثير من أئمة المساجد ولذلك لم تعد عظاتهم تفيد أو تؤثر فى المستمعين ، بل لابد من أن يحرص على إعطاء مستمعيه خلاصة الأحـــكام الأساسية لـكل موضوع من الموضوعات التى يتكلم عنها أو الأحكام والعبادات التى يعرضها عليهم وبأسلوب سهل مقبول ، وبذلك يستنير الناس ويتعرفون على أحكام دينهم بيسر وسهولة .

والداعية الناجح « هو الذى يعظ الناس ويفقهم بحيث لا يغطى وعظه على فقهه ولا فقهه على وعظه »(1) .

ولذا فعليه أن يحرص على ربط الأحكام بأدلتها من الكتاب والسنة وما أرشد إليه من اعتبارات أخرى كالإجمـــاع والقياس والاستصلاح والاستحسان وغيرها من أدلة مالا نص فيها .

وأحذر إخواننا الخطباء والدعاة إلى الله من الخوض فى دقائق علم الـكلام وخلق الأفعال ورؤية البارى يوم القيامة ، لأن هـــذه من الأمور التى لا يصح عرضها على عوام الناس مخافة اختلال يتطرق إلى عقائدهم ، يصعب عليهم الخلاص منه بعد ذلك وعلى إخواننا الخطباء الاقتصار فى وعظهم وإرشادهم على ملء قلوب العوام بالتصديق الجازم بكل ماجاء به رسول ﷺ وقبوله والإذعان له . تصديقاً سليما من كل شك بالمقدار الذى نطق به الـكتاب وصحت به السنة .

وعليه أن يبتعد عن المتشابه من آيات الصفات وأخبارها ويبين — إن سئل — أن الأمة الإسلامية قد أجمعت على أن الله منزه عن مشابهة المخلوقات

---

[1] ثقافة الداعية ص ٨١

وأنه قد قام البرهان العقلى والنقلى على هذه العقيدة فكانت هى الأصل المحكم فى الاعتقاد الذى يجب أن يرد إليه غيره وهو التنزيه .

ولا بأس أن يبين لمن يسأل عن نصوص الكتاب أو السنة التى وردت وظاهرها ينافى هذا التنزيه ، لا بأس من أن يبين طريقتى السلف والخلف فى هذا الأمر وهما ينزهان المولى سبحانه عن المماثلة والمشابهة بالحوادث ، إلا أن السلف يفوضون الأمر إلى الله فى فهم الحقيقة ، مع توضيح أن المولى يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ، ويأتينا فى ذلك بما يقرب المعانى لعقولنا ، ويصورها لمخيلاتنا ، وأما الخلف فطريقتهم التأويل ، لإيمانهم بأن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل ، وأنه لا يخرج شىء منه عن المعقول ، ويقولون بأن العقل إذا جزم بشىء كالتنزيه عن مشابهة المخلوقات وورد فى النقل خلافه ، يكون الحكم العقلى القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره . ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه ويأتى ذلك عن طريق التأويل .

ثم يبين أن الطريقتين صحيحتان : وإن كانت طريقة السلف أسلم لما فيها من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد لله . والبعد عن المخاطرة فيما لا ضرورة ولا حاجة إليها . أما طريقة الخلف فهى أعلم وأحكم لما فيها من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم وهى أولى فى تعليم الناس وأبعد لأفكار العامة عن توهم التجسيم(١) .

أهم الكتب التى يمكن للداعية أن يعتمد عليها :

أولا ـ بالنسبة لكتب التفسير :

الخطيب الداعية فى حاجة إلى اقتناء مراجع التفسير الكبرى مثل :

---

[١] راجع كتاب هداية المرشدين ص ١٢٢ — ١٢٥

القرطبي — الفخر الرازى — الألوسى — ابن كثير — بالإضافة إلى كتب التفسير الحديثة كتفسير — المنار — فى ظلال القرآن — التفسير الواضح — وغيرها من التفاسير الكثيرة .

وبالنسبة للتفسير على وجه الخصوص وقد دون فيه مئات من الكتب يراعى فيه كما قلنا عدم الاعتماد على آراء المفسرين التى اعتبرها جمهور العلماء ضعيفة أو شاذة ولا نغتر أبداً بكون صاحب الرأى من المفسرين الكبار فهو بشر قبل كل شىء ، وجل من لا يخطىء ، فها هو مثلا شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبرى على جلالة قدره ومنزلة كتابه فى التفسير . يختار أحياناً تأويلات ضعيفة بل هى غاية فى الضعف . كتفسيره لقوله تعالى : « واهجروهن فى المضاجع » بأن معناها « قيدوهن » .. من هجر البعير إذا شده بالهجار . وهو القيد الذى يقيد به . والمراد : تقييد النساء لإكراههن على ما تمنعن عنه » .

ولعلنا نعرف كيف ملئت كتب التفسير بالإسرائيليات وقصة أم المؤمنين زينب بنت جحش . وأسباب طلاقها من زيد بن حارثة تجد مفسرين كباراً يروون — وللأسف — قصة حب عاطفى — لرسول الله ﷺ كانت هى سبب الطلاق مما جعل المستشرقين والمبشرين يصنعون منها قصة درامية غرامية يتخذون منها وسيلة للطعن فى رسول الله ﷺ وحجتهم أن ذلك موجود فى أمهات كتب التفسير .

وقصة الغرانيق موجودة أيضاً فى كتب التفسير . وقصص كثيرة أخرى شوهت وجه الإسلام الأبيض وعكرت صفو تراثنا الثقافى تجدها فى كتب التفسير ولهذا فإن على الخطيب الداعية أن يكون حريصاً حين يقرأ كتب التفسير وأن يتريث كثيراً قبل أن يتعرض لموضوع فيه خلاف أو غير مستساغ عقلا . وعليه ألا يكتفى بكتاب واحد من هذه الكتب ويهمل سائرها بأن لكل منها مزية لا توجد غالباً عند غيره . وعليه أن يأخذ ويقتبس من كل كتاب خير

ما فيه ولب ما يتميز به . ويحترز مما فيه من أهواء وشطحات . وليحاول أن يعرض عن الحشو والفضول والاستطراد الذى ملئت به كتب التفسير ولا داعى للاستغراق فى المباحث اللفظية أو المسائل النحوية أو النكات البلاغية كما لا داعى لذكر الخلافات الفقهية أو التطويل فى المجادلات الكلامية .

وإن كنت أنتقى لخطاباتنا من الكتب القديمة تفسير ابن كثير لأنه جمع خلاصة ابن جرير الطبرى مع زيادة تنقيح وتهذيب وحسن ترجيح وتعقيب ، ويكفى فيه ما قاله السيوطى : (إنه لم يؤلف على نمطه مثله)(١) .

وأعتقد أن تفاسير المحدثين لا يستغنى عن الاستفادة منها دعاة هذا العصر كتفسير القاسمى والمنار وفى ظلال القرآن والتفسير الحديث لدروزه — أيضاً مع الحذر مما قد يكون فيها من غلو أو تقصير . لأنهم بشر غير معصومين ، وكل بشر غير معصوم يؤخذ من كلامه ويترك .

ثانيا : كتب السنة : —

لا يستغنى الخطيب الداعية عن كتب السنة فهى المصدر الثانى للتشريع ، وكتب السنة كثيرة ، ولذا فإن على الخطيب الداعية أن يقدم الأهم منها ومن كتاب (ثقافة الداعية) للدكتور يوسف القرضاوى أنقل ما جمعه من كتب السنة المهمة والتى ينبغى للداعية أن يهتم بها والتى أرى أنها كافيـة فلا أحذف منها أو أضيف إليها شيئاً(٢) .

وكتب السنة كثيرة جداً ، ولكن ينبغى للداعية أن يقدم ما هو الأهم منها — مثل الكتب الستة ، ومسند الدارمى ، وموطأ مالك ، ومسند أحمد .

---

[١] راجع « التفسير والمفسرون » الدكتور محمد حسين الذهبى جـ١ ص٤٢٧ الطبعة الأولى

[٢] راجع كتاب ثقافة الداعية صفحات (٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦) وقد نقل كما [illegible] دون تصرف .

ولبعض هذه الكتب مختصرات يمكن أن تكفى من لم تسعفه الهمة والوقت بقراءة الأصول ذاتها ، مثل التجريد الصريح للزبيدى ، وهو مختصر البخارى حذف منه المكررات والمعلقات والأسانيد ، وكذلك : مختصر صحيح مسلم للمنذرى بتحقيق الالبانى ، وهناك كتب عملت على جمع هذه الكتب أو بعضها مثل : جامع الأصول لابن الأثير جمع فيه أحاديث الأصول الخمسة : الصحيحين وسنن أبى داود والترمذى والنسائى ، وجعل سادسها موطأ مالك ، بدلا من سنن ابن ماجه لأن فيه كثيراً من الضعيف . بل فيه أحاديث موضوعة ، ولهذا ود بعض الحفاظ لو كان مسند الدارمى مكانه (وذلك بعد حذف المكرر منها) .

ومثله : مجمع الزوائد للهيثمى . جمع فيه زوائد مسانيد الإمام أحمد والبزار وأبى يعلى ، ومعاجم الطبرانى الثلاثة ، وهو مطبوع فى عشرة أجزاء ، والمراد زوائد هذه الكتب على الكتب الستة على اعتبار ابن ماجه منها .

وقد قام أحد علماء الحديث فى القرن الحادى عشر — وهو العلامة . محمد بن محمد بن سليمان المتوفى بدمشق سنة ١٠٩٤ — بجهد مشكور فى الجمع بين كتابى ابن الأثير والهيثمى ، وأضاف إليهما زوائد الدارمى وابن ماجه ، فكان هذا الكتاب بحق موسوعة حديثة جمعت أكثر من عشرة آلاف حديث نبوى من أربعة عشر كتاباً ، وسمى كتاب « جمع الفوائد من جامع الاصول ومجمع الزوائد » .

وبجوار هذا اللون من تجميع الاحاديث، وجد لون آخر أو طريقة أخرى وهى التجميع حسب أوائل الحديث ، وفقاً لترتيب الحروف الهجائية .

ومن ذلك ماصنعه الحافظ السيوطى فى كتابيه « الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير » وقد أضاف إليه زيادات ضمها الشيخ النبهانى فى كتاب سماه « الفتح الكبير بزيادة الجامع الصغير » .

والكتاب الآخر هو « الجامع الكبير » الذى حاول أن يجمع فيه كل

ما وصل إليه من كتب الحديث وقد رتبه الشيخ علاء الدين « على المتقى » من علماء الهند على الابواب والموضوعات فى كتابه الذى سماه « كنز العمال فى سنن الاقوال والإفعال ».

وثمت كتب أخرى متخصصة هدفها تجميع نوع معين من الاحاديث كأحاديث الادعية والاذكار وما يتعلق بها فى مثل كتاب « الاذكار » للإمام النووى — وكتاب « الكلم الطيب » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وأحاديث الآداب والفضائل وما يتعلق بها مثل كتاب «الادب المفرد» للبخارى ، وكتاب « شعب الإيمان » للبيهقى ، وكتاب « رياض الصالحين » للنووى ، والأحاديث التى تتضمن الترغيب والتحبيب فى الخير والطاعة ، والترهيب والتخويف من الشر والمعصية ، مثل « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذرى أو الأحاديث المتعلقة بالأحكام الفقهية مثل «عمدة الأحكام» للحافظ المقدسى ، ويشمل أحاديث الصحيحين فقط ، و « الإلمام » للامام ابن دقيق العيد ، و « منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار » للمجد بن تيمية ، و « بلوغ المرام من أدلة الأحكام » للحافظ ابن حجر .

وإلى جانب هذه الأنواع من الكتب توجد كتب الشروح ، وهى كتب جد نافعة ولا يستغنى عنها داعية ، ففيها من الفوائد الحديثية ، والفقهية والأصولية ، واللغوية والأدبية والتاريخية والاخلاقية ، ما يوهد فيه ذو عقل ، فهى مفاتيح لمن أراد أن يفتح مغاليق ما أشكل من الاحاديث أو بدأ تعارضه فى الظاهر ، وهى مصابيح تنير الطريق لمن يريد معرفة ما تضمنته الأحاديث من أحكام وآداب وتشريع وتوجيه . ولا يسع عالماً أن يعرض عن هذه الثروة ويبدأ وحده من جديد ، فهذا مناف لمنطق العلم ، ومنطق العقل ، ومنطق التاريخ .

من هذه الكتب :

(أ) شروح البخارى : مثل عمدة القارىء للعينى ، وإرشاد السارى

القسطلاني ، وفتح الباري لابن حجر ، وهو الذي قال فيه الشوكاني : لا هجرة بعد الفتح !

(ب) شروح مسلم : وأبرزها شرح النووي ، وشرح الأبي والسنوسي .

(ج) شروح أبي داود : مثل : « معالم السنن » للخطابي ، و « تهذيب السنن » لابن القيم و « عون المعبود » للديانوي ، و « بذل المجهود » للسهار نفوري ، و « المنهل العذب المورود » لمحمود خطاب السبكي ، ولكنه لم يكتمل .

(د) شروح الترمذي : مثل « عارضة الأحوذي » لابن العربي ، و « تحفة الأحوذي » للمباركفوري .

(هـ) شروح النسائي : أعني تعليقات السيوطي والسندي على السنن الصغرى .

(و) شروح الموطأ : مثل « المنتقى » لأبي الوليد الباجي ، « وتنوير الحوالك » للسيوطي و « المسوى » للدهلوي و « أوجز المسالك » لمحمد زكريا الكاندهلوي .

(ز) شرح المسند في الفتح الرباني ، لأحمد عبد الرحمن البنا ويتضمن ترتيب وشرح وتخريج المسند ، وكذلك تعليقات أحمد محمد شاكر على الأجزاء التي صدرت من المسند بتحقيقه .

(ح) شرح « مشكاة المصابيح » المسمى « مرقاة المفاتيح » للعلامة علي القاري في خمسة مجلدات و « مرعاة المفاتيح » للمباركفوري .

(ط) شرح « الجامع الصغير » للعلامة المناوي في كتابه « فيض القدير » في ستة مجلدات وقد اختصره في شرح مختصر سماه « التيسير » . وقد طبع في مجلدين ، « والسراج المنير » للعزيزي ، وقد طبع في ثلاثة مجلدات .

(ى) شرح «رياض الصالحين» وهو المسمى «دليل الفالحين» في أربعة مجلدات .

(ك) شروح الأربعين النووية و «الخمسين الرجبية» وأعظم شروحها بلا شك هو شرح ابن رجب الذى سماه «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم» .

(ل) شروح أحاديث الأحكام : مثل : «الإحكام - شرح عمدة الأحكام» لابن دقيق العيد ، وعليه حاشية الصنعاني المسماة «العدة» . . ومثل «نيل الأوطار» - شرح منتقى الأخبار للعلامة الشوكاني ، و «سبل السلام شرح بلوغ المرام» للصنعاني» .

كما ينبغى الاهتمام بكتب «الغريب» وهى التى تعنى بشرح المفردات والجمل الغريبة فى الحديث ، مثل «غريب الأحاديث» لأبى عبيد ، «الفائق فى غريب الحديث» للزمخشرى ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، وهو موسوعة جليلة ، ومشارف الأنوار للقاضى عياض» . انتهى

ومما يجب الالتفات إليه أن يعرف الداعية الخطيب أن هناك حملات تشكيك يشنها خصوم الإسلام من المبشرين والمستشرقين والملحدين على حديث الرسول والسنة المطهرة ، ووصل الأمر إلى حد تأثر بعض المسلمين بهذه الحملات حتى رأينا منهم من يطعن فى كرام الصحابة ومن يشكك فى دواوين السنة الأصلية ، حتى صحيح البخارى ومسلم ، ولذا فإن عليه أن يكون واعياً لهذه الحملات ، قادراً ومستعداً للدفاع عن سنة النبى ﷺ ، ويمكنه الاستعانة ببعض الكتب التى ألفت للرد على هذه الحملة الاستشراقية التبشيرية ويكشف زيفها مثل :

١ - الحديث والمحدثون   الدكتور محمد أبو زهو .

٢ - السنة ومكانتها فى التشريع   الدكتور مصطفى السباعى

٣ – السنة قبل التدوين　　　　الدكتور عجاج الخطيب .

٤ – الدفاع عن السنة　　　　الدكتور محمد أبو شهبة .

٥ – الدفاع عن أبي هريرة　　　　الدكتور عجاج الخطيب .

ثالثا : كتب السيرة النبوية :

السيرة النبوية هي الجزء العملي من السنة المطهرة ، وهي التي تتعلق بسيرة النبي وتسجيل مواقفه في كل أمور الحياة ، وهديه في كافة شئون الدين والدنيا ، لحياة الرسول ﷺ كلها كانت تدريباً وتعليما وإرشاداً للمسلمين . وفي هذه الحياة العملية نستطيع أن نقول إن الإسلام كان مجسماً في حياة رسول الله ﷺ . ولعل قول عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ حين سئلت عن خلقه يوضح ذلك تماماً ويبين لمن يستمع إلى هذا القول أن النبي ﷺ كان قرآناً يمشي على قدميه ، أو أن القرآن كان إنساناً يسير على قدمين . قالت عائشة – حين سئلت عن خلقه ﷺ « كان خلقه القرآن » . أي أنه ﷺ كان نموذجاً حياً للفضائل والأخلاق التي دعا إليها القرآن الكريم .

وهكذا وجب على الداعية الخطيب أن يعرف كيف أن معرفته لسيرة النبي هامة إلى أبعد حد ، وهي من أساسيات مصادر وعظه وخطبه ودروسه ومحاضراته .

وللسيرة مصادر شتى غير كتب السيرة المعروفة مثل سيرة ابن هشام أو « السيرة الحلبية » أو « الروض الأنف » وهي شرح لسيرة ابن هشام و « إمتاع الأسماع » للمقريزي .

فالخطيب الداعية يستطيع أن يجد السيرة النبوية في مصادر أخرى كثيرة : –

١ – يجدها في القرآن الكريم وتفاسيره وبخاصة المأثور منها .

٢ – ويجدها أيضاً في كتب الحديث حيث أنها تتضمن إلى جانب أقواله

أفعاله وتقريراته وأوصافه الخلقية والخلقية وفيها أيضا مراحـــل جهاده وغزواته .. إلخ .

٣ — يجد السيرة أيضاً فى كتب الشمائل والهدى النبوى . مثل « الشمائل المحمدية » للترمذى ، و « زاد المعاد فى هدى خير العباد » لابن القيم — وهذا الكتاب الأخير من الكتب المهمة جداً . وتوجد منه طبعة حديثة محققة تحقيقاً علمياً جيداً هذا بالإضافة إلى كتب دلائل النبوة ، وكتب التاريخ العام . كتاريخ الطبرى ، وابن كثير ، وابن الأثير ، وغيرهم .

رابعا : كتب الفقه :

لا أعتقد أن داعية مسلماً يستطيع أن يستغنى عن كتب الفقه وعن معرفة قدر مناسب من الثقافة الفقهية .

والخطيب الدينى ، بل كل داعية مسلم معرض لسؤال الناس ليجيبهم عن الحلال والحرام وشئون العبادة والأسرة ، وغير ذلك مما يكثر السؤال عنه ، ويلجأ الناس عادة إلى من يتصدر للخطابة الدينية , أو لإمامة الناس يلتمسون منهم الفتوى فى ذلك ، ولذا فإنه فى حاجة ماسة إلى معرفة قدر مناسب من الثقافة الفقهية — كما قلنا — وفى حاجة أيضاً إلى بعض الكتب التى تعينه على ذلك والتى يستطيع أن يستمد حكمها إن لم يكن يعرفه ، حين يراجع ذلك فى مصادره الموثقة ، وإلا فسيضعف موقفه أمام الجمهور وتأثيره فيهم إن سكت عن الإجابة على أسئلتهم أو تهرب منها أو أفتى بغير علم .

وكتب الفقه كثيرة ومتعددة ، وعليه أن يقتنى كتباً متنوعة المذاهب ، ولا يعتمد على كتاب فقه يلتزم مذهباً واحداً ، بل إنه إذا كان يلتزم بمذهب من المذاهب الفقهية فعليه أن يترك هذا المذهب فى بعض المسائل التى يشعر بضعف أدلتها ويفتى برأى المذهب الذى يرى فيه أن دليله أقوى من دليل مذهبه ، وهذا يجعله يتعرف على المذاهب الاخرى وبخاصة التى يتبعها بعض من يدعوهم أو

الخطاب فيهم ، فقد يعين خطيب مسجد فى بيئة حنبلية أو شافعية وهو مالكى ، أو يعين فى بيئة مالكية أو حنفية وهو شافعى ، أو العكس ، فإنه حين يعيش مع مذهبه فقط ولا يحاول الإلمام بما يتميز به مذهب البلد الذى يقيم فيه عن مذهبه أنكر عليه الناس ما لا يجوز أن ينكر ، ولذا فإن على الخطيب الداعية أن يكون حريصاً كل الحرص على ألا يعارض ما يراه من قوم يتبعون مذهباً غير مذهبه قبل أن يعرف مذهب هؤلاء القوم ومأخذه فى الاستدلال .

فقد يرى إن كان شافعياً فقط لا يعرف غير مذهبه ، قد يرى إذا ما حل فى بيئة مالكية أهل هذه البيئة لا يتطهرون من بول وروث ما يؤكل لحمه فيظن أنهم مخطئون مع أنهم يعتمدون على مذهب يبيح لهم ذلك .

وهكذا قد يرى الحنفى من أهل بلد شافعية أو حنابلة ، رفعهم لأيديهم عند الركوع وعند الاعتدال منه ، أو يقرأون الفاتحة خلف الإمام ، أو يرفعون أصواتهم بالتأمين ، فيبادر بإنكار ما عليه القوم ، وهو لا يعلم أن هذا الذى يصنعونه إنما أخذوه من مذهبهم الذى يتعبدون على أساسه .

لهذا كله كان على الداعية أن يقرأ على الأقل كتاباً فى الفقه المقارن مثل : — « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » لابن رشد .

أما الكتب التى يمكن أن يقتنيها فبعضها كتب قديمة ، وبعضها كتب حديثة فمن الكتب القديمة التى يمكنه الانتفاع بها : —

١ — كتاب « المغنى » لابن قدامة الحنبلى .

٢ — « المجموع » للنووى الشافعى .

٣ — « الاستذكار » لابن عبد الله المالكى .

٤ — « المحلى » لابن حزم الظاهرى .

هذا بالإضافة إلى ضرورة انتفاعه بكتب فقه الحديث مثل « الإحكام »

لابن دقيق العيد و « نيـــل الأوطار » للشوكاني و « سبل السلام » للصنعاني و « الروضة الندية » لصديق حسن خان .

ومن الكتب الحديثة « الفقه على المذاهب الأربعة » والذى قامت بعمله لجنة من علماء الأزهر لحساب وزارة الأوقاف ، ولعل أفضل الكتب وأيسرها والتي يمكن الاستفادة منها وأكثر دون عناء كبير ، هو كتاب « فقه السنة » للشيخ سيد سابق .

ولعل مما يجب التنبيه إليه ضرورة التزام الداعية بالسنة الصحيحة الصريحة والتي يجب ألا يدعها لأنه مقيد بمذهب معين ، فبعض المذاهب مثلا يرى ضرورة جلوس من يدخل المسجد والإمام يخطب ، ولذا نرى بعض خطباء المساجد يلتزمون هـذا الرأى فيأمرون الداخل إلى المسجد بالجلوس إذا أراد أن يصلى ركعتين تحية المسجد ، مع أنه جاء بالحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى صحيحه ما يفيد جواز الصلاة والإمام يخطب . [1]

وعلى الداعية خطيب المسجد أن يحاول الإلمام بعلم أصول الفقه حتى يعرف الأدلة المتفق عليها بين فقهاء الأمة وهى الكتاب والسنة ، وبقية مصادر التشريع الاخرى المتفق عليها والمختلف عليها .

ولا داعى أن يقرأ المطولات فى مثل هذه العلوم فهذا للمتخصص تخصصاً دقيقاً ، ولكن حسبه أن يقرأ ما يعطيه فكرة ملائمة ، وسيجد ذلك فى مثل :

١ — « جنة الناظر » لابن قدامة .

---

[١] (عن ابن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : جاء سليك الغطفانى يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر فقعد سليك قبل أن يصلى ، فقال له النبي ﷺ : « أركعت ركعتين » . قال : لا . قال : « قم فاركعهما » . . .) الحديث رقم ٤١٨ من مختصر صحيح مسلم المنذرى .

٢ - «إرشاد الفحول» للشوكانى .

٣ - «أصول الفقه» للخضرى .

٤ - علم أصول الفقه» للشيخ عبد الوهاب خلاف .

والكتابين الأخيرين من الكتب الحديثة ، والكتاب الأخير منهما كتاب جيد ، سهل الأسلوب واضح الفكرة .

خامسا - كتب العقيدة والثقافة الإسلامية :

الذى ينبغى أن يعرفه الداعية أنه مطالب بأن يعيش عصره ، وأن يكون واسع الفكر والثقافة ، وألا يكون مجرد حافظ الكتب ناقل لألفاظها وماتحويه من جمل وأساليب دون أن يحاول هو بلباقته وذكائه أن يستنبط ويستخرج مايحتاج إليه المستمع ، ومايؤثر فيه ، مع تركيزه على الحجج والبراهين ، ليصدق الناس كلامه وينتفعوا بما يلقيه عليهم ، وما يدعوهم إليه ، ولايكفيه أبداً أن يقتنى الكتب التى عرضنا لبعضها — ولاحتى عشرات الآلاف من المجلدات دون محاولة الاستفادة منها ، كما لاتكفيه أيضاً الكتب القديمة والمراجع الكبيرة التى ألمحنا إلى بعضها فى التفسير والحديث والسيرة والفقه ، بل عليه أن يدرس النظام الإسلامى وفلسفة الإسلام دراسة واعية ، وأن يهضم ذلك هضما ، فدراسة العلوم الإسلامية من التفسير والحديث والفقه والتوحيد ونحوها لاتعطى نظرة عامة للإسلام كله ، وإنما تعطى نظرات متفرقة لجوانب منه كل على حدة دون إحكام الربط بينها .

ودراسة النظام الإسلامى أو فلسفة الإسلام نعنى بها دراسة الإسلام خالصاً غير مشوب ، باعتباره نظاما كاملا للحياة (كل الحياة) الفردية والاجتماعية والمادية والمعنوية .

ويستطيع الداعية أن يستفيد من كتابات المعاصرين من رجال الفكر الإسلامى على مستوى العالم كله ، وذلك فى المجالات الأساسية للنظام الإسلامى ،

وسيجد كثيراً من الكتب التي تنتشر والحمد لله في مكتباتنا الإسلامية ، والتي سيجدها قد ألفت في جميع المجالات كمجال الأخلاق ، ومجال العبادة والشعائر ، ومجال التشريع والنظام الاجتماعي ، ومجال العقيدة والأسس الفكرية لأمثال أبي الأعلى المودودي ، وسيد قطب ، ومحمد الغزالي ، ونديم الجسر ، وأبي الحسن الندوي ، ومصطفى السباعي ، ومحمد المبارك ، والبهي الخولي ، وعبدالقادر عودة ، ووحيد الدين خان ، ويوسف القرضاوي ، وعبدالكريم زيدان ، وسعيد حوى ، وعباس العقاد ، وغيرهم من رجالات الفكر الإسلامي الذين تمتلىء بكتبهم مكتبات البلاد الإسلامية والعربية على السواء .

وأعتقد أن من يرغب في اقتناء كتب النظام الإسلامي يستطيع أن يحصل على مئات من هذه الكتب لهؤلاء الذين ذكرناهم من العلماء والمفكرين ولغيرهم ممن تضيق صفحات الكتاب عن حصرهم .

هل يؤدي خطيب الجمعة مهمته كما ينبغي ؟

الواقع أن كثيرا من خطباء المساجد ليس لديهم من الثقافة أو القدرة أو الوعي ما يمكنهم من القيام بهذا الدور فكثير منهم يعتمدون على الخطب المنبرية المطبوعة يحفظونها عن ظهر قلب ويلقونها كالببغاوات ، وما أكثر الخرافات التي ينقلها كثيرون من هؤلاء الخطباء من الكتب الصفراء المليئة بالإسرائيليات والتي تسيء إلى العقل والدين معاً ، وقد أصبحت الخطابة عند كثيرين من هؤلاء مجرد وسيلة لكسب العيش فهي مهنة احترفوها لايهمهم إلا أن يعملوا من خلالها كموظفين محترفين دون البحث عن النتيجة .

أسباب تخلف الخطبة :

المعروف أن الخطابة الدينية متخلفة في جميع البلاد الإسلامية ولا تتناسب مع ظروف العصر — ومع أن مصر تعتبر من أقل هذه البلاد تخلفاً في هذه الناحية لأنها من الدول القليلة جداً التي تهتم بالدعاة والوعاظ مادياً وعلمياً ، ولهم

فيها معاهد متخصصة يتخرجون منها ، إلا أننا سنتحدث برغم ذلك عن أسباب تخلف الخطبة الدينية فى مصر وما نقدمه من علاج لهـذا التخلف ، ليكون ذلك طريقاً للعلاج فى بلاد أخرى أشد حاجة فيها للاصلاح — حيث لايوجد فى بعضها معاهد لتخريج الدعاة المتخصصين وحيث لايوجد فى بعضها الحافز المادى لتشجيع الطلاب على الالتحاق بهذه الدراسات المتخصصة — وحيث لايوجد فى معظمها المرتب المناسب لخطباء المساجد والوعاظ ليعيشوا حياتهم كلها للدعوة دون أن يفكروا فى مشاكلهم الأسرية أو حاجاتهم الطبيعية وليظهروا بالمظهر اللائق بهم وبالإسلام .

ولقد كانت الدراسة القديمة فى الأزهر (قبل التطوير) سبباً من أسباب ظهور أمثال هؤلاء الخطباء المحترفين ، وكانت طريقة تأليف الكتب وتدريسها مسئولة أيضاً وإلى حد كبير عن هذا التخلف والجمود كذلك نوع الكتب وعدم ملاءمتها لظروف العصر ، فقد احتفظ العلماء بطريقة سلفهم الأزهرى فى التأليف وهو أن يكون الكتاب مؤلفاً من شرح وحاشية وعند زيادة البيان تضاف إليه التقارير . ولذلك ظهر دعاة لإصلاح الأزهر يدعون إلى تغيير طريقة التأليف والتدريس ويعيبون على علماء الأزهر إيثارهم العزلة وجهلهم بالعلوم الحديثة وقد كان الشيخ محمد عبده يرى أنه لاسبيل إلى الإصلاح فى الأزهر إلا بتغيير هذه المناهج وطريقة تأليفها وتدريسها ، ويرى أن عكوف العلماء على كتبهم المألوفة فى التدريس ضياع للشريعة نفسها .(١)

أما الشيخ الظواهرى وهو أيضاً من الذين نادوا بالإصلاح فى الأزهر وساهموا بالفعل فى هذا الاصلاح ، فقد عاب على علماء الازهر إيثارهم العزلة وجهلهم بالعلوم الحديثة ، واقتصارهم على الوعظ والارشاد وكان يرى فيما يدرس بالازهر من كتب — القصور والجمود والتخلف ، ووصف الكتب بأنها كتب الشقاء وسوء الحظ على طلاب العلوم الاسلامية بل وصف الطريقة التى تدرس بها بأنها سفه مابعده سفه .(٢)

---

[١] راجع تاريخ الامام ص ٦٢١

[٢] الازهر تاريخه وتطوره ص ٢٦٢ مطبوعات وزارة الاوقاف وشئون الازهر سنة ١٩٦٤

ولو رجعنا إلى محاولات الساعين للإصلاح فى الأزهر ابتداء من رفاعة الطهطاوى حتى الآن لوجدناهم جميعاً يؤكدون أنه لا إصلاح بغير إصلاح طريقة التدريس والتخلص من الكتب العتيقة المعقدة، وتأليف كتب جديدة مشوقة سهلة مع ضرورة الحرص على الأمانة العلمية.

تطوير الأزهر كضرورة لتطوير الدعاة :

لهذا كان تطوير الأزهر ضرورة ملحة تقتضيها ظروف العصر باعتباره الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى ودراسته وتجليته ونشره، وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب ، فالأزهر يعمل على تزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الاسلامية والثقافة الدينية والعربية لغة القرآن، حيث يعمل على تخريج علماء عاملين متفقهين فى الدين يجمعون إلى الايمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح كفاية علمية وعملية ومهنية لتأكيد الصلة بين والحياة والربط بين العقيدة والسلوك، وتأهيل عالم الدين للمشاركة فى كل أسباب النشاط والانتاج والريادة والقدرة الطيبة — وعالم الدنيا للمشاركة فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وربما كان من أسباب عدم تمكن بعض خطباء المساجد كما قلنا من القيام بالدور الذى يجب أن يقوموا به وانعزالهم عن مجتمعهم الذى يعيشون فيه وعدم مشاركتهم فى الحياة العامة التى يجب أن يشاركوا فيها، سيطرة الثقافة الاستعمارية فى العالم الاسلامى لفترة طويلة وماصنعته من تفسير أن الاسلام عبادة وقربى إلى الله وفناء فيه فقط، وأن العمل للحياة شىء آخر يختلف عن الدين أو يتعارض معه، وزاد انعزال هؤلاء عن مجتمعهم تصور الناس بل وتصور هؤلاء أنفسهم أن خريجى الأزهر هم رجال دين وليس لهم أن يتصلوا بعلوم الدنيا اتصال النفع والانتفاع.

ولو رجعنا إلى المذكرة الايضاحية لمشروع قانون تطوير الأزهر سنة ١٩٦١م(١) لوجدنا أنه من أسباب صدور هذا القانون هذا الانعزال الذى تحدثنا عنه و حاجة العالم الاسلامى إلى من يساعده فى استكمال أسباب تحرره ونهضته والارتفاع بمستوى معيشته، فقد جاء فى هذه المذكرة أنه من علم الأزهر شع نور الاسلام فى بلاد كثيرة من أفريقيا وآسيا وزاد عدد المسلمين عشرات الملايين، وأن بعوث الأمم المختلفة إلى الأزهر كانت سبباً فى توثيق علاقاتنا ببلاد كثيرة منذ أقدم العصور إلى اليوم، واكتسب اسم الأزهر بذلك قدسية واكتسب المنتسبون إليه احتراما وصار رأيه هو الرأى فى كل مايتعلق بالعقيدة والشريعة وصار هو الجامعة الاسلامية الكبرى فى الشرق والغرب.

وتحدثت المذكرة أيضاً بعد تحدثها عن سيطرة الثقافة الاستعمارية فى العالم الاسلامى مما سبب انعزال خريجى الازهر عن مجتمعهم الذين يعيشون فيه وجود ضرورة ملحة لتأهيل العالم الدينى المتخصص فى عمـــل من أعمال الخدمة والانتاج التى تحتاج إليها نهضة المسلمين فى كل البلاد خاصة وأن العالم الاسلامى ينتظر من الازهر أن يعد أبناءهم إعداداً يكونون فيه مستكملين لكل العناصر التى تهيؤهم لحمل أعباء النهضة فى بلادهم خصوصاً بعد أن عاد أكثر المبعوثين من تلك البلاد إلى بلادهم فأصبح مصيرهم مثل مصير خريجى الازهر فى بلادنا، تعطل فى الخريجين زادهم انعزالا عن المجتمع وعدم اعتراف من الدولة بهم، باعتبار أن الازهر غير مساير لظروف التطور، مما أدى إلى فقد الثقة بالازهر وخريجى الازهر فى مجتمعات المبعوثين، حتى أوشك هـذا الشعور أن يقطع كثيراً من الاواصر بيننا و بين تلك البلاد، حتى أصبحت بعض البلاد الاسلامية تحول بعثاتها كلها أو بعضها إلى الجامعات المدنية فى مصر أو غيرها من البلاد.

من أجل ذلك كله كان لابد من تجديد الازهر وتطويره والاعتراف بمكانته وأثره مع الاحتفاظ له بطابعه وخصائصه وصفته التى استحق بها أن

---

[١] راجع القانون رقم ١٠٣ - ١٩٦٠ بشأن إعادة تنظيم الازهر والهيئات التى يشملها.

يبقى مسيطراً على تاريخنا وعلى العلاقات الوثيقة بيننا وبين إخوان لنا فى شرق الارض وغربها من ألف سنة .

وقد قررت عدة مبادىء لتكون أساس هذا الاصلاح من أهمها : (١)

١ — بقاء الازهر وتدعيمه ليظل أكبر جامعة إسلامية وأقدم جامعة فى الشرق والغرب .

٢ — تحقيق قدر مشترك من المعرفة والخبرة بين المتعلمين فى جامعة الازهر والمعاهد الدينية الازهرية وبين سائر المتعلمين فى الجامعات والمدارس الاخرى مع الحرص على الدراسات الدينية والعربية التى يمتاز الازهر بها منذ كان .

٣ — توحيد الشهادات الدراسية والجامعية فى كل الجامعات ومعاهدالتعليم فى كل الجمهورية .

٤ — تخريج علماء حصلوا كل ما يمكن تحصيله من علوم الدين وتهيء لكل ما يمكن من أسباب العلم والخبرة وفى كل مجال من مجالات العمل والانتاج فلا تكون كل حرفتهم أو كل بضاعتهم هى الدين ،

٥ — تحطيم الحواجز والسدود بينه وبين الجامعات ومعاهد التعليم الاخرى وإزالة الفوارق بين خريجيه وسائر الخريجين فى كل مستوى وتكافؤ الفرص بينهم جميعاً فى مجالات العلم ومجالات العمل .

هل أفاد التطوير ؟

الحقيقة أن تطوير الازهر لم تظهر كل آثاره المرجوة منه خصوصاً بالنسبة لشاغلى وظيفة الامامة والخطابة حيث لازلنا فى مرحلة الانتقال والتطوير فى حاجة إلى وقت طويل حتى يؤتى ثماره المرجوة خاصة وأن التطوير عبارة عن

---

[١] راجع الازهر تاريخه وتطوره ص ٤٥٩

ثورة فكرية لابد لهـــا من اتباع وأنصار يؤمنون بها ويخلصون لها ولمبادئها .

وقد جرت العادة أن يكون بعد كل انقلاب سياسى أو اجتماعى أو فكرى رد فعل وهزة عنيفة تبعد النتيجة المرجوة من هذا الانقلاب عن وضعها الصحيح تماماً كما حدث بالنسبة للمسلمين فى زمن عمر وعثمان رضى الله عنهما حين نشأ مجتمع إقطاعى على أنقاض المجتمع القبلى بعد أن بدأ المسلمون يحصلون على ضياع كبيرة فى الشام والعراق ومصر وجهات أخرى فى الدولة الإسلامية ولم تستطع المبادىء المتشددة الرشيدة التى وضعها عمر بصدد مسألة امتلاك الأراضى أن تمنع من ظهور أورستقراطية إسلامية فيما بعد وظهرت بذلك طبقة أخرى جديدة لم يكن من المفروض أن تظهر وثبتت ذلك العبارة المأثورة التى تقول : « إنه يوجد من بين كل مجتمع قبلى مجتمع آخر إقطاعى » . (١)

ذلك كله أردت به أن أوضح أن التطوير الذى قصد به إصلاح الأزهر وهو من وجهة نظرى انقلاب كبير لم يكن ليحدث بسهولة ، ولم يصل بالأزهر بعد إلى ماكان مرجواً له من إصلاح .

كيف يؤتى التطوير ثماره المرجوة :

يجب أن أنبه إلى موضوع هام . التطوير لم يكن القصد منه أبداً مجرد تغيير طريقة الكتب أو تغيير طريقة التدريس مع تدريس أى كتب أو تدريسها بأى طريقة ولكن كان المطلوب من التطوير دراسة الإسلام وفلسفته وأخلاقياته ونظرياته العلمية بطريقة جديدة تتناسب مع العصر وتطوره حتى تستطيع أن تقف فلسفة الإسلام وأخلاقياته فى وجه الفلسفات المادية المعاصرة ، وأن تثبت بالأدلة العلمية والعملية حضارة الإسلام وتطوره وتميزه وضرورته وإثبات أنه دين الفطرة والسلام والأمان وملاءمته لكل زمان ومكان .

---

[١] راجع الادارة العربية تأليف س . أ ق . حسينى ترجمة ابراهيم العدوى مطبوعات الالف كتاب - ١٨٦ ص ٢٠

كان من المفروض من التطوير أن يخرج الأزهر من عزلته عن العالم وأن ينفتح به على آفاق فكر جديد يتناسب مع ما يحتاج إليه العالم الإسلامى بالفعل بعد أن وضعته الظروف السياسية التى يمر بها فى هذا العصر فى موضع الاختيار حتى يستكمل بالإسلام وفكر الإسلام أسباب تحرره ونهضته والارتفاع بمستوى معيشته ، ليستطيع بالإسلام والفكر الإسلامى أن يقضى على الثقافة الاستعمارية التى استطاع الاستعمار فى فترة استعماره العالم الاسلامى أن يلون بها أفكار أهله وعقائدهم ووضع بها فى نفوسهم موازين جديدة وقيما جديدة حاول بها أن يباعد بينهم وبين الاسلام .

وقد قلنا إن الاستعمار والاستشراق قد استطاعا فعلا أن يقنعا الكثيرين بأن الاسلام مجرد عبادة وقربى إلى الله وفناء فى الله ، وأن العمل للحياة شيء آخر يختلف عن الدين أو يتعارض مع الدين .

المفروض فى التطوير أن ينقى العقيدة مما شابها من خرافات وأضاليل وأن يبعد المسلمين عن الاسرائيليات ، وأن يعد العالم الدينى الفاهم المثقف الواعى الخبير فى الدعوة أو التجارة أو الصناعة أو التعليم أو الصحة المتخصص فى عمل من أعمال الخبرة أو الانتاج التى تحتاج إليها نهضة المسلمين فى كل البلاد .

وحتى لا يضيع الأزهر وينحرف عن مساره الصحيح الذى رسمه له التطوير فإنى اقترح ما يأتى لامكان النهوض به وتطويره تطويراً صحيحاً ، والافادة من هذا التطوير الذى قصد به الاصلاح ولم يصل به بعد إلى هذا الاصلاح :

أولا : بالنسبة للتعليم الاعدادى والثانوى بالأزهر يجب أن يتم تعديل مناهج الدراسة واختصار المواد إلى الحد الذى لا يرهق الطالب ، ووضع حوافز تشجيعية للطلاب للاقبال على هذا النوع من التعليم ، كذلك ضرورة إعادة مكاتب تحفيظ القرآن الكريم والاهتمام بها وامتحان الطلاب فى القرآن الكريم كله امتحاناً حقيقياً .

ويمكن تقسيم حفظ القرآن على سنوات الدراسة الابتدائية وامتحان الطلاب فى أجزاء منه كل عام فى الاعدادى والثانوى ، وكما قلت : مع ضرورة وضع حوافز تشجيعية مالية وأدبية والتوسع فى إنشاء المعاهد الدينية الاعدادية والثانوية فى كل المحافظات .

ثانيا : بالنسبة للكليات يجب الالتزام بالمناهج الموضوعة لكل فرقة دراسية وتكليف الاساتذة بتأليف الكتب طبقاً لهذه المناهج ، على ألا يبدأ تدريسها إلا بعد عرضها على مجلس القسم ليقرر مدى مطابقتها للمنهج من عدمه، ويضع تقريراً بذلك يرفع إلى مجلس الكلية ليقر تدريس الكتاب أو عدم تدريسه .

ولايلزم من تدريس كتاب لأحد الأساتذة بفرقة من الفرق ضرورة أن يكون هو شخصياً القائم بتدريسه ، على أن تكون الأسئلة التى يمتحن فيها طلاب الفرقة مرتبطة بالمنهج ارتباطاً وثيقا .

ويمكن اختيار الكتاب المطلوب تدريسه ، بالمفاضلة بين كل ماألف فى المادة لتقرير أفضلها كل عام ، ولامانع من منح صاحب المؤلف المختار منحة حافزة .

ويجب ربط الطالب بالأستاذ طوال العام الدراسى ، وذلك عن طريق تكليفه بأبحاث شهرية يمنح عنها درجات أعمال السنة التى ينبغى أن تعود لتعود إلى الكلية مكانتها بين طلابها .

كما يجب العناية بالتدريب فى كليات الدعوة وأقسام الدعوة بكليات أصول الدين ويوزع هذا التدريب على مدار العام الدراسى كرابط يربط الطلاب بالدراسة وتكون مادة التدريب إجبارية ويتقرر على أساسها انتقال الطالب أو رسوبه .

ويكون التدريب بالمساجد والمصانع وجميع المنشآت والمؤسسات الحيوية ذات الحاجة إلى الدعوة الاسلامية .

هذا بخصوص المناهج والتدريس بالنسبة لكلية الدعوة بخاصة والكليات النظرية عموما ، وإن كنت أرى وضع حوافز مالية لطلاب كلية الدعوة لحفزهم على مواصلة الدراسة بها وعدم الهروب منها خوفا منهم أن يتم تعيينهم أئمة بالمساجد .

لذلك : ولما كان الأزهر قد أنشيء لتكون وظيفته الأساسية الدعوة إلى الله ونشر الثقافة الاسلامية فى الداخل والخارج كان لابد من تشجيع الاقبال على الكليات التى تخرج هؤلاء الدعاة والاهتمام بها خصوصاً بعد أن أصبح من حق الطالب الازهرى الحاصل على الثانوية الازهرية أن يلتحق بالكليات العملية ليتخرج منها طبيباً أو مهندساً أو محاسباً .

وإذا جاز لبعض المعاهد العامة أن تعطى حوافز مادية لتشجيع الطلاب على الالتحاق بهذه المعاهد لحاجة الدولة إليهم كما يحدث بالنسبة للمعاهد الفنية العسكرية التى تتكفل بتعليم الطلاب مجانا وإعطائهم مرتبات شهرية طيلة مدة الدراسة عدا الانفاق عليهم من مأكل وملبس وخلافه وذلك لحاجة الدولة إلى هذه التخصصات وماتعطيه بعض الوظائف لموظفيها من بدلات ومنح مالية ووضعهم على درجات خاصة وسرعة ترقيتهم نظير مايبذلونه من جهد — أو لاهمية هذه الوظائف فى الدولة — مثل : كادر القضاء والجيش والجامعات، وخلافه .

فإنه أصبح من المحتم خصوصاً فى هذه الأيام التى طغت المادة فيها على كل شيء أن تتألف قلوب طلاب الازهر بتشجيعهم على الاقبال على هذه الدراسة والعمل بوظيفة الامامة والوعظ التى نفروا منها وعملوا كل مافى وسعهم الهروب منها ، حتى أصبحت كليات الازهر الاصلية تكاد تكون مقصورة على ذوى العاهات ومن وقفت أمامهم اللوائح والنظم لمنعهم من الالتحاق بغيرها .

بل أصبح أساتذة هذه الكليات ينفرون من إلحاق أبنائهم بها . وفضلوا عليها الكليات الأخرى العملية على اعتبار أن المستقبل لها والأعمال متفتحة أمامها أو (هكذا يقولون) .

ماذا لو تكفل الأزهر بالإنفاق على الطلاب الذين تعدهم الجامعة لوظائف الامامة والوعظ. وأعادت إليهم المساعدات المالية الشهرية التى كانت تمنح لكل طلاب الأزهر فى الماضى وتكفلت الجامعة بصرف الكتب الدراسية لهم بالمجان؟

أعتقد أنه لو تم ذلك فسيكون هناك إقبال منقطع النظير على هذه الكليات وهذه الأقسام بالذات .

بل أرى أن يتم الاتفاق مع وزارة الخزانة على منح الأئمة والوعاظ الدرجة السادسة بعد تخرجهم لتشجيع الإقبال على هذه الوظائف وحتى يمكن الإمام أن يعيش عيشة كريمة وأن يظهر بالمظهر اللائق به كعالم دين .

ولقد حدث أن وافقت وزارة الخزانة على منح خريجى معهد التعاون نظام السنتين (بعد الثانوية العامة) الدرجة الثامنة وبأقدمية سنتين كاملتين فى هذه الدرجة مع أن الحاصلين على الثانوية العامة يعينون بالدرجة التاسعة بدون أى أقدميات وذلك لحاجة الدولة إلى هذا النوع من التخصص(١) .

ومصر بل العالم الإسلامى كله فى حاجة ماسة خصوصاً فى هذه الايام التى غلبت فيها المادية وانتشر فيها الإلحاد إلى المتخصصين فى الدعوة الإسلامية وبأعداد كبيرة .

ولقد رأينا كيف أن عمر رضى الله عنه كان يختار الوعاظ الذين يرسلهم

---

[١] كان ذلك قبل تعديل كادر الموظفين وضم الدرجات إلى بعضها وضغطها فى أربع درجات فقط . المؤلف .

للامصار المفتوحة ممن لا تقل شخصياتهم عمن عهد إليهم بالولاية ، على بيت المال فأرسل عبدالله بن مسعود معلماً وأرسل معاذا وعبادة وأبا الدرداء إلى الشام بناء على طلب يزيد بن أبى سفيان . (١)

وهكذا اهتم الخلفاء بالوعاظ واختاروهم من أعلم الناس وأفقههم فى الدين .

ولو قيل أن هؤلاء كانت فيهم رغبة طبيعية فى تعلم الدين وتعليمه ؟ .

نقول : أنه من الواجب أن نوجد نحن هذه الرغبة مادامت غير موجودة ولو كان ذلك عن طريق الاغراء المادى .

ولقد كان الرسول ﷺ يعطى بعض الداخلين فى الاسلام حديثاً بسخاء ليتألف قلوبهم للاسلام ، وقدجعل الله لهم حقاً فى الزكاةفكيف بنا ونحن فى أشد الحاجة إلى هؤلاء لالمصلحتهم هم : وإنما لمصلحة الاسلام والدعوة الاسلامية والمسلمين .

والحقيقة أن التاريخ لاينسى موقف الازهر الوطنى فى سنة١٩١٩ومناهضته للاستعمار الانجليزى ووقوفه فى وجه هذا الاستعمار وقفات نابعة من العقيدة الدينية التى كان لها أثرها فى اشتعال الوعى الدينى والوطنى .

ومن هذا التاريخ تآمر الاستعمارعلى الازهروفكر المستعمرون فى إضعاف سلطانه وتغيير وضعه حتى تستقر أقدامهم فى مصر خصوصاً وقد استقر فى نفوسهم أن قوة الأزهريين مستمدة من عقيدتهم الدينية .

ولذلك بدأ الاستعمار يضع العقبات التى تعوق الازهر عن أداء واجبه ورأينا أحد ساسة الانجليز يقول (إن قدم انجلترا لاتستقر فى مصر مادام الازهر يدرس هذا الكتاب : يعنى القرآن الكريم).(٢)

---

[١] راجع كتاب فجر الاسلام ص ١٥١ ، ص ١٥٢ أحمد أمين .
[٢] راجع بحث أهداف الرسالة الاسلامية وبيان دور الازهر فى نشرها للمرحوم الشيخ كامل محمد حسن [المؤتمر الخامس ص ٤١٣]

ومن هذا التاريخ أيقن الانجليز أن العقيدة الدينية هى مصدر ثقتهم وهى أقوى العوامل لمقاومة الاستعمار . لهـــذا عنوا بدراسة حالة الأزهر ووضع التخطيط الذى يغير من نظامه حتى يخضعوه .

وقد ربط اللورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة . بين الاحتلال وتنفيذ سياسة الاستعمار باضعاف الازهر وتغيير نظامه حتى يطغى عليه منهج التعليم المدنى . وينصرف عنه الناس بحجة توحيد التعليم ، والهدف من هـذا أن يقع الازهر تحت خضوع إحدى الوزارات فيتمكن المستشار الإنجليزى (دانلوب) الذى كان يسيطر على التعليم المدنى من اضعاف الازهر بواسطة الحكومات السابقة الضعيفة . وقد رسم المستعمرون لذلك سياسة لحمل الازهر على الاندماج فى وزارة المعارف ويقول اللورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة .[1]

إذا تعذر اندماج الازهر فى الوزارة فلابد من رعاية أمور ثلاثة فى معاملة الازهريين : —

١ — حرمان الأزهريين من وظائف الدولة الكبرى مخـــافة استغلال عقيدتهم فى مجال وظيفتهم .

٢ — عدم تسوية المؤهلات الأزهرية بالمؤهلات المدنية فى القيم المادية حتى ينصرف الناس عن الأزهر .

٣ — إضعاف السلطة التى تربط بين التعليم الدينى والتعليم المدنى وقد كان من أثر ذلك إلغاء التعليم الدينى بالمدارس الالزامية حينذاك . ولما قام الخيرون من أهل الغيرة بإنشاء جمعيات لتحفيظ القرآن سلطوا عليها وزارة الصحة لتغلقها بحجة أن أمكنتها غير صحية .

ولا أقول ذلك لأنى أرى أن التطوير الحالى هو تنفيذ لسياسة الاستعمار أو قصد به أساساً إلغاء الأزهر .

---

[١] المرجع السابق ٤١٥

ولكنى أرى ضرورة إدخال المواد الدينية بالمدارس وجعله مادة أساسية تضاف درجتها للمجموع العام . . مع ضرورة الاهتمام بمكاتب تحفيظ القرآن ورعايتها والتوسع فى إنشاء المعاهـــد الدينية فى جميع المحافظات مع الاهتمام بتحفيظ القرآن على أساس منح حوافز مادية وأدبية والتقليل عن عدد المواد التى يدرسها طلاب المعاهد الأزهرية وفى هذا نصل إلى ما نبغيه من نهضة الأزهر واصلاحه وتطويره تطويراً حقيقياً لمصلحة الإسلام والمسلمين خصوصا إذا أضيف إلى ذلك ما اقترحته من التزام بالمناهج وتدريسها والتشجيع على التأليف بالنسبة للأساتذة. وربط الطلاب بالدراسة وتشجيع الإقبال على الكليات التى تخرج الأئمـــة والوعاظ وغير ذلك من مقترحات ضمنتها هذا الكتاب .

وإلا فنحن بهذا التطوير نكون قد نفذنا فعلا خطة دانلوب وتخطيط كرومر وتنفيذ سياسة الاستعمار باضعاف الأزهر وتغيير نظامه حتى ينصرف الناس عنـــه .

يقول الدكتور محمد البهى[1] : الأزهر فى رأيى عو قة المؤسسات الإسلامية فى العالم الإسلامى التى كانت تستطيع مواجهة الصليبية الاستعمارية والماركسية الالحادية . وكانت تستطيع أيضاً أن تقدم للحياة الاسلامية فى مصر وما وراء مصر أكبر العون فى حـــل المشكلات التى تدور فى حياة الأسرة الإسلامية لاقتصاد الإسلامى والتوجيه الإسلامى وبذلك كان يمكن أن تكون هناك قوة فكرية روحية ثالثة فى الشعوب الإسلامية تواجه القوتين العالميتين الرئيسيتين اليوم : الصليبية الغربية والشيوعية الدولية . ولا عوض عن الأزهر وكل يوم يمر عليه فى أزمته يزيد فى ضعف قيمته ويقلل من الانتفاع به فى تكوين تلك القوة الثالثة التى كان يجب أن تكون لهـا شأن اليوم .

---

[١] الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٤٩٤

ويقول الدكتور البهى[١] اصلاح الأزهر ليس رفع مرتباته ولا إعادة طبع الكتب المتأخرة ولا اقتباس نظام وزارة التربية والتعليم ولا ملاحقة هذه بطلب مشورتها والإفادة من خبرة رجالها ولا زيادة كم العلماء والطلاب .

إصلاح الأزهر فكرة وتنفيذ رسالة هى فهم الإسلام وحسن عرضه والملاقاة به لما يواجه المسلم من مشاكل . وهى رسالة فريدة لا يمكن لمؤسسة تعليمية أخرى أن تنهض بها ولذلك لا تجدى مشورة وزارة التربية والتعليم فى شأنها .

والحقيقة أن الإسلام فى غده يتأثر قوة وضعفا بقوة الأزهر وضعفه اليوم وبعد اليوم .

والأزهر مسئول عن ركود الفكر الاسلامى وعدم قيامه بالدور الإيجابى فى الحياة المعاصرة مما سبب ظهور الفكر الغربى الاستشراقى والمادى الماركسى وانتشارهما . فأعطى بذلك فرصة لكثيرين من المثقفين أن يتقبلوا هذا الفكر المادى الإلحادى . دون أن يجدوا فى ثقافتهم التى يحملونها وفى أنفسهم ما يناقش هذا الفكر حتى يكون قبولهم أياه نتيجة اقتناع وتأمل .

لقد استطاع الاستعمار أن يعزل الإسلام عن الثقافة عزلا تاماً حين استطاع أن يعزل الازهر عن الحياة الجارية وأصبح العالم كله اليوم فى حاجة ملحة وسريعة إلى الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى الحقيق حتى يقوم بالدور الإيجابى فى الحياة المعاصرة ويملأ هذا الفراغ الموجود بالاصلاح الدينى حتى لا يظل الوعى الإسلامى والفكر الإسلامى مجرد شعار يحمله المسلم فقط كعنوان ولا يدرك من اسلامه إلا أنه ينتسب إلى الجماعة الإسلامية فحسب .

إن الجماهير الاسلامية فى كل مكان من بقاع الارض . عمالا وفلاحين ومثقفين فى حاجة إلى حل مشاكلهم عن طريق التوجيه الإسلامى والتطبيق العملى الصحيح له فى هذه الحياة . حيث أن هذه المشاكل ترتبط ارتباطاً كبيراً

---

[١] المرجع السابق .

وتشتبك جذورها اشتباكا قوياً مع نوع الإيمان الذى يكمن فى نفوس هذه الجماهير التى ثبت أن الاتجاهات الحديثة والإدارات الجديدة التى انشئت لحل مشاكلهم خصوصا ما يتعلق منها بحياة الفلاح والعامل وحياة الجماهير على العموم . كالارشاد الاجتماعى أو الخدمة الاجتماعية أو التوجيه الريفى أو ما شاكل ذلك من تنظيمات اثبتت عدم فاعليتها وحدها دون مساعدة العامل الدينى والتوعية الدينية التى يقوم بتحمل مسئوليتها . الازهر والفكر الإسلامى الصحيح الذى يحميه هذا الازهر ويدافع عنه .

لذلك كله دافعت عن التطوير وطالبت بمراعاة تنفيذه بكل دقة وأمانة .

وبعد :

فإذا كنا قد تحدثنا عن الازهر بهذه الصراحة والوضوح ، أملا فى الوصول إلى ما هو أفضل . فإنا لا يجب أن ننسى أبداً أن الازهر لايزال هو الرائد فى العالم الإسلامى كله . وهو الذى يمد معظم جامعات ومجتمعات العالم الاسلامى بالاساتذة والوعاظ .

وقد كان الازهر أيضا برغم ما قيل عنه قبل التطوير يعتبر الجامعة الاسلامية الوحيدة التى تمد العالم الاسلامى كله بالدعاة والمتخصصين فى الثقافة الإسلامية وعلى اكتاف علماء الازهر نهضت جامعات وأسست أخرى فى بلاد عربية وإسلامية كثيرة بل أنت لو بحثت عن رؤساء الجامعات الإسلامية والعربية الآن لوجدت أن معظمهم من خريجى جامعة الأزهر - سواء كان ذلك قبل تطويره أو بعد تطويره لان الأزهر ولا يزال - ملكا للعالم الاسلامى كله . يعرف ذلك الخاصة والعامة .

ومعنى هذا أن الأزهر وبرغم ذلك ، إذا كان لايزال فى حاجة إلى اصلاح

فإن المعاهد والكليات الدينية فى جميع البلاد الاسلامية — أكثر حاجة منه إلى هذا الاصلاح .

ويمكن للقائمين على هذه المعاهد والكليات الدينية مراعاة ذلك والاستفادة من المقترحات التى قدمناها خصوصا ما يتعلق بتشجيع الطلاب ماديا وأدبيا للالتحاق بهذه الكليات الدينية — خاصة الكليات التى تخرج الدعاة والوعاظ مع الاكثار من هذه الكليات .

رأى المسئولين بالدولة فى أسباب قصور الدعاة

وعلاجهم لهذه المشكلة

نظراً لعدم اهتمام الدولة بكليات الدعوة وعدم تدعيمها التدعيم الذى يشجع الطلاب للاقبال عليهـــا ، الأمر الذى جعل هناك تقصيراً ملموساً وواضحاً بالنسبة للدعاة .

فقد أدى ذلك بالتالى إلى ظهور بعض الجماعات التى تنتمى للاسلام اسماً إلا أن معظم هذه الجماعات وللأسف انحرفت عن الطريق القويم ، فأدى ذلك أيضاً إلى خلافات بين المسلمين وبين هـذه الجماعات بعضها البعض ؛ حتى وصل الأمر إلى تكفير بعضهم بعضاً ، وبعض هذه الجماعات كفر المجتمع وأهـدر دم المسلمين من غير اتباعهم ، وخرجوا على السلطة ووصل الأمر بهم إلى تمكنهم من قتل رئيس الدولة (أنور السادات) .

وقد تبين خطورة هؤلاء وبخاصة أن كلهم من الشباب الذى اعتنق فكراً معيناً أصبح عقيدة له ، وأصبح الموت فى سبيل هـذا الفكر هو كل أمنيتهم ، ومنتهى آمالهم .

وقد اضطرت الدولة للتحرك السريع فبدأت أولا فى اعتقال أعداد كبيرة من هؤلاء الشباب ، ثم وجدت أن الطريق الأسلم والاصح هو عقد حوار فكرى بين زعماء هذه الجماعات وعلماء الأزهر وبعض كبار المفكرين الإسلاميين .

وقد كان لى شرف المشاركة فى هذه اللقاءات ، وجلست أكثر من مرة مع شباب مسلم يعتقد اعتقادات غريبة كان من أسبابها عدم وجود الدعاة المتخصصين المدربين ، وكان من أسبابها عدم توفر الحصانة الكافية للدعاة الموجودين بالفعل ولذا فكر المسئولون فى علاج هذه المشكلة وعقدت لجان استماع فى مجلس الشعب دعى إليه كبار المسئولين عن الشباب فى كل القطاعات (التعليمية والاعلامية

والشبابية) وقد نوقش فى المجلس أسباب انحراف الشباب ، وخلص الجميع فى النهاية إلى ضرورة الاهتمام بالشباب وكذا الاهتمام بالدعاة والتربية الدينية وضرورة وضع حوافز لطلاب كليات الدعوة .

وقد اجتمعت لجان أخرى كثيرة . وأوصت بما أوصى به مجلس الشعب .

ثم اجتمع المجلس القومى للخدمات والتنمية الاجتماعية التابع للمجالس القومية المتخصصة وعقد جلسة خاصة برئاسة الدكتور عبدالقادر حاتم فى يوم ١٧ يونيو سنة ١٩٨٢ وذلك لمناقشة وإقرار دراسة هامة عن تنمية ورعاية القيم الدينية عند الشباب . والتى أعدتها لجنة الرعاية الدينية .

وكانت اللجنة الاخيرة [لجنة الرعاية الدينية] قد عقدت سلسلة اجتماعات طوال ستة شهور برئاسة شيخ الأزهر وعضوية بعض كبار علماء الأزهر ومن بينهم وزير الاوقاف ومدير عام الوعظ وآخرين . ثم انتهت اللجنة بعد دراسة عدد من الابحاث التى تتحدث عن مشكلات الشباب وأسباب انحرافاته وعلاجها إلى تقديم التوصيات التى ترى أن فيها العلاج لهذه المشكلات .

وقد تعرضت هذه التوصيات إلى علاج القصور فى الدعوة الاسلامية . وعلاج هذا القصور .

ويهمنى هنا أن أقدم بعض التوصيات الخاصة بعلاج القصور فى الدعوة لمعرفة الأسباب الأخرى التى تحول دون وصول الدعوة للناس على وجهها الصحيح :

تقول اللجنة[١] ...

وقد أجمعت اللجنة على ضرورة إعادة النظر فى سياسة التعليم الدينى فى مصر

---

[١] نشرت هذه التوصيات والقرارات بجريدة النور المصرية الأسبوعية بتاريخ ٢٢/٦/١٩٨٢

وأن توضع له خطة متكاملة تحمى عقيدة النشء من النساء . على أن يتوفر على إعداد هذه الخطة خبراء التعليم جنباً إلى جنب مع علماء الدين .

ثالثاً — فى مجال الدعوة العلمية :(١)

ضرورة العمل المنظم لسد الفراغ الموجود بالمساجد بتعيين الخطباء والوعاظ من خريجى كليات الازهر مع تقرير الحوافز المادية التى تضمن استمرارهم فى العمل عندما تتوفر لهم سبل الحياة الكريمة التى تساعدهم على أن يكونوا قدوة حسنة أخذاً بمبدأ تكريم الدلعية تكريماً للدين .

تنظيم ندوات دينية فى المساجد وغيرها يشترك فيها أساتذة الازهر والجامعات وتعالج فيها المشكلات التى تشغل الرأى العام ورأى الدين فيما يجب أن تكون عليه الحياة .

تعميم القوافل الدينية فى جميع المحافظات على مستوى الاحياء والقرى وتنظيمها على أن يشترك فيها الوعاظ والائمة وقد ثبت نجاحها فى الريف مما يدعو إلى مضاعفتها على أن تشمل أيضاً أحياء المدن .

تكليف أساتذة المعاهد الدينية بالاشتراك فى نشر الوعى الدينى بين الافراد والجماعات فى مواقع عملهم وفى الاماكن المحيطة بها وتقرير المكافأة المجزية لهم .

التنسيق بين إدارة الوعظ بالازهر وإدارة الدعوة بوزارة الاوقاف حول موضوعات الدعوة والجهات التى يوجه إليها الدعاة والموضوعات التى تعالج ذلك فى إطار خطة شاملة .

الانتفاع بعلماء الازهر ومدرسى اللغة العربية والدين فى تغطية المواقع التى لاتقع فى نطاق عمل الائمة والوعاظ فى أداء خطب الجمعة والدروس الدينية والندوات والمحاضرات وتدريس حصص الدين فى الحوار مع تقرير المكافآت المجزية .

---

[١] تحدث التقرير فى أولا . . عن الدين وضرورة تقريره كمادة أساسية فى برامج التعليم ، وفى ثانياً . . عن موضوع الجماعات التى ظهرت فى الآونة الأخيرة .

رابعا ـ فى مجال تثقيف الأئمة :

رأت لجنة الرعاية الدينية أنه لابد من رفع مستوى خبرات الدعاة ـ وبخاصة الأئمة ـ وتنمية معلوماتهم بمثل هذه الوسائل وعلى أن يكون هناك تدريب مكثف .

تدريب الداعية فى إعداد وأداء عناصر الخطبة والفرق بينها وبين مادة الندوة العلمية .

دعوة المتخصصين فى العلوم الهندسية والطبيعة والعسكرية والاجتماعية والنفسية والطبية إلى المشاركة فى تنظيم الندوات الدينية مع الوعاظ والأئمة للانتفاع بعلومهم فى تثبيت العقيدة .

الانتفاع بالبيئة فى موضوع الخطب أو المحاضرات أو الندوات فللزارع منطقه ومشكلاته وللعامل والتاجر نفس الشىء ولاينبغى الخلط فى أداء العظة .

توزيع الكتب والنشرات على الدعاة بالمجان وتخص اللجنة بالذكر مثلا كتاب زاد الخطيب والخطب الرائدة والإبداع فى مضار الابتداع وأيضاً النشرات الدينية الصادرة من الأزهر ووزارة الاوقاف على أن يكون هناك اتفاق على وحدة فكرية فى المسائل المختلف عليها كزيارة الاولياء وشد الرحال إليهم وتنظيم النسل وشهادات الاستثمار حتى لايقال فى مكان مايضارب الذى قيل فى مكان آخر .

تقريب الدورات التدريسية لمواقع إقامة الدعاة فى المحافظات ولابد من إنشاء مركزين أساسيين للتدريب فى البداية على أن يكون الأول فى طنطا والثانى فى أسيوط وينتدب لهما الدعاة على الطريقة الرسمية الصحيحة والمعروفة مع منح المكافآت لمثل هذا العمل .

تطوير أسلوب الدعوة بما يتناسب وجماهير المستمعين انطلاقا من قول الله تعالى :

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) .

إعادة تكوين لجان لنشر الدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف لتقوم بدورها في التنسيق بين كل رجال الدعوة وتحديد أماكن المساجد والمواقع التي يمكن أن تتجه إليها القوافل الدينية في جميع المحافظات وهذه اللجان هي التي تختار الدعاة وتنظم تحركاتهم في إطار خطة موحدة .

خامسا – في مجال رعاية الدعاة :

توصى اللجنة بالآتي :

وضع الحافز المادي الذي يجعلهم يعيشون حياة كريمة مع ضمان الحافز الأدبي الذي يحرم الغض من شأنهم في وسائل الإعلام والمناسبات العامة .

تأمين هؤلاء العلماء بعدم محاكمتهم إلا أمام رؤسائهم أو ممثلين لهيئاتهم أسوة بما هو متبع مع أعضاء النقابات .

إصدار تشريع باستمرار الدعاة في عملهم بعد بلوغ السن القانونية بمكافآت مجزية لاستمرار الانتفاع بالكفايات في الدعوة مادام أصحابها قادرون على العطاء .

عمل مكافأة خاصة برجال الدعوة تتناسب مع جلال المهمة وأثرها في المجتمع .

معالجة مشكلة ارتفاع ثمن الكتب والمراجع التي تتحملها رواتب الدعاة مع إخراج سلسلة من الكتب التي تتناول العقـــائد والعبادات والمعاملات والأخلاق على أن تقوم بإصدارها المؤسسات الإسلامية وتناسب المستويات المتعددة .

زيادة ميزانية الدعوة لدعم أجهزتها لتقوم بدورها على خير وجه .

إحكام الرقابة على المساجد الأهلية لضمان حسن سير الدعوة وعدم تولى المسائل الدينية من لا يعرفها .

الاهتمام بنشر الكتاتيب فى القرى التى لاتوجد بها مدارس أو معاهد دينية.

ويجب أن يوضع فى الاعتبار مسار التعليم الأزهرى ابتداء من الكتّاب التجريبى فى المعاهد الأزهرية الابتدائية واعتبار من يدخلها ملزما كاقرانه فى التعليم الاساسى حتى لايكون التعليم الاساسى وسيلة جذب الناشئة يبعدهم عن طريق التعليم الدينى .

تقرير مكافأة خاصة لطلبة كليات الدعوة من وزارة الاوقاف اثناء تدريبهم وتمرينهم على الخطابة والدعوة خلال أعوام الدراسة وتكليفهم بالعمل فى الدعوة بعد التخرج حتى لاتجذبهم وظائف أخرى مع وضع الحوافز المجزية للعاملين فى مجال الدعوة .

اعتبار التعليم الأزهرى إلزامياً مثل التعليم الأساسى .

سادساً ـ فى مجال الإعلام الدينى :

وقد أفردت له اللجنة جلستين فى نقاش حر صادق وانتهت منه إلى الإتفاق على أن الإعلام الدينى لايقل دوراً وتأثيراً عن منبر المسجد ، ويزيد انتشاره الواسع عن طريق الإذاعة والتليفزيون .

الإعلام الدينى لايستقيم فى ظل إعلام متعارض معه ، فلا مجال للفصل بين الدعوة الإعلامية والمناخ السياسى والاجتماعى . . ولكى نضع الأسس للحياة فى بلادنا على القيم الدينية لابد من رسم سياسة إعلامية مستنيرة لاتتجاهل هذه القيم بل تساعد على ترسيخها ونشرها على أوسع نطاق لاعدم نشر مايعارضها .

لابد من ملء الفراغ النوعى من القيادات الإعلامية والدينية بوجه خاص.

وتساءلت اللجنة لماذا هذا التقتير فى الساحات الأثيرية والورقية فى الإعلام الدينى ونحن فى مجال بناء عقيدة سليمة للجيل العامل والأجيال الصاعدة .

تخصيص صفحة يومية فى كل صحيفة قومية وأن تلزم الصحف بالقيم الإسلامية فى كل ما تقدمه من موضوعات عامة ، وليست الموضوعات الدينية فحسب ، وأن يكون المضمون الذى يقدم للقارىء بما يساعده على أن يجد حلولا لمشكلاته المعاصرة فى ضوء الدين لربطه بالحياة وتحقيق التوازن النفسى أى الروحى للقارىء .

وقد رحبت اللجنة بصدور صحيفتين إسلاميتين « النور واللواء » ودعت إلى مزيد من هذه الصحف السيارة وتدعوها إلى الالتزام بمنهجها على طريق النجاح الذى يدفعها إلى الصدور يومياً ولابد من التنسيق بين هذه الصحف وتوحيد فكرتها وهدفها وخضوعها لمجلس أعلى أعضاؤه من نقابة الصحفيين والمتخصصين فى المادة الإسلامية .

سابعا ـ الدعوة قضية قومية وعالمية :

وحينما اتجهت لجنة الرعاية الدينية فى بحوثها ومناقشتها حول الهدف وهو تنمية رعاية الشباب دينيا ، كانت تجد أن الدعوة هى الوسيلة الأولى والأخيرة لحماية الشباب أولا ، ووضع أقدامه على الطريق المؤدية إلى نجاحه ديناً ودنيا ، فهى المرفأ للنجاة بقدر ماهى قضية قومية فى المرتبة الثانية ، وعلى امتداد تاريخ الإسلام كانت مصر هى المنهل العذب ومركز الاشعاع على العالم كله فى مجال الدعوة الاسلامية .

لكن السؤال الصعب اليوم هو :

كيف نتعرض مع الأزهر لموجة من الانحراف الدينى ؟

كيف استطاعت الأفكار المتطرفة أن تتسلل إلى حصن الدعوة الحقيقية الحنيفة السمحاء .

وبعد أن توفرت اللجنة على دراسة هذه الظاهرة العابرة رأت أنها يمكن أن

تكون عابرة إذا نحن أعلينا شأن الدعوة الاسلامية فى تخطيط على يتوفر عليه جزاؤنا وعلى الاسلام فى الأزهر ومجمع البحوث الاسلامية والمجلس الأعلى للشئون الاسلامية والصوفية الجادة وتبرز أخيراً فكرة عقد مؤتمر قوى للدعوة الاسلامية تسهم فيه أجهزة الاعلام بدور بناء وتخرج توصياته إلى برنامج عمل للدعوة داخلياً وخارجيا .. فلا ينبغى أن تبقى شئون الدعوة إلى الخير ، والله يدعونا إلى ما يحيينا ، موضوع اجتهادات مكتبية ، فى دوائر مغلقة لاصلة لها بوسائل الاعلام .. إن فكرة الدعوة الاسلامية تؤكدها المؤتمرات الاقليمية التى التى بدأت عقدها فى محافظات مصر ، ولابد لها أن تصب فى وعاء واحد هو المؤتمر القوى للدعوة الاسلامية .

تأمين شيخ الأزهر :

وقد حفلت مناقشات الاجتماع بآراء لفضيلة الشيخ الدكتور الطيب النجار وفضيلة الشيخ عبدالعزيز عيسى والدكتور مصطفى أبوزيد فهمى وكانت لها إسهامات فعالة فى إضافة أفكار جديدة كان من أبرزها ربط الدين بمشكلات المجتمع بالعلم والتربية والانتاج .. وبضرورة إيجاد مسكن ملائم لكل إمام مسجد وواعظ ، وتنوير الفرق الاسلامية الضالة التى تهيمن عليها البدع الخارجة على الدين بالفكر الاسلامى الدائم والمستمر وتذليل كل العقبات من أجل طبع ونشر كتب التراث النقية وبيعها بأثمان زهيدة .. كما طالبت الافكار بتقويم انحرافات الكبار قبل الصغار وإصلاح البيئة الفاسدة التى ينهل منها الصغار من الشباب .

وكان على رأس مطالب المتناقشين فى مجال تأمين رجال الدعوة وحصانتهم تأمين شيخ الأزهر من العزل السياسى .

رسالة المسجد فى العصر الحديث

الدارس لعصر الرسول ﷺ يعرف أنه أقام المسجد ولم يقصره على العبادة. وإنما كان المسجد كما هو مكان العبادة كما كان مقراً للحكم ومكاناً للتعليم واستقبال الوفود وعقد المعاهدات وغير ذلك مما يوضح الصلة الوثيقة بين الدين والمجتمع، وشمول الإسلام لكل أنواع النشاط البشرى وتنظيمه لجميع العلاقات التى تربط الإنسان بربه وبالمجتمع الذى يعيش فيه، سواء فى ذلك المجتمع الخاص كالأسرة أو المجتمع العام كالوطن والأمة أو المجتمع الأعم كالانسانية كلها .

ولذلك كان المسجد من قديم هو القائم على خدمة المجتمع كله بأداء الواجب له والحفاظ على حقوقه ولم يكن أبداً حتى فى أقوى العصور والبيئات حضارة وأعظمها رقياً، مجرد مكان للعبادة لأن الاسلام لم يكن مجرد علاقة روحية خاصة يرمز إليها بالصلاة أو المسجد وإنما هو دين شامل نظم الاجتماعات كما نظم العلاقات الروحية .

وإذا كان المسجد عندما يذكر، تذكر معه الصلاة التى تقام فيه . فان ذلك لأنها أظهر شعائره وأقوى الدلائل على الخشوع والاستسلام لله ، لكن الصلاة كعبادة لم تكن كما قلنا غاية فى حد ذاتها وإنما هى مجرد وسيلة للوصول إلى الغاية التى من أجلها جاءت الأديان ، وهى كما قلنا ونقول دائماً (إقامة الحق والعدل والخير فى الأرض ومنع عدوان الناس بعضهم على بعض) ، (أى انها من أجل مصلحة الانسان لنفسه وللمجتمع الذى يعيش فيه) ، (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (١) .

ومن هنا لم تكن علاقة الانسان الروحية بربه قاطعة عن علائق الدنيا

---

[١] سورة العنكبوت آية ٤٥

ولذلك رأينا الرسول ﷺ : يقول للرهط الثلاثة الذين سألوا عن عبادته وكأنهم تقالوها فعزم بعضهم على قيام الليل كله والآخر على صيام الدهر كله والثالث عن الامتناع عن الزواج ، فاذا بالرسول ﷺ ينهاهم ويقول : (أما إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أنوم وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى) .[١]

ولذلك اعتنى الإسلام بالعلاقات الاجتماعية وجعلها ركناً من أهم الأركان التى يتم بها الإيمان :

والمسجد فى المجتمع المعاصر يمكن أن يؤدى خدمات جليلة وخطيرة للمجتمع كما كان يؤديها فى عصر الرسول والخلفاء من بعده وفى عصور أخرى من بعدهم .

والمجتمع المعاصر فيه من المشاكل وله من المتطلبات ما كان لكل مجتمع سبق ، وتزيد عليها الآن أمور جدت بحكم التطور الحضارى والتقدم العلمى وسهولة الاتصال بين الأقطار والشعوب وانتقال النظم والعادات والمشاكل من مجتمع إلى آخر .

ومشاكل المجتمع الاسلامى على الخصوص كثيرة ، وما يوجد الآن من انحرافات نتيجة ظهور آراء وأفكار ومذاهب وفلسفات دخيلة وردت إلينا من المجتمعات الأجنبية بصبغتها الخاصة وطابعها المعين ، ونشأ عن كثرة هذه الآراء وتنوع المذاهب فرق وأحزاب وجمعيات وتنظيمات وصحف ووسائل دعاية لكل منها أتباعها المتعصبون لها ، وأصبح فى ذلك كله الخطر كل الخطر على وحدة الجماعة وتماسكها .

---

[١] رواه الشيخان والنسائى عن أنس بن مالك (انظر نص الحديث فى رياض الصالحين ص ٨٢) .

في مجتمعنا الإسلامي الآن تيارات الوجودية والشيوعية والانحلال الذي ترى له الصهيونية العالمية ، وكلهم يقصدون بذلك الدين الإسلامي ويريدون تحطيمه والقضاء عليه .

في مجتمعنا الإسلامي مشاكل العمال والفلاحين والتجار والموظفين والجماهير عموما وهم جميعاً ينتظرون رأى رجل الدين لأن كثيراً من هذه المشاكل تتعلق جذورها بالإيمان الكامن في قلوبهم .

في بعض المجتمعات الإسلامية زيادة عددية في الأفراد مع قلة في التكيف الاجتماعي الحديث القائم على رعاية النوع قبل رعاية العدد وهو حاجة إلى توعية قوية للعناية بالتربية والتهذيب والحث على العمل المنتج الدائب لتغطية مطالب الحياة والأخذ بسبل النهوض العلمي والوسائل الحديثة لترقية هذا المجتمع من جميع نواحيه .

وفي المجتمع الحديث تنتشر المخدرات والسموم القاتلة وراجت أفكار ومفاهيم تريد أن تبرر هذه المحرمات بنوع من التأويل للقرآن والسنة .

وما أكثر مشاكل المجتمع وتجددها وتنوعها .

والمسجد في المجتمع المعاصر يستطيع أن يقدم خدمات جليلة عن طريق الدين الذي كان من المرونة والصلاحية بحيث يمكن أن يوجد حلا لكل مشكلة حكما لكل حادثة وجوابا لكل سؤال .

والداعية الديني المؤمن برسالته يمكنه تناول كل ما يحدث في المجتمع تناولا يوضح المبهم ويصحح الخطأ ويقوم المعوج ويعالجه تساعد الخير على أن يبقى ويثبت ضد الشر ليزول ويختفي .

مواصفات المسجد الحديث :

وحتى يمكن الوفاء بالتزامات هذا المجتمع لابد من توافر شروط لكل

من المسجد والداعية حتى يمكن تلبية حاجة المجتمع والمحافظة على بقاء المجتمع الإسلامى المثالى .

ويخطىء من يتصور أن المساجد هى مكان العبادة فقط لا يصح أن تستعمل لغيره . فالمساجد وإن كان شعارها البارز هو الصلاة إلا أنها لا تتعارض مع الحياة العملية ولا تعوق النشاط الدنيوى . صحيح أنها أقيمت أساساً لتكون مكاناً للعبادة . لكن هذه العبادة جعلت للتزود بالطاقة اللازمة لمسعى الحياة الجادة المثالية تلك الطاقة التى تعتمد على القيم الروحية والمثل الأدبية الرفيعة التى لا ينبغى لعاقل أن يتخلى عنها حين يؤدى واجبه . لأنها صمام الأمن له من الزلل ، وقوة هائلة تعينه على التحمل والمثابرة وتفتح نفسه بالأمل والرجاء .

لذلك يجب علينا أن نراعى أهمية المسجد فى خدمة المجتمع فى العصر الحديث ونحاول ما أمكن أن نقيمه على أساس تلبية حاجة المجتمع الذى أنشئ فيه على أساس أن يكون المسجد مؤسسة اسلامية تؤدى خدماتها لأهل الحى كله أى أن تكون المساجد نموذجا كاملا يؤدى كل الخدمات الدينية والاجتماعية والثقافية والدينية للمسلمين .

وإذا كان ذلك متعذراً الآن بالنسبة للمساجد الموجودة بالفعل خصوصاً بالنسبة لما اقترحه من إيجاد أماكن خاصة لخدمات أهل الحى أو ساحات رياضية وخلافه مما سأتحدث عنه . فإنى أرجو أن يتم ذلك بالنسبة لما يستجد من مساجد . حتى يمكن عن طريق المسجد الالتحام مع الناس وتقديم الخدمات الدينية والاجتماعية وغير ذلك لهم ، لأن الإسلام كما قلنا ليس ديناً فقط وليس مجرد عبادات تؤدى وشعائر تقام .

١ — يجب أن تلحق بالمسجد مكتبة مزودة بالكتب الدينية والثقافية العامة لتهيىء اطلاع الجمهور عليها داخل المسجد وخارجه .

٢ — يعتبر مكبر الصوت فى المسجد الحديث من الضروريات فى ذلك العصر وذلك لإعلام الناس بالأرقام وإذاعة الخطب والمحاضرات فينتفع بها أكبر عدد من الناس .

٣ — يجب أن تلحق بالمسجد الحديث ساحة لممارسة الألعاب الرياضية والنشاط الفنى خصوصاً ما يتصل بإعداد الجيل إعداداً صالحاً لخدمة الوطن ، وبذلك نستطيع أن نربط بين الشباب وبين المسجد عن طريق هذه الساحات ليذكرهم المسجد بالمعانى الدينية،وليتم لهم عن طريقة الإعداد البدنى والروحى وقد أجاز العلماء عرض بعض الفنون البريئة والنافعة فى المسجد قياسا على ما فعله النبي ﷺ حين إذن للحبشة أن يعرضوا فن الرقص بالحراب فى المسجد ، وكان ينظر إليهم وعائشة رضى الله عنها مستترة وراءه بردائة تنظر أيضاً . على أن تكون هذه الساحة تابعة للمسجد وليس المسجد تابعاً لها .

٤ — يجب أن يلحق بالمسجد الحديث مكتب لتحفيظ القرآن الكريم لكبار السن والناشئة فى وقت فراغهم ،ولا مانع من أن تقام فى المسجد فصول لمحو الأمية وتعليم القراءة والكتابة .

٥ — غالباً ما يلجأ المتنازعون إلى إمام المسجد لحل منازعاتهم وهذا عمل جليل يجب أن يقوم به الإمام للتوفيق بين المتنازعين .

لذلك يمكن تخصيص حجرة بالمسجد لفض المنازعات صونا للسرية ومنعاً لما قد يحدث من تشويش على الحاضرين بالمسجد .

---

[١] أنظر بحث (وظيفة المسجد المعاصر) للشيخ عبد الله المشد والمقدم إلى المؤتمـــر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٧٠ مطبوعات المجمع ص ٢٤٩ .

هذه هى بعض المقترحات التى أقدمها لما يجب أن يكون عليه مواصفات المسجد الحديث مع ضرورة إقامته على الأسس الهندسية البنائية المتمشية مع المقاييس المطلوبة لكل بناء من ناحية الموقع والتهوية والإضاءة والفرش وغير ذلك مما يساعد على أداء الواجب الديني فى خشوع واطمئنان ، ويشجع الناس فى التردد عليه . ومن ثم ذلك لابد أن يكون للمسجد إدارة غير الإدارة الرسمية أى مجلس خاص ينظر فى شئونه العاجلة والمساعدة فى أداء رسالته على غرار المجالس التى تؤلف للمعاهد والمؤسسات العامة . على أن يراعى فيهم السلوك القويم وأن يكونوا من ذوى الحركة والنشاط ممن يستطيعون تقديم الخدمات لأهل الحى ، وأن يكون لهذا المجلس صلاحية جمع التبرعات لتمويل الطلبات العاجلة للمسجد . بعيداً عن الروتين وعلى غرار مجلس الآباء فى المدارس .

مواصفات الإمام الحديث :

أما الإمام وهو الداعية الذى سيقوم بحمل هذه المهمة الضخمة التى يؤديها المسجد للمجتمع فى العصر الحديث ، والذى يشرف على هذه المؤسسة ويتابع أعمالها الضخمة ، فلابد أن تتوفر فيه شروط خاصة ويكون على قدر كبير من الاستعدادات حتى يمكنه مباشرة هذه المهمة التى باشرها النبى ﷺ بنفسه مستعيناً فيها بتوجيهات الوحى وحسن استجابة المسلمين وتعاونهم معه على خلق المجتمع الأمثل الجديد .

فالداعية فى هذا الموقع موقفه حساس ووظيفته خطيرة ، وهو طبيب يعالج أخطر أنواع الأمراض القلوب والنفوس ويضع الحلول لكل المشاكل ويحاول بلباقته وحكمته أن يثبت للناس مدى ما يمكن أن يقدمه الدين للمجتمع ليؤكد لهم تلك الصلة الوثيقة بين الدعوة الإسلامية والمجتمع .

فالمسجد ليس كما يتصور كثير من الناس مجرد خطبة ومنبر ، وإنما المسجد هو المجتمع نفسه ، والإمام هو الرابطة بين الجمهور وبين هذا المجتمع ، وإذا ما أحس المصلى بالانقطاع الفكرى بينه وبين المسجد تراخت صلته به لأن الاعتماد المطلق على الصلة القلبية والعاطفية لا يمكن على المدى الطويل أن يصون هـذا الرباط بين المسجد والمجتمع ، فلابد من صلات روحية وفكرية وترابط عضوى يضع المسجد فى مكانه الطبيعى فى الحياة الإسلامية .

والإمام عملياً هو المسئول الأول عن هـذا كله ، وهو حلقة الاتصال بين الدين والحياة ، بين ماضى المسلمين وحاضرهم ، بين واقعهم وآمالهم قولا وسلوكا وإذا كان الناس يقرؤن الدين مسطوراً فيما بين أيديهم من كتب ، فإنهم يحبون أن يقرؤوه فيما يشاهدونه من نماذج بشرية . ومن هنا كان الإمام داعياً دينياً ، ومصلحاً اجتماعياً للحى الذى يعيش فيه .

والحقيقة : أن هذا الداعية المطلوب ، لايكفى فيه أن يكون خريجاً لكلية دينية ولا أحد المتخصصين فى الدعوة والإرشاد .

لأنى أعتقد أن مناهج التدريس الجامعى فى معظم الجامعات الإسلامية بصورتها الحالية وبهذا المستوى العلمى الضعيف لايكفى لأن يخرج داعية يستطيع أن يقوم بمهمة الدعوة على خير قيام ، خاصة وأن طلبة الكليات النظرية ببعض الجامعات الإسلامية هم الذين حالت مجاميعهم الصغيرة بينهم وبين الكليات العملية .

كما أن مستواهم العلمى أقل من المستوى المطلوب ، والسبب فى نظام التعليم نفسه الذى فرض على طلاب المعاهد الدينية فى بعض البلاد الإسلامية تحصيل علوم وفنون وأصول فاقت الحصر فعجزوا عن تحصيل شىء منها .

كما أن عدم مطالبتهم بحفظ القرآن الكريم ، واختصار المواد الشرعية نتيجة ما أضيف إليهم من مواد أخرى أوصل للجامعة طلابا لايصلحون للدراسة التى

تريد الجامعة إعدادهم لها الأمر الذى جعل المسئولين بالجامعة يتساهلون مع طلابهم وإلا كانت النتيجة صفراً .

بل أن بعض هؤلاء الطلاب من أصحاب المجاميع الصغيرة أو الراسبين الذين حالت ظروفهم بين الالتحاق بمدارس التعليم العام . فالتحقوا بالمعاهد الدينية حتى لايضيع مستقبلهم وقبلتهم هذه المعاهد أيضاً حتى لاتغلق أبوابها .

والحل فى نظرى :

هو إعادة النظر فى نظام التعليم الدينى بالمعـــاهد الدينية فى جميع البلاد الإسلامية . والتشديد فى حفظ القرآن الكريم من الصغر ووضع المناهج والنظم التعليمية بالمعاهد والجامعات على أساس دراسة روح الإسلام ورسالته العامة للبشر . وماأتى به من إصلاح سياسى واجتماعى ومايتنظر أن يقوم به من دور فى إنقاذ البشرية مما هى عليه من ظلم وظلام .

والمفروض : أن يكون الداعية الرسمى (خطيب المسجد) من ذوى المؤهلات العالية المتخصصة ممن حصلوا على قدر كبير من العـــلم وممن عندهم استعداد طبيعى للدعوة وإيمان بها وأن يكون متمكناً من نفسه وعلمه حتى يثق الناس فيه ويقبلون عليه كما يقبل هو عليهم بإخلاص يفيد الدعوة إفادة كبيرة . وأن يكون من ذوى الخلق الكريم والسلوك المستقيم ليجد الناس فيه القدوة الصالحة ويؤمنوا بما يقوله عن صدق وأن يبعث مظهره على الاحترام عند الجمهور ليكون أدعى إلى ثقة الناس به وتقديرهم لشخصه وعلمه وعمله .

وإذا كانت هذه شروط لابد منها . يجب أن تتوفر فى الداعية فلابد من توفر الوسائل التى تصنع لنا هذا الداعية .

وقد قلت أنه يجب أن تتألف قلوب هؤلاء الذين نعدهم لهـــذا العمل حتى يقبلوا على الدراسة التى نعدهم لذلك . عن رغبة شخصية . فيعطوا منحا تشجيعية

ويمنحوا بعد تخرجهم درجة أعلا من درجات نظرائهم بالكليات الأخرى .
خصوصاً ونحن نعانى من نقص فى الأئمة تعانيه معنا أقطار إسلامية كثيرة .
ونحن فى حاجة إلى دعاة يربطون بين الدين وبين الحياة فى تطورها وتدفقها المستمر .

كما أن هذا الداعية الذى نعده لهذا العمل يجب أن يتزود بالثقافات المتنوعة والمعلومات الكافية عن مشكلات الحياة وتياراتها وأن يكون دارساً للبيئات المختلفة ومتطلباتها ليكون على بينة ودراية بقضايا المجتمع واختلافها من بيئة إلى أخرى .

ويقول الشيخ محمد عبده عن الدعاة (أنه لابد أن يكونوا من أطول الناس باعا فى الفنون الأدبية الشرعية . وأوسعهم علماً بعلل الأخلاق وأمراض النفوس وأقدرهم على التماس منافذ القلوب للدخول إليها بما يصاحبها .

ثم يكونوا أقوم الناس سيرة لايخالف عملهم قولهم . فيكونون مثالا للناس يحتذونه وقدوة لهم يتبعونها . ثم لابد أن يكونوا فى كل قوم بلغتهم . بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم ليقبلوا عليهم بالاستماع ويقول(١) : ومن هذا تلزم المبادرة إلى إصلاح الخطابة فى مساجد الجمعة وتوليتها قوما يحسنونها ويدرجون فيها مايمس أحوال العامة فى تصرفاتهم المشهورة ويبينون لهم مضار الفساد ويهدونهم إلى سبيل الرشاد كما هو مقصود الشارع من غرض الخطبة فى الجمعة . وهذا باب عظيم من الإصلاح إذا وجهت العناية إليه رجونا منه النفع الكثير والخير الغزير . . (٢) انتهى .

وحين يتخرج الإمام من الجامعة بعد إعداده لهذه المهمة منذ دخوله إليها

---

[١] تاريخ الإمام ص ٥٢٠ ج ٢ (محمد رشيد رضا) .
[٢] أنظر المرجع السابق .

وعلى أساس التشجيع المادى الذى طالبنا به أثناء الدراسة (هذا إذا لم يكن فى الإمكان إقامتهم إقامة دائمة بالكلية أثناء الدراسة وتدريبهم تدريباً خاصاً على هـذا العمل ، تماماً كما يحدث بالنسبة للكليات العسكرية والمعاهد اللاهوتية لغير المسلمين .

لابد من شروط أخرى يجب توفرها حتى يمكنه تأدية رسالته على الوجه الأكمل ، منها على سبيل المثال :

١ — إعداد مسكن مريح للداعى يكون قريباً من المسجد ليشعر بالاستقرار والهدوء النفسى فيتفرغ لعمله ويقبل عليه بجد وإخلاص ، حتى يكون مرتبطاً بالحى ارتباطاً يساعده على تفهم مشاكله والإسهام فى حلها .

٢ — أن يظل بمسجده فترة طويلة لاينقل منه إلى مسجد آخر إلا بعد أن يكون قد أدى للحى الذى يقيم فيـــه خدمة ظاهرة . خاصة وأن الاصلاح لابد له من دراسة قد تستغرق وقتاً طويلا ثم يبدأ فى العلاج على أساس هذه الدراسة . ولا مانع من أن يتبادل مع بعض زملائه من الأئمة فى حدود الحى الذى يعيش فيه خطبة الجمعة ليكون ذلك دافعاً له للتجديد وحتى لايمل الجمهور سماع خطبة الجمعة من شخص واحد .

٣ — يجب ألا يقتصر عمل الإمام على مجرد العمل فى حدود المنطقة التى يعيش فيها . وإنما يمكن للإمام أن يقوم برحلات مع أهل الحى إلى المناطق الدينية والأماكن الإسلامية التى يمكن أن تزود المسلمين بطاقات وشحنات إيمانية تدفعهم إلى الجد والإخلاص . على خلاف الرحلات الطلابية التى يغلب عليها طابع الترفيه والتسلية أكثر من المعرفة للعظة والاعتبار .

ولقد أحست وزارة الأوقاف فى مصر بما يمكن أن يصنعه المسجد للمجتمع وما يمكن أن يقوم به الإمام من جهد لخدمة هذا المجتمع . فأنشأت المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية ليقوم بإعداد نشرات علمية يمكن للامام عن طريقها أن يحافظ على الصلة بين المسجد والمجتمع . ويقوم هذا المكتب بإعداد المـــادة العلمية اللازمة للنشرة ليزود بها الإمام لتكون عوناً له على تحضير الدروس وخطبة الجمعة . كما قامت الوزارة بإصدار سلسلة زاد الخطيب وهى عبارة عن كتب فيها مجموعة من الموضوعات تعالج أهم قضايا العصر ومشاكله . صدر الجزء الأول منها فى عام ١٣٨٣ هـ – ١٩٦٠ م والثانى عام ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م[١] . وبهذه الكتب وهذه النشرات أصبح من السهل حصول الإمام على المراجع خاصة وأن النشرة تحدد المرجع بما فيه الصفحة والجزء . وفتحت له أبواب الاستزادة من أى موضوع إذا كان راغباً فيه وكان جمهوره مقبلا عليه . بل إن هذه النشرات فتحت للامام أبواباً لم يكن الكثيرون يطرقونها فى خطب الجمعة والدروس الدينية لقلة ما بين أيديهم من مراجع عنها . كقضايا الشباب وتكوين الأسرة ورعاية الطفولة ونشأتها على الإسلام والعلاقة بين العلم والإسلام وكثير من هذه الموضوعات الهامة والجادة[٢] .

لكن هذه وحده لا يكفى بدون إعداد كامل من الاساس . فالداعية الكفء هو الامل الذى يتمناه كل مسلم مخلص . وتكوينه يحتاج إلى خطة محددة تبدأ من الصفر . والواجب أن يختار من البداية عن طريق الاختبارات العقلية

---

[١] أنظر بحث الدعوة والمجتمع د/عبدالعزيز كامل – مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية المؤتمر الخامس ص ٦٢٠ .

[٢] أنظر المرجع السابق ص ٢٦٧ .

والخلقية ثم يحاط بإيواء مادى وهداية روحية وزاد من العلم المتنوع الذى يكفل القدرة على الدعوة وبيانها . ولايصح أنه يكلف بالدعوة غير القادر عليها . لان ذلك يضر ولايفيد والواقع التطبيق يوضح ذلك .

ومسئولية تكوين الدعاة فى عنق الأمة على العموم لانها القادرة وحدها على ذلك وعلى المؤسسات التعليمية أن تبذل طاقتها المتاحة حتى لايحاسبها الله على التفريط(١) .

---

[١] الدعوة الاسلامية (د / أحمد غلوش) ص ٤٨٦ .

الركن الثانى من أركان الخطابة

الخطبـــة

بعض الناس يتصورون أن إلقاء الخطبة عملية سهلة ، ويكفى فيها صوت جهير ، أو رجل جرىء يحفظ القرآن أو بعضاً من أحاديث رسول الله ﷺ ، أو يحفظ مقاطع من النثر أو أبياتاً من الشعر يستطيع بها أن يفهم المستمعين أنه يجيد الخطبة ويحسن التعبير .

ولكن الحقيقة غير ذلك . فالخطابة — كما رأينا — لها شروط ، والخطبة ليست عملية سهلة هينة ، وليست مجرد كلام يقال ، دون ترتيب أو تبويب أو تنظيم ، ولكنها أمر شاق يحتاج إلى وقت وجهد ، كما أن الذين يستمعون لها إنما هم بشر لهم عقول تحكم ، ولهم أرواح تحس ولهم نفوس تتذوق ، ولذا فإنه يتحتم على الخطيب حين يريد أن يخطب، الاستعداد والاعداد لهذا الكلام الذى لابد أن يكون له معنى ، وأن يقصد من ورائه إقناع الجمهور واستمالهم إلى مقولته ، ولذا كان عليه أن يتصور هذه الخطبة بوجدانه قبل أن يلقيها ، وأن يفكر فى عناصرها وبركزها بعقله قبل أن ينطق بحرف منها ، وأن يقف على الادلة والبراهين التى سيوردها خلال إلقائها ، ويهيىء ويرتب أسلوبه وبيانه الذى سيحدث به المستمعين .

فالخطبة لابد أن تكون متسلسلة منظمة ، وأن تكون واضحة البيان فى أسلوبها حتى تقنع المستمع وتستميله بأدلتها .

ولهذا ، وحتى نستطيع أن نتبين كيفية إعداد الخطبة حتى تؤدى الغرض منها ، فإنه لابد لنا أن نتعرض إلى النقاط التالية :

١ — كيفية إعداد الخطبة .

٢ — محتويات الخطبة .

٣ — أقسام الخطبة .

٤ — خصائص كل قسم للخطبة .

٥ — الفرق بين الخطبة وفنون القول الاخرى .

وسنبدأ بشرح هذه النقاط حسب الترتيب الذى ذكرناه :

١ - إعـــداد الخطبـة

مما لاشك فيه أن الأمر العظيم يحتاج إلى تخطيط وإعداد ، ويحتاج إلى جهد يبذل ووقت يُعد فيه ، حتى يكون على قدر المقام الذى وضع له . وما من شىء فى هـذه الحياة — إذا أريد له أن يكون جيداً — وعلى مستوى . إلا ويحتاج إلى إعداد واستعداد .

والقاعدة : أنه لابد من الأخذ بالأسباب ، إذا أردت أن تصل إلى شىء ما فلا نجاح دون مذاكرة ، ولا حصاد دون زرع ، ولا انتصار دون أخـذ العدة والتخطيط لهـذا النصر . بل إنك لن تأكل ولن تشرب إلا إذا بذلت جهداً ووقتاً فى البحث عن الطعام والشراب والإعـداد لهما — حتى الرسالات السماوية لم يكن تكليف المولى الرسل بها إلا بعد إعدادهم إعداداً كاملاً — فهاهو موسى عليه السلام حين قال له المولى سبحانه « إذهب إلى فرعون إنه طغى » يرد على مولاه بقوله : « رب اشرح لى صـدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى »[١] فهو بهذا يطلب من ربه أن يلهمه الاستعداد لدوره بعد فهمه له وأن يجعله قادراً على تحمل هذا الدور الذى يحتاج إلى تخطيط حتى يتمكن من إبلاغ الرسالة وهو منبسط النفس ، مستسهل تنفيذ الأمر .

وهـكذا كان إعداد موسى عليه السلام . وإعداد محمـد ﷺ وإعداد كل المرسلين وتعليمهم وتدريبهم على طريقة التبليغ وأسلوب العمل .

والخطبة — كما قلنا — عند من يقـدر أهميتها من المسائل الصعبه الخطيرة . ويستشعر ذلك أيضاً كل من مارس الخطابة عملياً ، وواجه الناس فى يوم ما .

---

[١] سورة طه آية ٢٥ — ٣٠

يقول عمر بن الخطاب : « ما يتصعدنى كلام كما يتصعدنى خطبة النكاح »(١) .

ولعل الذين قرأوا التاريخ الإسلامى ويعرفون قصة تولية أبى بكر الخلافة ، قد قرأوا حين قراءتهم للقصة قول عمر رضى الله عنه : « وكنت قد زورت فى نفسى كلاماً قبل أن أصل إلى سقيفة بنى ساعدة ، وزورت هنا بمعنى أعددت ورتبت وجهزت . فلا يصح أن يتكلم إنسان فى موضوع مادون إعداد له ، وتحضير لعناصره والنقاط التى سيثيرها فيه .

والذين يريدون أن يعرضوا على الناس كلاماً طيباً جديداً ، وخطابة ناجحة موفقة ، لاشك أنهم يقدرون قدر الخطبة أكثر من غيرهم . ويرون فيها حملاً ثقيلا يحملونه على أكتافهم قبل إلقائها . وبخاصة إذا كانوا ممن يحترمون أنفسهم ويحافظون على سمعتهم وسمعة الوظيفة الملقاة على كاهلهم . إن كانوا من الخطباء المعينين ، أو من المتحدثين الموظفين .

قيل لعبد الملك بن مروان : عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين — فقال : كيف لا يعجل على ، وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين(٢) .

والمقصود بإعداد الخطبة : هو التهيئة والتحضير . ولابد من ذلك ليبرز المعنى ، ويتضح المغزى ، ويؤثر الكلام . وكما تهيأ الخطبة وتحضر ترتب المعانى وتحسن الألفاظ وتبنى النتائج على المقدمات فنصل إلى ما نرجوه للخطبة ومانبغيه من وراء إلقائها . يقول الجاحظ : « إن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً ، وأعاره البليغ مخرجاً سهلا ، ومنحه البليغ قولا متعشقاً . صار فى قلبك أحلى ، ولصدرك أملا . والمعانى إذا كسيت حسن الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق

---

[١] البيان والتبين جـ ١ ص ١٠١
[٢] جمهرة خطب العرب ٢ / ٢٧٦

أقدرها بقدر مازينت، وعلى حسب مازخرفت. فاذكر هذا الباب ولا تفرط فيه»(١).

وإعداد الفكرة والمعنى لابد من أن يمر بمراحل متعددة حتى تظهر الخطبة بصورتها اللائقة بها، وإعداد الفكرة يبدأ أولا: بمرحلة اختيار الموضوع، وتحديده فى العقل، والاقتناع به، والرضى عنه، وهذا يمثل المرحلة الأولى والهامة من مراحل الخطبة، ثم بعد ذلك يبدأ المتحدث فى تحليل الموضوع الذى وقع الاختيار عليه لعناصره الأساسية، واختيار أدلته وتنسيق هذه الأدلة، وهذه تمثل المرحلة الثانية، ثم بعد ذلك تأتى المرحلة الثالثة: وهى صياغة المعانى والأدلة فى قالب بيانى فصيح، وأسلوب بليغ يتناسب مع المستمعين.

وإذا كان المتعود على الخطابة يسهل عليه صياغة معانى الموضوع الذى وقع اختياره عليه دون جهد جهيد، فإنه لايستطيع أبداً أن يترك نفسه حتى يصعد المنبر أو يقف أمام الجمهور، دون أن يحدد الموضوع تحديداً جيداً ويحلل عناصره، وينسق أدلته، وإلا فسيقول كلاما لاطعم له ولا لون ولا رائحة، ولن يرضى أحداً، بل حتى لن يرضى هو عن نفسه حين يفعل ذلك، وإن لم يحسن بذلك انطبق عليه قول النبى ﷺ: «إذا لم تستح فافعل ماشئت».

ولذا فإن العلماء يرون أن هذه المراحل الثلاث ضرورية للخطبة، ولا نفضل مرحلة غيرها فى الأهمية، وجميعها يتضافر فى تقديم خطبة جميلة متماسكة تصل لهدفها وتأثيرها، يقول ابن المعتز: «إن البلاغة بثلاثة أمور. أن تغوص لجلة القلب فى أعماق الفكر، وتتأمل لوجوه العواقب، وتجمع بين ماغاب وماحضر. ثم يعود القلب على ماأعمل الفكر، فيحكم سياق المعانى والأدلة. ويحسن تنفيذها ثم تبديه بألفاظ وشيقة مع تزيين معارضها واستعمال محاسنها»(٢)

---

[١] البيان والتبيين جـ ١ ص ١١٧
[٢] المرجع السابق ص ١٣٥

ويلاحظ أن إعداد الفكرة والمعنى لايكفى فيها مرورها بهذه المراحل الثلاثة دون مراعاة للزمان والمكان والمستمعين ، فالبلاغة أن تخاطب الناس عن قدر عقولهم ، وبالكلام المفيد لهم ، ولذا يقول الشيخ على محفوظ : « من أراد العظة البليغة ، والقولة المؤثرة — فليعمد إلى المنكرات الفاشية ولاسيما ما كان منها قريب العهد . وحديثه على ألسنة الناس . أو ذائعاً فى الصحف . ثم يقدم من هذه الوقائع أكبرها ضرراً أو أسوأها أثراً فيجعله محور خطابته ، وموضع عظته . ثم يفكر فيما ينشأ عن هذا الحادث أو المنكر من الاضرار الخلقية والاجتماعية والصحية والمالية . ويحصى هذه المضار فى نفسه أو بقلمه ثم يستحضر ما جاء فيه من الآيات والاحاديث الصحيحة وآثار السلف ثم يأخذ فى كتابة الموضوع ، إن شاء كتابته مضمنه ما فيه من تلك المضار ، وماورد فيه عن الشارع — محذراً من الوقوع فيه ، حاثاً على التوبة منه . هذا إذا أراد الإقلاع عن جريمة ، أو التنفير عن رذيلة . فإذا أراد الحض على عمل صالح ، أو مشروع نافع ، أو الحث على خلق فاضل فليفكر فى مزاياه وآثاره الحسنة تفكيراً عميقاً . وليستحضر ما يناسبه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ثم يسلك فى الكتابة المسلك الذى بينا . متجنباً السجع المتكلف والمحسنات الثقيلة ، التى كثيراً ما تخفى الاغراض وتحجب المعانى ... إلخ »[1]

مراحل الإعداد للخطبة : —

يقسم أهل العلم الإعداد للخطبة إلى أربع مراحل : —

١ — المرحلة الاولى : مرحلة الخلق أى خلق موضوع الخطبة .

٢ — المرحلة الثانية : مرحلة تركيب عناصر الخطبة .

٣ — المرحلة الثالثة : مرحلة اختيار الادلة .

٤ — المرحلة الرابعة : مرحلة التعبير البيانى .

---

[١] راجع هداية المرشدين ص ١٤٦ .

وإذا كنا نركز على هـذه المراحل ، ونبين تفصيلات كل مرحلة منها ، فإننا بذلك نؤكد على أهمية الإعداد للخطبة وضرورة هذا الإعـداد . ولعلنا نحس تخلفاً واضحاً فى الخطابة الدينية والوعظ الدينى فى هذا العصر ، ويرجع ذلك فى الاساس لإهمال الإعداد عند الخطباء ، وعدم الاهتمام بتحضير خطبهم ولا يستغنى خطيب أياً كان ، ومهما كان عن إعـداد الخطبة وتهيئتها ، وكبار الخطباء يهتمون بخطبهم ويتخيرونها بدقة ، ويعدونها إعداداً علمياً كاملا ، وهذا هو السبب الرئيسى فى نجاحهم وتأثيرهم وبالتالى شهرتهم وتردد أسمائهم على ألسنة الجماهير .

المرحـــلة الأولى

خلق موضـوع الخطبـة :

حين يفكر الخطيب فى إلقاء خطبة ، أو يطلب منه ذلك ، فإن عليه أولا : أن يلجأ إلى نفسه ، ويفرغ عقله إلا من التفكير والبحث عن الموضوع الذى يتناسب مع الزمان والمكان والجمهور الذى سيلقى فيه الخطبة ، ولا بد أن يراعى هذه الأمور مراعاة تامة ، لأن ما يناسب التهنئة لا يناسب العزاء ، وما يقال فى الصلح غير ما يقال فى الجهاد ، وخطبة الأعياد والمناسبات الدينية غير الخطب التى تقال فى الأيام العادية . كما أن الموضوع الواحد يلقى بطرق متنوعة متعددة ، وما يثير الناس اليوم لا يثيرهم غداً تبعاً لتغير الموقف والحال .

فليست الخطب كما قلنا مجرد كلمات تحفظ وتلقى ، ويدور معظمها . كما هو واقع هذه الأيام — حول الدنيا وذمها والتزهيد فيها والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بعبارات مجملة لا تعالج من أمراض النفوس شيئاً ولا تصل إلى أعماق القلوب . وبعضها وللأسف يخلط الأوامر بالنواهى ويجمع بين أمور كثيرة لا يستوفى الكلام على واحد منها فيحذر من ترك الصلاة وشرب الخمور والزنا والربا ، وما إلى ذلك من المنكرات . كل ذلك فى خطبة واحدة . فهو كما يقول العوام : « سمك . لبن . تمر حنه » .

بل إن الناس يسمعون من الخطيب اليوم نفس ما سمعوه بالأمس ويسمعون نفسه غداً ، وما يلقى فى هـذا العام يدور فى العام التالى ، دون مراعاة الخطيب لمقتضى الحال ، وإصلاح السامعين على قدر ما فيهم من الشر والفساد دون تفرقة بين المتعلم والجاهل ، أو الصغير والكبير .

ولذا ، فإن خلق الموضوع يتحتم أن يوضع فى إطاره العلمى الصحيح .

وتحديد هـذا الموضوع لابد أن يتم وفق اعتبارات موضوعية معينة ، ولابد أن تتناسب الخطبة مع المستمعين . فالناس يتأثرون ببيئتهم وثقافاتهم ، وهنا وجب أن ينبنى هذا الخلق لموضوع الخطبة على عدة اعتبارات منها مثلا :

(أ) نفسية المخاطبين :

فالخطيب الذكى هو الذى يعرف كيف يتعامل مع جمهوره ، وكيف يؤثر فيهم بعظاته وخطبه . فلا بد أن يعرف أنه يخاطب بشراً ، وأنهم لذلك يتأثرون بعدد من المؤثرات بعضها فطرى ، وبعضها مكتسب . وهذه المؤثرات تدفعهم إلى سلوك معين وتجذبهم نحو غاية معينة . وأن بعضاً من هؤلاء الناس قـد يتصرف تصرفات معينة نتيجة لهذه المؤثرات بل يصل الأمر إلى تمسك الكثيرين منهم بفكرته ويستطيع أن يرد على انتقادات الناس الموجهة إليه .

وهنا فإن الخطيب الناجح يجب أن يعرف هـذه الأمور ويراعيها ، خاصة بعد أن يلاحظ العوامل التى تحدث الاتجاهات العامة ، وتؤثر فى نفس الأفراد وتنميها ، ومعروف أن الاتجاهات الفردية صورة لاتجاه الجماعة بشكل عام ، وهذه العوامل قـد حصرها علماء النفس الاجتماعى فى : البيئة — الوراثة — إمكانية الشخص نفسه ، وعلى الخطيب أن يفهم ذلك جيداً قبل إلقاء خطبته وموعظته ، ويراعى عدم التصادم المباشر مع الاتجاهات السائدة ، ويركز على القضايا المؤثرة فى المستمعين ، ومن هنا يأتى اختيار الخطيب لموضوع الخطبة متفقاً مع نفسية المستمع ، مراعياً ظروف المستمعين وأحوالهم ، وهنا كان لابد من أن يختلف الموضوع فى القرية عن المدينة ، وفى العمال غير المثقفين وبالعكس .

ولا شك أن ملاحظة هـذا الجانب النفسى يؤدى إلى اختيار الطريقة الصحيحة لتقديم الموضوع ، لأن الطريقة التى تقدم بها المعلومات إلى الأفراد ذات أثر بالغ فى التأثير وتعديل الاتجاه .

وهنا فإنه بالإمكان أن نتخيل خطيباً يخطب فى أهل المدينة ، ويبين فى خطبته طريقة مقاومة الآفات الزراعية ، وخطيباً آخر يخطب فى أهل القرية عن شرب الخمر فلا شك أن هذين الخطيبين قد جانبهما الصواب . على خلاف ما إذا رأينا خطيباً يخطب فى القرية عن طريق مقاومة الآفات الزراعية ، أو خطيباً يخطب فى الطلبة عن وسائل النجاح . فى هذه الحالة ينجح الخطيبان لأنهما لامسا حاجة الجمهور وركزا على اتجاهاته .

ويساعد الخطيب على إدراك هذه الاتجاهات ، معارفه الشخصية ، وسعة أفقه ، ومعرفته بعلم النفس وعلم الاجتماع .

(ب) عقلية المخاطبين :

لابد أن يراعى الخطيب عقلية المخاطبين — فهو إذا تمكن من اختيار الموضوع المفيد نتيجة إحاطته باتجاهات الأفراد النفسية فإنه لا شك سيتمكن من اختيار نوع الدليل ، ومستوى الأسلوب الذى يتناسب مع المستمعين إن أحاط بعقليتهم ، وعرف إمكاناتهم العقلية ومـــدى ما تتحمله عقولهم من أدلة وبراهين . وقد روى عن عمر مرفوعاً قول رسول الله ﷺ : « أمرنا — نحن معاشر الأنبياء — أن نخاطب الناس على قدر عقولهم » . ولا شك أننا نتبع للرسول ﷺ فى مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، والإلقاء إليهم بالكلام الذى تفهمه وتدركه هذه العقول .

وقـــد قسم الألوسى عقول الناس إلى ثلاثة أقسام : فقال : « إن الناس ذو عقليات ثلاثة : —

فطائفـة منهم أصحاب نفوس مشرقة ، قوية الاستعداد لإدراك المعانى ، قوية انجذاب نحو المبادىء العالية ، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه وهؤلاء هم أصحاب العقل الراقى فى الناس .

وطائفة ثانية : هى عوام الناس الذين يملكون نفوساً كدرة ، ضعيفة الاستعداد للمعانى ، شديدة الإلف بالمحسوسات ، قوية التعلق بالرسول والعادات قاصرة عن درجات البرهان ، وهؤلاء قوم يستثارون بسهولة ولا عناد عندهم .

وطائفة ثالثة : معاندة مجادلة بالباطل . تقصد دحض الحق لما غلب عليها من تقليد الأسلاف ، ورسخ فيها من العقائد الباطلة(١) .

ليس من العقل ولا الحكمة أن يأتى الخطيب بأدلة وبراهين أكبر من مستوى وعقول المستمعين ، وليس من اللائق أن يخاطب الأمى بما لا علم له به ، ولا اهتمام عنده به . كأن يحدثه عن القمر الصناعى مثلا ، وعن أجهزته الدقيقة ، وأجزائه ، أو غير ذلك من الأمور التى لا تعنيه . أو يملأ ذهنه بالكليات المركبة أو يلقى عليه تشبيهات وأمثال لم يسمع عنها ، وليست من واقع بيئته . وإنما يجب أن يكون الدليل مبسطاً ، والتعاريف بالعرض المحسوس ، والتشبيهات والأمثال من واقع بيئته . أما إذا كان يخاطب المثقفين فعليه أن يرتفع بمستوى الأسلوب الذى يخاطبهم به ولا مانع من أن يسلسل العناصر لهم ، وأن يأتيهم بالتشبيهات والأمثال ، لأن متابعة التسلسل سهل عندهم ، وقد يكون الغوص فى المعانى من دأبهم وديدنهم كما أنهم كثيراً ما يسعدون بأسلوب يحلق بهم فى عالم الجمـــال ويقرّب لهم المحسوس ويملأ بيانه بالمحسنات المختلفة والاستعارات الكثيرة .

وعلى كل حال ، فإن الإحاطة بعقلية الأفراد تسهل للخطيب النجاح وتوفر عليه العناء والتعب ونقد الناقدين .

(ج) ملاحظة المناسبة :

تصور أن رجلا قام يخطب فى حفل عرس ، وجعل موضوع خطبته ، كل

---

[١] تفسير الألوسى ج ١ ص ٢٥٤

شيء هالك إلا وجهه » . أو وقف يخطب بين المعزين فأخذ يتحدث فى موضوع سياسى كالحرب بين انجلترا والارجنتين ، أو مشكلة الحدود بين روسيا والصين لاشك أن هذا الخطيب أخطأ خطأ فادحاً حين لم يراع المناسبة ، ولم يلتفت إلى تناسب الحدث مع موضوع خطبته . ولذا فلابد أن يراعى الخطيب مناسبات الناس وألا يبتعد عنهم . فلابد للجمهور أن يجد قولا يتصل بيومه وحياته حتى ينتبه إليه . بل إن فاته من هذا المقال شيء سأل عنه إشباعاً لنفسه التى أثارها هذا المقال .

والمناسبات كثيرة منها : الوطنية — والشخصية — والدينية ، وتتغاير الخطب بقدر تغاير المناسبات . كما أن خطبة العيد تختلف عن خطبة الجمعة ، وخطبة التهنئة تختلف عن خطبة العزاء ، والخطيب ينبغى أن يحيط بهذه المناسبات حتى يساير الناس وفكرهم بهذه الإحاطة .

وهكذا شاءت إرادة الله وحكمته أن ينزل القرآن الكريم دستور هذه الحياة متناسباً فى كل آية وسورة ، مناسباً لواقع الناس ومصالحهم ، ولذا خلدت به النفوس والعقول ، وعاش فى فكر الناس وخلدهم لا لمجرد أنه وحى السماء وكلام الله الذى يتعبد بتلاوته ، وإنما لأنه مع ماسبق يشتمل على كل ما يحتاج إليه الناس لدينهم ودنياهم ويتناسب مع حياتهم ووجودهم .

المرحلة الثانيـــة

تركيب العناصر :

عرفنا أن المرحلة الأولى من مراحل إعداد الخطبة هى : خلق موضوع الخطبة ، واختيار الموضوع المناسب الذى يتفق مع نوعيات المستمعين ، على أن يراعى الخطيب نفسية المخاطبين وعقليتهم ، وتناسب الموضوع مع الزمان والمكان والمناسبة التى تلقى فيها هذه الخطبة .

والمرحلة التالية لخلق الموضوع واختياره هى مرحلة تركيب العناصر ، فلابد من تقسيم العناصر وتركيبها حين نفكر فى إعداد الخطبة ، كما يتحتم حين نحدد العناصر تفصيل الدليل مع كل عنصر ، وقد سمى ابن سينا هذه المرحلة بـ « العمود »(١) لأنها الأساس المتين فى الخطبة ، وعليها المعول الأكبر فى الترتيب والتنسيق - وعلى الخطيب أن يحدد عناصر خطبته ، ويميز كل عنصر على حدة ، على أن يجعل العناصر كلها تتفق وتدور حول موضوع واحد .

ويستحسن أن يوجز الخطيب هذه العناصر فى كلمات قصار لكى تدوم معه ويتمكن بعد دوامها من جمع الأدلة المناسبة لكل عنصر .

والذى يعين الخطيب فى تعيين عناصر موضوعه ، الرجوع إلى المراجع العلمية والقراءة فيها قراءة مستوعبة ، هذا بالإضافة إلى عرض الفكرة وعناصرها على عقله ، وسيصل الخطيب إلى هدفه سريعاً حين يتضح أمامه الهدف من الموضوع كله ، وسيعينه تدربه على هذا ، وذاكرته القوية التى قويت بالمران والممارسة .

ويجب أن تكون العناصر مترابطة ، سلسلة بحيث يرتبط كل عنصر مع صاحبه بلا خلل أو بعد عن الموضوع — ولذا فعليه ألا يستطرد أكثر مما ينبغى حتى لا يخرج عن الموضوع ، ويبتعد بالسامعين عن التركيز فى خطبته — وعموما فإن الاستطراد غير مستحب فى الخطبة .

---

[١] راجع كتاب قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين للدكتور احمد غلوش ص ٤٣

المرحلة الثالثـــة

اختيار الأدلة :

بعد أن يستقر الخطيب على موضوع معين لخطبته ، ويقسم الخطبة إلى عناصرها الأساسية يأتى دور البحث عن الأدلة والبراهين التى تعين الخطيب على بيان موضوعه ، وإفهام المستمعين ، وإقناعهم بما يقال ، وهذا يحتاج إلى تحديد نوعية المصادر التى تفيد كل موضوع .

فمثلا مصادر الخطبة الدينية أساسها الكتب المقدسة ، بالإضافة إلى كتب السنة وكتب الفقه ، وكتب الثقافة الاسلامية عموما ، ومادار حول ذلك من دراسات واجتهادات العلماء ، على خلاف الخطبة السياسية التى قد لاتحتاج لكل هذه المصادر والتى تختلف مصادرها عن مصادر الخطبة القضائية أو المحفلية ، أو غير ذلك من أنواع الخطب التى ذكرها العلماء .

وإن كنت أنا شخصياً أرى أن هذا التقسيم للخطبة لايصلح لهذا العصر فى مجتمع إسلامى ولايصح أن يكون فى دولة الاسلام التى لا يمكن الفصل فيها بين مايسمى ديناً وما يسمى دنيا ، والتى نرى ارتباط جميع أمور الحياة فيها بالعقيدة والدين .

ولاشك أن الأدلة التى يختارها الخطيب لموضوعه ، منها مايتصل بالموضوع اتصالا مباشراً ، ومنها مايتصل به بطريق عرضى غير مباشر ، ومع ذلك فإنه يجب على الخطيب حين يفكر فى اختيار أدلته أن يراعى آراء أهل التخصص ، لأن ذلك مما يقنع المخاطبين بسهولة ، فلا شك أن أقوال الحكماء والأئمة مفيدة فى بابها ، وقد أصبح الاستشهاد بها ضرورياً ، وعلى الخطيب أن يستعين بها حتى يصل إلى غرضه ، فالمحامى الناجح يستطيع أن يقنع القاضى ، ويستميل الجمهور إلى جانب الحق إن استشهد بنصوص القوانين التى تلتزم بها المحكمة .

وعليه أيضاً أن يراعى مواطن العقيدة فى المستمعين ليستشهد بها فى خطبه ،

وينقل من نصوصها فى أدلته ، والدين هو محرك الوجدان وموقظ الهمم ، بل إن الناس المؤمنين بعقيدة ، يضحون بالغالى والنفيس فى سبيلها ، ويندفعون فى اتباع وتنفيذ كل مايسمعون إن أصاب منهم موطن إيمانهم بدين الله ، وحبهم لرسول الله على وجه الخصوص — والتدين ميل فطرى فى الانسان ، لأنه حاجة من حاجات نفسه ، ونزعة داخلية لايستطيع العقل أن يفسرها ولا أن يقدم تحليلا لمكوناتها ، ولذا كان على الخطيب أن يحاول اكتساب هذا الميل فى الانسان إلى جانبه ، وأن يهتم بهذا الشأن فى الدليل حتى يحقق الاقناع واليقين — وعلى الخطيب المسلم أن يعرف أن القرآن الكريم والسنة النبوية يفيدان أسلوباً وتأثيراً لما لهما من إعجاز وبيان ، ولكونهما أكبر مصدرين دينيين يعتمد عليهما المسلمون جميعاً .

وعلى الخطيب أيضاً أن يلاحظ تأثير العادات والآثار القديمة وقت إعداده للخطبة ، وأن يضع ذلك فى اعتباره وهو يختار أدلته ، حتى يتمكن من التأثير ، وحمل الناس على ماريده لهم . كما يجب عليه أن يلاحظ أيضاً عند اختيار أدلته آثار السلف . فهى مثل العادات فى قوة التأثير . لأن الأحياء يتخذون أعمال سلفهم تكئة يعتمدون عليها .

إن على الخطيب أن يراعى نوع الدليل الذى جاء به ليستدل ويسترشد على صحة مايقول . فإذا سقط الدليل سقطت القضية عموما . وفشلت الخطبة فشلا ذريعاً .

ولذا فقد عُرِّف الدليل فى اللغة بأنه « المرشد » وعرف فى اصطلاح الحكماء بأنه : « مايلزم من العلم به العلم بشىء آخر »[1] وهذا الدليل إما دليل قطعى ، وإما دليل ظنى — والدليل القطعى هو ماأوجب التصديق اليقينى . ويسميه

---

[١] الخطابة للشيخ على محفوظ ص ٢٢٨ .

العلماء برهاناً وهو ماتألف من اليقينيات الست ، الأوليات والمشاهدات والمجربات والحدسيات والمتواترات وكذا القضايا التى قياساتها معها ، فالأوليات هى القضايا التى يدركها العقل بمجرد تصور الطرفين كقولك : « الواحد نصف الاثنين » . « الكل أعظم من الجزء » .

والمشاهدات وهى القضايا التى يدركها العقل بالحس الظاهر . كقولك : « الكلب أصغر من الفرس » و « القمر يظهر ليلا » .

أما المجربات فهى التى يدركها العقل بواسطة تكرار يفيد اليقين . كقولنا: « الإسبرين يعالج الصداع » .

والحدسيات هى القضايا التى يدركها العقل بواسطة حدس يفيد العلم . كقولك « نور القمر مستفاد من نور الشمس » .

والمتواترات هى مايدركها العقل بواسطة السماع عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ؛ كقولك « صعد جاجارين إلى القمر » .

أما القضايا التى توجد قياساتها معها فهى مايدركها العقل بواسطة لا تغيب عن الذهن عند تصور الطرفين . فاذا قلنا إن الأربعة زوج ، فإن العقل يدرك ذلك بواسطة لا تغيب عن الذهن عند تصور الطرفين . وهى أن الأربعة تنقسم إلى متساويين . وكل منقسم إلى متساويين زوج .

هذا هو الدليل القطعى الذى قلنا عنه : إنه ماأوجب التصديق اليقينى ، والذى يسميه العلماء برهاناً . يقول عنه العلماء : إنه لايستعمل فى الخطابة ، فالأحوال الصادقة يقيناً لاتقع فى الخطابة من حيث إنها خطابة . فإن ألمّ بها الخطيب فقد عدل بالخطابة عن أصلها(١) .

---

(١) راجع المرجع السابق ص ٢٨ — ٢٩

وما يصدق على الدليل القطعي يصدق على الدليل الظني، فهو أحـــد جزئي البرهان، الذي قيل: إنه لايستعمل في الخطابة، وإذا كان الدليل القطعي لايستعمل فالدليل الظني أولى بعدم الاستعمال، والدليل الظني هو ماأفاد الظن فقط، ويتألف من غير اليقينيات وهي أيضاً ست لاداعي لذكر تفاصيلها.

من أين إذن تؤخذ أدلة الخطابة؟

يقول الشيخ علي محفوظ(١).

« تؤخذ أدلة الخطابة من التأمل في موضوع البحث، وإمعان النظر في أحواله وتسهيلا لاستخراج هذه الأدلة فقد وضع الأقدمون من اليونان جدولا لما يمكن استعماله منها، وقد أطلق العرب عليه اسم « مواضع ».

قال ابن سينا: « إن الحجج في الجدل والخطابة تؤخذ من المواضع، فمن طلب الإقناع وهو لايعلمها، كان كحاطب ليل يسعى على غير هداية، لالبخل في الموضوع بل لنقصان في الاستعداد.

فالموضع مصادر الأدلة العامة التي يمكن الخطيب استعمالها في كل مقـــام، إما لإثبات قوله وتأييد رأيه، أو توسيع المعاني لحسن البيان، وهي نوعان: ذاتية وعرضية، فالذاتية ماتستفاد من ذات الموضوع، وهي كثيرة:-

منها: تعريفه بذكر خصواصه اللازمة، أي البينة الثبوت له، والانتفاء عن غيره كقول الإمام علي كرم الله وجهه لكميل بن زياد النخعي: « ياكميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المـال، والعلم حاكم والمـال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون مابقي الدهر، أعيانهم مفقودة. وأمثالهم في القلوب موجودة ».

ومنها: شرح الأعراض التي تختص جملتها به ».

---

[١] المرجع السابق ص ٤٠

ومن الأدلة الذاتية أيضاً : تعريف الشيء بذكر آثاره الظاهرة الواضحة للناس — ومع أن حقائق الأمور تخفى على كثير من الناس . إلا أنها تظهر بآثارها وفوائدها . فإذا أراد الخطيب أن يثبت حكماً لأمر . أو ينفى هذا الحكم عنها . فعليه أن يذكر فوائده أو مساوئه التى يستدل منها على صلاح علتها أو فسادها ، لحال المعلومات تابع لحال عللها — عند ذاك يستطيع الخطيب أن يبنى حكمه فى مقام الترهيب منها أو الترغيب فيها .

ولسنا فى حاجة لأن نشرح بالتفصيل مايمكن أن يقوله الخطيب فى هذا الموضوع — فهو يستطيع أن يستخلص ويستنتج الكثير من آثار كثير من الفرائض أو المحرمات ، ويستطيع أن يتلمس حكم التشريع وعلة التحليل والتحريم ، فهو يستطيع أن يذكر مثلا مالصوم من فوائد حسنة وآثار عظيمة ، وكيف أنه يضبط النفس ويطفىء شهوتها . لأنها إذا شبعت تمردت وزادت فى طلب الشهوة ، وإذا جاعت خضعت وامتنعت عما تهواه . وكيف أنه وسيلة إلى تربية النفوس وتهذيبها . لأنها إذا انقادت إلى الامتناع عن الحلال الذى لاتستغنى عنه . وذلك طلباً لمرضاة الله وخوفاً من عذابه . فأولى بها أن تنقاد للامتناع عن الحرام وهى غنية عنه . ويستطيع الخطيب أن يستخلص ذلك من قوله سبحانه تعليلا لفرض الصيام « لعلكم تتقون » .

هذا بالإضافة إلى أنه يستطيع أن يبين كيف أن الصيام وسيلة إلى شكر النعمة ويدل على ذلك . وكيف أنه يبعث فى الإنسان فضيلة العطف على الفقراء والرحمة بالمساكين ، وكيف أنه ينقى الجسم من الفضلات الرديئة والرطوبات المعوية . ويشفى من اضطرابات الأمعاء المزمنة والبول السكرى وغير ذلك من الأمراض الكثيرة التى ثبت أن الصيام يفيد فى علاجها .

ويستطيع أن يقيس الخطيب على ذلك آثار الزنا مثلا . أو تناول المسكرات وتعاطى الخمور ومضار ذلك بدنياً وعقلياً ومالياً واجتماعياً .

ومن أدلة الخطابة التشبيه :

إذا كانت الغاية من التشبيه عند البيانيين حسن البيان . إلا أنه يأتى أيضاً للإقناع . ولذا فإن الخطيب يستطيع عن طريق التشبيه أن يصل إلى مقصده لانه يزيد المعنى وضوحاً . ويكسبه تأكيداً .

وقد استعمل التشبيه كثيراً فى الكتب السماوية . وأطبق عليه جميع المتكلمين من العرب والعجم ، ولم يستغن أحد منهم عنه .

استعمل التشبيه كثيراً فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة — فى القرآن الكريم مثل قوله سبحانه :

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم »(١) .

وفى السنة النبوية :

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(٢) .

كما استعمل التشبيه أيضاً كبار الكتاب والمفكرين . يقول ابن المقفع :

« الدنيا كالماء الملح . كلما ازداد صاحبه شرباً ازداد عطشا . وكالكأس من العسل فى أسفله السم ، للذائق منه حلاوة عاجلة وفى آخره الموت الزؤام »(٣)

ومن الأدلة أيضا (المثل) :

ولضرب الأمثال فى الخطابة مزايا كثيرة . وهى من الأدلة الطيبة التى

---

[١] سورة البقرة آية ٢٦

[٢] متفق عليه من حديث النعمان بن بشير ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين جـ ٣ ص ٥

[٣] راجع كتاب الخطابة ص ٣٢

تشجع المستمعين على قبول الكلام . ولفت أنظارهم إلى مايقال لأنها تصوير للمعقول بصورة المحسوس .

كما أن فى المثل إيراد للمعنى فى هيئة مأنوسة مألوفة . وبذلك تبقى صور المعانى راسخة فى أذهان الناس ، لاتذهب بطول الزمان ولايأتى عليها النسيان .

ويقال عن الأمثال : « إنها ألطف ذريعة إلى القلوب النبية . وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الآبية »[1] .

والأمثال هى أنواع مفترضة ممكنة . وهى مانسب فيها النطق والعمل إلى عاقل .

وهى تختلف عن الحكاية بأن لها مغزى ، وكونها غير واقعية وإن كانت فى حيز الإمكان .

وهى إما مخترعة مستحيلة ، وهى ماجاءت على ألسنة الحيوانات والجمادات ، فيعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان كأمثال « كليلة ودمنة » .

وإما مختلطة وهى مادار فيها الكلام والعمل بين الناطق وغيره ، وكثيراً مايكون ضرب المثل على وجه التشابه والحكم .

وماأكثر الأمثال والحكم فى كلام السابقين :

يقول ابن المقفع فى مودة الصالحين والأشرار :

« المودة بين الصالحين سريع اتصالها ، بطىء انقطاعها ، كآنية الذهب بطيئة الإنكسار هينة الإعادة — والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها — بطىء اتصالها ، كآنية الفخار يكسرها أدنى شىء ولاوصل لها أبداً » .

---

[١] المرجع السابق .

ويقول أيضاً : — « يبقى الرجل الصالح من الرجال صالحا حتى يصاحب فاسداً — فإذا صاحبه فسد مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر فإذا خالطته ملحت »(١) .

وعلى كل حال : فضرب الأمثال من أحسن الأدلة التى يمكن للخطيب أن يستعملها ، وقد قيل : فى المثل أربع لاتجتمع فى غيره من الكلام — إيجاز اللفظ — وإصابة المعنى — وحسن التشبيه — وجودة الكتابة ، فهو نهاية البلاغة ، كقولهم (الصيف ضيعت اللبن) لمن يقصر فى طلب الشىء فى أوله ، ثم جاء يطلبه فى غير أوانه(٢) .

وقد يتجه الخطيب إلى التشبيه البيانى المعروف ، لالتحسين الكلام وتزيينه ، بل للاستدلال الخطابى ، وتقرير المعانى التى يريدها ، ويستولى عليها استيلاءاً تاماً ، ويرى صاحبه أن النفوس تفهم بالتشبيه ماحاك فى الفؤاد ، وجال فى القلب ، واستولى على النفس(٣) .

ويضرب الشيخ أبو زهرة مثالا لذلك فيقول : « ومن أبلغ ذلك ماجاء على ألسنة بعض الصحابة رضى الله عنهم عندما استفتاهم الفاروق عمر فيما يستحقه الجد من التركة مع الإخوة ، فقد قال زيد بن ثابت فى تأييد رأيه من أن الإخوة أولى : لو أن شجرة تشعب من أصلها غصن ، ثم تشعب فى ذلك الغصن خوطان(٤) فذلك الغصن يجمع الخوطين دون الأصل ، ويغذوهما ألا ترى ياأمير المؤمنين أن أحد الخوطين أقرب منه إلى الأصل »(٥) .

---

[١] الخطابة للشيخ على محفوظ ص ٣٢ — ٣٣

[٢] نفس المرجع السابق ص ٣٤

[٣] الخطابة للشيخ أبو زهرة ص ٣٩ — بتصرف .

[٤] الخوط : الغصن الناعم

[٥] الخطابة للشيخ أبو زهرة

وقد يتجه الخطيب إلى تصوير فكرته بذكر مثال خيالي لا يتصور العقل وقوعه، كتلك الأمثال التي تجيء على ألسنة البهائم. ومن ذلك ما جاء في بعض خطب الإمام علي رضي الله عنه. فقد قال:

« إنما مثلي. ومثل عثمان. كمثل أثوار ثلاثة كن في أجمة: أبيض وأسود وأحمر معهن فيها أسد. فكان لا يقدر منهن على شيء. فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض. فإن لونه مشهور. ولوني على لونكما. فلو تركتماني آكله صفت لنا الأجمة. فقالا: دونك. فكله. فأكله فلما مضت أيام. قال الأحمر: لوني على لونك. فدعني آكل الأسود فتصفو لنا الأجمة. فقال دونك فكله. فأكله. ثم قال للأحمر: إني آكلك لا محالة. فقال دعني أنادي ثلاثاً. فقال: افعل. فنادى. ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض ثم قال علي رافعاً صوته ألا إني وهنت يوم قتل عثمان »(1).

وهذا النوع من الأمثال يسوقه الخطيب إذا أراد أن يستتر في بعض كلامه فلا يصرح ببعض الأشخاص. أو يصور المعاني خالية من كل علاقة لها بأشخاص أو يريد بها تقرير الأفكار من النفوس. مع تمليح الكلام وتزيينه.

ومن الأدلة التي يمكن أن يستعين بها الخطيب لإقناع المستمع ما يطلق عليه عند علماء الخطابة اسم « المواضع العرضية ».

ويقصد بالمواضع العرضية: مصادر الأدلة الخارجة عن ذات الموضوع الذي يتحدث فيه الخطيب — فلابد للخطيب أن يراعي كما قلنا نفسية. ونوعية المخاطبين. والمخاطب أحياناً قد لا يدرك ما في ذات الموضوع من خصائص. ومزايا وثمرات. فيصعب عليه أن يقتنع بأدلة تستمد قوتها من تلك الخصائص وهنا يتعين على الخطيب أن يستعين على إقناع المستمع بأمور خارجية. هذه الأمور لا يشك فيها المستمع. وهي عنده صادقة. ومما يذعن لها. حينذاك يبين له الخطيب أن تلك الأمور تؤيد وتحث على

[1] المرجع السابق ص ٤٠ – ٤١

مايدعو إليه . الأمر الذى يجعل المستمع يستسلم لما يقال . ويسلم بما يقدم له من غير جدل ولانقاش . لأن الأمر أحيــل على شيء هو عنده فى مرتبة التقديس والاحترام .

وأكثر تلك المواضع قوة وأثراً :

١ — الدين ٢ — العادات ٣ — تتبع آثار السلف

٤ — أقوال الأئمة وكبار العلماء ومن اشتهروا بالحكمة . . إلخ .

ولاشك أن الدين يسيطر على قلوب الناس . خصوصاً العامة منهم . وهو لهم المرشد الأمين . والمتدينون لايخضعون لشيء كما يخضعون لدينهم . ولذا فإن الخطيب ينجح تماماً حين يؤيد كلامه بالدين . وبخاصة إذا كان يخاطب جماعة متدينة .

ويقول الشيخ محمد أبوزهرة : « وقد عُد الاستشهاد بالدين من المواضع الخارجة لأنه ليس من الموضوع . ولامشتقاً من خصائصه . ولكن جاء شيء خارج عنه . وهو يفيد اليقين والجزم . وإن كان من شيء خارج عن الموضوع لأن مسائل الدين . فى مكانة من اليقين لاتعد لها مكانة . فإذا استشهد به استشهاداً صادقاً . حلت دعوة الخطيب فى القلب . فلا تنتزع منه . لأنها تصير جزءاً من أوامر الدين فتكتسب منه تقديساً »[1] .

وهكذا أيضاً بالنسبة للعادات المتمكنة من نفوس الناس . فإن لها سلطاناً على القلوب . ولذا وجب على الخطيب أن يعتمد عليها إن أراد التأثير فى المستمعين بأن يقرب مايدعو إليه مما يألفون من عادات . وما اصطلحوا عليه من عرف .

حينذاك يطمئن إلى مايقال . ويخضع له . لأن إقبال الناس يكون شديداً على الأمور التى تكون من جنس مايألفون .

---

[١] المرجع السابق ص ٤٢

وأما تتبع آثار السلف فلا شك أن له أثراً أيضاً فى الإقناع والاقتناع لأن لآثار سلف الأمة قوة فى نفوس الأحياء منها . ولهم سلطان كبير فى قلوبهم . بل قيل : إن أقوى الأفكار أثراً فى النفوس . هو ماجاء متصلا بآثار السلف . مؤتلفاً معها . ولذا فإن على الخطيب أن يقرب بين فكرته وبين ماأثر عن الجماعة التى يخاطبها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . مادام السلف من هذه الجماعة لم يشتهروا بباطل ولم يعرفوا بسوء .

وأما أقوال الأئمة والعلماء ومن اشتهروا بالحكمة ، فإن لها روعة وهزة فى نفس المستمع . وهى فى منزلة المسلم بها . لانها ثمرات تجاربهم ومخزون أفكارهم . وعلى الخطيب أن يتجه إلى هذه الاقوال والحكم . ليحلى بها خطبته . وبعض الخطباء من القدامى والمحدثين . يبتدئون خطبهم بحكمة مشهورة . أو قول قول حكيم عرف بالعلم والفكر الناضج ، ويجمل لون خطبهم بذلك النوع من الاستدلال .

ومن ذلك قول الحسن البصرى فى دعوته إلى التناصح . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

« إن المسلم مرآة أخيه المسلم . يبصره بعيبه . ويغفر له ذنبه . قد كان من قبلكم من السلف الصالح يلق الرجل الرجل فيقول : ياأخى ماكل ذنوبى أبصر ولاكل عيوبى أعرف . فإذا رأيت خيراً فرنى . وإذا رأيت شراً فانهنى . قد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : رحم الله رجلا أهدى إلينا مساوينا »

وهكذا كان للمواضع العرضية القوة والأثر فى المخاطبين . وقد ذكرنا بعض هذه المواضع وأهمها . حيث أن هناك مواضع أخرى تستعمل فى غير الخطابة الدينية التى هى فى الأساس موضوع هذا الكتاب : كالشهادات والمواثيق التى يستدل بها فى الخطابة القضائية . بل تعتبر الركن الركين فى الاستدلال

في الخطابة القضائية . كالقوانين التي تعتبر الحجة الأولى في الخطب القضائية أيضاً خاصة . وأن كلا المتنازعين يجتهد في أن يتخذ من القانون حجة لدعواه . أو طريقاً للخلاص من ورطة الاتهام . ويريد كل واحد منهما أن يفسره تفسيراً يتفق مع غرضه ومقصده ومصلحة من نصب نفسه مدافعاً عنه . وهو المحامي .

التعبـــير

المرحلة الرابعة من مراحل إعداد الخطبة وهى المرحلة الأخيرة هى ما تعرف بمرحلة التعبير البيانى .

ولعلنا لاحظنا ، أنه عند حديثنا عن الخطيب ، وعما يجب أن يفعله لإقناع الجمهور أنه لابد من اختيار اللفظ والعبارة ، ومراعاة أن تكون الألفاظ التى يعبر بها عن موضوعه من الألفاظ السهلة المألوفة التى يمكن للناس استيعابها ، وفهم مقاصدها ، وضرورة أن يبتعد عن الألفاظ الوحشية الغريبة ، وأن يحاول ما أمكن الاعتماد على المقاطع الواضحة القصيرة ، خصوصاً بالنسبة لخطب العبادات ، وأن يبتعد عن السجع المتكلف .

وهنا نضيف إلى ما سبق ضرورة الاهتمام الكامل بالتعبير الخطابى ، والذى هو كما قلنا المرحلة الأخيرة من مراحل الخطبة ، والتى لو أجيدت ، لكان ذلك دليلا على جودة المراحل الثلاثة السابقة ، ولو ضعفت فلا جودة لشىء بعدها .

وهنا يجب أن نلاحظ أن التعبير هو مرحلة خاصة بالخطبة وحدها ، لأن فن المقال والكتابة ، تصبح المرحلة الأخيرة فيه مرحلة « تركيب » وليست مرحلة « تعبير » ، ولذا فإن مرحـــلة « التعبير » مرحلة مستقلة وهى خاصة بالخطبة ، حيث تقوم بصنع دور الملاءمة بين الخطبة وبين موضوعها ومقامها التى ستلقى فيه ، وهذه الملاءمة تفرض مغايرة بين التعبير الخطابى ، وبين غيره من فنون المقال ، ولذا اختصت الخطابة بهذه المرحلة .

والتعبير الخطابى فى حاجة إلى جمال الأسلوب ، واختيار اللفظ ذى الموسيقى الذى ينبنى على الفصاحة والبلاغة ، مع مراعاة إيمان الخطيب بالتكرار والتأكيد ، ومعرفة الاستشهاد الصوتى ، والتزامه التمثيل الصوتى ، والتعبير بالحركة . مع مراعاة حال المستمعين وأفهامهم ، بمعنى أن يكون اللفظ واضحاً

لا غموض فيه ولا لبس ، ومن السهل إدراك معناه ، والوصول إلى مرماه ، وألا يكون من الغريب الذى يعلو على مداركهم ، ويكفى أن يلاحظ أن الغرض من الخطبة التأثير ، والإقناع ، وإثارة الوجدان ، ولا يكون ذلك إلا بما هو مفهوم المستمع ، وما هو مأنوس الإستعمال عنده .

ويجب أن يراعى الخطيب عند التعبير عدم اختيار الألفاظ المبتذلة ، وألا ينزل بتعبيره إلى درجة العامية ، فيذهب رواء خطبته ، ويضيع جلال معانيها . كأن يقول مثلا : « أتعشم » بدلا من « أرجو » أو « آمل أو أطمع » . أو يستعمل لفظ « أفتكر » بدلا من « أتفكر » أو أفكر أو أتأمل . . إلخ . وإن كان هذا قد شاع وللأسف على ألسنة بعض خطبائنا ، وهذا ولاشك دليل الضعف ، حيث لا يستطيعون إنتقاء ألفاظ خطبهم من غير أن يغربوا . ويبتعدوا عن المفهوم المألوف . واستعمال العامية المبتذلة مع من يفهم الفصحى . خطأ كبير . وإن كان لا يمنع أحياناً استعمال الخطيب لبعض الألفاظ العامية مع عوام الناس . عند الضرورة منها ، لتبيين فكرة أو توضيح معنى ، وعلى ألا يغلب ذلك على خطبته .

يقول بشر بن المعتمر فى وصاياه للخطيب : « فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك . أن تفهم العامة معانى الخاصة . وتكسوها الألفاظ الواسعة التى لا تلطف عن الدهماء . ولا تجفو عن الأكفاء . فأنت البليغ التام »[١] .

وعلى الخطيب أن يراعى اشتمال الخطبة على الألفاظ المناسبة المثيرة لخيال الجماعة . والموقظة لذكريات حية فى نفوسهم — والتعبير يكون حسناً حين يثير الخطيب الخيالات التى تهز نفوس المستمعين بالسرور والاطمئنان . وهذا

---

[١] الخطابة — للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٢٧

يأتى حين يعرف الخطيب أى جماعة يخاطبها . وأى طائفة يتحدث إليها . لأن لكل جماعة أسلوب يناسبهم . وطائفة من الألفاظ تثيرهم . وتهز مشاعرهم إذا ذكرت . إما بالسخط أو بالغضب . فألفاظ الجد والاجتهاد وحاجة البلاد لسواعد الشباب، وحرية الوطن، وغير ذلك من الألفاظ، تناسب جماعة الشباب . وتهز مشاعرهم . وتربط الخطيب بالمستمعين . كما أن ألفاظاً تتحدث عن فريضة الحج . وتذكر الحرم الشريف . ومقام إبراهيم . والبقيع . وزمزم يتحدث بها الخطيب وسط جماعة مسلمة عرف عنها حبها وتشوقها لأداء فريضة الحج . وذكرت هذه الألفاظ فى مناسبتها . وفى فترة باب القبول للتقدم لأداء هذه الفريضة . لاشك أن الألفاظ إذا صيغت فى عبارات طيبة . ورتبت وأعد لها إعداداً جيداً . وعبر عنها الخطيب التعبير السليم . لاشك أنها ستثير الوجدان وتوقظ فى النفس معانى سامية . ومثل ذلك بالنسبة لبقية الموضوعات .

هذا بالإضافة إلى ضرورة الالتزام بأصول الأداء . وطريقة الإلقاء : وتحديد الوقت التحديد الملائم المناسب . بلا تطويل ممل . أو تقصير مخل ، وعلى أن يراعى الخطيب ويحذر كل الحذر ، أن يقحم فى خطبته ألفاظاً تثير ذكريات غير ملائمة للموضوع . وذلك لأدنى ملابسة . أو لأقل علاقة . فهو بهذا يشوه خطبته . ويشوه نفسه أيضاً .

ومن التعبير الحسن أيضاً والذى يجب أن يراعيه الخطيب أن يبتعد عن استعمال الألفاظ التى بليت من الاستعمال . وتكررت كثيراً . وأصبح ذكرها يؤدى إلى الابتذال . وما أكثر الذين يرددون كلمات الديمقراطية . والاشتراكية والحرية . والمساواة دون حاجة . أو داع إليها .

والتعبير الحسن يتطلب اختيار الألفاظ الجزلة فى مقامها . والرقيقة لذلك بما يتناسب مع الموضوع . ومع المقام . فعليه أن يختار الألفاظ الجزلة القوية حين يحث على الجهاد . أو يريد إثارة الحمية أو الحماسة . أما فى حالة إظهار الأسى والألم . فعليه أن يختار الرقيق من الألفاظ .

والمقصود بالجزل القوى : أن يكون متيناً مع عذوبته على عذوبته فى الفهم ، ولذته فى السمع - لا بمعنى أن يكون وحشياً متوعراً فيه عنجهية البداوة - كما أن المقصود بالرقيق من الألفاظ : هو اللطيف الرقيق الناعم الملمس لا بمعنى أن يكون ركيكاً سفسافا(١) .

ويقول ابن الأثير(٢) : (وسأضرب لك مثالا من الجزل من الألفاظ والرقيق فأقول : أنظر إلى قوارع الألفاظ عند ذكر الحساب ، والعذاب ، والميزان ، والصراط ، وعند ذكر الموت ، ومفارقة الدنيا ، وما جرى هذا المجرى . فإنك لا ترى شيئاً من وحشى الألفاظ ولا متعوره : ثم أنظر إلى ذكر الرحمة ، والرأفة ، والمغفرة ، والملاطفات فى خطاب الأنبياء وخطاب المنيبين ، والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيفاً ولاسفسافا فمثال الأول من الجزل من الألفاظ قوله تعالى : « ونفخ فى الصور فصعق فى السماوات ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى . فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجىء بالنبيين والشهداء . وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت ، وهو أعلم بما يفعلون ، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم . فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء . فنعم أجر العاملين) . فتأمل هذه

---

[١] هذا الكلام منقول بمعناه من كتاب الخطابة للشيخ أبو زهرة . نقلا عن ابن الأثير . ص ١٢٩ .

[٢] راجع المرجع السابق ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ .

الآيات المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله ، وذكر النار والجنة ، وأنظر هـل فيها لفظة إلا وهى سهلة مستعذبة على ما فيها من الجزالة. وكذلك ورد فى قوله تعالى:

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم . وضل عنكم ما كنتم تزعمون » .

وأما المثال الثانى وهو الرقيق من الألفاظ فقوله تعالى فى مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم : « والضحى ، والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . والآخرة خير لك من الأولى » إلى آخر السورة : وكذلك قوله تعالى فى ترغيب المسألة : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب . أجيب دعوة الداعى إذا دعانى ». وهكذا ترى سبيل القرآن فى كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة .

ويقول بعد كلام طويل : إعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر . فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ، ولطافة مزاج ، ولذا ترى ألفاظ أبى تمام . كأنها الرجال قد ركبوا خيولهم، واستلموا سلاحهم وتأهبوا للطراد . وترى ألفاظ البحترى . كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات . وقد تحلين بأصناف الحلى ، وإذا أنعمت نظرك فيما ذكرته ههنا ، وجدتنى قد دللتك على الطريق ، وضربت لك أمثالا مناسبة) .. إنتهى .

ولعلنا بعد نقل هذا الكلام عن ابن الأثير نتبين ، ونتصور الألفاظ الجزلة والألفاظ الرقيقة ، وعلى الخطيب أن يضع كل نوع منها فى موضعه . فعليه أن يختار الجزل من الألفاظ حين يكون فى حاجة إلى قرع الحس وإثارته ، وعليه أن يختار رقيق الألفاظ إذا أراد أن يمس شعور المخاطبين مساً رقيقاً . لأن المقام يقتضى ذلك .

والتعبير الخطابى يجب أن يراعى الخطيب فيه ، حين يعبر بألفاظه التى قلنا إنه يجب عليه أن يتحرى إختيارها بكل دقة ، أن تعطى العواطف والمعانى شكلا مادياً يسهل به التفاهم حتى يحس المستمع أنه لا فرق بين المعنى والمبنى ، وأن هناك إبداعاً تولد من إنصهار المعنى والمبنى فى وحدة تامة . فيحس المستمع أن الخطيب قد وفق فى مرحلة الإعداد والتفكير ، لأنهم يرونه موفقاً فى مرحلة الإخراج والتعبير .

أسلوب التعبير :

الأسلوب الذى يتحدث به الخطيب يتكون من ألفاظ ركبت مع بعضها ، فكونت جملا ، تصاغ بأسلوب معين ، وبطريقة معينة . ولا شك أن اللفظ ما دام سديداً ، وقد اختاره الخطيب اختياراً موفقاً ، سهل الإدراك ، مكشوف المعانى ، سليما من الغرابة والشذوذ ، ومتفقاً مع السامعين بحيث لا يغرب عن تفكيرهم ، ولا يشذ فى دلالته ، كان الأسلوب أيضاً جيداً وسديداً وموفقاً .

ويكون الأسلوب كذلك إذا كان متلائم الكلمات ، متآلف التراكيب ، والخطيب الجيد هو الذى يجعل الجمل تنساب من لسانه ، وكأنها نغم يلمس أذن المستمع ، وعده بالشجن والسرور . كما أن الخطيب عليه أن يعرف أن الكلمات إذا تنافرت فيما بينها وجد الخطيب نفسه والكلمات تخرج منه ثقيلة ، نابية ، لاتفيد ، ولا يلتفت إليها ، وتنفر السامع منها . لأنها إن لم تكن منسقة مرتبة ، منظمة متلائمة أفقدت المستمع روح الانتباه ، والميل للاقتناع ، وبخاصة إذا عرف الخطيب أن موضوعات الوعظ والإرشاد . يكثر الصد عنها ، وهى أقل من الموضوعات السياسية والقومية إتصالا بوجدان السامعين . ولذا كان على الخطيب أن يراعى ذلك ، وأن يدفع المستمعين للإقبال عليه ، والاستماع إليه . بل نستطيع أن نقول : إن الخطيب كالشاعر لا يؤثر فى السامع إلا إذا وفق فى تخديره ، وبث الغفلة والذهول فى قواه المدركة . حتى يتقبل المعانى والأفكار وينفعل بها فيستثير إنتباه المستمع إليه .

وهذا لا يتأتى كما قلنا ، إلا بالأسلوب الجيد ، المعد إعداداً جيداً . والتى اختيرت ألفاظه إختياراً جيداً فى مرحلة الإعداد .

وقد ذكر ابن الأثير أن من بلاغة الكلام أن تكون كل كلمة مع أختها المتعاونة لهـــا ، لئلا يكون الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم فى إقتران كل لؤلؤة منه مع أختها المشاكلة لها(١) .

وهناك أوصاف خاصة بالأسلوب الخطابى ، وتعتبر ضرورية له . وهذه الأوصاف كثيرة إلا أننا نشير إلى أهمها .

١ - من الأوصاف التى يجب أن يتصف بها الأسلوب الخطابى : التصرف فى فنون القول بمعنى أن يعبر بتعابير مختلفة ، وألا يسير فى كلامه على وتيرة واحدة ، بحيث يعطى الكلام حقه من التقرير ، أو التعجب أو النفى ، أو غير ذلك مما يستلزمه المقام والمقال وذلك كى لا يكسب كلامه حدة ، وألا يذهب نشاط السامعين فيعتريهم السأم والملل .

وقد هجر الناس المساجد وانصرفوا عن الخطباء والوعاظ ، لأنهم يكررون كلامهم بنفس الأسلوب ، ونفس الطريقة لا يغيرون ولا يجددون . ويسير تعبيرهم فى خط واحد ، وبأسلوب واحد .

ولابد من التكرار . لأن فى التكرار تثبيت للأفكار ، وإيقاظ للمشاعر ، وتقرير للحقائق ، وحمل للنفس على الاطمئنان إليها . إلا أنه يجب أن يعرف الخطيب أن التكرار لا يصح أن يكون تكراراً حرفياً ، وإعادة لنفس ما قيل بالحرف الواحد ، وبنفس الأسلوب والتعبير . فإذا كان لابد من التكرار فعليه أن يكرر بأساليب مختلفة . واللغة العربية ثرية الألفاظ متشعبة الأساليب ، وفيها الكثير من طرق الحقيقة والتشبيه ، والاستعارة والمجاز . فى لغتنا العربية ما يسد الحاجة ، ويمد الخطيب بما يحتاج إليه من فنون القول وألوان التعبير .

---

[١] نقلا من كتاب الخطابة للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٣٢ .

تدخل مسجداً لتستمع إلى خطبة جمعة ، فترى معظم الناس نياماً ، وبعضهم ينظر إلى الخطيب ببلاهة ، والبعض الآخر سارح فى أفكار غير التى يسمعها ، وموضوعات أخرى شغل بها فكره وباله . وقد حضر معظمهم للمسجد لمجرد صلاة ركعتين ظنوهما هى الجمعة ، وقد يكون الموضوع من الموضوعات التى يجب على الخطيب أن يتحدث فيها ، ويكون مناسباً للزمان والمكان . ومع ذلك لا يلفت انتباه الناس ، ولا يستثير وجدانهم ، ولو بحثت عن السبب لوجدت أنهم (المستمعين) قد سمعوا هذا الكلام بنفس الألفاظ ، وبنفس الأسلوب وطريقة التعبير ، مرة قبل ذلك أو مرات . إما من نفس الخطيب فى مناسبة سابقة ، وإما من خطيب آخر ، يسير على نفس النهج والطريقة ، لايغيرها ، ولا يبدلها .

والناس ولا شك معذورون فهم يسمعون من الشيخ عبد الشكور ما يسمعونه من الشيخ عبد الصبور ، دون تغيير يُذكر ، أو فرق يُلاحظ ، والطريقة واحدة ، ودليل الاستشهاد واحد ، نفس الآيات ، ونفس الأحاديث ، ونفس الحكم بل أحياناً نفس القصة التى ضمنها الخطبة كدليل مع أدلة القرآن والسنة ، وكأنه لا دليل غير ما سمعوه ، ولا حكم غير التى عرفوها ، ولا أسلوباً آخر يمكن أن يغير أفكارهم ، أو يهز مشاعرهم .

وهذا وللأسف سبب من أسباب فشل الخطابة الدينية فى بلادنا .

إن على الخطيب أن يراعى سن المستمع ، ومنصبه وعمله ، وما يؤثر فيه وما لا يؤثر — ولكل قوم خطاب ، لا يعلو على أفهامهم . ويتناسب مع مداركهم .

وشخصية الخطيب ولا شك لها دخل كبير فى الأسلوب والتعبير ، فمن الخطباء من لا يليق بهم إلا الجد دائماً ، ولا يقبل منهم كلام فيه شىء من هزل أو مداعبات ، وبعضهم من يقبل منهم ذلك لأن طبيعته فيها شىء من المرح والدعابة على ألا يكون ذلك منهم إلا بقدر محدود ، بلا مبالغة . ولا خروج

عن المألوف حتى لا تسقط هيبتهم ، ويكون ذلك منه ليستروح به السامعون ، ويستجمعوا نشاطهم ، ويبعد سأمهم .

والخطيب يستطيع أن يلاحظ فى أسلوبه وعباراته أحوال السامعين ، وما يقتضيه المقام ، وما يحسن منه ، وما لا يحسن .

ومن الأوصاف التى يمكن أن يتصف بها الأسلوب الخطابى . تجميل الكلام فى بعض الأحوال بسجع قليل . غير متكلف . على أن يكون قصير الفقرات .

وحين نقول ذلك لا نحب أبداً أن يتعمد الخطيب السجع فى كل خطبه وكلامه ، وخاصة السجع الذى فيه تكلف زائد . فإذا أظهر الخطيب التكلف ثقل على الناس ، وضعف تأثيره ، ولذا فإنا نشترط أن يكون السجع قليلا لأنه حلية ، والحلية لا تجمل إلا إذا كانت بقدر معلوم . فإذا زادت عنه ثقلت وكانت عيباً وشيناً ، وعلى أن يراعى الخطيب أن السجع لا يصلح لكل البيئات ، ولا فى كل المجتمعات ، ولا فى كل الأحوال والمناسبات .

اختيار المقاطع :

على الخطيب أن يختار المقاطع التى يقف عليها . بحيث يكون وقوفه عند نهاية جزء تام من المعنى الذى يريده ، وحتى يكون التعبير والأسلوب جيدين ، يجب أن يكون المقطع ذا رنين قوى يملأ النفس ويوجهها نحو الغرض الذى يريده الخطيب .

وكم من خطباء ضاعت خطبهم الجميلة ، وأساليبهم المبتكرة ، حين لم يحددوا لها مقاطع ، واسترسلوا فى الكلمات ، دون اختيار لأماكن الوقفات ، وحدود الكلمات . فهم يلقون الكلام ، دون اهتمام بمقاطعه ، ويسترسلون فيه على نسق واحد ووتيرة واحدة . ويقفون فى أماكن لا يصح فيها الوقف ، ويستمرون فى الإلقاء والتعبير ، دون مراعاة لأماكن يجب عندها الوقوف . ليتضح المعنى ،

ويسهل فهم الصورة التى يُعبر عنها . ويقول الأحنف بن قيس : « ما رأيت رجلا تكلم ، فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ، ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص . كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام ، وأعطى حق المقام ، وغاص فى استخراج المعنى بألطف مخرج ، حتى كان يقف عند المقطع وقوفاً ، يحول بينه وبين تبعيته من الألفاظ »[1] .

هذا على أن يعود نفسه ، مع الوقفات الصحيحة المناسبة ، على إخراج الحروف من مخارجها ، وأن يقرأ كل ما يستحسنه بصوت مرتفع ، مصوراً بصوته معانى ما يقرأ ، بتغيير النبرات برفع الصوت وخفضه كما قلنا قبل ذلك .

وقد عرف أن مقاطع الكلام كانت غرضاً يطلبه المجيدون من الفصحاء والبلغاء . لأن حسنه يجعل المعنى لدى السامع واضحاً ، والرنين مؤثراً ، والوقوف جميلا ، ويجعل الإلقاء أبلغ تجميل .

قال معاوية لعمر بن سعيد يا أشدق : قم عند قروم العرب ، فسل لسانك ، وجل فى ميادين البلاغة ، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال ، فإنى شهدت رسول الله ﷺ أملى على على بن أبى طالب رضى الله عنه كتاباً ، وكان يتفقد مقاطع الكلام[2] .

الأداء :

إذا كنا قد عرفنا فيما سبق كيفية إيجاد الخطبة ، وتنسيقها ، والتعبير عنها ، فيجدر بنا هنا أن نعرف طرق أداء هذه الخطبة ، والحال التى يكون عليها الخطيب عند مخاطبته الجمهور ، وما يتخذه فى تهيئة هذه الخطبة .

والمعروف أن الخطيب يلقى خطبته ، إما بعد تحضير وإعداد ، وإما على البديهة والارتجال ، ولابد أن يحضر الخطيب موضوعه تحضيراً جيداً ، وذلك فى الحالات التالية :

---

[١] و [٢] راجع كتاب الخطابة للشيخ أبو زهرة ص ١٣٤ .

أولا : إذا كانت معلومات الخطيب فى الموضوع الذى سيتحدث فيه لا تسمح له بالقول على البداهة ، وإن تحدث فيه لم يوف الموضوع حقه ، ولم يجذب إليه جمهوره ، وكانت معلوماته فيه غير كافية . حيث لم يدرس الموضوع من جميع جوانبه .

ثانيا : لابد أن يحضر الخطيب إذا كانت عنده الفسحة من الوقت ، لإعداد الموضوع وترتيبه وتبويبه حتى يتثبت مما يقول ، ويستطيع أن يختار المعانى أجود الألفاظ وأحسنها ، وحتى يستطيع إن فعل ذلك ، أن يصل إلى نفوس مستمعيه من أقرب الطرق ويهز بكلامه أوتار قلوبهم .

ثالثا : لابد على الخطيب أن يحضر موضوعه ، إذا كان بين قوم يتسقطون هفواته ، ويتتبعون سقطاته ، ويحصون عليه كل أخطائه ، وما أكثرهم والأسف فى مجتمعاتنا - فإذا كان يود ألا يؤخذ عليه مأخذ ، وألا يتهم بالتقصير فليحضر خطبته ، حتى لا يسقط أو يتعثر أو يزل .

والخطيب الناجح هو الذى يهىء خطبته ، قبل إلقائها ، ولا يغتر بعلمه فيثق فى نفسه أكثر مما ينبغى . حتى ولو كان صيته ذائعاً ، ومعروفاً بالفصاحة والبيان.

هذا ، إن كان يود ألا يأخذ عليه النقاد شيئاً ، أو يسقط بين أيديهم سقطة تذهب برواء قوله .

ولا يتصور واحد من الناس أن تحضير الخطبة مما يعيب مقدرة الخطيب . فإن العيب هو أن يقول كلاماً مبتذلا ، لا قيمة له ومعناه تافه صغير ، ولتكن له أسوة حسنة فى كثير من الخطباء الأقدمين المحدثين ، ولقد قلنا فى مكان آخر كيف كان كبار الخطباء من اليونان وغيرهم يدربون أنفسهم على الخطابة ، ويهيئون أنفسهم للخطبة قبل الإلقاء ، وقد روى أن القائد الرومانى د كاليا » وكان من الخطباء المشاهير فى ذلك العصر ، كان ينقطع فى داره مع خدامه غداة يريد أن يلقى دفاعاً ، ويدرب نفسه على الإلقاء فيما يريد أن يخوض عبابه ، ثم يخرج من الغد فى حالة هياج خارقة للعادة وعيناه تقدحان شرراً وهو فى أشد

أحوال التحمس ، ويذهب إلى الميدان العام هناك ليلقى كلامه ، كذلك روى المؤرخون أن المغفور له « سعد زغلول باشا » كان مع قدرته على الإرتجال بما يقول يكتب خطبته إذا كانت رسمية أو شبه رسمية ، حتى لا يسبق لسانه تحت تأثير الحماسة إلى مالا يريد أن يقيد نفسه به[1] .

هؤلاء الخطباء الذين يهيئون أنفسهم للخطبة ، ويحضرونها . حتى يجيدون أداءها مع قدرتهم على الإرتجال ، إنما يحترمون أنفسهم ، ويأخذون للموقف أهبته ، ويعدون له العدة لأنهم يعرفون أن الخطيب كالمجاهد . لا يخوض غمار الحرب من غير أن يتجهز لها ، وأن يتدرع بدروعها ، ويتترس بتروسها ، ولا يكون ذلك إلا بالتحضير والتهيئة ، والإستعداد للموقف من كل نواحيه .

ولابد للخطيب أن يعرف ، أنه إذا لم يلم بالموضوع ، قبل الحديث فيه ، جاء كلامه ضعيفاً فى معناه ، ومبناه ، لابد أن يعرف ، أنه وإن كان عنده إطلاع واسع ، وعلم غزير ، فإنه إن لم يراجع نفسه حيناً بعد حين ، ويفكر كثيراً وطويلا فيما يعتزم قوله ، وقتاً بعد آخر . ضعف أسلوبه الخطابى ، ولانت عباراته ، وانحدر إلى مهوى من الإبتذال سحيق ، واتجهت معانيه بعد فترة إتجاهاً سطحياً . ثم لا يلبث أن يفقد قوة التأثير فى المشاعر والأهواء .

طرق التحضير :—

طرق التحضير كثيرة ومتنوعة :

١ — من الخطباء من يدرس الموضوع دراسة تامة ثم يجمع عناصره فى ذهنه ويرتبها ترتيباً جيداً بينه وبين نفسه ، ويستحضر من الألفاظ ما يليق بالمقام ، ويختار العبارات الجديرة بالموضوع ، وهذه الطريقة هى الطريقة الجيدة السليمة التى يجب أن يتبعها الخطيب ، وهى الطريقة التى يتبعها المتمرن على المواقف الخطابية ، الذى اندرج فى سلك الخطباء .

---

[١] الخطابة للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٢٨

وكثير من الأدباء يعدون الخطبة التي تحضر وتلقى على هذه الشاكلة مرتجلة .

وبعض علماء الخطابة يرون أن الإرتجال هو أن تقال الخطبة على البداهة ، من غير أي تحضير سابق للموقف(١) .

إلا أني أرى أن الارتجال ، إما أن يكون ارتجالا بلا تحضير سابق ، وإما أن يكون بتحضير للموضوع ، دون استعمال ورق مكتوب ، وقراءة الموضوع من الورق . ولا أعتقد أن إنساناً عاقلا يقبل أن يحدث الناس دون ترتيب للموضوع ، وتحضير له ، أو لجزء منه ، قبل أن يتحدث ولو قبل ذلك بدقائق ، وإلا فأعتقد أن المرتجل ارتجالا مطلقاً لا يستطيع أن يقول كلاماً معقولا أو مفهوماً ، اللهم إلا إذا كان قد أعطى موهبة خاصة ، واستطاع خلال إلقائه أن يسترسل في كلامه ويكمل هذا الموضوع ، مع إجهاد ذهنه ، وشغل نفسه بالعناصر الأخرى التي سيلقيها أثناء حديثه . وأيضاً مع ضرورة استقرار نفسه على موضوع معين ، لا يبدأ الكلام إلا حين يحدده . ويحدد أهم عناصره العامة على الأقل .

ولست مع من يقول : إن تزوير الخطبة ، وتحضيرها في النفس والجنان ، والاستعداد للموقف قبل الكلام : لا يعد من قبيل الارتجال ، وأن الفرق بين هذا وبين الارتجال الذي هو عندهم القول على البديهة ـ دون تحضير أو استعداد واضح جلي(٢) .

وقد كان تحضير خطباء العرب في النفس والخاطرة . كانوا يرتبون الكلام في الذهن قبل إلقائه ، ثم يلقونه بعد ذلك ارتجالا ، ولعل قصة يوم السقيفة تدلنا على شيء من هذا . فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وصف حاله عندما اشتد الخلاف بين المهاجرين والأنصار على من يتولى الخلافة بعد الرسول . قال :

---

[١] راجع الخطابة للشيخ أبو زهرة ص ١٣٩

[٢] يرى المرحوم الشيخ أبو زهرة أن الارتجال : هو القول على البداهة من غير تحضير سابق للموقف . راجع كتابه الخطابة ص ١٣٩ ، ١٤٠

فأردت أن أتكلم وكنت زورت كلاماً فى نفسى ، فقال أبو بكر : على رسلك يا عمر . فما ترك كلمة كنت قد زورتها فى نفسى إلا تكلم بها .

٢ — ومن الخطباء من يدرس الموضوع ، ويهيء معانى الخطبة ، ويرتبها ترتيباً محكما ، ثم يكتب عناصرها وأجزاءها فى مذكرة ، يستصحبها عند الخطبة ، لتكون مرجعاً له وضابطاً ، وليحفظ المعانى والأفكار من أن تضيع من ذاكرته وتفر من رأسه .

والخطباء من هذا النوع كثير ، وأنا أصنع هـذا كثيراً ، ورأيى أن فى ذلك ضبطاً للأفكار وجمعاً للخواطر ، وإحكاماً للمعانى .

وإذا كانت هذه الطريقة تفيد ضعيف الذاكرة ، ولا يحتاج إليها من عُرفوا بقوة الذاكرة ، وأنهم ليسوا فى حاجة إلى كتابة هـذه العناصر . لأنها فى وعيهم وذاكرتهم ، فأنا أرى أن قوى الذاكرة فى حاجة إليها أيضاً على الأقل على سبيل الاحتياط ، وسبحان مقلب القلوب فقد يحدث للخطيب ، ما لم يكن فى حسبانه ، فيرتج عليه الموقف حتى وإن كان قد تعود عليه آلاف المرات .

لقد تعودت أن ألقى الخطبة بالطريقة الأولى ، وهى استحضار الموضوع فى الذهن ، وجمع العناصر ، وترتيبها فى النفس دون أن أستصحب معى شيئاً مكتوباً ، وتمرنت على هذا ، وتعودته عشرات المرات ، وكنت فى زيارة لقريتى وطُلبَ منى أن أستعد لإلقاء خطبة الجمعة فى مسجد العائلة ، الذى تعود الناس أن يستمعوا إلىَّ فيه ، حين أزور القرية من حين لآخر ، وقد استرجعتُ فى نفسى موضوع خطبة الجمعة السابق ، والذى ألقيته بنجاح فى بلدة أصهارى ، حيث كان هو نفس الموضوع الذى ألقيته فى الجمعة السابقة أيضاً فى المسجد الذى ألقى فيه خطبة الجمعة فى القاهرة ، ولاشك أن الموضوع حين ألقيته مُكرراً فى بلدة أصهارى . كان أجود كثيراً مما ألقيته أول مرة فى القاهرة ، وكان من المفروض أن يكون أكثر إجادة فى قريتى حين أكرره المرة الثالثة ، وبخاصة ، أنه قد نُبِّه علىَّ قبل ذلك بيوم كامل ، ولكن الله أراد شيئاً آخر .

فقد صعدت على المنبر ، الذى اعتدت عليه ، منذ زمن بعيد ، واشرأبت أعناقُ الفلاحين من أهل قريتى الذين جاءوا يستمعون إلى خطيب القاهرة (المتطور) ابن بلدهم الذى لا يزورهم إلا قليلا وبدأت الخطبة ثم ضاعت الآيات وطارت الأحاديث وذهبت الشواهد والأدلة وما نفع دعاء كنت أدعوه بين الحين والآخر وكلام أردده وهو قول الله تعالى : « وما أنسانيه إلا الشيطان » وكنت أشرح الآية شرحاً جيداً حتى أتذكر آية أخرى وحين أحاول النطق بها تضيع كسابقتها وأتذكر بعض الأحاديث لأشرح بها الآية وحين أبدؤه لا أجده ويطير هو الآخر حتى كاد عقلى يطير وينخلع قلبى من مكانه وتصببت عرقاً وملئت خجلا ونزلت من فوق المنبر أقدم آخر لإمامة الصلاة خشية أن تضيع الفاتحة أو لا أجد آية صغيرة أقرؤها بعدها .

ومن يومها فكرت فى أن أحمل معى « برشامة » صغيرة عبارة عن قطعة صغيرة من الورق فيها بعض الآيات والأحاديث وفيها إشارات للعناصر والنقاط التى يتضمنها الموضوع لإستعمالها عند الضرورة ولأرجع إليها إن حدث شىء مثل الذى حـــدث قبل ذلك فى قريتنا منذ حوالى عشر سنوات . وقد ينسى الإنسان نصاً فلا بأس من أن يطلع عليه وأن يرى نفسه إياه بكياسة ودون أن يلاحظه أحد وحتى لو لوحظ فلا شىء فى هذا وإنما سيقولون عنه إنه رجل دقيق وملتزم وغير متهاون .

ولاشك أن هذه الطريقة مستحسنة وبخاصة إذا كانت الخطبة طويلة وذلك جمعاً لأشتاتها ولا يقع فى التكرار الممل .

ولابد أن يعرف الخطيب أنه مهما أوتى من قوة الذاكرة فإنه لن يتذكر كل ما يجهزه ويهيئه فقد ينسى عناصر الموضوع ويتحدث عن أجزاء أخرى ليست بأهمية الأجزاء التى ينساها إن لم يستصحب معه المذكرة التى تحدثنا عنها .

٣ ـ ومن الخطباء من يكتب خطبته كتابة كاملة أى يجمع ألفاظها ويتحرى فى كتابته أبلغ الأساليب . التى توصله إلى غايته وتؤدى به إلى ما يريد وهو يحكم حين يكتبها معانيها ويحملها كل ما يعن من وسائل التأثير وطرق

الإقناع ، التى يصوبها نحو هدفه ، ويرمى بها إلى غرضه ، وبعد أن يكتب موضوعه كاملا يقرأ ما كتبه أكثر من مرة ، وينقحه فى كل مرة ، وبهذه القراءة التى يتحرى بها جودة الإلقاء وحسن النطق ، تكون معانى الخطبة قد علقت تماماً بذاكرته مرتبة فى هذه الذاكرة الترتيب التام ، وبهذه القراءة والتكرار نجده قد حفظ كثيراً من ألفاظها وعباراتها ، وهذه الطريقة ولا شك لا بأس بها لكن مع مراعاة ألا يعتمد على الحفظ وحده وأن يكون عنده استعداد للتصرف فى العبارات دون إلتزام بما حفظ مما كتبه ، وإلا فإنه سيرتج عليه حين ينسى جملة أو تضيع منه فقرة .

وقد عُرف أن هذه الطريقة يتبعها كثير من المحامين فى القضايا الكبيرة ذات الشأن والتى تحتاج إلى تحضير كبير ولابد فيها من جمع عدد من النصوص القانونية أو عبارات جاءت على ألسنة الشهود ، وكثيراً ممن تمرسوا على هذا العمل تلقاهم يلقون ما كتبوا من غير أن يقرأوه ، ولا يتركون صغيرة ولا كبيرة ولو استمعت إلى ما قالوه واطلعت على ما كتبوه . لوجدت كثيراً من العبارات التى ساقوها كانت من بين ما كتبوه .

٤ — هناك نوع آخر من الخطباء يخطبون خطبهم ويختارون لها الألفاظ الحسنة والأساليب الجيدة ، ثم يحفظون ماكتبوه حفظاً تاما .

بعضهم يحمل معه النص ، إلا أنه لايتقيد به ، فيتحلل أحياناً مما حفظ ، وذلك إن وجد المقام يدفعه إلى غيره ، وهذه الطريقة يتبعها أكثر المبتدئين فى الخطابة ، وأرى أن على الخطيب المبتدىء أن يفعل ذلك ، حتى يتعود على الارتجال الكامل .

وبعض الخطباء يكتب الخطبة ثم يلقيها كما كتبها ، لامن الذاكرة وإنما من الورق ، وكثير من المحاضرين فى مصر ، وبخاصة الذين يحاضرون فى موضوعات علمية ، يلقون محاضراتهم بهذه الطريقة :

إلا أنه على من يسلك ذلك المسلك سواء كان خطيباً أو محاضراً ، أن يقرأ ماكتب قراءة جيدة قبل الإلقاء ، ويحسن عند الإلقاء أن يحاول إلقاء بعض

المحاضرة ، أو الخطابة من غير المكتوب ، ليكون فى ذلك تجديد فى الإلقاء ، وتغيير للأسلوب والطريقة التى كتب بها محاضرته ، وحتى لايمله المستمع وينظر إليه نظرة إستهتار ، واستهجان لما يصنع ، وكثير من الجماهير فى مصر بالذات لاتفضل هذه الطريقة ، وترى أن المحاضر من هذا النوع ليس على المستوى ، الذى يجب أن يكون عليه المحاضرون ، وبعضهم يعلق على هذا . بأنه فى إمكان المستمع أن يقرأ هذا من كتاب .

ولاشك أن الكلام المكتوب طريقة إلقائه تختلف كثيراً عما يلقى من غير قراءة فى ورق ، أى إرتجالا كما قلنا ، وتطلع المتحدث إلى المستمعين له أثره وتأثيره الكبير فى الجمهور ، ويشد المستمعين للمتحدث ويجعل بينه وبينهم ألفة.

وعلى من يقرأ المحاضرة مكتوبة ، ويضطر إلى ذلك أن يشرف على السامعين بنظره من وقت لآخر ، لتتصل روحه بأرواحهم ، وليعرف أحوالهم ، ويرى هل هم يتابعون ، وينفعلون مع مايقول ، أم أن كلامه لايدخل إلى قلوبهم ويسبب امتعاضهم ؟

ولذا ، فإن على المتحدثين ، من خلال أوراقهم التى كتبوها أن ، يقرأوا موضوعهم قراءة جيدة ، ويكرروا هذه القراءة ، حتى يتمكنوا من ترك الورق والنظر إلى الجمهور من حين لآخر ، ولابد أن يفعل ذلك فى كل أجزاء المحاضرة أو الخطبة .

ولعلنا نلاحظ أن الجمهور لايستحسن من مذيع النشرة الإخبارية فى الإذاعة المرئية (التليفزيون) أن يظل متطلعاً فيما يقرأ ، وإنما يريد أن يراه وكأنه جالس معه ، يخاطبه ويحدثه ، لايحجبه عنه شىء ، ولذا فإن كثيراً من المحطات التليفزيونية العالمية تضع فى مواجهة المذيع جهازاً يقرأ عليه النشرة الإخبارية حين يمر الشريط فى الجهاز أمامه ، دون أن يراه المشاهد ، ويحس كأن المذيع يحفظ النشرة عن ظهر قلب ، وإن كان المذيع يضطر إلى وضع نص للنشرة مكتوباً أمامه للرجوع إليه عند الحاجة .

وعلى كل حال ، فإن الطريقة المثلى للخطابة ، أن يكتب الخطيب المبتدىء خطبته ويحفظها ، ويلقيها كما حفظ ، ثم يتطور بعد ذلك — بعد المران — حيث يحملها معه مكتوبة وينظر إليها عند الحاجة ، ثم يحصّن نفسه بعد ذلك حين يتقدم فى الخطابة ، وتصبح عنده الملكة الخطابية ويُعد فى صفوف الخطباء بحمل عناصر الموضوع معه احتياطياً ، خشية الارتجاج عليه ، مع ضرورة دراسة الموضوع دراسة وافية ، وتحضير عناصره تحضيراً جيداً .

محتويات الخطبة :

قسم القدماء (القول الخطابى) إلى خمسة أقسام ، وقد كان تقسيمهم يتناسب مع جعلهم الخطابة جزءاً من المنطق ، وفهمهم لموضوعات الخطابة حسب بيئاتهم وظروف زمانهم ، وقد أطلق أرسطو على كل جزء من أجزاء الخطبة لفظ (الاقتصاص) ، وبيّن كيف أن هذا الاقتصاص أى التجزىء والتقطيع يرتبط بعضه ببعض ، لأنها قطع لكل واحد وقد أطلق على الاقتصاص الأول أى الجزء الأول (الصدر) والجزء الثانى (الغرض) والثالث (الاقتصاص) والرابع (التصديق) والخامس (الخاتمة)[١] .

وحتى لا أدخل القارىء الكريم فى متاهات التقسيمات القديمة ، ومتاهات التعريفات التى لم تعد تتناسب مع عصرنا ، فإنى أكتفى هنا بالتقسيم الذى اتفق عليه العلماء المحدثون ، حيث اختصروا أقسام الخطبة إلى ثلاثة أجزاء ، بعد أن أدمجوا (الصدر) والغرض فى جزء واحد هو (المقدمة) وأدمجوا (الاقتصاص) و (التصديق) فى جزء واحد هو (الإثبات) أو (العرض) ، ولذلك دار بحثهم حول الأجزاء الثلاثة فقط (المقدمة) و (عرض الموضوع) و (الخاتمة)[٢] .

---

[١] راجع تلخيص الخطابة لابن رشد ص ٣٠٧

[٢] راجع قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين . الدكتور أحمد غلوش ص ٩٠

القسم الأول :

المقدمـة :

مقدمة أي موضوع ليست سوى مدخل لهذا الموضوع ، ومقدمة الخطبة هي عبارة عن مدخل للخطبة يتوسل به الخطيب ليمهد لأفكاره ، ويوهم السامعين ويستثير انتباههم .

ولاشك أن هذه المقدمة ضرورية ، فهي التي تنقل السامع من حالة اللامبالاة التي يكون عليها ، قبل إلقاء الكلام . إلى جو آخر يصبح فيه أكثر تقبلا للأفكار التي سيتولى الخطيب عرضها والتأثير بها . والخطيب كالشاعر . لا يؤثر في السامع إلا إذا وفق في تخديره . وبث الغفلة والذهول في قواه المدركة . حتى يتقبل المعاني والأفكار . وينفعل بها . ويتصرف بتأثيرها تصرفاً يوافق هواه . لأن الخطيب . إذا تصدى لغايته مباشرة . فإن السامع . يكون في حالة لامبالاة . والأفكار تمر عن أفق وجدانه . دون أن تنفذ إلى أعماقه . ولاشك أن المقدمة الحسنة المختارة إختياراً جيداً ، ستثير المستمع . وتجذب انتباهه . وتدفعه إلى الانتظار والاستمرار في الإستماع ، وما أكثر الموضوعات الجيدة . التي يتركها المستمع حين لا يبدأ المتحدث فيها بداية طيبة موفقة . وكم من برامج (تليفزيونية) تحول عنها الناس إلى قنوات أخرى حيث لم يبدأ فيها المتحدث بداية جيدة . فإذا مااستمع المستمع إلى بداية تثيره ومقدمة تعجبه . اضطر إلى الانتظار للاستماع إلى بقية الموضوع . على أمل السماع للكلام الجيد . في الموضوع المعروض . ولذا فان كبار الخطباء يتوسلون دائما المقدمات التي تستثير المستمع وتجذب انتباهه . وتنزع به من حالة لأخرى .

وعلى نجاح المقدمة أو فشلها يتوقف نجاح الخطيب أو فشله . وإذا وفق في إقناع السامع بخطورة حديثه . وأهمية الأفكار التي يتولى معالجتها . يكون قد مهد للنجاح في خطبته .

وإذا كانت المقدمة ضرورية لكل كلام يقال . فانها أكثر ضرورة حين

يكون السامعون عازفين عن السماع إلى الخطيب وبخاصة حين يكون الخطيب مغمورا . أو إذا كان يتولى الحديث إلى نفر من السامعين . الذى تحفظهم عليه ضغينة سابقة . أو يرون رأيا يخالف رأيه أو ينضوون إلى عقيدة تخالف عقيدته . فالمقدمة فى مثل هذه الأحوال ضرورية وعليها يتوقف نجاح الخطابة . لأنه إذا ماوفق الخطيب فى استثارة السامعين — انقادوا إليه وتحولوا عن موقفهم السابق .

والمقدمة ضرورية أيضاً . بل ضرورية جـداً بالنسبة للموضوعات التى اعتاد الناس على سماعها . وبخاصة تلك التى تعنى بالوعظ والإرشاد . على أن يراعى الخطيب الشروط التى ذكرناها قبـل ذلك من تنويع الكلام . وتغيير الأساليب . وبراعة الاستهلال . وإظهار مايفيد أن فى موضوعه جديداً . ومع عدم الإسراف فى الطول كما قلنا . حتى لا يجد موضوع خطبته الأصلى . ممعناً فى الإيجاز والتلميح .

ومنهم من يستهل كلامه فى غير الخطبة الدينية بايراد كلام خصومه . أو بامتداح المستمعين .

وإذا كان قد شاع فى الخطب الدينية البدء بالآيات القرآنية أو بالأحاديث الدينية . فانا نرى . إمكان تغيير هذه الطريقة . والتعمية على المستمعين . بعدم توضيح موضوع خطبته من البداية خشية أن يظن أنه سيكرر ماقاله غيره . أو ماتعود أن يستمع إليه من معظم الخطباء . ويرى أنه ليس فى حاجة أن يعرف . أكثر مما عرف وأن لافائدة مما سيسمعه . ولاجديد عند محدثه ، ولا فرق بينه وبين من سبقوه .

وللخطباء مذاهب شتى فى افتتاحهم . ولذا فانا لن نحصر طرقها . لأن أفضل مناهجها يرجع إلى حسن تصرف الخطيب وجودة تقديره . وقد اختلف الأقدمون والمحدثون . فى أحسن هذه الطرق . وهل هى طريقة افتتاح الخطبة بما يشير إلى الموضوع ؟ أم هى طريقة من يبتدىء خطبته بحكمة أو مثل سائر ؟

أم هى طريقة من يفاجىء السامعين فى بداية كلامه بما يزعجهم ؟ أم غير ذلك من طرق يصنعها الخطباء السياسيون حين يبدأون بذكر كلام خصومهم أو ذكر أنه من الجماعة التى يخاطبها وأنه فى مستواها ليقر بها إليه ، أو الثناء على السامعين ليهيىء نفوسهم لتلقى ما يقول ، أم هى الطريقة — التى نشاهد أنها تنتشر الآن — وهى الافتتاح ببعض الآيات أو الأحاديث التى تناسب المقام الدينى الذى يتحدث فيه الخطيب ؟

إلا أننا نعود فنقول : أن أفضل مناهجها يعود إلى حسن تصرف الخطيب وجودة تقديره .

كيف يكون الافتتاح جيداً ؟

حتى يؤدى افتتاح الخطبة ، إلى ما يبغيه الخطيب من ورائها يجب أن تتوفر هذه الشروط :-

١ — أن يكون قصيراً موجزاً . حتى لا يشغل الذهن بغير المطلوب . فينصرف عن الأساس والأصل إلى ما هو فى المرتبة الثانية . لأن المقدمة والافتتاح ما هى إلا تهيئة المستمع وإعداده لتلقى الموضوع الذى يرجو المتحدث أن يقتنع به المستمع ويرضخ لنتائجه .

٢ — ألا يكون مبتذلا تمجه الأسماع .

٣ — ألا يكون بعيداً عن الموضوع غريباً عنه . وإنما يجب أن يكون موافقاً للموضوع متصلاً به مرتبطاً بما يعنيه .

وإذا كنا قد ذكرنا أنه من المستحسن للخطيب ألا يكشف من بداية كلامه عن تفاصيل موضوعه فإنه لا يعنى ذلك أن يجد المستمع نفسه وهو يستمع إلى كلام لا يتناسب إطلاقاً مع المناسبة التى يعرف المستمع مسبقاً أن الخطيب سيحدثه فيها . فهو لا يقبل كلاماً يدل على تهنئة فى مناسبة عزاء وبالعكس ولا خير فى كلام لا يدل على معناه ولا يشير إلى مغزاه ولا يعرّف بالغرض الذى إليه نزع ومن أجله يتحرك وله يظهر ويبين .

ولا شك أنه إذا ضممنا إلى حسن مقدمة الموضوع وافتتاحه مناسبة الخطبة للمستمعين والمقام الذى تلقى فيه لعلمنا يقيناً أنها تلامس رغبة الجماهير وتشارك وجدانهم فيضطرون لمعايشتها من أول الافتتاح إلى نهاية الخاتمة، وعند ذلك يكون الخطيب قد أدى دوره كما ينبغى ونجح فى المهمة التى ألزم نفسه بالقيام بها.

القسم الثانى : موضوع الخطبة : ـ

إن معالجة الموضوع هى أهم قسم من أقسام الخطبة ، وهو يعتمد بالإضافة إلى موهبة الخطيب الشخصية التى تساعده على ربط أفكاره ، وإجادة تعبيره . يعتمد معالجة الموضوع بجانب ما سبق على الثقافة الواسعة ، التى تثير السامع ، وتدفعه داخلياً إلى التعجب والاندهاش ، فضلا عن التحمس لما يسمع ، ومشاركة الخطيب فيما يدعو إليه :

وعلى الخطيب أن يقسم موضوع خطبته ، وينتقل بعد المقدمة ، والافتتاح الجيد من الأفكار العامة الرئيسية إلى الأفكار الثانوية بتدرج وتطور ، وعليه أيضاً أن يستعمل طريقة الاستدراج بمعنى ألا يدفع أفكاره إلى السامعين دفعة واحدة . بل على أقساط وأجزاء ، حتى تتسرب إلى نفوسهم ، ويؤمنوا بها ، وينقادوا إليها دون أن يشعروا ، ولا يعطيهم نتائج مع المقدمات ، أو فى بداية الموضوع بل عليه كما يقول أهل التخصص (١) أن يتبع تصميماً قائماً غامضاً ينقاد إليه ، ويتطور به ، دون أن يعيه السامعون ، وينتبهوا إليه .

مع ملاحظة أن هذه الوسائل لا تجدى إذا ظل الخطيب يتحدث حديثاً نظرياً بأفكار يعجز السامع ، عن الوصول إلى أبعادها ، وفهم أغوارها ، فقد ينفعل الخطيب ويصدق ، ويأتى بأفكار جديدة ، لكنه لا يوفق فى التأثير على السامعين ، لأنه عجز عن تقريب الأفكار إلى مفهوم المستمعين ، ولم يتمكن من تمثيلها لهم تمثيلا يسيغونه ويقبلونه ، ولهذا كان وجود القصة بين ما يلقى من

---

[١] راجع « فن الخطابة وتطوره عند العرب » ـ إيليا حاوى ـ دار الثقافة ببيروت ص ٢٠ ، ٢١ .

كلام، متسهماً إسهاماً كبيراً فى تقريب المعانى، وتجسيدها تجسيداً مادياً — فالقصة تصور المعانى تصويراً خلال الحوادث، ولا تدع هذه المعانى ذهنية مجردة، دون شكل أو ملامح، والقصة نوع من الأدب، له جمال فيه متعة تؤثر فى نفوس الكبار كما تؤثر فى نفوس الصغار، لأنها تجذب العقل، وتخاطب الوجدان .

فعلى الخطيب أن يستفيد بالقصة أسلوباً ومنهجاً عن طريق اختياره للمناسب من أحداثها وعرضه للمستمعين، وإحاطة كلماته بجو مؤثر مفيد .

ولا نريد أن نطيل كثيراً فى هذا الموضوع، فنُبين فائدة القصص، وكيف اهتم القرآن به فذكر كثيرا من قصص الأمم السابقة، وجعلها وسيلة قرآنية للدعوة إلى الله، وكيف اهتمت التربية الحديثة به أيضاً، وركزت فى أساليبها على القصة، بأسلوب تربوى هام. بل كيف عرف الناسُ قديماً أو حديثاً، أهمية هذا النوع. فى الاستدلال، فألفوا القصص الخيالية على ألسنة الناس، أو على ألسنة الطيور والحيوانات، هادفين من ذلك نشر فكرة، أو تأييد إتجاه، ولعل كتاب « كليلة ودمنة » الذى ألفه الفيلسوف « بيدبا » خير دليل على ما نقول .

القسم الثالث : « الخاتمة » :

هذا القسم هو أقصر أقسام الخطبة، ولا يعنى قصر الخاتمة، أنها لا فائدة فيها، بل لابد أن تكون الخاتمة قوية التأثير، عميقة الدلالة على موضوع الخطبة، لأنها توجز الموضوع فى كلمات قصيرة، تبثها فى آذان المستمع، ولذلك يستمر حفظه للخطبة كلها .

وحسن الختام لا يقل أهمية عن براعة الإستهلال. فالخاتمة هى آخر مرحلة يركز المستمع عليها انتباهه وقد دأب الخطباء. فى نهاية خطبهم على إيجاز ماسبق أن ألمّوا به . وبعض الخطباء يعمد إلى استخلاص فكرة عامة رئيسية توقظ سائر الأفكار التى تصدى لها الخطيب . وتضاعف من تأثر السامع بها . لهذا كان من الضرورى . ألا تقسع الخاتمة إلى الجدل والنقاش كالموضوع . بل ينبغى أن تكون واضحة يقينية المعانى، حتى تبقى مدوية فى وجدان السامع .

وما دامت الخاتمة هى آخر كلام الخطيب ذكراً . كانت بذلك أعلق بنفوس المستمعين ، وأكثر الكلام اتصالا بقلوبهم ، وإن كان وضع الخاتمة حسناً ، انسحب ذلك على الخطبة كلها ، وإلا ساء الأثر ، وضاعت الغاية المنشودة ، ولذا قيل « يجب أن يكون فيها من جمال التعبير ، وحسن الإنسجام ، وجودة المعنى ، وإصابة الغرض ، ولطف المقطع وإحكامه ، ما يبقى أحسن الآثار ، وأحكم الأفكار .(١)

ولو نظرنا إلى خواتم سور القرآن الكريم ، لوجدناها فى غاية الحسن . وغاية الدلالة على موضوع السورة مع تضمنها . على ما يوحى بانتهاء الكلام . حتى لا يبقى انتظار عند المستمع - أنظر الى خاتمة سورة ابراهيم :

« هذا بلاغ للناس ولينذروا به » . وانظر الى خاتمة سورة الأحقاف وسورة الحجر حيث يقول الله تعالى :

« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

ومن هذا كان على الخطيب أن يعرف أن الخاتمة تشتمل على موجز لما ألقاه وتوضيح كامل لغايته ومرماه - وأن تكون مثيرة للعاطفة . فى الأمر الذى يريده الخطيب . متناسبة مع ما يوجهه اليها كتهديد وانباء . أو اثارة للحماسة . أو حفز للهمم . أو اثارة عاطفة الرحمة الى غير ذلك .

أى : يأتيهم بما يتناسب مع هذه الأمور .

وأخيراً : فعلى الخطيب أن يبذل وسعه . وجهده فى الإحاطة بالأقسام التى تحويها الخطبة . ليقدر على الأداء السليم . لأنه لو ضم إجادة التقسيم . الى فترة مستعدة لكان خطيباً ناجحاً .

---

[١] الخطابة - محمد أبو زهرة ص ١١٨

أقسام الخطابة وخصائصها

لقد كان أرسطو أول من عنى بتقسيم الخطابة إلى أنواع ، وقد جعلها ثلاثة أنواع . وقد اعتمد فى هـــذا التقسيم على عناصر ثلاثة أيضاً ، هى الخطيب ، والمستمع ، والموضوع .

وهـذه الأنواع الثلاثة للخطبة هى :

١ ـ الخطبة المشورية : وهى الخطبة التى تشتمل على التوجيهات الآمرة والناهية .
٢ـ والخطبة المشاجرية : وهى الخطبة التى تقسم بالتنازع والتشاجر .
٣ ـ والخطبة التثبيتية : وهى الخطبة التى تهدف إلى المدح أو الذم ، بوصف ماهو كائن ، وإثبات موضوعها بالطرق الجمالية الممكنة .

ولا شك أن هذا التقسيم الارسطى للخطابة كان يتناسب مع عصر أرسطو ، وعصور أخرى قديمة .

ولو حاولنا تحليل هذه الأنواع ، وكذا الأمور التى اعتمد عليها أرسطو لوجـــدنا أن أزمنة الخطب متداخلة ، وكذا الغايات متداخلة هى الأخرى ، بالإضافة إلى أن هذا التنويع لا يشمل الخطب الدينية . التى اضطر علماء العصر الحديث إلى إضافتها وإدخالها ضمن التقسيم الحديث للخطابة .

وإذا كان علماء العصر الحـديث لم يرتضوا هـذا التقسيم الارسطى لعدم وضوح هذه الأقسام وقصورها عن الإحاطة بما استجد من أمور الحياة والناس ولتداخل أنواعها فى بعضها فقد وجدناهم يعتمدون تقسيمات جديده ، تعتمد على موضوع الخطبة ، وعلى تقدير وتوجيه الخطيب لها .

فهم يقسمون الخطابة إلى :

١ ـــ الخطابة الوعظية : وهى الخطبة التى تتم فى دور العبادة ، تتعلق بالعقيدة والإيمان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٢ ـــ الخطابة السياسية : وهى الخطبة التى تدور حول الشئون العامة للدولة ، وتشمل الخطبة الانتخابية . والبرلمانية .

٣ ـــ الخطابة العسكرية : وهى الخطب التى تلقى فى الجنود ورجال الجيش .

٥ - الخطابة المحفلية : وهي خطب التأبين والمدائح ومحافل الفرح والتهاني.

برغم هذا كله فأنا شخصياً لا أرتضى هذا التقسيم لأنى أجد أن هناك تداخلا كبيراً بين هـذه الأقسام وأرى أن اعتياد العلماء لقسم مخصوص من بين هـذه الأقسام أسموه (الخطابة الوعظية) مما لا أقبله على أساس أن الأنواع الأخرى منها لا يمكن فصلها الفصل الكامل عن الدين .

فإذا كان الناس قد تعودوا من السياسيين مثلا أن يسمعوا خطباً يطلقون عليها اسم (الخطابة السياسية) أو يسمعون من القضاة المحامين خطباً يطلقون عليها (خطابة قضائية) ويطلقون أيضاً اسم (الخطابة العسكرية) على الخطب التى تلقى فى الحرب أو الاستعداد للحرب وكذا (المحفلية) على ما يلقى فى المحافل والمجالس لغرض من الأغراض . فإنى أرى أنها تقسيمات لا معنى لها . فإن الدين هو الحياة بجميع جوانبها السياسية والقضائية والعسكرية والمفروض فيمن يتحدثون فى السياسة أن يبنوا كل أحكامهم وأفكارهم السياسية وقواعد حكمهم وأوامرهم ونواهيهم على الدين ومثل ذلك أيضاً يقال على بقية الأقسام الأخرى.

ولذا فقد آثرت الاقتصار فى هذا الكتاب على الخطابة الدينية . إيماناً منى بأن الدين هو الحياة ، ولا يمكن أن نفرق فى الدين بين جزئية من جزئيات هذه الحياة ومعنى هذا أننا يجب أن نطبع كل أنواع الخطابة بطابع الدين ونجعله الأساس لما نقوله فيها .

وإن كنا نعترف بأن هناك أنواعاً من الخطب يغلب عليها الطابع العقدى الدينى أكثر مما يغلب على غيرها وسنلاحظ فى القسم الثانى من هـذا الكتاب كيف أن الدين هو القاسم المشترك بين جميع الموضوعات التى قدمناها وان كان يغلب على بعضها طابع التخصص الدينى أكثر من غيرها .

ولا شك أننا نستطيع أن نستخلص أنواعاً أخرى من الخطابة غير هـذه الأنواع الخمسة إذا نظرنا إلى اهتمامات الخطب التى تلقى ، ويمكن لكل نوع من هذه الأنواع أن يدخل تحته أنواع أخرى ، وهكذا لا ننتهى .

ولو ارتضينا مثلا هـذه التقسيمات ، وقلنا : إن الخطابة الدينية كما يسميها البعض أو الوعظية كما يسميها البعض الآخر هي التي تتم في دور العبادة ، وتتعلق بالعبادة ، والإيمان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لـكان معنى هذا أن الاقسام الأخرى لا علاقة لها بالعقيدة ولا بالإيمان ، ولا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولـكان معنى هذا أيضاً أنه لا يصح أن نتعرض للدين حين نفكر في إلقاء خطبة عسكرية أو سياسية أو غيرها . ومعنى هذا أيضاً الاعتراف الصريح بأن الإسلام مجرد عبادة وقربى وفناء في ذات الله ولا علاقة له إطلاقاً بأمور الحياة ، وهو ما يسعى إليه الاستعمار من قديم ، واستطاع للأسف أن يُقنع به الـكثيرين من أبناء المسلمين أنفسهم فـكانت مصيبة الفصل بين الدين والحياة ، وعدم تطبيق الشريعة الإسلامية حتى الآن .

وإذا كان علماء الخطابة قـد جعلوا خصائص لـكل قسم من هذه الاقسام ، ومزايا خاصة ، يتميز بها كل نوع عن الآخر فإننا باختصار نقول : إن أهم ما يجب أن تشتمل عليه هـذه الانواع أى الخطب التى يغلب عليها طابع معين سياسى أو قضائى أو عسكرى . . . إلخ أن تجعل الدين أساس فـكرتها ، ومحور الحديث فيها . بل على الخطيب الدينى أن يرى أن كلامه فى مثل هذه النواحى من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر أيضاً . كما أنه جزء من العقيدة والإيمان ، عليه أن يعلم الناس إياه ، كما يعلمهم الصلاة والصيام ، وغيرهما من الفرائض .

الفرق بين الخطبة والمحاضرة :

ربمـا كان هناك تشابه بين الخطبة والمحاضرة فى أنهما قصد من كل منهما اقناع الناس .

وإذا كان ابن رشد قد عرف الخطابة بأنها قوة تتكلف الاقناع الممكن فى كل واحـد من الأشياء المفردة أو كما عرفها بعض المحدثين بأنها فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته فالمحاضرة أيضا تدخل ضمن هذه التعريفات كما أنها تعتمد على التقسيم العلمى والعقلى لموضوعها ، وتحتاج أيضا للاثبـات والتفنيد وتشتمل على أقسام تشبه الاقسام التى تحتوى عليها الخطبة كما أنها تتخـذ

بموضوعات متنوعة تجعلها تتنوع إلى محاضرة سياسية واجتماعية ودينية وغيرها إلا أننا برغم ذلك نلاحظ خلافات جوهرية بين الخطبة والمحاضرة نذكر أهمها فيما يلي :

١ — موضوع المحاضرة أكثر سعة من موضوع الخطبة لان التقسيم يبدأ فى المحاضرة أولا بالمبادىء ثم تقسم المبادىء إلى عناصر .

بينما الخطبة تقسم إلى العناصر إبتداء . فالمحاضرة أقرب إلى البحث العلمى ومن هنا اختلفت عن الخطبة .

٢ — بالنسبة لعناصر المحاضرة هى عناصر محددة مقررة أشبه ما تكون بالقواعد والمبادىء الأساسية أما الخطبة فيغلب على عناصرها المعانى الطارئة والخواطر العارضة ، حيث أن الخطبة غالبا ما يكون وقت إلقائها قصيراً ولا تحتمل التقسيمات التى تحتملها المحاضرة ، وغالبا ما يكون وقت الخطبة لا يصلح إلا لموضوع كامل . أما المحاضرة فهى تستغرق وقتاً طويلا ، ومن الممكن تقسيمها إلى عدد من الايام .

٣ — الخطبة يغلب عليها صبغة إثارة العواطف والمشاعر وتهييج الدوافع والانفعالات ولذلك عرفها بعضهم بأنها فن إثارة الجماهير أما المحاضرة فهى تعتمد على المنطق والتحليل والتوضيح وتغلب عليها أسلوب تقرير الحقائق وتثبيت المعانى .

٤ — يغلب على جمهور المحاضرة وجود صلة معينة تربط بينهم ولكل محاضر جمهوره الخاص ، ويمكن أن نقول أن جمهور المحاضرة من الخاصة غالبا أما جمهور الخطبة فهو من سائر الطوائف .

وبرغم هذه الفروق بين الخطبة والمحاضرة إلا أن المحاضرة أكثر شبها بالخطبة من المناقشة مثلا .

الندوات والمناقشات :

من الإجتماعات الخطابية ، التى تقوم بدور كبير فى التوعية الدينية ، والإجتماعية ، الندوات العامة التى يشترك فيها أكثر من متحدث وخطيب .

وفى هذه الندوة يكون المتحدث أكثر من واحد ، ويتناول كل واحد منهم ، الموضوع من زاوية معينة وقد يفتح بعد ذلك ، باب التعليق والمناقشة ، والسؤال لجمهور المستمعين .

وقـد تُعرض فى نهاية الندوة . توصيات وقرارات ، تعرض على الحاضرين للموافقة عليها ، ويكون ذلك نتيجة ، لما أسفرت عنه المناقشة .

والحقيقة أن هذا النوع من الخطابة مفيد جـداً ، وأقربُ إلى نفوس المستمعين ، لأنه فى حالة وجود متحدث واحد ، قد يدفع ذلك للملل . أما فى الندوة ، فإن تعدد المتكلمين يبعث على النشاط ، ويعطى الإجتماع حرارة ، وحركة ، كما أن هذا التعدد يوضح الفكرة المعروضة ، توضيحاً كاملا ، أو قريباً من الكمال ، حيث يتناولها المتحدثون ، من جميع الزوايا ، ولكل من المتحدثين وجهة نظره ، ويحاول كل واحد منهم ما استطاع ، أن يدلل على صحة ما يقول وأن يكون مقنعاً ، أكثر من الآخرين فيعطى كل ما عنده .

أما إشراك المستمعين فى المناقشة ، واتخاذ القرارات ، فإنه يشعرهم أنهم أصحاب القضية المعروضة ، ويؤكد اهتمامهم بها ، واقناعهم بما يسفر عنه الإجتماع من توصيات .

المناظرة :

قد تكون هذه الندوات فى صورة مناظرة ينقسم المتحدثون فيها إلى فريقين فريق يؤيد رأياً معيناً - والفريق الآخر يعارض هذا الرأى .

والحقيقة أن المناظرة من الصور الخطابية المحببة إلى الجمهور لأنها تتخذ طابع المعركة الكلامية وكأنها مباراة فى الخطابة وهى تفيد فى إقناع المعاندين والمعارضين وتنتهى المناظرة عادة بأخذ رأى الجمهور وإعلان الرأى الذى فاز بأغلبية أصوات الحاضرين ، وقد يجد الخطيب نفسه بعد إلقاء خطبته والانتهاء منها فى مناظرة مع أحد المستمعين وفى هذه الحالة عليه أن يسمع وجهة النظر المخالفة ويحاول أن يدلل على وجهة نظره بأدلة أخرى يؤيد كلامه بها تاركا كل

رغبة فى الغلبة والانتصار على من يناظره بغير حق أو باستعمال القهر والسطوة أو التشهير بالمناظر أو سبه وتجريحه لأن هدف المناظرة هو الحق دائماً .

بل عليه أن يقبل على الموضوع بعقل متفتح وفكر سليم مفندا أسانيد الخصم (المناظر) دون أن يتحدث عن نفسه لأن الناس يكرهون من يتحدث عن نفسه ، وعليه أيضاً أن يتواضع حتى ولو كان المناظر أقل منه علماً أو سناً . فللمناظرة أصولها ويجب أن يتبعها المناظر لكى يصل إلى مايرجوه من نتائج طبيعية ، وإلا تحول إلى مجادل لايبغى غير إلزام الخصم ، وصار مكابراً معانداً ، والمناظرة يمكن استخدامها لإثارة الموضوعات الهـــامة التى قصد منها التوعية وجذب الناس واهتمامهم بموضوع معين خاصة حين نريد قياس اتجاه الرأى العام بالنسبة إلى مسألة من المسائل .

والندوات العامة والمناظرات برغم أنها تجتذب المستمعين إلا أنها لا تستلزم وجود الخطيب البارع بقدر ماتحتاج إلى القائد الخبير الذى يدير هذه الندوات لكن لكى تنجح هذه الندوات لابد أن يقوم بإدارتها خبير بأطراف الموضوع ملم بجميع أركانه واتجاهاته حتى يستطيع بفهم وذكاء أن يحوّل تيار المناقشات إلى الوجهة التى يريدها والتى تحقق هدفه من الندوة .

الفرق بين الدرس والخطبة :

الحقيقة أن الدرس أصعب بكثير من الخطبة وذلك لأن الخطبة منحصرة فى موضوع واحـــد لاتتعداه ، أو المفروض أن تكون هكذا ، وأدلة الخطبة تُجمع وترتب وتنظم وتختار بما يتناسب مع الخطبة وما يؤيد وجهة النظر المرادة ، ولا تتعدى الموضوع .

أما الدرس فقد يتعدى موضوعه فيستطرد المدرس بسبب مايوجه إليه من أسئلة ومن هنا وحتى ينجح الدرس ويؤتى ثماره المرجوة كان لابد أن يكون المدرس قديراً على إدارة الكلام ، وتركيز الأدلة وإيضاح المعنى بوسائل الإيضاح المختلفة ، والمفروض فى الدرس الدينى أنه يمثل مدرسة منظمة بخطة ومنهج .

وقد جرى العرف بين العلماء على أن الدرس الدينى هو مايؤديه إمام المسجد فى مسجده على صورة شرح آية أو تفسير حديث أو ذكر قصة للعظة والاعتبار .

والمفروض فى الإمام المدرس أن يكون على صلة بأحداث مجتمعه الذى يعيش فيه وأن يستخلص من الآية أو الحديث أو القصة مايحتاج إليه مستمعوه وقد كان الدرس الدينى فى كثير من المساجد مجرد دردشة عادية لاترتبط بموضوع معين وليس فيها التحليل الدقيق الموجود فى المحاضرة مثلا ، إلا أن وزارة الأوقاف نظمت الدروس الدينية بالمساجد وأصبح نظاماً معيناً يدور مع أيام الأسبوع ويتحدث الخطيب المدرس كل يوم فى موضوع خاص معين محدد .

وفائدة الدرس للمستمع أكثر من فائدة الخطبة حيث يستطيع أن يسأل ويستفسر عن كل مايجول فى خاطره ، وبذلك تكون فائدته أعمق وأدق ، وان كان يشترك مع الخطبة فى أنهما يخاطبان العقل والروح .

وكان القدماء يسمون مجلس الدرس بمجلس الوعظ والذكر .

وخفة الظل وبشاشة الوجه وحسن العرض مطلوب من الإمام المدرس وإلا هجره الجمهور ، فقد يضطر الناس لسماع خطبة الجمعة مرغمين وهم غير راضين عن الخطيب حيث حتمت عليهم فرضية الجمعة أن يصلوها ويستمعوا إلى هذا الخطيب .

أما الدرس فلا يُقبل عليه إلا الراغب فيه المتيقن من فائدته ، ولو لم يكن الإمام المدرس مقنعاً شكلا وموضوعا ماأقبل عليه أحد ، ولابأس من ذكر أقصوصة المزاح الذى لايتعدى حدود اللياقة أو يُخرج المدرس عن وقاره لتسلية المستمعين وإبعاد الملل عنهم ، وماأكثر مايشتمل عليه تاريخنا القديم والحديث من طرائف ونوادر .

وأخيراً فان الخطيب ليست مهمته سهلة أو هينة ، وعليه أن يجيد كل أنواع فنون القول من مناقشة ومحاضرة ودرس ومناظرة وندوة إلى غير ذلك ليؤثر فى مستمعيه ويفيدهم ويفيد دعوته .

خطبة الجمعة :

لاشك أن صلاة الجمعة قد فرضت لحكمة ظاهرة لاتخفى على المفكر المتأمل وهذه الصلاة الجامعة ، ليست مجرد صلاة عادية ، ولكنها بمثابة ندوة أسبوعية، يلتقى فيها المسلمون للتعارف ، وتوثيق أواصر المودة بينهم ، والتعاون على مافيه الخير .

وقد فرضت الجمعة لتكون مجالا صالحاً متكرراً كل أسبوع لتحليل الخطيب لمشاكل المجتمع الذى يعيش فيه ، ويجهز الحلول التى تناسب مستمعيه وقد كان تشريع هذه الخطبة فى وقت مبكر فى الإسلام أكبر دليـل على اهتمام الإسلام بالعلم لأن كل خطبة تعتبر موضوعا علمياً مستقلا ، ولو أجيد أداؤها لتلقى المسلم فى العام الواحد إثنتين وخمسين خطبة لها موضوعاتها المدروسة وأهدافها المفيدة .

وخطبة الجمعة كان يلقيها الخليفة فى صدر الإسلام فيحدث الناس فى شئون دينهم ودنياهم ويوجههم إلى مافيه خيرهم وصلاح أمرهم .

كانت مؤتمراً اسلامياً أسبوعياً لأهل كل مدينة يجتمعون فيه على البر والتقوى وتوجيههم إلى ماينفعهم فى الدنيا والآخرة ، فصلاة الجمعة هى فى الواقع اجتماع للعبادة والتعاون والتوعية فهل تقوم خطب الجمعة الآن فى المساجد بدورها فى التوعية ؟

الحقيقة أن الدعوة الإسلامية قامت على عاملين قويين لايستغنى أحدهما عن الآخر .

أولهما : عامل الإرشاد والبيان الذى يقوم على الإقناع بالحجة والبرهان حتى تتمكن العقيدة الصحيحة فى القلوب عن فهم واقتناع دون قهر أو اكراه .

ثانيهما . عامل الجهاد القائم على القوة والسلطان دفاعا عن الحق من اعتداء المعارضين المعتدين .

أركان خطبة الجمعة :

أركان الخطبة أربعة هى :

الركن الأول : أن تفتتح بالتحميد ، وأقله الحمد لله ، ويرى ابن تيمية ، أنه

تتبع خطاب رسول الله ﷺ فوجد أوائل أكثرها ، هو : الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له(١) .

وقد إختلفت المذاهب فى هذا الركن : فالشافعية والحنابلة . يرون أن الخطبة ، لا تصح بدون التحميد ، وأنه واجب فيها ، ويرى الحنابلة . أنه ليس من الضرورى ، ذكر لفظ الحمد لله ، بل إن الثناء ، والشكر يقوم مقام الحمد ، من أدائه المعنى المقصود .

إلا أن الشافعية يرون ضرورة النطق بلفظ الحمد ، أو ما يشتق من مادته .

أما أبو حنيفة وصاحباه . فيذهبون إلى أن ما يحقق الذكر . كاف ولو كان قليلا ، وما يطلق عليه إسم خطبة كاف فى تحقيق المقصود لقوله تعالى « فاسعوا إلى ذكر الله » ويستدل الحنفية . بما روى من أن عثمان رضى الله عنه ، صعد على المنبر ، وقال الحمد لله ، فارتج عليه ونزل ، وصلى بالناس من غير تمكير ، وقد حدد محمد وأبو يوسف . حد القبلة بما كان قدر التشهد ، ليستوى على الثناء ، والصلاة على رسول الله ، والدعاء للمسلمين(٢) .

أما المالكية . فلا يرون هذا الركن فى الخطبة ، لأن آية من القرآن تكفى ، والخطبة عند العرب كلام منمق يفيد معنى ، أو عدة معانى ، فإذا إحتوى كلام على آية قرآنية ، جاز جعله ، خطبة للجمعة عند المالكية(٣) .

الركن الثانى :

الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم : بلفظه الذى ذكره الله تعالى بقوله : «إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما»

---

[١] عيون الأخبار ص ٢٣١ ج ٢ .

[٢] فتح القدير ج ٢ ص ٥٩ .

[٣] كفاية الطالب الربانى نقلا عن قواعد الخطابة وفقه العيدين للدكتور أحمد غلوش ص ٢٢٧ .

والصلاة عند الشافعية والحنابلة ، ركن واجب ، سواء ذكر الرسول باسمه الصريح ، أو بضميره ، وإن كان بعض متأخرى الشافعية ، يشترطون إيراد الإسم الصريح للرسول . مع الصلاة عليه فى الخطبة .

أما الأحناف والمالكية . فيذهبون إلى أن الصلاة على الرسول فى الخطبة سنة وليست ركناً ، ولا شرطاً .

الركن الثالث :

الوصية بتقوى الله تعالى : والإجماع منعقد على هذا الركن . صراحة أو ضمناً ، وإن كان الشافعية ، والحنابلة أيضاً . يرون ضرورة التصريح به . أما الأحناف والمالكية . فهم يرون أن بعض الذكر ، والقرآن يكفى لذلك . لأن فى القرآن الكريم عظة ونصحاً وتوجيهاً .

ولا شك أن الوصية بتقوى الله تعالى . فى موضوع الخطبة . هو الهدف المقصود منها ، ولذا كان لابد منه .

الركن الرابع :

قراءة شىء من القرآن الكريم ، ولو آية . لأن « جابر بن سمرة » قال : « كانت صلاة رسول الله قصداً وخطبته قصداً . يقرأ آيات من القرآن ، ويذكر الناس(١) » ، وأما إشتراط قراءة شىء من القرآن لأن الخطبة فرض فى الجمعة . فوجبت القراءة فيها فى الصلاة . فيقول « الجاحظ » : « إن خطباء العصر الأول كانوا يرون أن تشتمل الخطبة على آى من القرآن الكريم . فإن ذلك مما يورث البهاء ، والوقار ، والرقة ، وحسن الموقع ، وكثرة الفائدة(٢) » .

ويلاحظ أن هذه الأركان الأربعة ، واجبة فى الخطبة الثانية . كالخطبة الأولى تماماً .

سنن الخطبة :

ذكر الفقهاء . شروطاً كثيرة للخطبة ، واعتبروها سنناً لها . وقد وصلت عند بعضهم إلى ثلاثة عشرة سنة ونذكرها هنا باختصار :

---

[١] صحيح مسلم. [٢] نقلاعن قواعد الخطابة وفقة العيدين للدكتور أحمد غلوش.

١ - أن تكون الخطابة على منبر . أى مكان عال مرتفع عن الأرض يكون موضعه أمام الحاضرين . حتى يتمكنون من رؤيته . بصرف النظر عن نوع هذا المنبر ، هل هو من الخشب . أم من المبانى . أم من غير ذلك . كل ذلك جائز ، وليست له صورة معينة .

٢ - أن يُقبل الخطيب . بوجهه على الناس، مستدبراً القبلة لأن ذلك أوعى للإنتباه.

٣ - أن يسلم الخطيب على الناس . عقب صعوده على المنبر . كما كان يفعل النبى ، ويعتبر ذلك تنبيهاً للناس ، وليستعدوا للحضور معه نفسياً وعقلياً .

٤ - أن يجلس بعد سلامه على الناس .

٥ - أن يخطب قائماً . ما دام يقدر على القيام .

٦ - أن يجلس الخطيب . بين الخطبتين للفصل بينهما .

٧ - أن يرفع الخطيب : صوته ما أمكن ليسمع صوته الحاضرون .

٨ - ألا يحرك أطرافه إلا إذا كانت الحركة مما تفيد قوله ، وعلى ألا يبالغ فى هذه الحركة .

٩ - سهولة الخطبة ، وتناسبها مع المستمعين .

١٠ - أن تكون الخطبة قصيرة . بقدر الإمكان . حتى يتمكن الخطيب من التركيز ، وعدم الإستطراد .

١١ - ترتيب أركانها لتقدم إلى المستمع . فى صورة مقنعة .

١٢ - أن تشتمل الخطبة على دعاء المسلمين عامة ، والحاضرين منهم خاصة تذكيراً بالأخوة الإسلامية . والعبودية لله تعالى .

١٣ - أن يحضر الخطيب للمسجد ، وقت حلول الخطبة ، وهذا مدعاة للإهتمام به . وبكلامه(١) .

أما آداب الجمعة ، وحكمة مشروعيتها . فقد ذكرتها فى مكان آخر ، فى حديث . تحت هذا العنوان سيجده القارىء فى القسم الثانى من هذا الكتاب . ونكتفى بذكره هناك . والله ولى التوفيق ؟

---

[١] أنظر المهذب جـ١ ص ١١٢ ، والكافى جـ ١ ص ٢٩١ - ٢٩٢ . وتبين الحقائق جـ ١ ص ٢٢١ .

القسم الثاني

الخطابة التطبيقية العملية

وتشمل : -

نماذج من : -

١ - أحاديث صباح إذاعية .

٢ - أحاديث ثقافية (حديث سهرة) .

٣ - أحاديث عامة (تصلح الصباح والسهرة)

٤ - أحاديث دينية موضوعية .

٥ - أحاديث لبرنامج ديني متكامل (موضوع واحد) .

٦ - خطب منبرية أكاديمية .

٧ - خطب منبرية متطورة (حديثة) .

٨ - محاضرات .

أولا :

نمـاذج من أحاديث الصباح الإذاعية

لا نستطيع أن نفصل تماماً بين أحاديث الصباح ، وأحاديث السهرة ، ولا بين الاحاديث الدينية ، والاحاديث الاجتماعية . فهناك تداخل بين كل هذه الأنواع من الأحاديث ، وبخاصة إذا عرفنا أن الهدف من كل هذه الاحاديث هو إصلاح المجتمع من خلال الدين . إلا أن العرف قد جرى على أن تشتمل أحاديث الصباح على موضوعات إجتماعية يحاول المتحدث من خلالها علاج بعض المشكلات . أيضاً من خلال الدين ، وإن كان يستدل أحياناً بآراء المفكرين والمصلحين . ويتعرض أحياناً لضرب الأمثال ، والاستدلال على صحة ما يقول بذكر الأرقام الإحصائية وغير ذلك .

وهنا يتميز حديث الصباح عن الحديث الدينى الموضوعى الذى قد يكون التركيز فيه على الآيات القرآنية ، وآراء المفسرين فيها أكثر مما يحدث مع حديث الصباح ، كما أن الاحاديث الموضوعية الدينية أحاديث تتناسب مع المتخصصين فى الدراسات الدينية ، وتخاطب نوعيات معينة من المثقفين . أما أحاديث الصباح فهى تخاطب أكبر عدد من المستمعين وهى تعنى عامة الناس لاخواصهم . ولذا فإن المتحدث يراعى فى أحاديث الصباح سهولة اللفظ ، ووضوح الفكرة والمعنى أكثر مما يلاحظه صاحب الحديث الدينى التخصصى .

ومع ذلك فقد يستطيع أحد المتحدثين أن يقدم لنا موضوعات تصلح للصباح وللسهرة ، أو تصلح كأحاديث صباحية ، ويمكن تقـديمها أيضاً كموضوعات دينية موضوعية تقدم لإذاعة القرآن مثلا .

وعلى كل حال فالمفروض فى المتحدث أن ينوّع دائماً فى أحاديثه ، وأن يغير الطريقة والأسلوب اللذين يقدم بهما فكره للمستمعين .

وقد اخترت ستة أحاديث فى موضوعات مختلفة أقدمها للقارىء كنماذج لأحاديث الصباح الإذاعية . وقد أذيعت هذه الأحاديث بعد أن سجل بعضها فى إذاعة المملكة العربية السعودية بالرياض ، وبعضها فى إذاعة الإمارات العربية المتحدة بأبو ظبى . وقد وضعتها هنا بعد أن وضعت لها مصادر الآيات والأحاديث التى اعتمدت عليها هذه الأحاديث . وذلك إتماماً للفائدة ، وتعويداً للقارىء على كيفية اختيار الدليل وترتيب العناصر . مع ملاحظة أنه كان بالإمكان التوسع فى هذه الموضوعات إلا أننى اقتصرت على النصوص التى سجلتها كما هى :

ولا شك أن تحديد الموضوع فى صفحات قلائل مع الالتزام بتغطيته من جميع جوانبه أصعب بكثير من التوسع فيه عن طريق الاستطراد والاكثار من الأدلة والبراهين ، ولذا فإن على الخطيب أو المتحدث أن يراعى الوقت ، ويتقيد به ، ولا يستطرد كما قلنا بما يخرجه عن الموضوع ، ويشتت أفكار مستمعيه وأرجو أن أكون قد وفقت فى اختيار الموضوعات ، وفى طريقة عرضها ، وفى الأسلوب الذى قدمتها به . والله الموفق والمعين .

١ ـ الحديث الأول :

دعوة الاسلام للتربية والتعليم

المشهور أن الإسلام حين ظهر لم يكن فى قريش غير سبعة عشر رجلا يعرفون الكتابة ، وفى الأوس والخزرج أحد عشر رجلا يكتبون (١) . وكان فى قريش قليل من النساء يكتبن ، فندرة الذين يكتبون فى صدر الإسلام تدل على فشو الأمية بين العرب فى الجاهلية ، حتى أنهم كانوا يلقبون الرجل الذى يعرف الكتابة ويحسن الرمى والعوم كاملا ، وكان ممن عرفوا بهذا اللقب سعد بن عبادة رضى الله عنه . (٢)

وقد شجع ظهور الإسلام على تعلم القراءة والكتابة ، ولعل ماورد فى قصة إسلام عمر رضى الله عنه وأنه وجد عند أخته من يقرأ من سورة طه من شواهد ذلك ، كما أن من الشواهد أيضا ما عرف عن فداء النبى ﷺ لبعض الاسرى يكتبون نظير تعليم الواحد منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة ـ وقد شجع انتشار الإسلام مع الفتوحات الإسلامية على تعلم القراءة والكتابة وطلب العلم بصورة عامة وكما هو ثابت فى كتب الأدب والتاريخ . (٣)

لقد جاء الإسلام فرفع شأن العلم وحث على مكارم الأخلاق وشرع نظافة البدن وقوته ، وهذه الأمور الثلاثة كما لا يخفى هى أساس كل نظام صحيح للتربية والتعليم وقد كان الاسلام منطقياً مع الحياة ومع الناس حين اهتم بالجانبين معاً ودعا إليهما رسول الإسلام ﷺ حقاً ، وان كان الواضح أن أثر الاسلام فى عهده الاول كان فى ناحية التربية أولا . والتعليم ثانيا . لأن إنشاء

---

[١] العقد الفريد جـ ٤ ص ١٥٧ ، ١٥٨ وراجع الاسماء بفتوح البلدان ص ٤٥٧ ؛ ٤٥٩ [٢] المرجع السابق .
[٣] راجع فى ذلك كتب السيرة

المدارس جاء متأخراً وحركة تعليم القراءة والكتابة لم تكن عامة وكان الرسول ﷺ وكذا الخلفاء والامراء حتى سواد الناس لا يستبدلون بسمة الخُلق وشدة التقوى والرجولة الكاملة شيئاً ، لأن التربية عندهم تجيء قبل التعليم فى الاهمية .

وقد ثبت أن النبي وهو الأمى اهتم اهتماماً كبيراً بالقراءة والكتابة ، ولا عجب فى ذلك فالقرآن الكريم فيه آيات بليغة فى الحث على طلب العلم إجمالا ، وإتقان القراءة والكتابة من أهم وسائله بلا شك .

يقول المولى سبحانه « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات(١) » ، ويقول أيضاً سبحانه « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط »(٢) .

ففى الآية الاولى قرن العلم بالإيمان بالله ، وفى الآية الثانية جاء ذكر العلم بعد الله سبحانه وتعالى والملائكة ، وهذا كله رفع لشأن العلم والعلماء ، والقرآن الكريم أيها السادة ملىء بالآيات التى تذكر العلم والتعليم والكتابة والخط والقلم والمكتاب ، وحين نقرأ مثلا هذه الآية من سورة البقرة « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »(٣) ، نجد فيها وأمثالها من آيات شبيهة بها وردت فى سورتى آل عمران والمائدة نجد أن هذه الآيات يقترن فيها تعلم الكتاب باكتساب الحكمة ، وهو غرض من أغراض التربية قديماً وحديثاً ، فالعلم النظرى المكتسب من الكتاب لا يستغنى به عن اكتساب الحكمة أو البصر فى اختيار الكلام والإحكام فى تصريف الامور .

---

[١] سورة المجادلة آية ١١
[٢] سورة آل عمران آية ١٨
[٣] سورة البقرة آية ١٥١

كذلك حين نقرأ مثلا قول الله تعالى فى سورة يوسف (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث)(١) نجـــد أن التعليم هنا أيضاً يرمى إلى توسيع أفق المتعلم بالقياس على حوادث الماضى .

هذا بالإضافة إلى دعوة الناس دائماً إلى الاستزادة من العلم وعدم الاغترار بما توصلوا إليه من معلومات ، لأن بحر العلم عميق فسيح لايصل العـالم إلى قعره أو شاطئه الثانى مهما أوتى من فطنة وجهد، ولذا فالنعمة الكبرى هى الاستمرار فى التحصيل وعدم الوقوف عند حد فى ذلك ولهذا قال المولى سبحانه (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)(٢) نعم لأن العلم لايعرف الكلمة الأخيرة وطالب العلم يظل مفتقراً المزيد — وقد طلب المولى من الناس أن يطلبوا منه أن يزيدهم من العلم وأن يمكنهم من الرغبة فى التحصيل فقال سبحانه (وقل رب زدنى علماً)(٣)

(وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم)(٤) فقراءة الكتاب بانتظام شىء جديد جاء به الإسلام ، والخط بالقلم واستعمال القلم باليد اليمنى شرعة مازال الناس يسيرون عليها ويستهجنون من خالفها ، والكتاب المسطور فى الرق المنشور شىء عظيم يستحق أن يقسم به الخالق ليدلك على يوم البعث :

قال تعالى : (والطور وكتاب مسطور فى رق منشور)(٥) .

أما القلم فهو اسم سورة من سور القرآن أقسم به الخالق على صدق الرسول ﷺ فقال (ن والقلم ومايسطرون ماأنت بنعمة ربك بمجنون)(٦) —

[١] سورة يوسف آية ٦
[٢] « الإسراء آية ٨٥
[٣] « طه آية ١١٤
[٤] « العنكبوت آية ٤٨ — ٤٩
[٥] « الطور آية ١ ، ٢ ، ٣
[٦] « القلم آية ١ ، ٢ ، ٣

وتعلم القراءة فى الكتاب وفصاحة اللسان ووضوح الكلام ذكرها المولى سبحانه فى سورة الرحمن فقال (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان)(١) .

ولماذا نذهب بعيداً — أليس أول مانزل من القرآن الكريم يتناول التعليم والقراءة والكتابة بالقلم ، وفى ذلك أكبر شرف للعلم والقراءة والكتابة — والمشهور أن الملك الذى تمثل للرسول عند أول نزول الوحى قال له إقرأ . فقال رسول الله ماأنا بقارىء وكرر الملك أمره كما كرر الرسول جوابه ثلاث مرات ثم قال الملك (إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم)(٢) .

ومعنى ذلك كن قارئاً باسم الله القادر . أن يجعل من غير القارىء قارئاً فهو سبحانه الذى جعل من الجماد الصامت آلة للفهم والبيان — وهو الذى علم الإنسان جميع مايعرف وكان قبل ذلك لايعرف شيئاً .

فهل هناك بيان أبرع ولادليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات ، لقد كان مبدأ طلب العلم قراءة القرآن الكريم وحفظ آياته وفهم معانيه — وهو بلاشك مبدأ التعليم وهو توجيه جديد للتربية فى تاريخ العرب والمسلمين ، وماتدوين القرآن الكريم ونشره وعمل القراء حفظة القرآن الكريم فى نشر العلم والتعليم إلا دليلا على ذلك ، بل أن القراء كانوا هم أول المعلمين فى تاريخ الإسلام لأنهم كانوا يعلـّمون الناس قراءة القرآن أو استظهاره(٣) .

---

[١] سورة الرحمن آية : ١ ، ٢

[٢] « العلق آية ١ — ٥

[٣] الفقيه والمتفقه ص ١٨

وقد ثبت أن الخلفاء الراشدين كانوا يرسلون القراء إلى الأمصار المفتوحة يعلمون الناس القرآن الكريم بالتلقين والحفظ أولا ، ثم بهما مع الكتابة ثانياً .

وإن كان بعض القراء لم يكن كاتباً — أما المساجد فكانت هى أول المدارس فى تاريخ الإسلام وكانت القراءة والكتابة لمن شاء فى أى مكان آخر — لقد كان المسلم العربى يتعلم القرآن الكريم والقراءة والكتابة فى المسجد أو فى البيت — أما تربيته فكانت تعتمد على القدوة والمحاكاة — القدوة برسول ﷺ ومحاكاة خلفائه وأصحابه .

وهكذا أيها الأخوة المسلمون ترون أن ظهور القرآن هو الذى شجع على تعلم القراءة والكتابة ، بل هو الذى دعاهم إلى ذلك ، وكان النبى يعمل إلى نشر العلم وانتشاره على نطاق واسع بل جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة .

لقد كان القرآن الكريم أيضاً سبباً فى إقبال الناس على تعلّم كثير من العلوم الأخرى لخدمة القرآن كعلم النحو والصرف والبلاغة والآداب وغير ذلك من علوم الشريعة كالفقه وأصوله والتفسير وعلوم القرآن إلى غير ذلك من العلوم .

وقد عرف صحابة رسول الله ﷺ أهمية التعليم وضرورته لفهم كتاب الله وسنة رسول ﷺ ولذا وجدنا بعض هؤلاء الصحابة أيضاً يحث على الاستفادة من جميع أنواع التربية والتعليم .

هذا هو ابن عباس مثلا يقول : « كونوا ربانيين حكماء فقهاء علماء » (١) . ثم يشرح ذلك فيقول فالربانى هو الذى يربى النـــاس وهو الذى يضع

---

[١] الفقيه والمتفقه ص ٢٢

الأشياء فى مواضعها ويصيب فى قوله وفعله والفقيه هو الواقف على معانى التنزيل ، والعالم هو المتعلم الذى يقرأ ويكتب هـــذا كله ويفسره وينشره فى الناس(١) .

هدانا الله لما فى القرآن الكريم ونفعنا بكل مافيه .

---

[١]نفس المرجع السابق

٣ - الحديث الثانى:

الإسلام وواقع التعليم فى البلاد الاسلامية

الحياة الانسانية تحتم وجود متخصصين فى كل فرع من فروع العلوم وذلك ليستفيد الإنسان من كل ما سخره الله له فى هذا الكون، وليستحق خلافته فى الأرض ولأنه لو لم يتم ذلك لتعطلت طاقات كثيرة فى الانسان خلقها الله فيه ليستغلها فيما سخره له - وصدق الله حين يقول (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه[١]) وحين يقول (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[٢]) والحياة تحتاج إلى أدوات وحيل وتفكير وبحث وغير ذلك من الأدوات المادية والفكرية لامكان استغلال ما سخره الله لنا فى الأرض ولا شك أن ذلك لايكون ولا يتأتى إلا عن طريق العلم المتخصص للوصول إلى أحسن النتائج الممكنة، ولهذا كان لابد من متخصصين فى الزراعة، وفى التجارة وفى الصناعة، وفى الطب والفلك والطبيعة وغير ذلك من علوم الحياة لإمكان استغلال هذا المسخر لنا أحسن استغلال.

والإسلام يحترم التخصصات بل يدعو إليها، ولعل فى قول الله تعالى فى سورة التوبة:

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون[٣]) مايفيد هذا التخصص فى الدعوة والإرشاد - كما أن قوله سبحانه (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه[٤]) دعوة عامة إلى إيجاد التخصصات التى يحتاج إليها

---

[١] سورة الجاثية آية ١٣
[٢] سورة الملك آية ١٥
[٣] سورة التوبة آية ١٢٢
[٤] سورة الملك آية ١٥

الانسان فى أمور حياته العامة والخاصة والتى فرض عليه أن يحياها . وأن يستغل كل لحظة من حياته فى توجيه طاقاته للانتاج المثمر بشرط أن يتضمن هذا الاخلاص والتكامل لله تعالى والاتجاه إليه مع الإيمان بهيمنته سبحانه على هذه الحياة ، بل إن عدم استغلال الانسان لطاقاته الحيوية فى عمارة الأرض والتنقيب عن كنوزها أو التعرف على رزق الله الواسع فيها لترقية الحياة وتنميتها يعد كفرا بأنعم الله - تماماً مثل عدم استخدام طاقاته الروحية للتعرف على الله والاتصال به والاهتداء بهديه - وعلى هذا كان لابد للناس أن يحاولوا ما استطاعوا الاستفادة من كل ما وهبه الله لهم وسخره من أجلهم ، ولا يعنى هذا أن يقتصر الناس على دراسة العلوم الانسانية فقط أو ما يسمى بعلوم الوسائل من غير أن يدرسوا قدراً معينا من علوم الدين التى يسميها العلماء علوم المقاصد . كالتفسير والحديث والعقيدة والفقه فهذه علوم مقصورة لذاتها ووجب على جميع المتخصصين فى كل العلوم أن يتعلموا قدرا معينا منها - لأن تعلم الدين والفقه فيه فريضة على كل المسلمين لقول النبي ﷺ (طلب العلم فريضة على كل مسلم) ولأن المسلم كل مسلم مطالب بمعرفة الحلال والحرام حتى يعيش حياته مرتاح البال هادىء النفس كذلك فهو فى حاجة إلى أن يعرف ما يلزمه من الطهارة والصيام والزكاة باعتبارها فرائض فرضت على الناس جميعاً مع معرفة الأصول التى هى طلب معرفة الله تعالى وتوحيده ومعرفة صفاته والإيمان بصدق رسله - ومن هنا كانت الفرضية التى فرضها الإسلام على لسان نبيه ﷺ وكان لابد للناس جميعا أن يأخذوا فى تعلم هذه الأمور وإلا أثموا جميعا .

وقد قال بعض أهل العلم فى تفسيره لحديث النبى ﷺ (طلب العلم فريضة) قال إنما عنى النبى بهذا علم التوحيد وما يكون العامل به مؤمناً[1] - ومعنى هذا أن الناس جميعا ليسوا مطالبين بالتخصص فى علوم الدين وحدها ، وإنما يكفى

---

[1] الفقيه والمتفقه ص ١٨

أن يتخصص فى علوم الدين جماعة من الناس ليقوموا بواجبهم على الوجه الأكمل فيما كلفوا به وينشروا ما فقهوه من تفصيلات ودقائق هذا العلم حتى لا نهمل الجوانب الأخرى فى هـــذه الحياة وتعطل الطاقات التى خلقها الله فى الانسان لتعمل وتستغل .

وواقع المسلمين الآن للأسف يؤكد أنهم لا يهتمون بعلوم المقاصد اهتمامهم بعلوم الوسائل ، بل أن بعض البلاد الإسلامية لا تهتم بعلوم المقاصد على الاطلاق وأدى ذلك إلى ابتعاد معظم المجتمعات عن شريعة الإسلام — لان المسئولين عن التعليم فى هذه المجتمعات ابتعدوا عن التخطيط السديد للتربية فى بلادهم ، وجانبهم الصواب فى اختيار أنواع العلوم والمعارف التى يربى بها الشباب واهتموا بعلوم ومعارف أخرى هى برغم ضرورتها وأهميتها أيضاً ، تعتبر أسلحة فتاكة تفتك بكيان الامة . لانها تركت وحدها فى الميدان ، ولان بعض هذه العلوم ما يشـ[illegible] فى مبادىء الإسلام ويثير الشبهات حول كثير من أحكامه لانها منتقاه ، ومن تخطيط اعداء الإسلام أساساً ، ولان علوم المقاصد اما هجرت تماما فى بعض المجتمعات كما قلنا ، واما استهين بهـا فى مجتمعات أخرى ، فسلبنا بذلك من المتعلمين المسلمين السلاح القوى الذى كان يجب أن يتسلحوا به ضد الشرك والإلحاد ، بل أصبح بعض هؤلاء برغم أسمائهم الإسلاميـة حرباً على الإسلام ومبادئه ويغيروا بأنفسهم السلوك حول الإسلام وأحكامه ، لهذا فانه قد أصبح من الحتم إصلاح هذا الخلل الخطير الذى قد يؤدى لو ترك فترة أخرى إلى خلخلة العقيدة فى نفوس الجميع . وذلك بتغيير مناهج التعليم فى كثير من بلاد المسلمين بما يتناسب مع روح الاسلام وروح العصر معاً .

والغريب أننا برغم اهتمامنا بعلوم المقاصد ، إلا أننا لا زلنا متخلفين فيهـا عن الغرب ، ولا زلنا نحبو حتى الآن ، فضاعت منا وللأسف الدنيا والآخرة وضاعت شخصيتنا الإسلامية ومسختها رغبة التقليد الغبية التى حولت الطاووس إلى غراب .

وإذا كانت الضرورة الآن تحتم الاهتمام بالمناهج والمواد الدراسية ، فلابد لنا أن نراعى شيئاً آخر أكثر أهمية وهو إعداد المعلم : —

فمهمة المدرسة كما تعرفون (هى إيصال المعرفة وأنواع المهارة إلى أذهان التلاميذ ، وهذه المعلومات وتلك المهارات هى من صنع عقول الكبار الراشدين وقد وضعت هذه المعلومات وفرضت على الطلاب فرضاً فيما يسمى بالمناهج

ومعلم اليوم فى كل المراحل التعليمية يُخرَّج على مثل هذا النظام الموجود الآن أو شبيهه وهو لذلك لا يستطيع أن يعطى أكثر مما يعرف ، وكما قيل (فاقد الشيء لا يعطيه) لذا وجب الاهتمام بتخريج المدرس الكفء خاصة مدرس الدين . وشخصية المدرس لها دخل كبير فى استيعاب التلميذ للمادة التى يقوم بتدريسها ، واستجابة التلميذ الشخصية نحو المدرس لها أثر عظيم فى استفادة الطلاب من المناهج أياً كانت المادة ولا تكتسب حيويتها إلا من شخصية المدرس .

وإذا تم ذلك واختير المدرس على أساس تربوى سليم وعلى أساس أن يعد إعداداً سليما ويختار من الشخصيات ذات الكفاءة الشخصية العالية ليحتفظ بمكانته كزعيم فى المجتمع الذى توجد فيه المدرسة .

حينذاك سيستطيع التعليم بعون الله تعالى ، ثم بأساتذته الأكفاء وتلاميذه الفاهمين الداعين وخريجيه المثقفين بثقافة الإسلام وتعاليه أن يكون أكبر وسيلة من وسائل الدعوة لدين الله .

ونسأل الله الهداية والنجاح .

٣ ـ الحديث الثالث :

التعاون فى الإسلام

اقتضت حكمة الخالق سبحانه أن يخلق الناس مجتمعين وأن يجعل الانسان مدنياً بطبعه فلا يستطيع واحد من الناس أن يعيش وحده دون حاجة للغير فلا يستطيع أن يستقل عن حاجة الناس إليه أو حاجته هو إلى الناس .

فالناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

من هنا كان التعاون بين الناس أساس السعادة ونظام العمران وطريقاً لتحصيل الخير وتحقيق الوئام ، وحتى يندفع الناس إلى التعاون فيما بينهم وخدمة بعضهم البعض ، حث الشارع على هـــذا التعاون وحض عليه فيقول المولى جل وعلا :

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (١) بل نبه سبحانه إلى أنه خلق الناس وجعلهم شعوباً وقبائل لتعارفوا أى ليتعاونوا ، فقال سبحانه :

(ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (٢) ، بل كانت دعوة النبى ﷺ المسلمين إلى أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً ويحمى بعضه بعضاً ويمسك بعضه ببعض وهو تعبير دقيق يعطى التعاون معنى التكاتف والتناصح والتداخل ، وكأن مصلحة المؤمن هى نفس مصلحة أخيه ، وسلامة المؤمن هى سلامة لأخيه ، لهذا تراه ﷺ يقول أيضا مع قوله (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) (٣)

---

[١] سورة المائدة آية ٢
[٢] سورة الحجرات آية ١٣
[٣] رواه أبو موسى (ض) وهو متفق عليه راجع دليل الفالحين حـ ٢ ص ٣

نراه يقول : (ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (١) ، ثم هو يدعو الى مساعدة الآخرين والوقوف بجانب المحتاجين سواء كانت هذه الحاجة مادية أو معنوية فيقول :

(خير الناس أنفعهم للناس) (٢) ويقول أيضا :

(من فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) (٣) .

وبعض الناس يحب أن يعيش لنفسه فقط — لا يعنيه غيره ولا يهتم بأمر أحد ما دام هو فى غير حاجة لأحد إن قصده أحد فى أمر من الأمور يستطيعه تخلص بكلمة أو رفض بشدة — مع أنه كان بإمكانه تقديم خدمة يريح بها أخاً مسلماً ويفرج بها عنه كربة من كرب الدنيا وما أكثر كرب الدنيا ومشاكلها ونسى أنه قد يحتاج لهذا الشخص نفسه فى يوم ما .

(ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط) بل نسى أن حاجة الناس إليه من نعم الله عليه ، وكان يجب ألا يمل النعم .

فالله كما قلنا أيها السادة ، اقتضت حكمته أن يخلق الناس مجتمعين متعاونين ، بل إنه خلق الانسان وخلق فيه أعضاءه ومع ذلك فأعضاء الجسم يعاون بعضها بعضاً والمجتمع لابد أن يتعاون كل من فيه ، هذه الدولة مثلا هل تستطيع وزارة أو إدارة أن تستقل فيها ولا تحتاج إلى تعاون غيرها .

---

[١] صحيح البخارى ج ٧ ص ٧٧ و ٧٨

[٢] راجع دليل الفالحين ج ٣ ص ٣

[٣] جزء من حديث رواه ابن عمر رضى الله عنهما وهو متفق عليه . راجع دليل الفالحين ج ٣ ص ٣٠

وفى القرآن الكريم نستطيع أن نستخلص الكثير من العظات والعبر ، وهذا هو آدم لم يستطع أن يعيش وحده فطلب من الله أن يجعل له رفيقاً فخلق منه حواء ومن ضلعه الأيسر لتكون قريبة من قلبه .

وهذا هو زكريا عليه السلام يشكو الوحدة ويطلب الولد والذرية ليعطيهم ويعطوه ، ليعاونهم ويعاونوه مع مافى تربية الأولاد من مشقة وتعب لكنها الطبيعة التى خلق الله الناس عليها .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداءاً خفياً قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً ، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً)(١) .

ويقول القرآن أيضاً : (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة)(٢) وإبراهيم أيضاً طلب نفس الطلب ودعا بمثل هذا الدعاء ، يقول الله تعالى عن ابراهيم (وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم)(٣) .

فالأولاد مع مايكلفونه لاهليهم إلا أن الآباء والأمهات يحبون منهم المزيد لأنهم كما قلت لايستطيعون العيش وحدهم .

بل إن المرأة مع ماتلاقيه عند الولادة من مشقة وتعب قد يودى بحياتها لايمنعها أن تذهب للأطباء والدجالين أحياناً بحثاً عن الولد ، فلم ننسى هـــذا

---

[١] سورة مريم آية ١ — ٦
[٢] « آل عمران آية ٣٨
[٣] « الصافات آية ٩٩ — ١٠١

ياسادة وتصبح الأنانية هى طابع هذا العصر مع أن طابع العبادة نفسها طابعا تعاونياً ، مامعنى الجماعة فى الصلاة وفى الجمع وفى الأعياد ؟ ألاترون فيها دعوة للتآلف والترابط والتعاون — ألا ترون أن الأصل فى الزكاة تعاون الناس وتراحمهم فيما بينهم وإعطاء الغنى جزءاً من ماله للفقير المحتاج ، وهل الحج إلا دعوة للتعارف وإيصال البر إلى قوم يسكنون فى هذا المكان تحقيقاً لدعوة أبينا إبراهيم عليه السلام حين قال (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)[1] .

هدانى الله وإياكم للعمل الصالح ووفقكم لكل مافيه خير للاسلام والمسلمين.

---

[1] سورة إبراهيم آية ٣٧

٤ -الحديث الرابع :

شروط الاسلام لصحة البيع والشراء

حرص الإسلام على إقامة العدالة إقامة مطلقة وأمر بهذه العدالة فى كل شىء أمر بالعدالة بين الناس فى الأحكام حين قال :

(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)(١) وأمر بالعدالة فى القول أيضاً حين قال :

(وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى)(٢) أى ولو كان القول فى غير مصلحة ذوى القربى — بل وصل الإسلام — إلى ذروة الكمال الذى لم تصل ولن تصل إليه شريعة أو قانون إذ أمر المسلم بإقامة العدل ولو كان الحق فى جانب عدوه قال تعالى :

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى)(٣) ومع أن الإسلام قد دعا إلى البر بالوالدين وطاعتهما والإحسان لهما إلا أنه نهى نهياً شديداً عن مجانبة العدل إذا كان فى غير جانبهما ، بل إذا كان فى غير جانبه هو شخصياً — ومايصدق عليه هو ووالديه يصدق على أقاربه أيضاً قال تعالى :

(ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم . أو الوالدين والأقربين)(٤) .

وهكذا كان الأمر بالعدل أمراً أراد به المولى سبحانه إقامة العدالة إقامة مطلقة قال تعالى :

---

[١] سورة النساء آية ٥٨
[٢] سورة الأنعام آية ١٥٢
[٣] سورة المائدة آية ٨
[٤] سورة النساء آية ١٣٥

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)(١) وحين نحاول تلمس الحكمة من هذه الأوامر الإلهية الكثيرة بطلب العدل من الناس ترى أن الإسلام أراد بهذا خلق مجتمع تسوده المحبة والألفة ويرفرف عليه الحب والوئام ، لأن العدالة هى من أهم الأسس التى يقوم عليها المجتمع المتعاون المتحاب ولا تعاون ولا محبة مالم تكن العدالة قائمة وروح الإخلاص والمحبة سائدة ، ولذا نجد فى القرآن الكريم الآيات الكثيرات التى تطالب المسلمين بإقامة العدل فى العمل ، ونصت كثير من هذه الآيات على مراعاته فى الكيل والوزن على وجه الخصوص ، ولاشك أن أى بيع أو شراء يدخل تحت هذا الامر حتى ولو لم يكن كيلا أو وزنا ، فالمقصود من هذه الدعوة والله أعلم عدم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان أو استغلاله له سواء كان بائعاً أو مشترياً ، يقول المولى سبحانه وتعالى فى معرض الأمر بإقامة العدل ومراعاته فى الكيل والوزن :

(وأوفوا الكيل والميزان إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم)(٢) ويقول أيضاً سبحانه :

(وأوفوا الكيل والميزان بالقسط)(٣) ويقول أيضاً . (فأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا الناس أشياءهم)(٤) ويقول عز من قائل : (وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان)(٥) بل إنه سبحانه أنزل سورة كاملة فى أولئك الذين لايرعون هذه العدالة وأسماها سورة المطففين وفى أولها يقول ربنا سبحانه (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا

---

[١] سورة النحل آية ٩٠
[٢] سورة الإسراء آية ٣٥
[٣] سورة الانعام آية ١٥٢
[٤] سورة الاعراف آية ٥٨
[٥] سورة الرحمن آية ٩

كالوهم أو وزنوهم يخسرون) والمراد بالتطفيف هنا هو البخس فى المكيال والميزان إما أخذاً بالزيادة إن اشترى من الناس وإما انتقاصاً منهم إن باع لهم لأنهم كما يقول المولى سبحانه (إذا اكتالوا على الناس يستوفون) أى يأخذون حقهم بالوافى والزائد وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ينقصون ، من هنا يتوعدهم المولى سبحانه فيقول لهم (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) أى أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدى من يعلم السرائر والضمائر فى يوم عظيم الهول كثير الفزع جليل الخطب من خسر فيه أدخل ناراً حامية .

لو فكرنا جيداً فى الحكمة التى من أجلها كرر المولى سبحانه الآيات القرآنية للنص فيها على مراعاة الكيل والوزن وعرفنا أن لفظة القسطاس والقسط هى بنفسها العدل الذى دعا اليه كما قلنا فى كل شىء حتى فى القول، لوجدنا أن محاولة التغالى فى أسعار السلع لمجرد الحصول على ربح كبير والوصول إلى الغنى الفاحش فى أقرب وقت نتيجة هذا التزايد فى ثمن السلع ورفع الأسعار ، لوجدنا أن هذا مما يدخل فى المنهيات، حيث يبتعد التاجر بهذا عن العدل فى البيع والشراء بعد إذ أمره الله به - ولا شك أنه يدخل أيضاً مع أولئك الذين قال الله فيهم (إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون - فتاجر الحبوب مثلا يشتريها بثمن معين معقول ويستوفى من المزارع أو تاجر الجملة حقه ثم هو يبيعها بعد ذلك بأضعاف مضاعفة ظناً منه أن البيع والشراء فى الإسلام حرية مطلقة حتى ولو باع السلعة بعشرة أضعافها ، أو حتى بمائة ضعف باعتباره المالك الوحيد لها ، ولا حق للغير فيما يملك وبناء على فهمه هذا يرى أن من حقه التصرف وفق هواه وكما يحب ويرضى .

والحقيقة أيها السادة أن الإسلام يعتبر هذا العمل أثرة وأنانية تودى بصاحبها الى الهلاك وتقضى على سعادة النوع وفلاحه ، فمع أن الله تبارك وتعالى أحل البيع والشراء ، ويرى بعض العلماء أن لا قيد على البيع أو الشراء طالما

ثم ذلك برضا الطرفين ، ويستدلون بحديث رسول الله ﷺ : (دعوا الناس يرزقون بعضهم من بعض) إلا أن جمهور العلماء يرى أن الربح يجب ألا يكون مبالغاً فيه على أساس أن المبدأ الإسلامى أن جميع الطرق لاكتساب المال التى لا تحصل المنفعة فيها للفرد إلا بخسارة غيره غير مشروعة ـ أما الطرق التى يتبادل فيها الأفراد المنفعة فيما بينهم بالتراضى والعدل فهى الطرق المشروعة ، وهنا نلاحظ اشتراط العلماء العدل . هذا العدل الذى دعا الله تبارك وتعالى اليه فى كل شىء كما قلنا .

فاذا باع التاجر بضاعته بضعف ثمنها ، أو بثلاثة أضعاف ، أو بأكثر كما يصنع بعض التجار ، فإن ذلك يخالف القسط والعدل الذى دعا اليه المولى سبحانه لأنه لو فرضنا أن كل انسان فكر فى إرضاء نزعاته وتحقيق منافعه دون غيره ، لتعذر قيام الجماعة ، بل لانتهى الأمر فى النهاية بفوات المصلحة الفردية نفسها . لأن كل فرد فى النهاية سيتعرض لعدوان الآخرين ، وبالتالى يعجز عن تدبير منافعه كلها وهذه المنافع تتوقف على أعمال كثيرة موزعة بين الأفراد الكثيرين على كل فرد من أفراد المجتمع أن يتنزل عن بعض نفعه ويعدل عن بعض هواه حتى يضمن بهذا النزول المختار أكبر قسط مستطاع من الحرية والأمان .

فالتاجر الذى يبيع الطعام . إذا رفع ثمن سلعته فلا شك أن ذلك سيؤدى إلى أن يرفع تاجر الآلات سلعته أيضا ـ وكذا كل صاحب عمل إحر سيحاول رفع أجره أو سلعته المباعة كردفعل طبيعى لتعويض خسارته فى نواحى أخرى وهكذا يؤدى هذا الأمر إلى الاستغلال والاستمرار فى التغالى دون نظر إلى مصالح الآخرين .

وهذا يتنافى مع دعوة الحق سبحانه الناس إلى أن يرحم بعضهم بعضا ، وأن يتعاونوا على البر والتقوى ولا يتعاونوا على الاثم والعدوان ـ بل ذلك يخالف

الشرط الذى شرطه المولى سبحانه لصحة البيع وهو التراضى بين الطرفين حين يقول سبحانه :

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ومن يفعل ذلك عدوانا وظلماً فسوف نصليه ناراً) (١) .

أرأيت يا أخى التاجر قول الله تعالى عن (تراض منكم) ثق أن الزيادة الفاحشة فى الربح لا يرضى بها المشترى إن اشترى مضطراً وهنا يفقد هذا الشرط الذى شرطه ربك ليحل لك البيع . ثم ما رأيك فى قوله سبحانه (ولا تقتلوا أنفسكم) ؟ ألا ترى فى الربح الفاحش قتل للمشترى وقتل لك أيضاً حيث يؤدى بك هذا إلى الهلاك ؟

أيها التاجر الكريم اقنع بالقليل يبارك لك ربك فيه - واعلم أن سعادة المرء ليست فى كثرة ما يجمع من مال وصدق الشاعر حين يقول :

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد

---

[١] سورة النساء آية ٣٠

٥ - الحديث الخامس :

الإسلام وصلة الأرحام

حرص الاسلام على توثيق الصلة الحسنة بين الإخوة والأخوات وباقى ذوى الارحام، وجعل لذوى الارحام حقوقا أمر الله بها وحذر من تركها وحض عليها رسول الله ﷺ فى كثير من أحاديثه وذلك لتصبح الأسرة كأنها متحدة متعاونة متماسكة خاصة وأنه على الأسرة ينبنى المجتمع المتماسك المتعاون .

وحين نقرأ قول الله تبارك وتعالى (وآت ذا القربى حقه(١)) يتضح لنا على الفور أن الأقارب وهم رحم الإنسان أصحاب حقوق وأن لهم علينا واجبات لابد أن تصل إليهم .

وحقوق ذوى الأرحام ليست بمجرد حقوق مالية فرضها المولى لبعضهم ولكنها أكبر من ذلك بكثير والحقوق المالية بعض ما فرض الله لهم - ففى كثير من أى القرآن الكريم نجد المولى سبحانه يتوعد قاطعى أرحامهم باللعن والعذاب ، مما يدل على أن صلة الرحم هى حق من حقوق الناس بعضهم على بعض قال تعالى : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم(٢)) ويقول أيضاً (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض أولئك هم الخاسرون(٣)) وقد قال المفسرون إن الشىء الذى أمر الله به أن يوصل هو صلة الأرحام - وفى آية أخرى (أولئك لهم اللعنة ولهم

---

[١] سورة الإسراء آية ٢٦
[٢] سورة محمد آية ٢٢
[٣] سورة البقرة آية ٢٧

سوء الدار[١]) وفى نفس الوقت أيضاً مدح الذين يعملون ما أمر الله به ووصفهم بأنهم « أولى الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب[٢] » .

بل إن الله تبارك وتعالى قرن بالأمر بتقوى الله الأمر بأن يتقوا الأرحام فلا يقطعوها ولكن يبروها ويصلوها قال تعالى (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً[٣]) أى إتقوا الله واتقوا الأرحام أن تقطعوها .

أما رسول الله ﷺ فقد أمر أيضا فى كثير من أحاديثه بصلة الرحم وحذر من قطع هذه الرحم فقد ورد فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه[٤]) ويقول أيضا فيما يرويه عن رب العزة يقول الله تعالى (أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته) ويقول أيضا :

الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله[٥] .

كذلك روى فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :

(لا يدخل الجنة قاطع رحم[٦]) .

---

[١] سورة الرعد آية ٢٥
[٢] سورة الرعد آية ٢٠ — ٢١
[٣] سورة النساء آية ١
[٤] متفق عليه . راجع دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين جـ ٣ ص١٨٩ دار الكتاب العربى بيروت
[٥] متفق عليه المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٠٥
[٦] صحيح البخارى جـ ٧ ص ٧٢

وهكذا نرى أن الإسلام أراد للأسرة وهي اللبنة الأولى في بناء المجتمع أن تتماسك لأنها إذا تماسكت قويت، ولن يكون هذا التماسك وهذه القوة ما لم يكن هناك صلات حب ورحمة وتعاطف وألفة ومودة بين ذوى القربى — وصلة الاقارب التي دعا إليها الإسلام تكون بزيارتهم والعطف على فقرائهم ومساعدة المحتاجين منهم وإظهار المودة لهم ومواساتهم إن كانوا في حاجة إلى مواساة، وادخال السرور عليهم إن كان في الإمكان فعل شيء من ذلك — ومعاونتهم بالنفس وبالمال — صدقة إن كانوا فقراء — وهدية إن كانوا أغنياء أي أنه يجب أن يعمل كل ما يستطيع من جر مغنم أو دفع مغرم فيعتبرهم كنفسه تماما في جلب الخير واتقاء الشر .

وليس عجيبا أن يرتب الرسول ﷺ على صلة الرحم أمرين يتمناهما كل إنسان بل ويسعى جاهداً من أجل الوصول إليهما — وهما :

بسط الرزق — وطول العمر — فيقول ﷺ فيما يرويه عنه البخاري ومسلم (من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه[1]) .

أما ترتب السعة في الرزق على صلة الرحم فلأنه بالصلة يستجلب محبتهم ومودتهم فيعاونونه على كسب الثروة فتزداد — كذلك فهو يتقي بصلتهم عداوتهم التي إذا شغل بها استنفذت كثيراً من وقته يتعطل فيه عن ابتغاء الرزق — كذلك فهو بهذه الصلة يقرض الله قرضا حسناً فيضاعفه له أضعافا كثيرة .

وهو بهذه الصلة أيضاً دخل في زمرة المتقين والله الصادق يقول عن المتقين : —

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب[2])

---

[١] صحيح البخاري ج٧ ص ٧٢ ، ج ٢ ص ٨

[٢] سورة الطلاق آية ٢ — ٣

ويقول أيضاً : ـ

(ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً[1]) وفى القرآن الكريم آيات كثيرة ترتب السعادة الدنيوية على الأعمال الصالحة مثل قوله سبحانه (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون[2]) .

وأما ترتب الإنساء فى الأثر أى طول العمر على صلة الرحم ، والتى تحدث عنها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فإنه يحتمل أن يقصد بالأثر فى الحديث الذكرى الطيبة بعد وفاة واصل الرحم فالإنساء فيها معناه التأخير والإطالة . فألسنة الناس ثناء عليه ودعاء له لقيامه بواجب القرابة وربما استمرت هذه الذكرى أمداً طويلا ، فنفسه الرحيمة كأنها خالدة فى عالم الأحياء . قال بهذا بعض العلماء لأنهم رأوا أن تفسير الأثر ببقية العمر وكون الأجل يمتد بصلة الرحم يتعارض مع قوله تعالى (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها[3]) وإن كان فى الإمكان الرد على هؤلاء بأن الأجل وإن كان محدداً إلا أنه يمكن أن يكون هذا التحديد بالنسبة إلى كل سبب من أسبابه . فإذا فرضنا أن الله تعالى حدد للشخص سبعين عاما إن وصل رحمه وخمسين إن قطعها فإذا وصلها زاده الله فى عمره الذى حدده له إذا لم يصل . فالأجل لا يتأخر بالنسبة إلى سببه الخاص ويتأخر بالنسبة إلى سبب آخر ، ومع ذلك ففى الامكان والله أعلم تفسير هذا الأجل بالبركة فى العمر — حيث يهبه الله قوة الجسم ورجاحة العقل ومضاء فى العزيمة وسعادة ورضى وقناعة وهناء وراحة بال لما يعمل فتكون حياته حافلة بالأعمال الطيبة — فهى فى هذه الحالة حياة طويلة وإن كانت فى الحساب قصيرة وذلك لأن المقياس الحقيقى للحياة المباركة ليس الشهور والأعوام ، ولكنه

---

[1] سورة الطلاق آية ٤
[2] سورة الاعراف آية ٩٦
[3] سورة المنافقون آية ١٠

جلائل الأعمال وكثرة الآثار فرب شخص عمّر طويلا وكأن لم يكن ، ورب آخر عاش قليلا وكأنه لبث فى الدنيا قروناً لكثرة ما عمل وعظم ما خلف .

وقد رُتبت البركة فى العمر على صلة الرحم ، لأن المرء إذا وصل أقرباءه أجلوه واحترموه . فامتلأت نفسه سروراً ، وشعر بغبطة وسعادة وراحة بال من أجل صنيعه الذى صنع ، والسرور منشط – كما أن الحزن مثبط ، والشعور بالعظمة على أعمال مجيدة داع للإكثار منها وبذل الجهد فى سبيلها .

وبعد فمن منا بغير أقارب أو أهل ، ومن من الناس ليس فى أهله فقير أو مسكين أو مقطوع الولد ، أو الزوج ، أو فاقد الصحة أو المال .

فبروهم وصلوهم ولا تقطعوا أرحامكم فتكونوا من الخاسرين كما قال ربكم .

وصدق رسول الله أيضا حين يقول : من سره أن يُمد فى عمره ويوسع له فى رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه .

٦ - الحديث السادس :

ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

شريعه الله تتمثل فيها قدرة الخالق وكماله وعظمته وإحاطته بما كان وما يكون ، جاءت كاملة لا نقص فيها جامعة تحكم كل حالة مانعة لا تخرج عن حكمها حالة : شاملة لجمع الأفراد والجماعات والأمم ، وقد صيغت هذه الشريعة بحيث لا يؤثر عليها مرور الزمن ، فهى شريعة كل وقت وشريعة كل عصر — شريعة الزمن كله حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولقد ظلت قواعد الشريعة الإسلامية ونصوصها أسمى من فكر الجماعات وأكفل بتنظيم وسد حاجاتهم وأقرب إلى طبائعهم وأحفظ لأمنهم وطمأنينتهم .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو ما يسمى فى مصطلح القانونيين ، الدفاع الشرعى العام ، أصل من أصول هذه الشريعة الغراء ، تحدث فيه القرآن كثيراً وقرر قواعده وأصوله ورسم للناس طريقه الصحيح ، وأسلوبه الأمثل ليؤدى ثماره المرجوة .

ولقد أوجب الله تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على المسلمين جميعاً ، وفرضه عليهم ، ويرى بعض الفقهاء أنه من فروض الكفايات كالجهاد ، ويستدلون على ذلك بقول المولى سبحانه :

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[1] .

فهو فرض عندهم ، لأن الله أوجبه بقوله (ولتكن) وهو فرض كفاية ،

---

[١] سورة آل عمران آية ١٠٤

بمعنى أنه إذا قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، ويأخذون ذلك من التعبير القرآني حيث يقول :

(ولتكن منكم) فلفظ من : هنا من وجهة نظرهم للتبعيض أى البعض دون الكل إلا أن جمهرة الفقهاء قالوا إنه فرض عين أى أنه واجب محتم ، وعلى كل مسلم أن يؤديه بنفسه على قدر استطاعته حتى ولو كان هناك من هو أقدر منه على تأديته ، أو من هو على استعداد لتأديته ، أو من هو متفرغ لتأديته، ويشبهونه بفريضة الحج ويقولون إن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر آكد من فريضة الحج .

لأنه لايشترط فيها الاستطاعة حيث هى مستطاعة دائماً ، وممكنة لجميع الافراد ، على خلاف فريضة الحج التى فرضت على المستطيعين فقط ، ولفظ (من) فى الآية السابقة للبيان لا للتبعيض ، ويرى أصحاب هذا الرأى أن عامة الناس يمكنهم الأمر بالمعروف فيما هو ظاهر كأداء الصلاة والصوم ، والنهى عن المنكر فيما هو ظاهر وفيما هو خفى .

ويرى أصحاب هذا الرأى أن هذا الواجب جعل فرض عين ، حفاظاً للأمة وحرزاً لها من الفساد والتحلل ، وقد وصف الله تبارك وتعالى به محمداً ﷺ فى الكتب السماوية السابقة (التوراة والإنجيل) حيث قال فى وصف المتقين (الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم)[1] .

بل هو يصف أمة محمد ﷺ بأنها خير أمة أخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول :

---

[١] سورة الأعراف آية : ١٥٧

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[١] ويتحدث المولى سبحانه وتعالى عن المؤمنين وكيف أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله فيقول تعالى :

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم)[٢] .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد كثيراً من الآيات القرآنية تصف المؤمنين بأنهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر كما فى سورة التوبة — (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين)[٣] .

وقد يقدم القرآن صفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للمؤمنين قبل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كما فى آية — التوبة التى ذكرناها منذ قليل :

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله) فالمعروف هو كل قول أو فعل ينبغى قوله أو فعله طبقاً لنصوص شريعة الإسلام ومبادئها العامة وروحها الخالصة، والمنكر هو كل معصية نهت عنها شريعة الإسلام .

والأمر بالمعروف إذن هو الترغيب فى ترك ماينبغى تركه أو تغيير ماينبغى تركه طبقاً للشريعة ، والمفروض فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أنه مؤمن بما يقوله ومايدعو إليه هو الخير الذى فرض الله الصلاة والزكاة وبقية

---

[١] سورة آل عمران آية ١١٠

[٢] سورة التوبة آية ١٧١

[٣] سورة التوبة آية ١١٢

الفرائض الأخرى من أجل الوصول إليه ، من هنا كانت الحكمة فى تقديم القرآن الكريم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

(ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون) .

لقد تعهد الله تبارك وتعالى بنصر من ينصره ثم بين من هم هؤلاء الذين ينصرونه فيستحقون نصره فقال سبحانه فى سورة الحج :

ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور)[1] .

ولعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم بسبب عصيانهم ولأنهم أيضاً كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، قال تعالى : (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)[2] .

وقد تأكدت هذه المعانى جميعها بأحاديث الرسول ﷺ وأمر أيضاً كما أمر القرآن بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتوعد المخالفين والمتكاسلين فقال ﷺ :

لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم »[3] .

وقال أيضاً :

(لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا يارسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه - قال

---

[١] سورة الحج آية : ٤٠ ، ٤١

[٢] سورة المائدة آية ٧٨ ، ٧٩

[٣] رواه الترمذى ، وقال حديث حسن . راجع دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين جـ ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

يرى لله عليه مقالا ثم لايقول فيه فيقول الله عز وجل يوم القيامة مامنعك أن تقول فى كذا وكذا فيقول خشيت الناس — فيقول له إياى أحق أن تخشى)(١)
وقد روى عن أبى ذر أنه قال :

أوصانى خليلى بخصال من الخير — أوصانى ألا أخاف فى الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق ولو كان مراً)(٢) .

وإذا كان بعض الفقهاء قد رأى أن واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لايقع إلا على عاتق القادرين على أدائه وهم علماء الأمة دون غيرهم ورأوا لهذا أنه فرض كفاية فإن جمهرة الفقهاء على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على كل أفراد الأمة لقوله تعالى :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)(٣)
ويردون على من يرون أنه فرض كفاية بأن الواجب لايسقط بتحميله البعض دون البعض ، ويقولون إن وضع واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على عاتق الجاهل لن يؤدى إلى الاضرار التى يتوقعونها لأن الجاهل بطبيعة الحال لايأمر ولاينهى إلا فيما هو ظاهر لاخلاف عليه كأداء الصلاة والنهى عن السرقة والزنا .

وإذا كان بعض الحكام قد خصصوا رجالا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإن هذا لايمنع أبداً أى فرد من أفراد الأمة من القيام بهذا الواجب ، فالنصوص الواردة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر توجبه على كل فرد ، وتجعل كل من رأى منكراً فسكت عليه عاصياً ، وتضع على عاتقه أن ينهى عنه أينما رآه

---

[١] رواه ابن ماجه ، ورجاله ثقات .
[٢] رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر الغفارى
[٣] سورة آل عمران آية ١١٠

وكيفما رآه وليس من الضرورى أن يكون الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ممن فوضهم الإمام أو الحاكم وعينهم لهذا العمل ، فالإمام نفسه والحاكم ممن يوجه إليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والواجب لايحتاج إلى إذن حتى يؤدى ، ولقد كان بعض الأفراد يتصدون للولاة فيأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ويتصدون لتغيير المنكر بأيديهم فلا يستطيع الخلفاء والولاة أن يقولوا لمن فعل شيئاً من ذلك إنك مخطىء وصدق رسول الله ﷺ حين يقول (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[١] .

ولاشك أن الواجب فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يفعل مايأمر به الناس وينتهى عما ينهاهم عنه ، ليسود فى الأمة هذا الواجب وليحس الناس جميعاً بمسئوليتهم تجاه هذا الأمر ، فلا يخافون فى الله لومة لائم، ولايخشون فى الحق سلطان حاكم، وبذلك تسعد الأمة وتستحق بذلك نصر الله فى كل شىء ، وإلا فقد حق عليهم قول رسول الله ﷺ « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم ياظالم فقد تودع منهم »[٢] ، وقوله ﷺ « إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يده أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه »[٣] .

نسأل الله أن يهدينا إلى سواء السبيل وأن يوفقنا لما فيه خير ديننا ودنيانا .

---

[١] رواه مسلم ، عن أبى سعيد الخدرى : دليل الفالحين جـ ٢ ص ٢٦٥ — ٢٦٨ .

[٢] رواه الحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

[٣] رواه أبوداود والترمذى والنسائى بأسانيد صحيحة ، راجع دليل الفالحين جـ ٢ ص ٢٩٥ .

ثانيا :

نماذج من أحاديث السهرة

وتشتمل على الأحاديث التالية : -

١ - تأسيس الدولة جزء من رسالة الإسلام .

٢ - الإسلام دين ودنيا .

٣ - نظام الحسبة كما يقررها الإسلام .

٤ - حقيقة الأديان السماوية . وكيف ندعو أهل الكتاب ؟

٥ - خطر بعض المسلمين على الإسلام .

٦ - كيف نقاوم الفكر المضاد للاسلام ؟

لقد اخترت ستة موضوعات أيضاً لأحاديث السهرة ، وهى الأحاديث التى تلقى فى المساء ، وتكون غالباً ما بين التاسعة والحادية عشرة مساءاً .

والمعروف عن هذه الأحاديث أنها تخاطب المثقفين غالباً ، وهى أحاديث ثقافية يغلب عليها الطابع الثقافى العلمى ، وتختلف هذه الأحاديث من متحدث لآخر . حيث يلاحظ أن معظم المتحدثين فى أحاديث السهرة من أصحاب التخصصات الأدبية ، ولذا يغلب على هذه الأحاديث الطابع الأدبى البلاغى ، وإن كان من المفروض أن تتنوع هذه الأحاديث ، وليس من الضرورى كما هو واقع الآن أن تكون أدبية صرفة .

ولا شك أن تخصص المتحدث له أثر كبير فى نوعية الحديث ، وأسلوب تقديمه . حيث تجد المتخصص فى السياسة . وقد غلب على حديثه الطابع السياسى . وأسلوب أستاذ الاجتماع وقد غلب على حديثه الطابع الاجتماعى ، وهكذا . .

ولما كان الإسلام هو (النظام الإلهى الشامل الكامل لكل نواحى الحياة) . وهو الحياة بكل دقائقها وتفاصيلها ، لذا فقد وجب على المتحدث أن يراعى ما أمكن اشتمال حديثه على الأفكار التى تخدم الإسلام وثقافة الإسلام .

وهذه الأحاديث الستة التى أقدمها هنا كنماذج لأحاديث السهرة . إخترتها من بين أحاديث كثيرة سجلت بعضها لإذاعة الرياض بالمملكة العربية السعودية ، وبعضها الآخر لإذاعة أبو ظبى بدولة الإمارات العربية ، وسوف تلاحظون أنها أحاديث متنوعة لا تأخذ خطاً واحداً ، ولا تشتمل على فكرة واحدة سوى محاولة خدمة الإسلام من خلال هذه الأحاديث ، وهى أحاديث ثقافية ، وإن اشتمل بعضها على بعض الآيات والأحاديث للتدليل على صحة ما نقول . وإن كان بعض هذه الأحاديث لا يشتمل على الآيات القرآنية ولا الأحاديث

النبوية ، إلا أنه يأتى بالبراهين والأدلة العقلية والنقلية حتى يكون الحديث نتيجة عند المستمع ، ويصل المتحدث منه إلى الغرض الذى يبغيه .

وقد راعيت أيضاً وضع المراجع لهذه الأحاديث فى هوامش الصفحات تتميماً للفائدة وتعويداً لإخواننا الخطباء والأئمة على الإعتماد على المراجع العلمية ، والإتيان بالأدلة العقلية والنقلية التى تؤيد كلامهم .

• • •

الحديث الأول :

تأسيس الدولة جزء من رسالة الإسلام

يخطىء كثير من الناس حين يتصورون أن الدولة الإسلامية قامت عرضا وأن الرسول ﷺ لم يكن يقصد أن يؤسس دولة لأن مهمته هى تبليغ الرسالة فقط ويستدلون على ذلك بمثل قول الله تعالى (ما على الرسول إلا البلاغ) والحقيقة أن هذا الفهم فيه تجنٍ على الرسول وعلى الإسلام، لأن حقيقة الأمر أن تأسيس الدولة الإسلامية كان غرضاً وليس عرضاً . وكان ضرورة من ضرورات رسالته ، بل كان هذا التأسيس جزءاً من رسالته ﷺ وقد جمع الرسول بين السلطتين الروحية والزمنية ، فأقام بهاتين السلطتين خير حكومة من حكومات الأرض فى تاريخ البشرية ، كما أنه أسس للإنسانية أفضل المناهج فى الحكم حتى فاضت القلوب باليقين الراسخ والطمأنينة الشاملة ، أما ضرورة هذه الدولة : فكما هو معروف لابد لكل دعوة من الدعوات من قوة تحميها سواء كانت هذه الدعوة دعوة أرضية أو دعوة سماوية ، فكراً أرضيا أو تشريعاً سماوياً لذا كان لابد من إيجاد هذه القوة التى تتمثل فى الدولة بالنسبة للدعوات السماوية وذلك لحماية هذه الدعوة .

وواقع الحال الآن يوضح لنا هذا الأمر توضيحاً كبيرا ، فما انتشرت دعوة فى عالمنا المعاصر ولا غير المعاصر إلا وكان معها قوة مادية تقف وراءها تساعدها وتحميها .

ولقد شاع فى هذا العصر على ألسنة كثير من المسلمين دعوى انفصالية الدين عن الدولة وأن لا سياسة فى الدين ولا دين مع السياسة : وروج لهذا الفكر كتاب تتلمذوا على يد الاستعمار وأعوانه ، فروجوا لدعوى انفصالية الدين عن الدولة ، ونسوا أن العكس هو الصحيح . فإنه لا دولة بلا دين ، ولا دين بلا دولة وأن التفريق فى الاسلام بين ما يمكن أن يسمى ديناً فقط أو

سياسة فقط عملية صعبة وغير ممكنة على الاطلاق، لأن كل ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والخلق والتربية دين ، ومع ذلك يمكن أن تطلق عليه إسم (سياسة الإسلام فى إصلاح العقيدة والعبادة . **وسياسة الاسلام فى التربية والخلق .** وكذلك كل ما يتعلق بالمعاملات العامة دين ، ويمكن أن نطلق عليه أيضاً إسم **سياسة الاسلام الاقتصادية والاجتماعية** ــ وما يتعلق بالحكم وتدبير مصالح المسلمين دين أيضا ، ومع ذلك يمكن أن نسميه نظام الإسلام السياسى فى الحكم وإدارة الدولة . وهكذا نجد أن الدين قد ارتبط بالدولة ارتباط القاعدة بالبناء لأن الدين هو أساس الدول وموجهها ، كما أن سياسة الدولة نفسها مبنية على أساس تنفيذ الدين ، خاصة إذا عرفنا أن الغاية من إقامة حكومات الدول هو تحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم ، ومقصودها إقامة العدل بينهم ومنع عدوان بعضهم على بعض ، وهذا هو غاية الدين الإسلامى أيضا ومقصوده الذى يظهر لنا من أحكامه وحكمه وآياته .

حياة النبي القصيرة والتى لم تتعد ثلاثة وعشرين عاما بعد بعثته ، قضى منها ثلاث عشرة سنة كاملة فى الدعوة لأساس هذا الدين وقاعدة دولته وهو التوحيد قبل أن يدخل فى تفصيلاته التشريعية الأخرى والتى بدأت بعد الهجرة ، فى عشر سنين أخرى ــ حياة الرسول هذه القصيرة اشتملت على تنظيم كامل لكل أمور الحياة وهو ما يسمى فى هذا العصر (بالتنظيم الإدارى للدولة) بل كان هذا التنظيم الإدارى فى عهد النبى الحاكم ﷺ تنظيما كاملا بكل ما تحمله هذه الكلمه من معان وقد صيغ على أساس أن يكون هــذا التنظيم منهاجا وأساسا وخطة عمل للمسلمين بعد ذلك ، واعتمد الرسول الحاكم على الدستور الدائم لهذه الدولة (القرآن الكريم) باعتباره الأساس والأصل لكل القوانين والتشريعات التى يحتاج إليها الناس فى حياتهم ــ وقد ألزم نفسه ﷺ بهذا القانون والتزم بما فصلته الصحيفة التى كتبها فى المدينة المنورة ، وكانت عبارة عن قوانين وتشريعات اعتمدت على هذا الأصل (القرآن) ولم يختلف ما فيها عما جاء فيه ــ وكانت

إدارة الدولة الصغيرة فى حجمها بالنسبة لدول هذا العصر : كانت هذه الإدارة تقعيداً وتقنيناً لما يجب أن تكون عليه الإدارة بالنسبة لسياسة الحكم — وكانت الشورى الأساس الأول من أسس هذا النظام الإسلامى ، وكان التقسيم الإدارى للدولة وتعيين الولاة واختيار العمال ومحاسبتهم على أعمالهم ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب حتى وإن كان أقل من غيره تديناً لميزة معينة فيه ، أو خصوصية يرجح بها على غيره فى إدارة عمل من الأعمال ، واستعمال الكتاب والإحصاء وغير ذلك من النظام الإدارية ، دليلا على أن الرسول ﷺ جاء ليؤسس للمسلمين دولة ، وليقيم لهم نظاما كاملا متكاملا يكون هو السبيل إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

لقد كان للنبى ﷺ كتبة أى (موظفون عموميون) يقوم كل فى ناحية اختصاصه بكتابة ما كلف به ، فقد تولى مثلا على وعثمان رضى الله عنهما كتابة الوحى ، كما كان يقوم بذلك أيضاً أثناء غيابهما أبى بن كعب وزيد بن ثابت(١) .

أما الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت فقد كانا يقومان بكتابة أموال الصدقات ، وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يقومان بكتابة المداينات والمعاملات بين الناس — وكان حذيفة بن اليمان يعد تقديرات الدخل من النخيل ، وكان لدى عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عتبة سجلات عن القبائل ومياهها ، وكذلك عن الأنصار ذكورا وإناثا(٢) كما استعمل النبى ﷺ زيد ابن ثابت لإعداد الكتب إلى الملوك والزعماء ، وكان زيد ترجمان الرسول للفارسية والرومية والقبطية والحبشية واليهودية(٣) — وكان الرسول ينتدب

---

[١] راجع الإدارة العربية ص ٤٦

[٢] المرجع السابق ص ٤٧

[٣] الإدارة الإسلامية / محمد كرد على ص ١٤

عبد الله بن الأرقم فى بعض الأحيان لإعداد الكتب إلى الملوك والزعماء بدلا من زيد - كما أن شرحبيل بن حسنة كان يكتب التوقيعات إلى الملوك ، وكان كاتب العهود إذا عاهد والصلح إذا صالح (على بن أبى طالب)[١] .

أما دخل الدولة من الغنائم فكان الرسول ﷺ يكلف به معيقيب بن أبى فاطمة ، وكان يطلق على حنظلة بن الربيع إسم كاتب النبى ، ويقول عنه المؤرخون أنه كان خليفة كل كاتب من كتاب النبى إذا غاب عن عمله فغلب عليه إسم الكاتب وكان يضع عنده خاتمه[٢] .

ألستم معى أيها الاخوة المستمعون ، فى أن هؤلاء الذين كلفوا بهذه الأعمال كانوا يقومون بنفس ما يقوم به الآن وزراء الخزانة والخارجية والزراعة والمياه وغيرها من الوزارات حتى وزارة الدولة - وإن لم يتسموا بمسميات هذا العصر ؟ وهل هناك شك بعد ذلك فى أن الإسلام دين ودولة ؟

---

[١] المرجع السابق ص ١٣
[٢] الادارة العربية ص ٤٨

الحديث الثانى :

الإسلام دين ودنيا

لقد ضل المسلمون عندما حسبوا أن الإسلام مجرد دين تعبدى فحسب ، فى حين أنه أسلوب كامل للحياة ، وعباداتُه ذاتُها تتصل بتنظيم هذا الاسلوب وتؤثر فى اتجاهاته تأثيراً مباشراً ، وعبادته تأخذ بيد المسلم وتحثه على السير قدماً فى هذا الطريق المسنون ، وتهديه كلما ضل عنه أو انحرفت به الشعاب .

والغريب أن كثيراً من مثقفينا يتصورون بل هم يدعون أن الدين هو سبب التخلف الذى تعانى منه المجتمعات الإسلامية ، ولقد قال لى مرة واحد ممن يقال عنهم أنه من المثقفين الكبار : بعد سماعه لخطبة جمعة تعرضت فيها لنواحى اجتماعية واقتصادية ، قال ما معناه ، لماذا تتدخلون فى غير شئون الدين ، ماذا يفهم رجُل الدين فى أمور الحكم والاقتصاد والسياسة ؟ لماذا لا يترك كل مجال لأربابه ؟ .

ثم واصل كلامه وقال : إننا لم نتأخر إلا لأن رجال الدين يدسون أنوفهم فى كل شىء ويحاولون تنصيب أنفسهم وصاة على الشعب وعلى الدولة . وقال :

ومن الأسف أن الجماهير تستجيب لأفكارهم الرجعية وتؤمن بها ، وهذا من أسباب تأخرنا عن الغرب الذى ثار على الكنيسة وعزلها بعد الثورة الفرنسية عن المجتمع ، وعن التأثير فى مجالاته السياسية والاقتصادية وغيرها ، ثم ظل يشرح وجهة نظره فاسترسل يقول :

إن أكبر ما حققته الثورة الفرنسية هى أنها استطاعت أن تحطم أخطبوط الكنيسة ففكت قيود وأغلال الشعوب الأوربية الفكرية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية ، فانطلقت وحققت هذه النهضة وهذه الرفاهية التى لم تعرفها

البشرية من قبلى ، وظل العالم الإسلامى حبيس أفكاره الرجعية فظل على تأخره واستطاع الغرب أن يسيطر عليه ويحتل بلاده ويستنزف ثرواته ، وكان هذا تصورَ المثقف الكبير ، وتصورَ الكثيرين وللأسف من أبناء المسلمين ، ونسى هذا وأمثالهُ أو جهلوا ، أن تخلفنا عن الغرب ليس بسبب تعاليم الإسلام نفسها ، وإنما بسبب عدم فهمه للإسلام - هو وغيره ممن يدينون للغرب لما بثه فيهم الاستعمار والاستشراق من دعوى قصور الإسلام والدين بصفة عامة عن الوفاء باحتياجات المجتمعات .

نسوا أو جهلوا أن هذا الدين نفسه هو الذى أيقظ أمة من ثباتها ، وكون شعباً كان هملا فى التاريخ لا وزن له فى عداد الشعوب ، وأصبح بتعاليم الإسلام وتربيته وأوامره ونواهيه وتوجيهاته الإصلاحية فى جميع نواحى الحياة أصبحوا بذلك الدين وما احتواه من نظم وتعاليم ، ورواد حضارة شامخة على أسس متينة صُلبة من الحق والخير لهم وللانسانية كلها ، على غير ما عصبية ولا تفرقة أو أنانية ، فنشروا العدل والخير للدنيا كلها ، وكانت عصورهم التى أقامها الرسول والخلفاء الراشدون من بعده على هذه الأسس الإسلامية هى أزهى عصور البشرية على الإطلاق ، علماً وحضارة ورقياً مادياً ورفاهة عيش فى إطار الحق السابغ والخير العميم وبسياسة نوازع الأخوة والتعاون على البر والتقوى والمثل الانسانية الرفيعة ، وذلك لأن طبيعة التعاليم الإسلامية تقوم على إصلاح الفرد وتربيته للدين والدنيا معاً — بل يَعتبر الاسلامُ العملَ فى الدنيا بالمعروف عبادة من أهم العبادات ، فلا يعرف الإسلامُ الفصلَ بين العبادة والعمل ،

وما نجح الخلفاء الراشدون إلا بتمسكهم تمسكاً متيناً بتعاليم الإسلام الكلية فى جميع النواحى الخلقية والاقتصادية والحكومية . فلم يعزلوا إحداها عن عن الأخرى ، ولم يترددوا فى أن يُفرغوا من التعاليم الحكومية ما يلائم

احتياجات عصرهم ، ومستوى البيئة التى كانت يعيش فيها المجتمع الإسلامى يومئذ .

وما تخلفنا إلا بسبب عدم ترجمتنا لهـــذه الأصول التى سادت عصر الخلافة الراشدة ، وظهرت فى صيغ بارزة وأوضاع ماثلة للعيان ، ومعالم قائمة ، ارتبطت بهذه الأصول ارتباطاً وثيقاً كان يجب أن تستمر وتدوم ، وربما لطول ترك هذه الاصول وبُعد عهدها وعدم ممارسة الأجيال المتعاقبة للدولة الإسلامية الاولى لعملية استنباط القواعد التنفيذية والإجراءات العملية لهـذه الأصول العامة فى نواحى السياسة ، وعدم معرفة الطريقة الصحيحة لهذه الممارسة لمحاولة التوفيق بين هـذه الأصول واحتياجات كل عصر ، ربمـا كان ذلك كله مع محاولة الاستعمار والاستشراق تشويه المعنى الصحيح ، هو السبب فى هذا التصور الخاطىء للاسلام وتعاليم الإسلام ، وربمـا كان ذلك سبباً أيضاً فى محاولة بث التفسير لهـــذه الأصول من المستشرقين والاستعمار ، وعملائهم من المسلمين ، أو من تلامذتهم الذين تربوا فى معاهد الغرب وغرد بهم ، خصوصاً وهم يريدون أن يجعلوا الدولة الإسلامية مطية ذلولا لهم ، ويبغون من وراء ترسيخ هـذه المعانى فى نفوس المسلمين أن يمكنوا لبغى الطغاة وسحق الحريات .

لقـد استطاع الاستعمار خـــلال فترة استعماره للبلاد الإسلامية إشاعة روح الانهزام الفكرى وإضاعة روح الاعتزاز بالشخصية الإسلامية عند جماعة من المسلمين، فخرجوهم على أيديهم وفق خططهم ومناهجهم ، وسلموهم زمام القيادة الثقافية والاجتماعية ، فأصبحوا للأسف أول الدعاة إلى هذه التبعية الثقافية ، وعملوا على نشرها والترويج لها ، وقد حرص الاستعمار على التشكيك فى مبادىء الإسلام وإثارة الشبهات حول كثير من أحكامه ، وحجب الثقافة الإسلامية عن أبناء المسلمين ، ليظلوا جاهلين بالحقائق الناصعة الكبرى التى جاءت بها رسالة الإسلام حتى يتمكنوا من غرس مثلهم الغربية المادية وفكرهم المسموم .

وقد انفرد المستعمرون ومن والاهم من المسلمين المتغربين ، بالتخطيط

التربوى ورسم السياسة التعليمية فى كثير من البلاد الإسلامية ، وذلك ليصبغوا الجيل المسلم بتفكيره وأسلوب حياته على أساس القوالب الغربية المحضة .

والعجيب أن فريقاً كبيراً من المسلمين ، تجاوب مع أبعاد هذا الغزو الفكرى تجاوبا إيجابياً ينطلق من نظرة الضعيف إلى القوى ، والمغلوب إلى الغالب ، والمنهزم إلى المنتصر .

ويمكن تلخيص أهم الوسائل التى اتبعها الاستعمار لإبعاد المسلمين عن دينهم فيما يلى[١] :

أولا : إشاعة روح الانهزام الفكرى ، وعدم الاعتزاز بالشخصية الإسلامية ، والتشكيك فى مبادىء الاسلام ، وإيراد الشبهات حول كثير من أحكامه ، وحجب الثقافة الاسلامية عن أبناء المسلمين ، ومحاولة نشر الالحاد والانهيار الخلقى فى المجتمعات الاسلامية .

ثانيا : التبشير بالمسيحية فى العالم الاسلامى عن طريق افتتاح مدارس خاصة بهم ليس للدول الاسلامية دخل فى مناهجها أو نظام الدراسة بها ، ونشر الدعوة إلى تحرير المرأة وذلك بقصد إخراجها عن عقيدتها وخلقها وكرامتها ، مع نشر كتب الطعن على الاسلام تحت اسم حرية البحث العلمى ، هذه الكتب التى تشكك فى القرآن والسنة وقيمة الفقه الاسلامى الذاتية وكذا التشكيك فى قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمى .

وقد ركز الاستعمار على إقناع المسلمين بأن الاسلام مجرد عبادة وقربى وفناء فى ذات الله وأنه علاقة خاصة بين العبد وربه ولا علاقة له بالجانب المادى من هذه

---

[١] راجع فى هذا الموضوع : التبشير والاستعمار للدكتور عمر فروخ — ومصطفى خالدى — ولمحات من الثقافة الاسلامية لعمر عودة الخطيب — والاستشراق والتبشير محمد عزت الطهطاوى .

الحياة . والاستعمار وإن كان قد استطاع أن يغير بعض المفاهيم تجاه حقيقة الإسلام إلا أنه لم يستطع الوصول إلى ماينشده من القضاء على الاسلام ، برغم إمكاناته الهائلة بسبب وحدة العقيدة ، ووحدة القيم الخلقية ، وطبيعة التشريع والأحوال الاجتماعية ، أى إن العوامل الفكرية والثقافية والسياسية للسلمين وقفت سداً منيعاً فى وجه التغيير المأمول ، وإن كان كثيرون من المسلمين قد تأثروا كثيراً بفكر الغرب وثقافته وتجاوبوا مع أبعاد هذا الغزو ، إلا أنه ظل فى الجانب المقابل جماعة من المسلمين المخلصين الفاهمين لهذا الاسلام يعرفون به ويدافعون عنه .

لأن هذا المفهوم المناقض لواقع النظرة الاسلامية والتعاليم الاسلامية ، قد أصبح راسخاً فى نفوس الكثيرين من أبناء المسلمين ، لذا فإن العلاج فى حاجة إلى جهود ضخم لتغيير هذه المفاهيم الخاطئة ، ويقع عبء ذلك على المسئولين من كبار علماء الدين أولا ، وعلى العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية والتربية الدينية ثانيا . كخطوة أولى للتمهيد لتدريب الأمة على تفهم هذا الوضع ، وتهيئتهم للناشئة منذ طفولتهم حتى يسود فيما بعد فى المجتمع الاسلامى كله شعور بواجب التمسك بهذه التعاليم ، وسيدفعهم هذا التدريب المستمر والدعوة دائما إليه ، إلى فهمه والايمان به ، والإحساس بفضله .

والله الموفق والمعين

الحديث الثالث :

نظـــام الحسبة

من ميزات الاسلام أنه جاء للناس بما يصلح دينهم ودنياهم وظهرت فيه نظم جديدة لم تكن فى غيره انطلاقا من القاعدة الاسلامية الكبرى التى تقرر أن التشريع ينبثق من حاجات المجتمع ويدور مع مصالح الناس .

وقد ظهر فى الإسلام نظام لم يعرف من قبل ، هو نظام الحسبة ، هذا النظام الذى تميز به على سائر الأنظمة العالمية فى دقته وكفاءته ونبل أغراضه وفى مقاصده وشموله وإحاطته — فهو يسير مع الناس حيثما ساروا متكفلا بحمايتهم وراحتهم فى كافة الميادين العمرانية والتجارية والخلقية والاجتماعية — وبهــذا النظام الاسلامى المبتكر تحرر المسلمون منذ أربعة عشر قرناً من الروتين البطىء الذى تشكو منه الديمقراطيات العالمية ، ويعتبره رجال الفكر والإصلاح النقطة السوداء فى جبينها المشرق .

وإذا كانت بعض المدنيات الحديثة والدول المتقدمة قد خصصت وظيفة المدعى العام أو المدعى الاشتراكى أو غير ذلك من أسماء عرفت أخيراً قالوا عنها إنها خصصت لمنع الناس من الانحراف وحمايتهم من عدوان الآخرين ، فإن هذا النظام وفى كل بلاد الدنيا بلا استثناء لا يمكن أن يقارن إطلاقا بما عرف فى الاسلام بنظام الحسبة ، هــذا النظام الذى ظهر فى عهد عمر بن الخطاب كنظام ثابت ، وهو العصر الذى اتسعت فيه حدود الدولة الاسلامية وترامت أطرافها وتشابكت مصالحها ، والذى وضع أساسه رسول الله ﷺ إذ كان يقوم بنفسه بالتجول فى الأسواق ومنع الغش والتدليس فى البيع والشراء ومعونة الناس على استيفاء حقوقهم وإلزامهم بما عليهم من واجبات — هذا النظام الذى خصص لهذه الوظيفة موظفاً عمومياً ليس كالمدعى العام الاشتراكى المقيد بنظم ولوائح ،

والمحدد له موضوعات التقاضى وصدور الاحكام ، وإنما أعطى الإسلام والى الحسبة من السلطات ما يمكنه من القيام بعمله على الوجه الأكمل ، فقد منح سلطات واسعة ليكون سريع الحركة حسن التنفيذ لايعوقه روتين بليد ولايغل يده إجراء بطىء ، فهو أشبه بقوة الإطفاء السريعة يهرع إلى كل مكان وجد فيه الشر ليزيله ويقضى عليه(١) .

ومع أن الاسلام فيه نظام القضاء الذى أقيم لايصال الحقوق إلى أصحابها إلا أن المحتسب يختلف عن القاضى فى كثير من الامور ، وعند المحتسب من السلطات ماليس عند القاضى مع اشتراكه مع القاضى فى النظر فى الموضوعات المتعلقة بمنكر ظاهر يمكنه إزالته ، أو معروف يمكن له إقامته كبخس أو تطفيف فى كيل أو وزن ومنع غش أو تدليس فى مبيع أو ثمن ، أو مايتعلق بمطل وتأخير لدين مستحق مع إمكان القدرة على الوفاء(٢) .

وقد جاز للمحتسب أن ينظر فى مثل هذه الدعاوى لأنها تتعلق بمنكر ظاهر هو منصوب لازالته . وتختص بمعروف بين هو مندوب لإقامته ، إلا أن الفرق بينه وبين القاضى أنه يستطيع أن يلزم المدعى عليه بأداء هذه الحقوق فى الحال دون الرجوع للإجراءات الشكلية التى يعتمد عليها القاضى — بل إن المحتسب يستطيع أن يعمل من غير أن تقدم له دعوى أو يرتفع إليه خصم .

فموضوع الحسبة الذى يقوم المحتسب عليه هو إلزام الحقوق والمعونة على استيفائها ، ولذا عرف العلماء هذا النظام بأنه « أمر بمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن منكر إذا ظهر فعله »(٣) ولهذا نجد أن عمل المحتسب لايقف عند حصر .

---

[١] راجع الاحكام السلطانية ص ٢٤١

[٢] المرجع السابق

[٣] المرجع السابق ص ١٤٠

فللمحتسب مثلا أن يفاجىء التجار المحتكرين وينقب عن الأقوات المحبوسة والأرزاق المخزونة — ويرقب حركات المرور ونظام الطرقات العامة ونظافتها وسلامتها ، والآداب العامة يحميها من المجون والتبذل ، ويشرف أيضاً على المساجد، مايلقى فيهامن دروس وعظات ، ومايقام فيها من صلوات ، ودور التعليم ومايجب لها من احترام . ومقدسات الدين لاتستباح مكانتها كتعاط الخمر أو مزاولة القمار، أو أكل أموال الناس بالربا، وله أن يمنع الناس من الإفطار جهارا فى رمضان . وله أن يتأكد من التزام الأرامل والنساء المطلقات للعدة ، وله أيضاً أن يمنع الرجال من مصاحبة النساء جهاراً ، وأن يوقع القصاص بكل شخص يوجد فى حالة سكر ، ومن أهم أعمال المحتسب تبصير الناس بأمور دينهم والجهر بكلمة الحق ومقاومة الظلم والظالمين ، والإرشاد إلى سبيل الخير والإعانة عليه(١) .

والمحتسب له أن يأمر بالمعروف عموما ، سواء كان ذلك متعلقا بحقوق الله أو متعلقاً بحقوق الآدميين أو مشتركا بينهما .

فله أن يعترض على من اعتاد ترك الجمعة من آحاد الناس ، وله أن يؤدب من تخالف فى العدة من النساء ، وله أن ينكر تعرض رجل من الناس لمسألة الناس فى طلب الصدقة إذا علم أنه غنى بمال أو عمل ، بل له أن يؤدبه فى ذلك(٢) .

ونستطيع أن نقول إن المحتسب هو الحارس للدين ، المانع للخطر الذى يتهدده ، الآخذ بسبل الإصلاح ، الجاهر بكلمة الحق ومقاومة الظلم والظالمين ، الآخذ على يد الفساق والعصاة والمفسدين ، الواقف فى طريق انتشار البدع والخرافات والعادات الجاهلية ، خصوصاً ماينتشر منها دائماً فى الأوساط العامية ، فهو يجمع بين مهمات النهاية العمومية ووزارات الشئون والصحة والأوقاف

---

[١] الإدارة العربية ص ٢٤٢ ، ٢٤٣
[٢] الاحكام السلطانية ص ٢٤٤

والتموين والبلدية وبوليس الآداب والمرور ، يجمع مهمات هذه الوزارات فى كل الأمور السريعة الحاسمة التى لاتحتمل إرجاء أو تأخيرا، ولذا كان من شروط والى الحسبة أن يكون حراً عدلا ذا رأى وصرامة وخشونة فى الدين ، وعلم بالمنكرات الظاهرة ، حتى أجاز بعض الفقهاء من أصحاب الشافعى للمحتسب أن يحمل الناس على رأيه واجتهاده فيما ينكره من الأمور التى اختلف الفقهاء فيها .

وبعد:

فإذا كانت المدنيات الحديثة والدول التى يطلقون عليها متقدمة ، تحاول أن تبتكر من النظم الجديدة مايسهل لها التخفيف من إجراءات الروتين ، وكذا إجراءات التقاضى ، فإنهم لن يصلوا إلى ماوصل إليه هذا النظام الاسلامى الفريد الذى يؤكد اشتمال الاسلام على كل نواحى الحياة — وصلاحيته لكل زمان ومكان ، بل إصلاحه لكل زمان ومكان .

وعلى ولى الأمر فى كل بلد إسلامى فى وقتنا الحاضر أن ينظم شئون الحسبة على النحو الذى يحقق المقصود من الإحتساب وأن يتخذ مالزم لذلك .

وعلى ولاة الامر فى البلاد الاسلامية أن يفتحوا المعاهد لتخريج المحتسبين الاكفاء ، وأن ينظموا شئون الحسبة بين المحتسبين ، فيخصصوا لكل ناحية من نواحى الحياة محتسبين لامور المساجد مثلا ، وللأسواق ولمنكرات الطرق ، وهكذا ، وأن يقوم هذا العمل على أساس اختيار المحتسبين ممن تنطبق عليهم الشروط التى شرطها علماء الإسلام ليعيدوا للاسلام مجده ، وليقيموا هذا الركن الركين من نظام الحكم الإسلامى ، الذى يضيف إلى هذا النظام السلطان والقوة ويضفى عليه الجلالة والمهابة .

والله ولى التوفيق

الحديث الرابع :

حقيقة الأديان السماوية وكيف ندعو أهل الكتاب

تشدد بعض العلماء تعصبا للإسلام – وقالوا إن الاسلام وحده هو الذى اشتمل على الدين والدنيا . أما ماعداه من الأديان فهى لا تشتمل إلا على الناحية العقيدية فقط . وأنها مجرد علاقة خاصة بين العبد وربه .

والحقيقة أن الدين واحد فى الأولين والآخرين – والعقل لا يستسيغ أبداً منطق هذا التفريق بين الاسلام وما قبله من الأديان السابقة الصحيحة ، لأنها تفرقة لا معنى لها – لحاجة الانسان إلى ما يصلح دينه ودنياه هى فى كل وقت وفى أى زمان ، والضرورة التى حتمت اشتمال الاسلام على الدين والدنيا معا لعجز الانسان عن أن يشرع لنفسه ما يصلحه – هى بنفسها نفس حاجة أصحاب الأديان السابقة – بل أنهم كانوا أكثر حاجة من أصحاب الدين الخاتم . ومع ذلك فالعقل يحتم ضرورة اشتمال أى دين على الناحيتين ، لأن الانسان عاجز عن أن يشرع لنفسه ما يصلحه ، والعاجز لا يمكن أن يأتى بالكمال فالكمال لله وحده .

ونحن حين نقارن بدون تعصب بين الرسالات السماوية الكبرى ، نجد أن الأساس الذى قامت عليه هذه الديانات واحد ، وأن الأصل واحد – والقرآن يقول (إن الدين عند الله الاسلام)(١) وقد ثبت من واقع القرآن نفسه أن الأنبياء جميعا كانوا مسلمين ، وأنهم دعوا الناس للإسلام الذى هو الدين الأكبر – ففى القرآن الكريم مثلا عن إبراهيم .

(ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من

---

[١] سورة آل عمران آية ١٩

المشركين)[١] وفيه حكاية عن يعقوب (يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[٢] ، وفيه حكاية عن عيسى عليه السلام (من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون)[٣] إلى آخر هذه الآيات .

وقد جاء فى القرآن ما يدل على ارتباط هذه الأديان بعضها ببعض ، كما جاء فيه أيضا ما يدل على وجود تشريعات دينية ودنيوية فى التوراة والانجيل . قال تعالى :(شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[٤] كذلك قال النبى ﷺ : (نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد)[٥] كذلك قال الله عن التوراة :

(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص)[٦] وقال عنها أيضا (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء)[٧] وقال عنها أيضا (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا)[٨] وقال عن الإنجيل (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه)[٩] وهكذا

---

[١] سورة آل عمران آية ٦٧
[٢] سورة البقرة آية ١٣٢
[٣] سورة آل عمران آية ٥٢
[٤] سورة الشورى آية ١٣
[٥] تفسير ابن كثير ص ١٠٩ ج ٤
[٦] سورة آل عمران آية ٤٥
[٧] سورة الاعراف آية ١٤٥
[٨] سورة آل عمران آية ٤٤
[٩] سورة آل عمران آية ٤٧

دلت الآيات القرآنية على أن الأديـــان السماوية السابقة اشتملت أيضا على الناحيتين كالإسلام ، لانها كانت مقدمات للدين الخاتم .

ثم إن التشريعات الدينية والدنيوية فى الأديان ُقصد بها ولا شك إقامةُ الحق والعدل والخير فى الارض ، والله تبارك وتعالى يريد أن يظل هذا العدلُ موجوداً وباستمرار . ولا ُيتصور أنه يريده لقوم دون قوم ، أو لعصر دون عصر . وبخاصة وأن قيام الحكومات نفسها ، الغرض ُمنها هو نفس الغرض الذى هدفت إليه التشريعاتُ الدينية ، وهو أيضاً إقامةُ الحق والخير والعـدل فى الأرض خاصة حين نجـد أن حِكَم التشريعات تدل على ذلك ليثبُت لنا مثلا أن العبادات مجرد وسائل للوصول إلى الغرض السامى وهو إقامة الحق . .

وقد وبخ الله اليهود حين غيروا وبدلوا فى التوراة وتركوا أحكام الله لدنياهم . فقال سبحانه فى معرض هذا التوبيخ ولإثبات أن أصول تشريعات القرآن التى جاء بها محمد ﷺ هى كالأصول التى شرعها الله فى التوراة التى غيروها ، قال سبحانه (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) (١) .

أما القولُ المنسوب لعيسى عليه السلام وهو قوله (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)(٢) . والذى تصور المسيحيون أنه يعطى انفصالية الدين عن الدنيا فقد ثبت من واقع أناجيلهم أن المسيح عليه السلام قاله فى مناسبة معينة اضطرته لان يقوله ولم يكن يعنى أبداً هذا التفسير .

لقد أراد اليهود أن يوقعوا بالمسيح ليقدموه للمحاكمة فسألوه سؤالا محرجا هل نعطى جزية لقيصر أم لا ؟ وقد عرف المسيح نيتهم وعرف أن سائليه مدسوسون عليه — لذلك قال لهم لماذا (يجربوننى) ثم سألهم أن يعطوه ديناراً

---

[١] سورة المائدة آية ٤٣

[٢] راجع القصة فى انجيل لوقا اصحاح ٢٠ - ٢٠ الى ٢٧ وراجع رأى الإمام محمد عبده فى هذه القصة فى الإسلام والنصرانية ص ٤٦

وسألهم عن الصورة والكتابة فقالوا لقيصر ، فقال لهم إذن (اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) .

يعنى أن العملة التى تتعاملون بها هى لقيصر ، وإذا فرض عليكم أن تدفعوا منها شيئاً له فادفعوه ، أما قلوبكم وعقولكم وجميع ما هو لله فلا تعطوا لقيصر منه شيئا .

حين ذاك سلم المسيح من هذه المكيدة ، ولم يقع فيما يؤخذ عليه . . الخ .
وهكذا نستطيع أن نقول أن الأديان كلها قبل أن يحرفها اليهود والنصارى اشتملت على الدين والدنيا ، وأن الأساس الذى قامت عليه الديانات واحد ، كل ما هنالك أن التشريعات فقط هى التى اختلفت باختلاف الأزمان ، وقد جاء كل نبى من الأنبياء ليصدق السابق ويُبشر باللاحق ويدعو قومه للإيمان بهذا اللاحق ، لأنه جاءهم من عند الله بما فيه تصحيح عقائدهم ، وما يضيفه إليهم من تشريعات تُصلح دينهم ودنياهم ، ولذا حكى المولى على لسان عيسى (مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) (١) .

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) (٢) .

وحين نفقه هذا وندعو الناس على أساسه ، لاشك أننا نستطيع أن نُقنع الكثيرين من أهل الكتاب الذين عرف دعاتُنا الأوائل طريق دعوتهم وفهموا حقيقة الأديان فأقنعوا الكثيرين من أتباعها بالدخول فى الإسلام وترك أديانهم المحرفة .

---

[١] سورة الصف آية ٦

هذا هو حاطب بن أبي بلتعة رسول النبي للمقوقس عظيم القبط في مصر يقارع المقوقس الحجة حين يقول له المقوقس لن ندع ديننا إلا إلى ماهو خير منه) فيقول له حاطب ، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائكم أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته ، وأنت ممن أدركهم هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا ندعوك للعمل بما فيه (١) والعمل بما فيه - هو الإيمان برسالة محمد ﷺ التي جاءت أصولها بمثل ماجاء به الإنجيل وبمثل ما جاءت به التوراة ، لأن الأصل واحد والغرض واحد .

وفقني الله وإياكم للحق وفهم دعوة الحق ؟

---

[١] راجع الفقه بكتاب زاد المعاد لابن القيم الجوزي ص ٦١ ج٣

الحديث الخامس :

خطر بعض المسلمين على الإسلام

تحت اسم حرية العقيدة وحرية الفكر والتعبير ، ظهرت كتب تطعن في الإسلام ، وتدعو إلى التحلل من الكثير من التعاليم الإسلامية ، وتحارب العقيدة بطريق خفي ، وتحت هذا الاسم أيضاً ظهر كتاب معاصرون يدّعون أنهم قد فهموا كثيراً من غامض القرآن الكريم ، وفسروه بما يوافق أهواءهم وأغراضهم ، وقالوا إن التفسير ليس مقصوراً على رجال بعينهم ، مما أدى ويؤدى إلى تشويه حقائق الدين عند من لا يعرفون حقيقته ، وهم السواد الأعظم من الشعوب الإسلامية .

وإذا جاز ظهور كتب تطعن في الإسلام وتحاول تشويه صورته أو الحاق بعض التهم به ممن لا ينتسبون للإسلام من المستشرقين وغيرهم ، فإن الخطورة كل الخطورة في ظهور الكتب التي تنتسب للمسلمين ، وتقدم للناس على أنها كتب إسلامية خالصة ، مع أنها في الحقيقة تحارب الدين وتقف منه موقفاً معادياً ، وتبث سمومها من خلال صفحاتها على أنه الإسلام المتطور.

وقع في يدى كتاب عنوانه (الإسلام الحى) ظهرت طبعته الأولى في عام ١٩٥٥ الميلادى تأليف الدكتور احمد زكى أبو شادى ، وهو عبارة عن مجموعة أحاديث أعدها لإذاعة واشنطن العامة الامريكية ، وقال عنها (إنها تمثل آرائى التقدمية التى لا أعرف سواها كنها للإسلام الكريم ، والتى أشعر على ضوئها بعظمة الإسلام وقيمته للإنسانية الخالدة) . وتعال أخى المستمع لترى نماذج من هذه الآراء التقدمية التى يقول عنها صاحبها إنه لا يعرف سواها كنهاً للإسلام الكريم . يقول سيادته عن زواج المسلمة بغير المسلم وهو محرم بالإجماع عند جميع فقهاء المسلمين . « لقد ذهب الزمن الذى كان فيه الإسلام

ضعيفاً وزواج المسلمة بالكتابى أمراً غير مرغوب فيه، نظراً لقلة عدد المسلمين وخشونة سوء معاملة المسلمة ، ولكن الاحوال تبدلت الآن تبدلا تاماً وأصبحت المرأة سيدة نفسها ، بل قادرة على حماية حقوقها حماية تامة) ويقول سيادته أيضاً (المناقشات البيزنطية التى تجرى فى عدد من المجلات والكتب الجامدة حول الارتداد عن الاسلام حتى لتصل إلى المحاكم الشرعية مطالبة بالفصل بين الرجل وزوجته بما لا يتفق وروح الإسلام بتاتاً . .

(أى والله هكذا قال) بل أكثر من هذا يقول .

يقول سيادته « لا يعاقب الإسلام ولم يعاقب من تخلى عنه تبعاً لوحى وجدانه، لأنه نادى منذ البداية بأنه لا إكراه فى الدين وأنه لا تقبل صحة العقيدة ممن لا يؤمن بها » ثم يتجرأ على الاسلام فيقول . وقد كانت الاحكام الإسلامية عرضة للتبديل المنطق وفاقاً للمصلحة العامة التى تبدلها الظروف ، وهذا هو روح التشريع الراقى فى كل عصر ، والتبديل المنطق لاحكام الإسلام وفاقاً للمصلحة العامة التى تبدلها الظروف كما يرى الدكتور أبو شادى ، تجعله يقرر بأن الإسلام الآن يحرم تعـــدد الزوجات ، ويعلل الدكتور أبو شادى فيقول : (إن الاسلام جاء بتعاليم لانصاف المرأة وكرامتها اعتبرت فى قمة السماحة ، بل ثورة فكرية فى وقتها وكان هذا الانصاف بعد القسوة العابثة التى كانت ترتكب ضد المرأة من الرجل ، وما جاء الاسلام ، وهكذا يقول ، ليستبقى شيئاً منها ، بل ليقضى عليها فوراً أو تدريجيا حسب الظروف كما سمح بمنع تعدد الزوجات وتثبيط الطلاق .

ويرى أن القياس على هذه الثورة الفكرية العظيمة ، التى أنصفت المرأة فى زمن محمد يجب أن يكون نسبيا اعتباراً لزماننا ، لا تقيدا بحرفيتها التى كانت ملائمة لقرون خلت فحسب ، وذكرت على سبيل المثال وكانت حكمتها متعلقة بمناسباتها لا مستقلة عنها .

وفى مكان آخر يقول (ولو دعا الصالح العام لمـا حيل بين المرأة ذات الكفاءة الممتازة لرئاسة الدولة ويومها آت ريب فيه) أما قوامة الرجل على المرأة والتى قررها القرآن من فوق سبع سماوات، فاستمع إلى رأيه فيها حين يقول: إن روح الإسلام التى تقر مبدأ الصالح العام ، بل تقدسه ، تسمح فى هذا العصر بأن تكون المرأة قوامة على الرجل ، بقدر ما تسمح بأن يكون الرجل قواماً على المرأة . إذ أن مرد ذلك إلى الاعتبار الاقتصادى لا أكثر ولا أقل ، بخلاف ما كان عليه الحال فى فجر الإسلام) ، وأخطر من هذا أيها السادة، رأى أبو شادى المسلم فى المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى ، رأيه فى أحاديث الرسول التى روتها كتب الصحاح ، يقول صاحب الإسلام الحى ، وهو بهذا يريد أن يقتل الاسلام لا أن يحييه ، وصاحب الآراء التقدمية التى لا يرى غيرها كنها للاسلام الكريم كما يقول (وأما التغنى بكتب بأبى داوود والترمذى والنسائى ومسلم وترديد الأحاديث الملفقة (هـكذا يقول) وترديد الأحاديث الملفقة التى لا تنسجم مع تعاليم القرآن . فبمثابة الخيانة لرسالة الإسلام الخالدة . ثم يقول : وهذه سنن ابن ماجه والبخارى ، بل جميع كتب الحديث والسنة طافحة بأحاديث وأخبار لا يمكن أن يقبلها العقل ، ولا يرضى نسبتها إلى الرسول الكريم صاحب أكبر شريعة عقلية إنسانية . فإن أغلبها يدعو إلى السخرية بالاسلام والمسلمين وبالنبى الأعظم والعياذ بالله .

سيدانى وسادتى : هذا قليل من كثير طفح به هذا الـكتيب الصغير الخطير ، الذى دعا صاحبه كما يقول فيه ، إلى احتلال المسلمين مكانتهم فى طليعة موكب الحضارة ، وما أكثر أمثال هذه الكتب فى مجتمعاتنا الاسلامية ، التى يجب أن نتنبه لها ، وإلى ما تقصده من وراء نشرها وترويجها ، وإنى لأرجو من جميع حكومات الدول الاسلامية أن تصادر أمثال هـذه الـكتب . كما أرجو من علمائنا ومثقفينا الاسلاميين . الرد على أمثال هذه الشبهات التى روج لها الغرب وموّل أصحابها ، وفقنى الله وإياكم.

الحديث السادس :

كيف نقاوم الفكر المضاد للاسلام

ميزة الاسلام أنه يخاطب العقل ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان، وفى حكم الاسلام أن النظر بالعقل هو طريق الوصول إلى الحقيقة ، وأن التفكير باب من أبواب الهداية التى يتحقق بها الإيمان ، وهو لهذا عنده الإجابة على كل سؤال والحل لكل مشكلة أو معضلة ، ومع ذلك والحقيقة تقال . فقد نشط أعداء الاسلام نشاطا كبيراً نتيجة تكاسل بعض علماء المسلمين ، وعدم فهمهم لروح الشباب ومتطلبات عقولهم فى هذا العصر ، ونتيجة لذلك ظهرت التيارات الإلحادية بين الشباب ، ونشطت هذه التيارات بسبب تخطيط أصحابها وذكائهم ودهائهم بعد أن جعلوا كل همهم ، محاولة القضاء على الإسلام واستطاعوا أن يجندوا لهم من بين المسلمين أنفسهم من ينال من عقيدة الإسلام وشريعته وظهرت كتب إلحادية كثيرة من تأليف مسلمين تبث سمومها فى نفوس وعقول الشباب المسلم ، وعرضت هذه الكتب بأسعار رخيصة للغاية ، وبأسلوب مبسط مشوق ليقرأها أكبر عدد من الناس ، وقد تأثر بها عدد كبير من الشباب الظامىء إلى حب المعرفة ، والخالى تقريباً فى معظم المجتمعات الاسلامية من الفكر الاسلامى الحقيق والثقافة الاسلامية الحقيقية (وهنا ينحرف هذا الشباب ويضِل ويُضِل ويصعب على كثير من حكومات الدول الاسلامية انقاذ شبابها فتقف عاجزة مستسلمة لا تصنع شيئا .

لقد خطط دعاة الشيوعية والإلحاد لانحراف الشباب وتضليله بعد أن درسوا وسائل التأثير والاقناع وأسبابها ومسبباتها وتحركوا بطريقة علمية خبيثة ، تتغير وتتلون حسب مقتضيات الظروف والأحوال ، وتتدثر أحياناً بالاسلام لاقناع المسلمين بهم وبوسائلهم ، حتى انخدع بهم بعض دعاة الاسلام

فأخذوا يبحثون فى النصوص الإسلامية لتبرير أفكارهم الخارجة على الأصول الإسلامية حتى ولو كان ذلك عن طريق اعتناق هذه النصوص .

والماركسية مثلا لم تكن أبداً فلسفة متكاملة ، وإنما نستطيع أن نقول إنها لا تعدو منشوراً للتحريض ، وقد كرست كل وسائلها لهذا التحريض ، وحملت لافتة مكذوبة بادعاء العلم والعلمية والموضوعية ، لتعبىء بها المثقفين ، واستخدمت الأسلوب العاطفى لمخاطبة العمال والفلاحين . تناديهم بأنهم الطليعة والطبقة المختارة لقيادة التاريخ والشرفاء ورواد المستقبل وأبطال الغد الذين يملكون وحدهم النقاء الثورى ، وبهذا نجح الشيوعيون للأسف مع ضلالهم، لأنهم خططوا ونظموا ورتبوا وعرفوا الأسباب والمسببات فاستعملوها بنجاح ،

ولا نغالى حين نقول إن الفكر الماركسى انتشر بين ملايين كثيرة من البشر ، إلا أن ذلك لايؤخذ دليلا على صدقه العلمى ، فالمعروف أن نجاح فكرة ما لا يعنى دائماً صوابها ، فقد تنتشر الأفكار الخاطئة لمجرد أنها تلقى ترحيباً من غرائز الناس وأهوائهم وصدق الله حين يقول (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[١] (ولكن أكثرهم للحق كارهون)[٢] (ولكن أكثرهم يجهلون)[٣] ، من هنا كان حتما على المسلم أن يعرف حقيقة أعدائه . كان عليه أن يعرف طبيعة فكره وتطور هذا الفكر وأشكاله وفلسفته على مر التاريخ ، ولا يكفيه أبداً أن يقصر معرفته على الإسلام وحده . فمن لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه . وقديماً قال سيدُنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه تنقضُ عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى المسلمين من لا يعرف الجاهلية .

نعم فقد تورط المسلمون ، ووقعوا فى كثير من أمور الجاهلية وهم يظنونها

---

[١] سورة يوسف آية ٤٠
[٢] سورة المؤمنون آية ٧٠
[٣] سورة الانعام آية ١١١

إسلاما . وكم أساءوا إلى دينهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، بل كم من أنواع الجاهلية توارثها الناس على أنها إسلام ووقفوا فى طريق من يستنكرها واتهموه بالإلحاد والخروج على الاسلام .

خذ مثلا هذا النص من كتاب لأحد المسلمين الذين تروج كتبهم فى جميع البلاد العربية ، يقول المؤلف المسلم (إن هذه الفكرة البلهاء التى توعم أن الروحانية هى علاج الشرق الوقائى ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب . وأن الروحانية شىء مستقل بذاته وليست أثراً من آثار المادية المنظمة المنعمة بالرغد والرفاهية . . . الخ .

ويقول مسلم آخر فى أحد كتبه التى تمتلىء كفراً وإلحاداً ، وتنتشر فى كل بلاد الدنيا . يقول : إن الله ليس فوق الجدل ، وليس فوق العقل ، وليس فوق الواقع : إن الله هو العقل وهو الواقع ، وهو مجموع القوى الكونية التى تعمل لخيرنا فى كل وقت . وهى قوى تقبل المراجعة والبحث والتطور .

وهنا أيها السادة تظهر أهمية الدور الملقى على دعاة الاسلام وحماته ، لأن آثار الهجوم على الاسلام قد بدأت تظهر على المسلمين ، ولعلهم المقصودون بهذا الهجوم فى حملات الصهيونيون ، والصليبين والماركسيين ، حيث أن الاسلام ذاته له طبيعةُ الموجود الخالد ، وهو برغم الهجوم عليه لم يضار ولن يضار لأنه لا يقبل الفناء ، وقد تأثر المسلمون وظهرت الآثارُ السلبيةُ لهذا الهجوم بالنسبة للأعداء الثلاثة وقد حال دون ملء هذا الفراغ حتى الآن قلةُ المفكرين الاسلاميين وركود نشاطهم ، وعدم فهمهم للأساليب التى يمكن استعمالها مع شباب هذا العصر والتى يمكنهم بها إيقافُ التيار الالحادى المضاد . الذى استغل فرصة عدم فهم عامة المسلمين لحقيقة الاسلام وانعزال الإسلام عن الحياة العملية العامة للجماعات المسلمة وابتعاد الاسلام عن أن يكون ضمن موضوع ثقافة المسلم المعاصر — وهنا

يكمن الخطر ، ويتحتمُ على علماء الاسلام ومفكريه أن يتحركوا وأن يسرعوا فى هذا التحرك ، باستعمال الوسائل المختلفة لاعادة الشباب والمسلمين عموماً إلى حظيرة الاسلام .

عليهم أن يقوموا بعمل الأبحاث الاسلامية فى جميع جوانب الحياة ، يعرضون فيها ثقافة الإسلام بأسلوب العصر ، وبطريقة تتناسب مع التطور المادى المعاصر وياحبذا لو قام علماءُ المسلمين ومفكروهم بالرد على كل ما يثار حول الإسلام من شبهات ، وتفنيد الأكاذيب والمفتريات التى يحاول أعداءُ الاسلام إلصاقها به . على أن يكون الرد مستنداً إلى الحقائق ، وبالأسلوب العلمى المجرد ليستطيع القارىء أن يقارن ، ليقتنع بالحق ويترك الضلال ، ولا يكفى أبداً مجردُ القول بأن كل ما يثار حول الاسلام هو مفتريات وأكاذيب بل لابد من إثبات ذلك بالدليل المقنع وبالأسلوب المشوق غير المنفر .

ولا شك أن الحق فى النهاية سينتصر ويعلو إذا خَلُصت النيات وأخلصت الضمائر ، وصدق الله حين يقول :

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض)[1] .

هدانا الله جميعاً للحق ووجهنا لعمل الخير .

---

[١] سورة الرعد آية ١٧

ثالثا :

نماذج من الاحاديث العامة

وتشتمل هذه النماذج على الموضوعات التالية :

١ - الاسلام وحقوق المرأة

٢ - أهمية كتب التراث

٣ - مفتريات ضد الاسلام

٤ - مؤامرات اليهود لإفساد العالم قديما وحديثا

٥ - الإستشراق - دوافعه وأغراضه

٦ - المخطط العالمى لانحراف الشباب

٧ - كيف نحارب الشيوعية ؟

٨ - آداب الجمعة وحكمة مشروعيتها

ثالثا :

نمـاذج من الأحاديث العامة

لقد اخترت ثمانية موضوعات لأحاديث متنوعة ، تصلح كما قلت أحاديث صباح ، وأحاديث سهرة ويصلح بعضها بأن يكون خطبة من خطب الجمعة . كما أن بعض هذه الأحاديث يمكن التوسع فيها ليكون موضوعاً لمحاضرة عامة .

وكما قلت فى البداية : إن هناك تداخلا بين كثير من أنواع الأحاديث ، وبخاصة إذا كانت هذه الأحاديث تعنى بالإصلاح من خلال الدين الذى ينتمى إليه أبناء المجتمع . إلا أن بعض الأحـــاديث تظهر فيها التخصصية ، وهى الأحاديث التى تركز على شىء معين ، لايهم غير المتخصصين ، كأن يركز المتحدث مثلا على بلاغة القرآن ، أو على قواعد النحو والصرف فيه ، أو على موضوع القراءات واختلاف القراء ، وغير ذلك من موضوعات يهتم بها المتخصصون أكثر من غيرهم ، وهى الموضوعات التى اخترت منهـــا اثنى عشر موضوعا تخدم هـذا الجانب والتى يمكن أن يطلق عليها إسم « الاحاديث الدينية » والتى تصلح غالباً لاذاعتها من الإذاعات المتخصصة . مثل إذاعة القرآن الـكريم .

أما هذه الأحاديث فهى كما قلت أحاديث عامة . تصلح لـكل الإذاعات . وللصباح والمساء . وأرجو أن أكون قد وفقت فى اختيار هذه الموضوعات التى راعيت إثبات المراجع فيها أيضاً . تتميماً للفائدة .

والله الموفق والمعين .

المؤلف

الحديث الأول :

الاسلام وحقوق المرأة

لايزال القرآن الكريم وسيظل أبد الآبدين إن شاء الله هو الدستور الصالح لكل زمان ومكان ، والذى يشرع للحيـــاة الواقعية ، وهو بذلك يثبت صلاحيته واستمرار فعاليته برغم معاداة غير المسلمين له ومحاولتهم ، إثبات صلاحية قوانينهم المادية الوضعية ، والتى كانوا يتصورونها أساس تقدمهم وحضارتهم ، وقد أثبت الواقع كما أثبتت التجربة فشل مذاهبهم وقوانينهم خاصة ماتناقض فيها مع القرآن الكريم دستور هـذه الحياة كلها ، والمشتمل على قوانين وتشريعات البشرية بكل أجناسها وأقاليمها ، لأنه من عند خالق القوى والقدر .

فى العصر الحديث قام جماعة من الرجال فى بعض المجتمعات بالمطالبة بما أسموه حقوق المرأة، وجروا وراء ماأسموه فى الغرب (المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة) ، ووصل الأمر وللأسف إلى اتهام الإسلام نفسه بالتخلف وعدم صلاحيته اليوم لقيادة البشرية ، مع أن الإسلام هو الذى حرر المرأة من رقها وأعطاها حقوقها المسلوبة منها فى القديم ، والتى لازالت بعض حقوقها مسلوبة منها حتى فى هذه المجتمعات الأوربية المتحررة ، والتى يقولون عنها إنها تدعو إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة .

لكنها حمى الظهور بالنسبة لمن يسمون أنفسهم بالمصلحين فى المجتمعات الإسلامية وحمى الكفر والعناد وحرب الإسلام بشتى الطرق والوسائل .

تعالوا بنا أيها السادة واقرأوا معنا بعض مافى القرآن عن المرأة شقيقة الرجل فى نظر الإسلام، والجزء الذى لايتجزأ منه، لنرى هل أعطيت حقها ؟ أم أن الإسلام حرمها من هذه الحقوق كما يقولون ؟ ولنرد على دعواهم لنثبت حيفها ولنؤكد

لهم ولكل مكابر أن الإسلام كرم المرأة كما لم يكرمها دين سماوي قبله ولا مذهب وضعي من قبله أو من بعده .

ما الذى نحسه حين نقرأ هذه الآية الكريمة فى كتاب الله عز وجل : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)(١) ما الذى يمكن أن يفهمه أى عاقل من قوله تعالى : (لتسكنوا إليها) أليس يعنى هذا أن الزواج سكن ومودة ورحمة وتفاهم بين الرجل والمرأة ، وأنه أمر من الله تعالى بالمحافظة على رباط الأسرة والتمسك دائماً بهذه المودة ؟ ولو أضيف إلى هذه الآية قول الله تبارك وتعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن)(٢) لعرفنا مقدار ما يدعونا إليه الدين للحفاظ على العلاقة والرباط الأسرى ، وهل يعنى هذا سلب حقوق المرأة كما يتصورون ، والتحكم فيها والسيطرة عليها وسلب حريتها وإرادتها كما يدعون ؟ وهل توصية الرسول ﷺ الرجال على النساء تعنى سلب الحقوق وحرمان المرأة من هذه الحقوق ، وهو القائل صلوات الله وسلامه عليه (استوصوا بالنساء خيراً) إن ذلك يؤكد ما قرره المولى عز وجل من أنهن قرة أعين الرجال حين يحكى على لسان المؤمنين المخلصين (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين)(٣) .

والذى كرر فى أكثر من آية من آيات القرآن الكريم بأنه خلق ، وأنه جعل من الرجال النساء ، وأنه خلقهم من نفس واحدة ليزداد بر الرجال بالنساء وعطفهم عليهن ، لا ليسلبوهن حقوقهن أو يسيطروا عليهن دون وجه حق (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيراً ونساء ، فاتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم

[١] سورة الروم : ٢١

[٢] سورة البقرة : ١٨٧

[٣] سورة الفرقان : ٧٤

رقيباً)[١] ويقول أيضاً (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات)[٢] :

وحين نحاول استعراض بعض مافي آيات القرآن التي تحدثت عن المرأة وعن إعادة الحقوق لها التي سُلبت منها قبل الإسلام ، والتي تكررت في كثير من سور القرآن الكريم نجد أن هذا التشريع السماوي الإلهي ، والذي قرر حقوق الإنسان كلها ، قبل أن تقرره دول الغرب بأربعة عشر قرناً من الزمان ، قد فاق الغرب ومشرعيهم في إعطاء المرأة حقها الحقيقي على أساس التكريم والتبجيل والإحترام بعد أن كانت مهضومة الحق مكسورة الجناح ، وساواها بالرجل في الأمور التي لابد فيها من التسوية ، ثم خالف ذلك في أمور حتمت الطبيعة واحترام المرأة والخوف عليها وزيادة الرعاية لها ، أن تخالف الرجل فيها من أجل مصلحتها هي ، وهي للأسف الأمور التي يحاول بعض المغرضين وأعداء الإسلام أن يتخذوها سلاحا يشهرونه في وجه الإسلام ويحاربونه به .

وسنرى حين نناقش القضية بالعقل والمنطق أن الإسلام أنصف المرأة حين ساواها بالرجل في هذه الأمور ، وأنصفها أيضاً حين فرق بينها وبين الرجل في أمور ، مراعاة لطبيعة كل من الجنسين ومايصلح له ، وكفالة الصالح العام ، لقد ساواها الإسلام بالرجل في الحقوق الإنسانية ، فالمرأة أمام القانون وفي الحقوق العامة تماما مثل الرجل لافرق بينهما ، وفي ذلك يقول القرآن :

(فاستجاب لهم ربهم أني لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض)[٣] ويقول أيضاً : (للرجال نصيب مما كسبوا وللنساء نصيب مما

---

[١] سورة النساء : ١
[٢] سورة النحل : ٧٢
[٣] سورة آل عمران : ١٩٥

اكتسبن)(١) ويقول أيضاً : (ولقد كرمنا بنى آدم)(٢) ولم يقل كرمنا الرجال أو الذكور وحدهم ، فما هو من خصائص الإنسانية فى الدنيا والآخرة إنما هو متساو بينهما ، كذلك أعطى المرأة حقها فى الملكية ، فهى حرة فى مالها أو فيما تملكه تتصرف فيه كما تشاء ، كذلك أعطاها الحق فى الشهادة بل أعطاها حق العصمة أحياناً إن اشترطت ذلك عند عقد الزواج .

مع أن القانون الفرنسى الموجود الآن وفى المادة ٢١٧ منه يقرر « أن المرأة المتزوجة حتى ولو كان زواجها قائماً على أساس الفصل بين ملكيتها ، لا يحق لها أن تبيع ولا أن ترهن ـ لا أن تملك بعوض أو من غير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » .

والمرأة فى الإسلام حين تتزوج تظل كما هى فلانة بنت فلان ، وملكيتها مستقلة عن ملكية زوجها ، لا حق له فى اجبارها على بيع أو شراء ، وتظل حاملة لإسمها واسم أسرتها حتى تموت ، أما المرأة الغربية فهى تفقد إسمها واسم أسرتها ، فلا تعود بعد الزواج تسمى فلانة بنت فلان ، وإنما تحمل اسم زوجها وأسرته فتدعى مدام فلان أو تتبع إسمها باسم زوجها وأسرته ، بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها ، والغريب أن اللائى يحاكين نساء الغرب فى هذا هن المطالبات بحقوق النساء ومساواتهن بالرجال ، وهن للأسف كثيرات الآن فى البلاد الإسلامية ، ولا يدرين أنهن بتصرفهن هذا يفرطن فى أهم حق منحه الإسلام لهن ، ورفع به شأنهن وسواهن فيه بالرجال ، أما النواحى التى قرر الإسلام فيها التفرقة بين الرجل والمرأة ، وهى كما قلنا تفرقة روعى فيها طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له ، وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة ، بل صالح المرأة

---

[١] سورة النساء آية ٣٢
[٢] سورة الإسراء آية ٧

نفسها والمحافظة عليها ، فهي خمسة أمور : وسنحاول أن نختصرها فيما يتسع له هذا المقال إن شاء الله ، هذه الأمور هي :

(الأعباء الاقتصادية، والميراث، والقوامة على الأسرة، والشهادة، والطلاق)

أما الأعباء الاقتصادية فقد أراد الله تعالى أن يكفل للمرأة فيها الحياة الشريفة الهادئة الهانئة ترفقاً بها ، ومحافظة عليها ، دون تحمل لأى مسئولية اقتصادية ، لا وهي بنت ، ولا هي زوجة ، بل جعل نفقتها على ولى أمرها ، والد ، أو ولد أو أخ أو عم أو غير ذلك ممن وجب عليه حق الإعالة ، بل جعل نفقتها واجبة على بيت المال إن لم يكن لها عائل يعولها ، وحين تبدأ مرحلة الاعداد للزواج بالنسبة للمرأة ، يكون الزوج وحده هو المسئول عن تجهيز المنزل . مع دفع الصداق وإعداد منزل الزوجية وخلافه . وفى مرحلة الزواج نفسه ، نرى أن المرأة لا تتحمل أى مسئولية من ناحية الانفاق على منزل الزوجية حتى لو كانت موسرة ، وهي كما قلنا تحتفظ بجميع حقوقها المدنية . وفى مرحلة الانفصال إن كانت العشرة الزوجية يستحيل معها الاستمرار . نرى الزوج أيضاً هو الذى يتحمل جميع الأعبـــاء الاقتصادية كدفع مؤخر الصداق ونفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ، مادامت فى العدة . وعليه أيضاً نفقة أولاده وأجور حضانتهم ورضاعتهم فى دور الحضانة ، وعليه وحده نفقات تربيتهم بعد ذلك .

ولا تكلف المرأة بأى عبء اقتصادى فى هـذه الشئون . والقرآن الكريم ملىء بالآيات الكثيرة التى تدعو الرجال لتحمل هـذه المسئولية . بل احتمال الأذى من الزوجة رحمة بها . وإحسان العشرة إليها حتى ولو لم يكن بينهما ما يسمى بالحب بمفهوم هذا العصر . وفى ذلك يقول القرآن : (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)[1] .

---

[1] سورة النساء آية ١٩

أما الميراث فيتضح لنا بعد معرفتنا عدم تحمل المرأة لأى عبء اقتصادى كيف أنها ليست فى حاجة مطلقاً إلى التملك نهائياً .

لكنها مع كل ذلك ولأن النفس البشرية ترغب فى التملك فقد أعطيت نصف الرجل فى الميراث . مع أن الزوج أو الاهل أو بيت المال كما قلناهم المسئولون عن الانفاق عليها . وأما قوامة الرجل على الأسرة . فهو أمر طبيعى . ذلك لأنه الأقوى ولأنه المسئول عن النفقة . والقاعدة المعروفة فى العالم كله اليوم أن (من ينفق يشرف) و (من يدفع يراقب) . والمرأة معروف أنها مرهفة الحس والعاطفة . قوية الانفعال . وقد سواها الله هكذا حتى يكون لها من من طبيعتها ما يتيح لها القيام بوظيفتها الاساسية . وهى الأمومة والحضانة . وتغلب على الرجل ناحية الادراك والتفكير . وصدق الله القائل (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)[1] وقوامة الرجل قوامة حفظ ورعاية . قوامة رحيمة قائمة على المودة والمحبة والارشاد . مقيدة بقيود تحفظ على المرأة كرامتها وتصون حقوقها . قوامة تدبير وإرشاد وليست سيطرة أو استبداد .

---

[١] سورة النساء : ٣٤

[٢] اقتصرت هنا على ثلاث شبهات فقط وفى الامكان الاسترسال والزيادة فى الادلة والبراهين ليصبح الموضوع محاضرة . كما أنه فى الامكان تجزئة الموضوع لجزئين وإلقائه على مرتين ويمكن أن يكون موضوع خطبتى جمعة ايضا .

المؤلف

الحديث الثانى :

أهمية كتب التراث

دار نقاش بين صديقين عن قيمة كتب التراث وأهميتها فى هذا العصر — وكان رأى أحدهما أنها لم تعد تصلح فى هذا العصر الذى سهلت فيه وسائل الإعلام الحديثة فهم الموضوعات دون كدّ للذهن أو اجهاد للعقل ، وكانت حجته أن كتب التراث معظمها غير مفهرس وليس من السهل على من يحب الاطلاع على مسألة معينة ، أن يعثر على حكمها فى الحال بل عليه أن يقرأ باباً وأبوابا حتى يعثر على ما يريد ، خصوصاً إذا لم يكن له من يرشده ، كما أن ما كتب قديما كتب بأسلوب مركز دقيق وفقهاء المذاهب المختلفة كانوا فى كثير من الأحوال يذكرون الحكم ولا يذكرون علته خاصة فى الكتب المختصرة والمتون .

وقد روعنى هذا الرأى الخطير الذى يدعو فيه صاحبه إلى نبذ كتب التراث نهائيا والاكتفاء بهذه القشور التى نقرؤها أو نسمعها ، والتى زخرفها المؤلفون والكتاب المحدثون بالتبويب والتنظيم وسهولة الأسلوب والعرض .

صحيح أن بعض كتب التراث فى حاجة إلى فهرسة وتبويب جديدين ، ولكن هذا لا يعنى ترك كتب التراث والاستغناء عنها نهائيا فهى أساس حضارتنا ودليل وجودنا وفيها من الأصول ما يعين على النهوض والتقدم والاستمرار .

خذ مثلا قصة كهذه رواها ابن الجوزى فى كتابه زاد المعاد : —

تقول القصة إن حاطب بن أبى بلتعة حين ذهب للمقوقس بكتاب النبي الذى يدعوه فيه للاسلام : قال له المقوقس إن لنا دينا لن ندعه الا لما هو خير منه .

- فإذا بحاطب يقول (ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه .

ثم استرسل يقول « إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا اياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الانجيل وكل نبي أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه — وأنت ممن أدركهم هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به » .

هذه قصة صغيرة رواها ابن الجوزى فى كتابه زاد المعاد وهو من الكتب التى يمكن أن نعتبرها من كتب التراث ، إلا أنه يمكن استخلاص الكثير من هذه القصة ومثلها كثير فى كتب التراث ؟ ألا يدل هذا على أهمية اختيار السفراء والمبعوثين للدول الأخرى ، وضرورة اختيارهم من بين من عرفوا بالحكمة والفطنة والاخلاص لما كلفوا به حتى يمثلوا بلادهم تمثيلا صحيحا دقيقا ويكونوا ممثلين للحاكم وللاسلام تمثيلا حيا .

وقد يظن بعض الناس أن مبعوثى النبي ﷺ إلى ملوك ورؤساء الدول فى العام السادس من الهجرة ، كانوا مجرد حملة رسائل فقط اقتصرت مهمتهم على مجرد توصيلها لأصحابها ، إلا أن العاقل خاصة حين يقرأ مثل هذه القصة يرى أن هؤلاء السفراء كانت مهمتهم أكبر من مجرد توصيل كتاب يحمل بضعة أسطر فيها آية أو بضع آية ، وفيها طلب عام لاعتناق الاسلام خصوصا وأن التاريخ يروى لنا أن معظم هؤلاء الملوك والرؤساء تأثروا بهذه الكتب فأعلن بعضهم اسلامه كالنجاشى ، وكاد بعضهم يسلم كهرقل ، وطلب بعضهم فرصة للتفكير كالمقوقس ، ولقد كانوا دعاة للاسلام اختارهم النبي بدقة واطمأن إلى علمهم واخلاصهم فنجحوا فى وفادتهم وسفارتهم .

أرأيتم ما قاله حاطب للمقوقس (ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد) أو رأيتم الحجة المنطقية التى الزم بها المقوقس (وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل) ثم الحجة القوية الأخرى حين

يقول (وكل نبي أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه — وأنت ممن أدركهم هـذا النبي) أى أن المقوقس وقومه قد أصبحوا بناء على هذا من أمة محمد ووجب عليه وعليهم أن يؤمنوا بدعوته ، ثم وصل حاطب إلى أروع ما قيل وأجمل ما يخرج من فم داع مؤمن مخلص فاهم للاسلام ولارتباطه الطبيعى بمـــا قبله من الأديان حيث يقول للمقوقس : —

لسنا ننهاك عن دين المسيح ولـكنّا نأمرك به .

وبعد أيها السادة : — لا شك أننا نستطيع أن نستخلص من قصة كهذه نجدها فى إحدى كتب التراث أن حسن اختيار ممثلى الدول الاسلامية فى البلاد الأجنبية سيكون من دواعى احترام هذه للاسلام ، ويصبح هؤلاء السفراء بأخلاقهم وتفهمهم لطبيعة دينهم وحسن الدعوة إليه خير دعاة له .

فهل أنتم بعد ذلك مع من يرى عدم صلاحية كتب التراث لهـذا العصر ؟ أم أنتم مع من يرى أن التراث هو تاريخنا ، وتاريخ كل أمة هو ضميرها وعقلها ؟

الحديث الثالث :

مفتريات ضـــد الإسلام

أصدرت هيئة اليونسكو العالمية منذ أقل من عام[1] موسوعة علمية تحت عنوان (تاريخ الجنس البشرى وتقدمه الثقافى والعلمى) وفى المجلد الثالث من هـذه الموسوعة وفى الفصل العاشر من هذا المجلد تتحدث الموسوعة عن العرب والمسلمين وتقرر ما يلى :

« الإسلام تركيب ملفق من المذاهب اليهودية والمسيحية أضيفت إليها التقاليد الوثنية العربية ، والشريعة الاسلامية كما تقرر الموسوعة ، شـ[illegible]ـة معقدة ، ومجموعة الاحاديث النبوية ألفت ووضعت فى عصر متأخر ، ثم أجريت على لسان الرسول أما القرآن فترى الموسوعة أنه مجرد من أهم خصائصه فى البلاغة — كذلك فالموسوعة العالمية التى أصدرتها هيئة عالمية تابعة للأمم المتحدة فرض فيها أن أن تكون هيئة محايدة ، قالت عن فقهاء المسلمين أنهم تعمدوا استخدام النظم القانونية والتشريعية الأجنبية المجربة وبخاصة القانون الرومانى والقانون الفارسى والتلمود والقوانين الكنسية الشرقية ، وقد تحدثت الموسوعة عن عقوبة حـــد السرقة أى قطع اليد فقالت عنها إنها عقوبة قاسية مشينة ، أما دور المرأة فى مجتمع الاسلام فهو كما تراه الموسوعة على جانب كبير من الضآلة ، وكثير من المفتريات والاكاذيب تحدثت عنها هذه الموسوعة العالمية التى فرض فيها كما قلنا الحياد والانصاف وعدم التعصب :

وهنا لابد لنا من وقفة قصيرة أمام هذه المفتريات والأكاذيب التى ثبت أن الغرب يروج لها كما روجت الشيوعية قبل ذلك ، والتى تثبت أن الإسلام

[1] كان ذلك من خمسة أعوام حيث صدرت فى عام ١٩٧٧ .

يعيش الآن فى صراعات مع أعدائه الذين تكالبوا عليه يريدون إزالته من الوجود وقد عرفنا أن الصهيونية العالمية أيضاً روجت لأكاذيب ومفتريات ، وحاولت القضاء على الإسلام وأهله عن طريق إشاعة الانحلال والفساد فى العالم، والترويج للنظريات الإلحادية تحت ستار العلم، كنظريات دارون وماركس ونيتشه وفرويد وماكدوجل وغيرهم . وكما أثبتت بروتوكولاتهم وتحدثت عنها فى حديث سابق من أحاديث هذه السهرة وهى تعلمنا الشعارات القومية وتعرفنا بها ثم بعد ذلك فإن الشيوعية أيضاً لا تألوا جهـــداً فى تفريغ هذه الشعارات القومية من محتواها العلمانى وتملأها بمحتوى ماركسى كما أن حماتها أوكلوا إلى كثير من الكتاب الماركسيين مهمة تشويه العقيدة والتاريخ الإسلاميين والتعرض لها بصنوف التحقير والتسخير . وفى روسيا مثلا جمعية كبرى اسمها (جمعية الاتحاد السوفيتى لنشر المعرفة السياسية والعلمية) وهى هيئـــة حكومية وكل إليها جمع المقالات العلمية التى تنشر فى الصحف لتطبعها على هيئة كتب ثم توزع منها الملايين ليعم نفعها القاصى والدانى كما يقولون .

خذ مثلا ما يقوله أحد هؤلاء الكتاب الشيوعيين فى كتاب أسماه (الإسلام أصله وطبيعته الاجتماعية) وهو يقدمه كما قلنا على أنه التزم به التزاماً دقيقاً بأصول البحث العلمى فى الفرض والتحليل والمناقشة، وهو يدعى أنه عانى فى بحثه تعباً ونصباً وقارن بين نصوص الإسلام وغيرها من مصادر ونصوص أديان وفلسفات أخرى ، حتى يوهم بأنه جاء بنتائج دقيقة صحيحة . وأنه يقدم البحث العلمى مجرداً من أى تعصب أو تحيز ، ومع ذلك فالعلامة لوتسيان الكاتب الشيوعى يقول فى كتابه (الإسلام أصله وطبيعته الاجتماعية) القرآن مثله مثل الأساطير الإسلامية التى تعرف بالسنة ، ومثل القانون الإسلامى الذى يعرف بالشريعة ، كلها من عمل القرون الوسطى حين تم وضعها وجمعها على يد الحكام الاقطاعيين ، والقرآن فى تكوينه مؤلف شديد التعقيد يحوى كثيراً من الخرافات والأساطير المستمد بعضها من عقائد المسيحية والمجوسية، ثم يقول :

والواقع أن هذا الكتاب الذى يقع فى مائة وأربع عشرة سورة قد بدىء فى عهد الخلفاء الراشدين واستغرق تأليفه وقتاً طويلا .

أيها السادة : هذه عينة فقط من العلم الماركسى والأبحاث العلمية المجردة كما يقولون ، فهل ترون بعد ذلك السكوت على هذه المفتريات ؟ إن هذه الهيئات الرسمية وغير الرسمية تستطيع أن ترد بالحقائق وبالأسلوب العلمى أيضاً كما يقولون على جميع الخصوم ، يجب أن نتحرك حتى لا يتسع الخرق على الراقع بل فى إمكاننا أن نحتج رسمياً على بعض ما يثار حول الإسلام خاصة لدى الجهات الرسمية كهيئة اليونسكو وغيرها ، مع محاولة الرد على كل هذه الترهات ألا هل بلغت اللهم فاشهد ،

الحديث الرابع :

مؤامرات اليهود لإفساد العالم قديماً وحديثاً

اليهودُ من أخطر أعداء الثقافة الإسلامية قديماً وحديثاً . بل هم أخطرهم على الاطلاق وصدق الله القائل (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) (١) .

فقد قدم الله اليهود فى الآية على المشركين . مما يدل على أنهم أشد عداوة من المشركين أنفسهم .

ولقد ثبت أن اليهود ناصبوا الإسلام العداء منذ فجر الدعوة . وحاولوا التشكيك فى الرسالة وفى الرسول . وقد حاولوا استغلال علمهم وكونهم من أهل كتاب فى محاولة إقناع الناس بزيف الدعوة الاسلامية وعدم صحتها (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)(٢)

ولقد عانى النبى ﷺ منهم كثيراً فى بدء الدعوة . حيث عملوا على رد المؤمنين إلى الكفر بعد أن أكرمهم الله بالايمان - وعملوا على إيقاد نار الفتنة بين المسلمين . وإثارة عوامل الفرقة بينهم ، ومن هنا حذر الله المؤمنين من فعال اليهود . ونبههم إلى عدم إطاعتهم فقال :-

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله . ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم)(٣) .

---

[١] سورة المائدة آية ٨٢
[٢] سورة التوبة آية ٢٢
[٢] سورة آل عمران آية ١٠٠ ، ١٠١

ثم استعمل اليهود حرب الشبهات فحاولوا تشكيك المسلمين فى دينهم، وتشويه حقيقة الدين — آملين تحويل المسلمين عن دينهم . فتحدثوا فى النسخ وعدم جوازه، واستغلوا تحويل القبلة أيضاً ، وحاولوا التشكيك فى صحة الرسالة .

ثم ادعوا دعاوى باطلة فقالوا : (ما الهدى إلا ما نحن عليه . فاتبعنا يا محمد تهتد) وقال النصارى أيضاً مثل ذلك . فرد الله تبارك وتعالى عليهم دعواهم وفند مزاعمهم موجهاً رسول الله أن يواجههم برفض ما يدعون إليه . وإعلان أن المؤمنين يتبعون ملة ابراهيم الذى استقام على التوحيـــد . وأخلص لله فى عقيدته وعبادته . قال تعالى :—

(وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) (١) .

كذلك كانوا يثيرون الجدال العقيم والمحاجة الباطلة فى حقائق العقيدة نفسها فجادلوا فى وحدانية الله وربوبيته . وناظروا فى الاخلاص له والانقياد لأوامره . وترك زواجره . وفى ذلك يقول القرآن (قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم . ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم . ونحن له مخلصون)(٢) .

وقال تعالى :(وحاجه قومه . قل أتحاجونى فى الله وقد هدان . . الخ)(٣)

كذلك ادّعوا دعاوى باطلة . فقالوا إن ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا على ملتهم . وقد أخبر الله تعالى أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى . وأنهم كانوا أسبق من اليهودية والنصرانية . والله يشهد بحقيقة دينهم . وأنهم كانوا على الحنيفية الاولى التى لا تشرك بالله شيئاً فقال تعالى :

---

[١] راجع كتابنا الدعوة الاسلامية بين التنظيم الحكومى والتشريع الدينى ص ٢١٠ والآية من سورة البقرة : ١٣٥

[٢] سورة البقرة آية ١٣٩

[٣] سورة الانعام آية ٨٠

(ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)(١) . وقال أيضاً : (أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى . قل أأنتم أعلم أم الله . ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله . وما الله بغافل عما تعملون . تلك أمة قد خلت . لها ماكسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) (٢) .

هذه بعض مؤامراتهم قديماً ، وقد تحدث القرآن كثيراً فى مثل هذه المؤامرات حتى استحقوا لعن الله وغضبه وعذابه ، أما تخطيطاتهم فى العصر الحديث ، فقد عرف عنهم أنهم عملوا على انهيار الأخلاق فى العالم ، وخططوا لذلك ليستطيعوا السيطرة عليه من خلال هذا الانهيار .

وفى ذلك يقولون فى بروتوكولاتهم : —

يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان وعندئذ تسهل سيطرتنا ، إن فرويد منا وسيظل . من العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ويصبح همه الأكبر إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار الأخلاق . (٣)

كذلك الترويج لآراء علماء النفس والإجتماع التى تخالف آراؤهم الأديان السماوية واستغلالها فى تحطيم الأديان ، مثل نظريات ـ دارون ـ وماركس ـ ونيتشه ـ وماكدوجل ـ ودوركايم ـ وغيرهم . ويقولون عن دارون مثلا : ـ

(إن دارون ليس يهودياً ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين) . (٤)

---

[١] سورة آل عمران آية ٦٧
[٢] سورة البقرة آية ١٤٠ — ١٤١
[٣] بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة خليفة التونسى ص ١٣٠
[٤] المرجع السابق ص ١٣٥

ومنها أيضاً محاولة الحط من كرامة رجال الدين (غير اليهود) فى أعين الناس للإضرار برسالتهم التى يمكن أن تكون عقبة كئوداً فى طريقنا . . . إلى أن يقولوا : وحتى أن تعاليمهم (أى رجال الدين) سيكون لها أثر مناقض للأثر الذى جرت العادة بأن يكون لها » (١)

وباختصار فهم وراء كل انحراف . هم وراء الشيوعية التى ظهرت على يد اليهودى (كارل ماركس) ، وهى تهدم قواعد الأخلاق والأديان - وهم وراء (دوركايم) اليهودى الذى أسموه أستاذ علم الاجتماع ، لأنه حاول أن يبطل آثار الأسرة فى تطور الآداب والفضائل ، وهم أيضاً وراء (فرويد) اليهودى الذى أرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والأسرية إلى الغريزة الجنسية ، وهم أيضاً وراء (سارتر) الذى ينكر وجود الله و (نيتشه) الذى يدعو إلى الإلحاد .

ويكفى دليلا على ذلك ما يقولونه فى بروتوكولاتهم (لا .... وا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (غير اليهودى) سيكون واضحاً لنا بالتأكيد .(٢)

والمعروف : - أن دور الأزياء الموجودة الآن فى لندن وروما وباريس وغيرها من عواصم الغرب ، أصحابها يهود أو يمولها اليهود .

كذلك ثبت أن اليهود قد طبعوا ملايين المصاحف ووزعوها فى بلاد كثيرة من افريقيا ، وكانت آيات كثيرة فى هذه المصاحف محرفة بطريقة ذكية لا يستطيع اكتشافها الإفريقيون ، لولا أن بعضها وقع فى يد بعض العرب

---

[١] المرجع السابق ص ٢٠٤ - ٢٠٥
[٢] المرجع السابق ص ١٣٢

المبعوثين إلى بعض الدول الإفريقية . ونبه الأزهر هذه الدول لجمعت معظمها وأحرقت فى الميادين العامة .

ويكفى عن اليهود أنهم اشتهروا بتزييف حقائق التاريخ وأن معظم المستشرقين الذين حاولوا تشويه الثقافة الإسلامية منهم .

كذلك . فهل بعد اغتصابهم لأرض فلسطين وإقامة دولة لهم فيها عن طريق الغصب والقوة دليل على عدائهم للإسلام وأهله ؟ . وقد قتلوا من المسلمين الآلاف فى مذابح دير ياسين وغيرها حينما أرادوا توطيد سلطانهم فى الأرض التى اغتصبوها ؟ .

الحديث الخامس :

الإستشراق ـ دوافعه واغراضه

لا يعرف بالضبط من هو أول غربي عُني بالدراسات الشرقية ؛ ولا في أي وقت كان ، إلا أن المؤكد أن بعضَ الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها . وتثقفوا في مدارسها وترجموا القرآنَ والكتبَ العربيةَ إلى لغاتهم ، وتتلمذوا على علماءِ المسلمين في مختلف العلوم . وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات . ولما عاد هؤلاء الرهبانُ إلى بلادهم . نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم . ثم أسست المعاهد للدراسات العربيـــة ، وأخذت الأديرة والمدارس الغربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية وظلت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب ، وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون .

وهناك شبه إجماع الآن على أن انتشار الاستشراق في أوربا ظهر بصفة جدية بعد فترة ما يسمى في التاريخ الأوربي (عهد الإصلاح الديني) .[1]

وفي القرن الثامن عشر وهو العصر الذى بدأ فيه الغرب استعمار العالم الإسلامي ظهر الاستشراق بصورة أوضح . وبدأ عدد من علماء الغرب ينبغون فيه . ويصدرون لذلك المجلات في جميع الممالك الغربية . وقد ساعدهم استعمار الغرب لبلاد المسلمين ، في الحصول على المخطوطات العربية والإسلامية . إما بشرائها بثمن بخس من أصحابها الجهلة أو سرقتها من المكتبات العامة . ونقلها إلى بلادهم ومكتباتهم حتى بلغت في أوائل القرن التاسع عشر ٢٥٠ الف مجلد ما زال يتزايد حتى اليوم .[2]

---

[١] معالم الثقافة الإسلامية : وأصول النظام الإسلامي للمؤلف .

[٢] نفس المرجع السابق وانظر الفصل الخاص بالاستشراق من كتاب لمحات من الثقافة الإسلامية . عمر عوده الخطيب

أما دوافع الاستشراق فالدافع لذلك لم يكن دافعاً علمياً خالصاً لدى جمهرة المستشرقين . حيث روعى عدم وجود نزاهة علمية وعدالة عند التحقيق لأن موقف الاوربى من الإسلام موقفاً متعصباً شديد التعصب وميله العاطفى للمسيحية دفعه إلى التجنى على الإسلام وأهله .

ومن هنا نستطيع أن نلخص الدوافع الحقيقية وراء الاستشراق فى عدة نقاط .(١)

أولا : الدافع الدينى التبشيرى وبخاصة أن معظمهم رجال دين . لذلك حاولوا تشويه سمعة الإسلام فى نفوس رواد ثقافتهم من المسلمين بإدخال الوهن إلى العقيدة الإسلامية .

ثانياً : الدافع الاستعمارى حيث أقبل الأوربيون على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز المبشرين وإرسالهم إلى العالم الإسلامى . والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار حيث مكن الاستعمار هؤلاء المستشرقين المبشرين واعتمد عليهم فى بسط نفوذه فى الشرق . وفى الوقت نفسه استطاع المبشرون المستشرقون إقناع زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة للاستعمار الغربى فى الشرق . وبذلك سهل الاستعمار لهؤلاء مهمتهم وبسط الاستعمار عليهم حمايته وزودهم بالمال والسلطان .

ثالثاً : الدافع العلمى : والمستشرقون الذين أقبلوا على الاستشراق بدافع علمى صرف قليلون جداً ، وجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمى السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المسلمين ، ومنهم من اهتدى إلى الاسلام وآمن برسالته ، وهذه الفئة ندر وجودها فى أوساط المستشرقين .

---

[١] راجع فى هذا الموضوع الكتاب السابق وكتاب التبشير والاستعمار لعمر فروخ ومصطفى خالدى .

رابعاً الدافع التجارى والشخصى: حيث دخل فريق من الناس ميدان الاستشراق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية وبعضهم اتخذ الاستشراق وسيلة لإشباع رغباته الخاصة فى السفر أو فى الإطلاع على ثقافات العالم القديم .

. أما أهداف الدراسات الاستشراقية : فيمكن اعتبار أبرز هدف للمستشرقين من دراساتهم هو (إضعاف مُثل الإسلام وقيمه العليا من جانب وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر - وإظهار أى دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر من باعث الحقد والتعصب) .

ويمكن تلخيص أهداف ووسائل الدراسات الاستشراقية فيما يلى :

١ – إنكار أن يكون القرآن الكريم كتاباً سماوياً منزلا من عند الله وادعاء أنه ليس أكثر من تعبير عن انطباع البيئة العربية فى نفس الرسول أو أنه استمد هذه المعلومات من أناس كانوا يخبرونه بها .

٢ – التشكيك فى صحة رسالة النبى ﷺ ومصـــدرها الإلهى وإنكار الإسلام كدين من عند الله وإدعاء أنه ملفق من الديانتين اليهودية والمسيحية .

٣ – التشكيك فى صحة الحديث النبوى الذى اعتمده علماؤنا المحققون .

٤ – التشكيك فى قيمة الفقه الإسلامى الذاتية وادعاء بعضهم من أن هذا الفقه مستمد من الفقه الرومانى .

٥ – التشكيك فى قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمى وتشكيكهم فى ثراء الأدب العربى وإظهار هذا الأدب مجدباً فقيراً لنتجه إلى آدابهم .

٦ – تشكيك المسلمين فى قيمة تراثهم الحضارى وإضعاف ثقتهم بهذا التراث، وبث روح الشك فى كل ما بين أيديهم من قيم وعقيدة ومثل عليا ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم ولنشر ثقافته الحضارية فيما بينهم فيكونوا عبيداً لهم بجرهم حبها إلى حبهم، أو إضعاف روح المقاومة فى نفوسهم .

٧ — إضعاف روح الإخاء الإسلامى بين المسلمين فى مختلف الأقطار الإسلامية بإثارة الخلافات وإحياء القوميات ، وغير ذلك مما يفرق ولا يجمع .

ولم يترك المستشرقون وسيلة لنشر أبحاثهم وبث آرائهم إلا سلكوها ومنها تأليف الكتب فى الموضوعات المختلفة عن الاسلام ، وفى أكثرها تحريف متعمد فى نقل النصوص ، أو تفسير الوقائع والاستنتاج منها .

٢ — إرساليات التبشير إلى العالم الاسلامى لتزاول أعمال الإرسالية فى الظاهر فقط كالمستشفيات والجمعيات والمدارس والملاجىء وغير ذلك .

٣ — إلقاء المحاضرات فى الجامعات والجمعيات العلمية العربية والإسلامية وبثهم السموم خلال هذه المحاضرات .

وإن كان كثيرون من المسلمين قد تأثروا بالاستشراق ، إلا أن العوامل الفكرية والثقافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية للمسلمين وقفت سداً منيعاً فى وجه التغيير المأمول ، وبقى الاسلام كما هو قوياً بأصوله متيناً بركائزه ثابتاً بخصائصه التى امتاز بها على غيره .

الحديث السادس :

المخطط العالمى لانحراف الشباب

الشباب عنوان تقدم الامم ودعامة نهضتها . وهم أسبق فئات الامم إلى قبول الدعوات الإسلامية، والامم إنما تنهض على أكتاف أبنائها الاقوياء . الذين تجرى فى عروقهم دماء الشباب ، وتفيض قلوبهم بالشجاعة والوطنيـة . ويؤمنون بقضية تطوير مجتمعاتهم فى ظل الإيمان الكامل بالله ورسوله .

لكن : ـ ماذا يصنع الشباب ومخطط يهودى قديم حشد له اليهود كل طاقاتهم وإمكاناتهم المادية والفكرية المنظورة وغير المنظورة ، بعد أن درسوا جميع العوامل المؤثرة فى الشباب ، هذا المخطط يعتمد اعتماداً كبيراً على إثارة الشك عند الشباب ، خصوصاً فيما يتعلق بعقيدته ، وقد وضعوا فى اعتبارهم أن روح التدين الحقيقى الذى ينبجس من داخل النفس وأعماقها . إنما يظهر فى عهـد الشباب . عهد الحرية والاستقلال العقلى . وعصر الشباب هذا بإجماع علماء النفس الدينيين . إنما هو عصر الشك فى كل التقاليد حتى فى الدين نفسه . ولا يستطيع واحد من الناس أن ينكر أن اليقظة الدينية لا تستقل بها الفطرة الانسانية وحدها ، وإنما يستيقظ الشعور الدينى من رقدته حينما يحس وقع العوامل الخارجية .

هذه بعض نصوص من بروتوكولات حكماء صهيون . تكفى دليلا قاطعاً على مايصنعه اليهود للقضاء على هذا الشباب وعقيدته، يقولون فى بروتوكولاتهم :

« يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان وعندئذ تسهل سيطرتنا ، إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ويصبح همه الأكبر إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » (١)

---

[١] بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة احمد خليفة التونسى ص ١٣٠

وفرويد هذا قالوا عنه إنه أستاذ أساتذة علم النفس ، ورفعوه إلى القمة مع أن أساس نظريته يتناقض تماما مع كل العقائد الدينية . فقد أرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والأسرية إلى الغريزة الجنسية حتى يبطل قداستها فيخجل الإنسان منها ويزهد فيها .(١)

ولم يكتف اليهود بنظرية فرويد والترويج لها ، وإنما روجوا وساعدوا فى الترويج لكل الآراء الهدامة التى تؤدى إلى غرضهم . وهم يعترفون بهذا فيقولون فى البروتوكولات (لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء . ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل . والأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (ويقصدون بذلك الفكر غير اليهودى) سيكون واضحاً لنا بالتأكيد .(٢)

بل أنهم يعترفون صراحة بأنهم يروجون لهذه النظريات الإلحادية لتحطيم الدين . فيقولون فى البروتوكولات أيضاً (إن داروين ليس يهودياً ولكنا عرفنا كيف نروج آراءه ونستغلها فى تحطيم الدين) .

أيها الاخوة المستمعون : - لقد استطاع هؤلاء اليهود أن يرتبوا كما قالوا نجاح داروين وماركس ونيتشه ، وأن يروجوا لآرائهم ، ووصلوا بذلك إلى ما كانوا يرجونه من الاثر الهدام للأخلاق والأديان ، وظهرت الشيوعية وانتشرت . وصاحبها كارل ماركس اليهودى ،وهى كما تعرفون تهدم قواعد الأخلاق وتنكر الاديان وتقول عنها إنها مخدر الشعوب واشتهر على أيديهم داروين ونظريته الذى أنكر وجود الله وقال عنه (إننا اخترعناه لكى نغطى ما لدينا من ضعف ونفسر كل ما فى تجربتنا من ثغرات .(٣)

---

[١] راجع مقدمة البروتوكولات ص ٧٢
[٢] البروتوكولات ص ١٣٢
[٣] مقدمة بروتوكولات حكماء صهيون ص ٧٢

ميدانى سادس :

لقد قام مجموعة من علماء النفس الغربيين بدراسة مدى شكوك الشباب الدينية . وأسبابها الرئيسية ، وقام بعضهم بدراسة تجريبية على عدد كبير من الشباب على اختلاف أعمارهم ، ثم ثبت أن ظاهرة التحول الدين (أى ترسيخ العقيدة) تحدث بين العاشرة والخامسة والعشرين من عمر الإنسان . وقد أكد (كو) أحد هؤلاء العلماء بعد دراسة لألف وسبعمائة وأربعة وثمانين حالة (١٧٨٤) أن ظاهرة التحول الدينى الحق هى سن السادسة عشرة . كذلك أكد (استانلى هول) بعد دراسة تجريبية لأكثر من أربعة آلاف حالة ، بأن التحول الدينى يحدث فى سن السادسة عشرة .

ويجىء ثالث و .و (فاستاربك) فيقول : «إذا لم يحدث التحول الدينى قبل العشرين فقلما يحدث بعد ذلك .

من هنا تظهر أهمية هذه المرحلة (مرحلة الشباب) وهذه السن بالذات مما يحتم ضرورة الاهتمام بالشباب ابتداء من سن الطفولة . ومراعاة غرس العقائد والأحكام الدينية فى عقولهم من الصغر ، وبطريقة تراعى فيها مراحل نموهم العقلى .

على أن يُفَسّهم بكل الألاعيب والخططات التى تبغى النيل منه ومن عقيدته .

ولذا فإنى أهيب بعلمائنا ومثقفينا ، أن يراجعوا هذه النظريات العلمية التى شاعت وانتشرت لدارون وماركس وماكدوجل ودوركايم ونيتشه وسارتر وفرويد وأمثالهم لإثبات زيفها وحيفها ، بعد أن اعترف اليهود بتعهد الترويج لها بقصد القضاء على الدين ، وأهيب بالمتخصصين فى علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وغيرها من العلوم أن يتجهوا إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة ففيهما ما يشفى القلوب ويريح النفوس ويتفوق على جميع النظريات الإنسانية فى جميع المجالات .

كما أرجو أن يستمان فى هذه السن بمختلف العوامل والمؤثرات التى تتطلبها التنشئة الصالحة، من قدوة وتأديب وتعهد وتربية دينية، ورعاية نفسية وصحية وظروف اجتماعية مواتية .

والإيمان أيها السادة : هو أقوى الضمانات لسلامة السلوك البشرى .

الحديث السابع :

كيف نحارب الشيوعية ؟

لماذا نجحت الشيوعية هذا النجاح ؟ برغم انحراف مبادئها ، وبرغم وقوف كثير من القوى فى وجهها لصدها وصد انتشارها ؟ وكيف استطاعت الشيوعية أن تسيطر الآن على قريب من نصف سكان الأرض ، خضعت لها الصين وهى ربع سكان العالم ، هذا عدا روسيا وبلاد أخرى كثيرة انتشرت فيها الشيوعية انتشاراً واسعاً ، وهى بصدد تغيير أنظمة الحكم فيها للسيطرة عليها سيطرة كاملة . وربما كان هذا الفهم الجديد للأثر الإسلامى المشهور (اطلبوا العلم ولو فى الصين) يتناسب مع هـــذه الأوضاع العالمية التى نعيشها . وهو أنه لابد من ملاحظة أحداث ذلك الجانب من الشرق ، ملاحظة فعالة يقظة ، فربما أفدنا من الصين دروساً كبيرة الأهمية بالنسبة لمعرفتنا لأنفسنا ولماضينا . وللشكل المحتمل لمستقبلنا ، وللطريقة التى يؤثر بها هذا الشكل المحتمل فى حاضرنا ، من مواقف أساسية وضرورية .

إن الصين مع كثرة سكانها قد اعتنقت الشيوعية وآمنت بها عقيدة . فكيف انتصر المبدأ الشيوعى فى هذه البلاد الشاسعة ؟ وكيف تأثرت الصين وبلاد آسيوية أخرى كثيرة . مسلمة وغير مسلمة ، فتساقطت أمام هذا المد الشيوعى الخطير ، واعتنقت ما جاء فى برامج الشيوعية من الجوانب العقلية والروحية . على أساس أنها الحل الأمثل لمشاكل الناس التى يعيشونها ، وأنها المنقذة لهم من هذا الخمول والكسل الذى يحيونه . وربما كان ذلك لأنها تبشرهم بالفردوس الشيوعى على الأرض ، إلا أن الأهم من ذلك أن الكثيرين من دعاة الشيوعية وزعمائها . صورة صحيحة لما يدعون ، ومثالا واقعياً لما يقولون ، وللأسف يظهرون أمام أعوانهم وأتباعهم بمظهر المخلص الأمين لهذا الفكر الذى يطالبون الغير باعتناقه .

لقد نجح دعاة الشيوعية نجاحاً كبيراً ، ولا يزالون يعملون للاستمرار فى هـــذا النجاح . والظروف العالمية الآن سياسياً وعقدياً تساعدهم فى ذلك . فالشيوعية بطبيعة الحال نظام متعدد الجوانب ، يثير موضوعات تتعلق بطبيعة الدولة والمجتمع والحياة الاقتصادية . كما تثير مسائل ميتافيزيقية ، أهم من هذه تتصل بطبيعة الحق والإنسان والتاريخ .

والشيوعية تحاول أن تقنع الناس بأن الأديان لا تعدو أن تكون نتيجة فرعية للعوامل الإقتصادية ، وأنها تقديس للنظام الاجتماعى القائم وابتكرت للمحافظة عليه (مما جعل ماركس نبي الشيوعية عند الشيوعيين أن يقول : إن الخيالات الموجودة فى الدماغ الإنسانى ليست إلا أعراضاً طارئة لسلوك المادى الحيوى للإنسان ، ثم يقرر نتيجة لهـذا بأن الأخلاق والدين والميتافيزيقيا والنظريات المجردة العامة ، والأشكال الخاصة بها من الشعور ، ليس لها فى حقيقة الأمر استقلال) .

والغريب أن بعض المفكرين من أعداء الشيوعية (مسلمين وغير مسلمين) يتصورون أن مجرد الرد على هذه الآراء كاف لإثبات زيفها . ولإبعاد الناس عن الشيوعية ، بل ربما يصل الأمر إلى فهمهم بأن ذلك كاف لإقناع الشيوعى بالعودة إلى قبول المقررات الدينية ، وحتى نكون منصفين لأنفسنا وللحق . فإنه مما لاشك فيه ، أن السلوك الدينى عند المسلمين وغيرهم ، قد أفاد الشيوعية كثيرا وأعطى النظرية الماركسية قوة أفادت فى نجاحها وانتشارها .

فالنظرية الماركسية وجـــدت دعامة وتأييـداً فى كثير من نواحى الحضارة المسيحيـة والمجتمع المسيحى ، كما رآها ماركس وانجلز فى أيامهما . كذلك لانستطيع أن ننكر أن دعوى الشيوعية بأن الدين مخدر الشعوب قد أفادها أيضاً واقع المسلمين فى بعض أجزاء من العالم الإسلامى . بقيت فيه شرور

إجتماعية وظلم إجتماعى تستر تحت اسم قدسية الدين - وفى بعض هذه الأجزاء من العالم الاسلامى أيضاً بقيت مواقف تعمل على إخماد النقد الاجتماعى الضرورى، وتعويق التطور المطلوب، تحت إسم هذه القدسية الدينية. فأضروا بذلك الإسلام كثيراً، حيث وقفوا فى طريق إصلاحه المجتمعات ووفائه بالتزامات الناس. وأفادوا بذلك الشيوعيين، الذين استغلوا هذا الضعف عند المسلمين، الذين اتبعوا بهذا ما تزعمه الشيوعية. من أن الحقيقة الدينية ليست مطلقة الصحة، مع أن حقيقة الاسلام، والذى هو الرد القوى الصحيح على هذا الزعم الشيوعى، أن نبين لهم ولغيرهم، أن الحقيقة لا تقبع فى الواقع أى اعتبار من اعتبارات المصلحة العاجلة. والأنانية الإنسانية فى أى شكل من أشكالها — وأن الوحى السماوى مطلق كما يقرر الاسلام، ولذلك يستلزم أن نكون نحن أنفسنا خاضعين خضوعاً كاملا لجميع تعاليمه وإرشاداته.

كما يتحتم أيضاً لحرب الشيوعية والرد عليها أن نجيب إجابات جوهرية وعملية على دعاواهم. كما يصنعون حين يهاجمون أعداءهم. فلا يكفى أبداً أن نقول عن الشيوعية أو غيرها من المذاهب الإلحادية. إنها مذاهب إلحادية كافرة. أو أنها أصل الشر، أو غير ذلك من نعوت ينعت بها دعاة الاسلام هذه المذاهب والأفكار. وإنما لابد أن ندلل على خطأ الشيوعية باتباع المنهج الصحيح لذلك. ومنه إستعمال الأدلة والبراهين العلمية الصحيحة للرد بها على كل دعوى من دعاواهم، بعد دراسة معتقداتهم وآرائهم دراسة وافية مستوعبة. ثم نبحث عن المنافذ التى ينفذون إليها بين المسلمين. وبين غيرهم. وأسباب اقتناع الكثيرين من أبناء هذا العصر بهذا الفكر مع انحرافه وضلاله. وفى رأيى شخصياً أن مقاومة الشيوعية الآن بمجرد الرد عليها بفكر مناقض ومضاد. لا يكفى على الإطلاق ولا يؤدى إلى نتائج حاسمة طالما بقينا على ما نحن فيه، صورة سيئة للإسلام. مقاييسنا الأخلاقية أو التنظيمية فى خير أحوالها مخدرة. وفى أسوءها منافقة.

ولهذا فلن نستطيع أن نغلب الشيوعى فى التفكير ولا فى العمل . فلا يكفى أبداً أن نقول كما نقول اليوم ، لو كان الأمر كما ينبغى أن يكون حسب مبادئنا الدينية لكان كاملا . خاصة إذا لم نلتفت إلى السبب فى عدم بلوغنا ما يجب أن يكون ؟ فلماذا لا نكون نحن ويكون وجودنا الصحيح حسب مبادئنا الدينية الصحيحة . ويكون هذا الوجود الصحيح . هو الجواب على الشيوعية والسلاح القوى لمجابهتها ؟ .

فلا شك فى أن هناك تقصيراً شديداً فى بلوغ المستوى الذى تتطلبه العقيدة . ولهذا فن الضرورى أن تدعونا واقعية المعارضة الشيوعية ، إلى أن نواجه الأسباب التى من أجلها لم يبلغ المجتمع الاسلامى كماله المنشود . وإلا كنا مقصرين فى حق ديننا وأوطاننا . واستمرت الشيوعية فى نشاطها ونجاحها تتساقط أمامها دول وشعوب .

هدانى الله وإياكم للحق ؟

الحـديث الثامن :

آداب الجمعة وحـكمة مشروعيتها

لاشك أن هناك حكمة إلهية جليلة فى اختيار يوم من أيام الاسبوع يجتمع فيه المسلمون ، يحدثهم خطيب المسجد فى موضوع من موضوعات الحياة ، ويعرض عليهم رأى الدين فى هذا الموضوع ، وبيان ما يجب عليهم عمله مما يصلح دينهم ودنياهم : ولاشك أن الحكمة سامية حين جعل الله هذا الاجتماع وهذا اللقاء أسبوعياً . حيث يظل الناس وباستمرار على علاقة ببعضهم البعض ، وعلى علاقة أيضاً بحلول مشاكلهم ، فالفترة بين الإجتماع والاجتماع ، لا هى بالقصيرة فيملوا . ولا هى بالطويلة فتضيع الحكمة من هذا الاجتماع .

هذا والاجتماع الأسبوعى أيها السادة ليس عملا روتينياً . أو لقاء شكلياً كما يتصوره بعض الناس . وإنما جعل الله هذا الاجتماع وهذا اللقاء فريضة من الفرائض . يجب على القادر عليها أن يؤديها أداء كاملا . وأن يحاول ما استطاع الاستفادة منها . وإذا كان فيها لقاء الناس بعضهم ببعض . وتعارفهم ومعرفة من غاب منهم ومن حضر . فيسأل الحاضر عن الغائب . وتستمر العلاقات الانسانية بين الناس . إلا أن هناك مع ذلك شيئاً مهماً لا يفطن إليه وللأسف كثير من المسلمين ، وهو هذا الموضوع المثار . هذه الخطبة التى سيقف خطيب المسجد على منبره ليعرضها ويناقشها ويحللها . فيذكّر ويعرّف الحل من جهله أو غاب عنه . وتتفتح أبواب حكمته لمن أراد أن يتأكد ويستزيد .

من هنا وجدنا المولى سبحانه ومن فوق سبع سماوات ينادى المؤمنين إلى صلاة الجمعة . ويستحثهم على أدائها والسعى إليها . ويوضح لهم أنها من الأهمية بحيث لا يجب أن يشغلهم عنها بيع ولا شراء . والبيع والشراء كما تعرفون أيها السادة . هو أكثر ما يشغل الناس فى هذه الحياة .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) . (١)

فالآية الأولى كما ترون تأمر المسلمين أن يتركوا البيع وسائر نشاط المعاش بمجرد سماعهم الأذان وترغبهم فى ترك شئون المعاش ، للانشغال بالذكر فى هذا الوقت . ليتذوقوا هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى فترة من الزمان . ثم بعدها لا مانع من أن يعودوا إلى مشاغل عيشهم . لكن مع ذكر الله تبارك وتعالى الذى يجب ألا يغيب الانسان عنه، ولذا كانت الآية التالية : ـ

(فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

أيها الأخوة المسلمون : إن صلاة الجمعة هى الصلاة الجامعة . التى لا تصح إلا جماعة . وهى صلاة أسبوعية كما قلنا يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله . وتشرح لهم أموراً من أمور الدين والدنيا .

لكننا يجب أن نقف أمام هذه الفريضة التى يجهل الكثيرون معناها ومغزاها . فمثلا نجد أحاديث كثيرة وردت عن النبى ﷺ فى فضل هذه الصلاة والحث عليها، والاستعداد لها بالغسل والطيب ، من ذلك مثلا ماجاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

(إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل) (٢) . كذلك يروى أصحاب السنن الأربعة من حديث أوس بن أوس الثقفى قوله . سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

[١] سورة الجمعة آية ٩ و ١٠

[٢] راجع صحيح البخارى ص ٢١٢ جـ ١ والحديث من رواية بن عمر

(من غسل واغتسل يوم الجمعة وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام ، واستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها ، (١) وأحاديث كثيرة أخرى فى فضل يوم الجمعة وضرورة الاغتسال لها ووضع الطيب، وارتداء الثياب الحسنة . وضرورة الإنصات وكيف أن صلاة الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى .

ولا شك أن الدعوة للاغتسال فى يوم الجمعـــة وارتداء الملابس النظيفة لايحتاج إلى تعليل . خاصة وأن أهل البلد جميعاً يلتقون فى المسجد يضم الجميع مكان واحد ويقفون فى صفوف متراصة . لاتحدد فيها أماكن الأغنياء ولا أصحاب السلطة ولا الكبار ولا الصغار . فالكل سواء فى بيت الله . وفى ضيافته لا صغير ولا كبير . ولا غنى ولا فقير . ويجب أن يجلس الناس لا يشغلهم عن ذكر الله فى المسجد رائحة عرق . أو ثياب رثة . أو حشرة تمرح على ملابس صاحبها غير عابئة بهذا الجمع الغفير . والملفت للنظر أيها السادة فى دعوة النبى ﷺ الناس إلى التبكير فى الذهاب للمسجد والانصات للإمام والدنو منه والاستماع إليه بلا لغو . لماذا ؟ .

ليعيش الناس جميعاً مع كل كلمة تقال . وكل قضية تطرح . بعيدين عن شواغل المعاش وجواذب الأرض . وليخرجوا فى النهاية بما يفيدهم . وإلا لما كان هناك داع مطلقاً لهذا الاجتماع . وهذه المشقة وهذا الجهد .

ولعلنا نتصور مدى اهتمام السلف الصالح بصلاة الجمعة . حين نقرأ مثل ما يرويه ابن أبى حاتم عن عراك بن مالك رضى الله عنه . بأنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال :

---

[١] والنص فى البخارى : لايغتسل رجل يوم الجمعة وتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهن أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له . ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى راجع صحيح البخارى ص ٢١٣ ج ١

(اللهم إنى أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتنى فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين) .

أيها السادة أن استهتار الكثيرين من المصلين بصلاة الجمعة ، وتعمد الكثيرين من المصلين الذهاب إلى المسجد بعد انتهاء الخطبة لأداء ركعتى الجمعة فقط ، هو من وجهة نظرى جرم عظيم فى حق الإسلام وشريعته ، وعصيان لأمر الله الذى دعا الناس إلى السعى للمساجد بمجرد سماعهم النداء ، وترك كل ما يشغلهم من أمور المعاش ، ومخالفة أيضاً لأمر النبى ﷺ الذى دعا إلى التبكير والدنو من الإمام والإنصات له ، فصلاة الجمعة ليست مجرد ركعتين تؤديان فى جماعة ، وإلا ما كان هناك داع لفرضيتها ، وإنما هى خطبتين وركعتين ، وأرى أن سماع الخطبتين هما المقصود الأول من الجمعة ، ولا شك أن خطيب المسجد مسئول عن هروب الناس من سماع خطبته ، حيث ينظر كثير من خطباء المساجد الآن إلى الخطبة على أنها عمل روتينى ، فلا يحاولون إثارة المشاعر ولا اتباع الأساليب التصويرية التى تتناسب مع هذا العصر ، ولا يحاولون أيضاً مناقشة الموضوعات التى تتناسب مع المستمعين ، ولا القضايا التى تهمهم .

وقد يُضيّع الخطباء معنى الخطبة حين يتكلفون فى النطق ، ويتزيدون فى جهارة الصوت ، أو حين لا يتصرفون بأصواتهم انخفاضاً وارتفاعاً ، مسايرة لموضوع الخطبة ، وليبعدوا السآمة عن المستمعين ، ويجنبون خطبتهم الرتابة المملة .

فالخطيب لا يؤثر فى المستمع عن طريق الأفكار فحسب ، وإنما يؤثر أيضاً فى حاسة السمع والبصر . وكم من خطبة مفيدة ضاعت على المستمعين بسبب طريقة عرضها الخاطئة . وفشل صاحبها فى التأثير بها على المستمعين .

وقد أثر النبى ﷺ كراهيته التخلل باللسان ، وقيل إن نجاح الحجاج سياسياً ، لأنه كان خبيراً بأثر الصوت فى الجماهير ، وكان من تمام طريقته

المسرحية فى التأثير فى سامعيه، أنه إذا صعد المنبر تكلم رويداً رويداً حتى لا يكاد يسمع ، ثم يتزيد فى الكلام حتى يخرج يده من مطرفه، ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من فى المسجد .

أيها الأخوة المكرام : الدين هو الدين من يوم أن جاء به محمد ﷺ ، وإمكانيات الدعوة متوفرة أكثر من ذى قبل ، ومع ذلك فالأثر ضعيف إن لم نقل غير موجود على الإطلاق ، فالعيب ليس عيب الدعوة ، وإنما هو عيب بعض الدعاة ، فلنحاول ما استطعنا فهم دين الله فهماً جيداً ، ومعرفة روحه وحكمة التشريعات فيه . وفى الجمعة يعرف الإمام واجبه تماماً فيؤديه على الوجه الأكمل ، ويعرف المصلون معنى صلاة الجمعة وحكمة مشروعيتها فيقبلون عليها إقبالا ذاتياً ، ليستفيدوا من هذا الخير الذى أراده الله لهم ودعاهم إليه .

رابعا :

نماذج من الأحاديث الدينية

وتشتمل على الموضوعات التالية :

١ - دعوة القرآن لاستعمال العقل وإعمال الفكر والنظر
٢ - دعوة القرآن للتفكر في خلق الإنسان
٣ - تسخير الحيوان للانسان من نعم الله عليه
٤ - من حكمة الله في الزروع والثمار
٥ - حكمة ضرب الأمثال في القرآن الكريم
٦ - معنى الإنابة مع القرآن الكريم
٧ - حقيقة الإخلاص كما يصوره القرآن الكريم
٨ - موقف القرآن من الرياء
٩ - الظلم وتحريمه من القرآن الكريم
١٠ - الحلال والحرام كما يبينه القرآن الكريم
١١ - الإحسان في ضوء القرآن الكريم
١٢ - الوفاء بالعهود

هذه نماذج من الأحاديث الدينية ، والتى تصلح لبرامج إذاعية متخصصة ، كإذاعة القرآن الكريم ، وتصلح أيضاً لإلقائها كخطب جمعة ، يلقيها خطيب مسجد عُرف أن معظم جمهوره من المثقفين ، كما أن فى إمكان الخطيب اختيار مثل هذه الموضوعات ، واختصار بعض استدلالتها من الآيات ، والتوسع فى شرحها لتكون خطبة جمعة عادية تلقى فى المساجد .

وهى أسلوب جديد فى الخطابة ، يجب أن يتعود عليه خطباؤنا حتى لا يمل المستمع الطريقة المعتادة ، التى اعتادوها من معظم خطبائنا ، ولهذا فقد اخترت من هذه النماذج بالذات اثنى عشر موضوعا سيكتشف القارىء أن فيها فكراً جديداً ، وأسلوباً مبتكراً ، لم يتعود على سماعه أو قراءته . وسيلاحظ أننا اعتمدنا على القرآن أكثر مما اعتمدنا على غيره . واعتمدنا كذلك على إحصاء الآيات التى تتحدث فى الموضوع . ويمكن اعتبار هذه الموضوعات من (التفسير الموضوعى) الذى يهتم بالموضوع الواحد من خلال القرآن كله .

وقد راعيت أيضاً وضع المراجع فى الهامش ، تسهيلا للقارىء ، ولإمكان الرجوع إلى الدليل بسهولة ، سواء كان ذلك آيات قرآنية ، أو أحاديث نبوية .

وفى هذه الموضوعات بالذات ، كنت اعتمد الإعتماد الأكبر على القرآن الكريم وحده ، ولا أرجع إلى كتب التفسير أو الحديث إلا فى القليل النادر جداً حيث كنت أعيش الفكرة بكل كيانى ووجدانى . وأستشف وأستخلص من بين الآيات القرآنية كثيراً من الحكم التى ستلاحظونها عند قراءتكم لهذه الموضوعات بإمعان .

وكنت أضع أمامى الآيات القرآنية التى تتحدث فى الموضوع الواحد . وأحاول المقارنة بينها . ومحاولة الوصول إلى بعض ما فيها من أسرار وإعجاز علمى أو بلاغى .

ولهـــذا فإني أنصح القارىء الكريم ن يحاول استعمال هذه الطريقة ، وسيكتشف حكماً أخرى لم اكتشفها . وأسراراً عظيمة لم أتوصل إليها .

وأسأل الله أن يهديني وإياك لخدمة القرآن الكريم . وخدمة ديننا العظيم .

المؤلف

الحديث الأول :

دعوة القرآن لإستعمال العقل وإعمال الفكر والنظر

الملفت للنظر أن كثيراً من آيات القرآن الكريم تدعو الى التفكر فى هذا الكون بسماواته ونجومه وكواكبه وأراضيه . وتلفتُ النظرَ إلى هذه المخلوقات من حولنا . كما تلفت النظر إلى خلق الإنسان نفسه وما ذلك كلّه إلا أدلة مادّية ملموسة على إحكام اللطيف الخبير ، ومع أن كثيراً من آيات القرآن الكريم قد تحدثت عن كثير من هذه الدلائل التى تثبت وجود الله تعالى ووحدانيته دون أن تدعو الناس صراحة إلى إعمال العقل والتفكير . فإننا نجد القرآن أيضاً برغم ذلك . يتحدث صراحة عن إعمال العقل وعن التفكير فيما يعرض عليهم من أدلة مادية ملموسة تقف شاهداً ودليلا على وجود الله ووحدانيته . فقد ذكرت لفظة يعقلون (٢٢) مرة فى اثنين وعشرين موضعاً فى القرآن الكريم . كما ذكرت كلمةُ (تعقلون) أربعاً وعشرين مرة والملفت للنظر هو أن ثلاثة عشر آية من هذه الآيات ختمت بقوله (أفلا تعقلون) وكأنها تدفعهم دفعاً إلى إعمال العقل فيما يُعرض عليهم من آيات بينات واضحات .

أما التعبير (لعلكم تعقلون) فقد ذكر فى ثمانى آيات من سبع سور من سور القرآن الكريم .

أما لفظة (يعقلون) والتى تكررت فى القرآن الكريم ٢٢ مرة كما قلنا فإن أكثر هذه اللفظة جاءت بعــد ذكر الدلائل على وجود الله وإثبات هيمنته وسيطرته على ما فى السموات والأرض . لتدفع من تتلى عليه هذه الآيات إلى النظر فى هذه الآيات الواضحة الدالة على قدرة هذا الإله الذى أشرك به كثير من الناس ولذلك نجدُ القرآن الكريم فى أكثر هذه الآيات القرآنية يقرن لفظة (يعقلون) مع دعوة الناس للنظر فى هذه الأدلة التى يعرضها والتى أطلق عليها اسم آيات فيقول :

(إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) ، أو (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) ، أو (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون). (١)

أما لفظة تتفكروا وتتفكرون ويتفكروا ويتفكرون. فقد ذكرت فى القرآن الكريم ثمانى عشرة مرة وكان معظمها أيضاً ختماً لآيات قرآنية اشتملت على شواهد وأدلة ظاهرة على وجود المولى سبحانه وتعالى ودليلا على وحدانيته وتفرده بالخلق ، وكانت ست آيات من إحدى عشرة آية ذكرت فيها لفظة يتفكرون مقرونة أيضاً بدعوة الناس إلى النظر والتفكر فيما يعرض عليهم من أدلة وشواهد ونعم أنعم الله بها عليهم فى أنفسهم أو سخرها لهم ولمنافعهم. حيث ختمت هذه الآيات بقوله سبحانه (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فى أربع سور من سور القرآن الكريم . بالإضافة إلى ذكر قوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فى موضعين بالإضافة إلى قوله سبحانه (إن فى ذلك لقوم يتفكرون) أو (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) أو (أفلا تتفكرون) أو لعلهم يتفكرون). (٢)

فما هى هذه الشواهد والدلائل التى يطالبنا المولى سبحانه بالتفكر فيها وإعمال عقولنا من أجلها ؟.

وما هو نوع التفكر الذى يدعونا اليه القرآن الكريم ويحرضنا على استعماله وإعماله ؟ ، الحقيقة أننا لا نستطيع خلال هذا الوقت القصير حصر الآيات التى تحدث عنها القرآن الكريم ودعا الناس إلى إعمال فكرهم وعقولهم للتفكير فيها وتدبرها ، فهى كثيرة جداً وكثير منها عرضها القرآن الكريم دون ذكر لفظة يتفكرون أو يعقلون . فهناك آيات أخرى ختمت بقوله (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) ، وقوله (إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون) .

---

[١] راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
[٢] راجع المرجع السابق

فهناك آيات أخرى خُتمت بقوله (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) وقوله (ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون)

وهناك آيات أخرى دعت للتفكر بلفظ (يتدبرون) كقوله (أفلا يتدبرون القرآن) (أفلم يتدبروا القول) وقوله (فلينظر الإنسان مم خلق) وقوله (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقوله بعد ذكر بعض الأدلة على خلق الله للإنسان (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) وقوله (فلينظر الإنسان إلى طعامه) وقوله (قل انظروا) وقوله (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) وغير ذلك من الآيات الكثيرة جداً والتى امتلأت بها سور القرآن الكريم وإن كانت تمر على كثير من الناس دون تدبر لمعانيها أو إعمال فكرهم وعقولهم فيما تشتمل عليه هذه الآيات القرآنية من حكم ومواعظ وهداية للدين والدنيا على السواء ولو علم الناس مافى قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها وقد قيل إن قراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة خاتمة بغير تدبر وتفهم لأن هذا انفع للقلب وادعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن ، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح .

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهى قوله (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) (١)

وقد روى أبو أيوب عن أبى حمزة قال : قلت لابن عباس إنى سريع القراءة إنى أقرأ القرآن فى ثلاث — قال لأن أقرأ سورة من القرآن فى ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلى من أقرأ القرآن كما تقرأ .

ومن هنا كان التفكر فى القرآن نوعان تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه . بلفظه ، واحمد والنسائى والبيهقى فى سننهم وثلاثتهم عن أبى ذر بمعناه — الدر المنثور للسيوطى ج ٢ ص ٣٤٩ ، ٣٥٤

منه وتفكر فى معانى مادعا عباده إلى التفكر فيه وهو الدليل القرآنى . والثانى تفكر فى الدليل العيانى أى (المعاين المشاهد) ويمكن أن نقول : الاول تفكر فى آياته المسموعة والثانى ، تفكر فى آياته المشهودة . ولذا قال العلماء إن الله أنزل القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه .

أيها الإخوة المستمعون :

لقد تحدثت الآيات القرآنية الكثيرة كما قلنا فى بداية الحديث عن الأدلة المادية الملموسة والمحسوسة فى هذا الكون كله والذى أثبت المولى سبحانه وتعالى أنه قد سخره لنا حين قال (وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه)(١) بالاضافة إلى إثبات الادلة على هذا التسخير لكل مافى هذا الكون من ليل ونهار وشمس وقمر وبحر وفلك وانعام وغير ذلك مما يدخل تحت قوله [مافى السموات وما فى الأرض] .

هذا بالإضافة إلى إثبات قدرة القادر فى خلقه للإنسان ودعوته أيضاً للنظر فى نفسه والتفكر فى كيفية خلقه وإيجاده من عدم ـ ونجد أن المولى سبحانه دعا إن التفكر فى هذا الأمر والنظر فيه فى غير موضع من كتابه مثل قوله تعالى : (فلينظر الإنسان مم خلق ُخلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب)(٢) وقوله سبحانه (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً) (٣) .

---

[١] سورة الجاثية آية ١٣
[٢] سورة الطارق آية ٥ ـ ٧
[٣] سورة الحج آية : ٥

وقوله سبحانه : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى)[1] .

أيها الإخوة المستمعون :

لاشك أنكم معي في أننا بحاجة إلى تدبر آيات القرآن الكريم التي يعرض فيها الأدلة الظاهرة الواضحة على إثبات وجود الله سبحانه وأننا بحاجة إلى التفكر في معانيها وشرح بعض تفاصيلها حتى نتأملها ونتفهمها الأمر الذي يحتاج منا الى وقت وزمن ونظراً لانتهاء الوقت لهذا الحديث فإني أرجو الله تعالى أن ألتقي بكم مرة أخرى في بعض هذه الآيات الكثيرة نتدبر معانيها ونتفكر في مراميها لنتأكد من حكمة الحكيم وقدرة القدير وعجيب صنعه سبحانه .

وإلى لقاء والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

[1] سورة القيامة : ٣٦ ، ٤٠

الحديث الثانى :

دعوة القرآن للتفكر فى خلق الانسان

قلنا فى حديث سابق أن كثيرا من آيات القرآن الكريم تدعـو الى التفكر فى هـذا الكون بسماواته ونجومه وكواكبه وأراضيه وتلفت النظر الى هـذه المخوقات من حولنا كما تلفت النظر الى خلق الانسان نفسه وتشير الى مافى ذلك كله من أدلة مادية ملموسة على احكام اللطيف الخبير ٠ وقد قلنـا انه برغم أن كثيرا من آيات القـرآن الكريم قد دعت الناس صراحة الى اعمال العقل والتفكير فيما يعرضه عليهم القرآن الكريم من أدلة مادية ملموسة تشهد بوجود الله ٠ فختمت هذه الآيات بقوله (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) (١) وقوله (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (١)) الا أن كثيرا من الآيات القرآنية أيضـا تحدثت عن كثير من الادلة المادية الملموسة ودعت الناس الى التفكر والنظر وان لم تختم بمثـل ما ختمت به الآيات الاخرى ٠ ومنها قوله تعالى (فلينظر الانسان مم خلق ٠ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) (٢) وقوله (أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحى الموتى) (٣)

ولعله من المفيد حقا أن نقف هنا امام بعض الآيـات التى تتحدث عن اثبات قدرة الله وتفرده بالخلق ٠ نتدبر معانيها ونشرح بعض تفاصيلها ودقائقها حتى نعقلهـا وحتى لا نشتت فكر القارىء الكريم فانى أبدأ هنا فى هذا

(١) راجع المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ٠
(٢) الطارق : ٥ ـ ٧
(٣) القيامة : ٣٦ ـ ٤٠

الحديث بالكلام عن بعض دلائل هـذه القدرة الالهية فى الانسان نفسه ـ وان كانت عملية الخلق ظاهرة واضحة فى الكون كله باعتبار أن ايمانه بما حوله يكون أسـهل بعد ايمانه بما فى نفسه ٠

فى معرض الحديث عن خلق الانسـان وايجاده من العدم يتحدث القرآن الكريم فى آيات كثيرة ـ عن هـذا الخلق وعن أطوار هذا الخلق وتسلسله وعن تسـوية الانسان وتجميل صورته ليخرج فى هذه الصورة السوية المعتدلة ـ واذا كانت هذه الآيات تلفت الانسان مجـرد التفات الى قدرة الله الواضحة الظاهرة فى هـذا الخلق فانما هى تدعوه أيضا الى أن يفكر فى تفصيلات أخرى كثيرة وأدلة أخرى كبيرة يستطيع الانسان أن يصل اليها ما لو أعمل فكره وعقله ـ بل ان القـرآن فى بعض آياته يدعو صراحة الى البحث فى أعماق النفس البشرية لادراك ادلة أخرى ليست معروفة لكل الناس ويكتشفها العقـل بين حين وآخر غير الادلة الظاهرة الواضحة لكل الناس ـ حيث يقول سبحانه فى سورة الذاريات (وفى أنفسكم افلا تبصرون) (١) ويقول أيضا في سورة فصلت (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)(٢)

ثم هو يتحدث فى آيات أخرى عن بعض أسرار النفس الانسانية وعن أشياء أخرى لم تكن معروفة فى وقت نزوله وانما أثبتها العلم الحديث ليؤكد أن هذا القرآن انما هو من عند الاله الواحد خالق السموات والارض ـ فيقـول سبحانه فى سورة الحج : (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة

---

(١) آية : ٢١
(٢) آية : ٥٣

ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخركم طفـــلا ثم لتبلغـــوا أشدكم ٠٠ الخ) (١) وفى سورة المؤمنون :

(ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلنـــاه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحمـــا ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (٢) ٠

ثم هو يلفت النظر الى أن خلقه كان بتقدير وان حكمته اقتضت لايجاد هذا الخلق وجود الزوجين الذكر والانثى فيقول فى سورة الفرقان : (وخلق كل شىء فقـــدره تقديرا (٣) ويقول فى سورة النجم (وانه خلق الزوجين الذكر والانثى (٤) ويقول فى سورة التغـــابن : (خلق السموات والارض بالحق وصوركم فأحسن صوركم (٥) وفى سورة الاعلى (الذى خلق فسوى) (٦) وفى سورة التين : (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) (٧) ثم يتحدث القرآن عن بداية الانسان وكيف خلقه الله ضعيفا ثم صار الى قوة ثم كيف ينتهى الى ضعف وشيبة فيقـــول فى سورة الروم : (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعـــل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) (٨) فتعال أخى المسلم نعيد النظر فى أنفسنا مرة ثانية :

---

(١) آية ٥
(٢) آية : ١٢ ـ ١٤
(٣) آية : ٢
(٤) آية : ٤٥
(٥) آية : ٣
(٦) آية : ٢
(٧) آية : ٤
(٨) آية : ٥٤

من الذى دبرنا بألطف التدبير ونحن أجنة فى بطـون أمهاتنا فى موضع لا تنالنا فيه يد · ولا بصر يدركنا ولا حيلة لنا فى التماس الغذاء ولا فى دفع الضرر ـ من الذى أجرى الينا من دم الأم ما يغذونا كما يغذو الماء النبات · ومن الذى قلب ذلك الدم لبنا وظل يغذينا به فى أضـيق المواضع وأبعدها من حيل التكسب والطلب ؟

ومن الذى أخرجك يا أخى من هـذا المكان الضيق فخرجت بعد أن وضعت فيه نطفة صغيرة وكان مبتهجا بحملك فصار يستغيث الى ربك من ثقلك ، فمن الذى فتح لك بابه حتى ولجت اليه ثم ضمه عليك حتى حفظك وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلمح البصر لم تختنق بضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه ·

أرأيت أخى فى الله كيف خرجت وكيف صرف الله ذلك اللبن الذى كنت تتغـذى به فى بطن أمـك الى خـزانتين معلقتين على صدرها ؟ ثم هل فكرت كيف ساق الله هـذا اللبن فى هاتين الخزانتين على مجار ، وطرق قد هيأهـا الله لك ـ وكيف يجرى هذا اللبن وينساق اليك فى طرقه ومجاريه حتى تستوفى وتشبع · فهو بئر لا تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها ثم من رققه لك وصفاه · وأطاب طعمه وحسن لونه وأحكم طبخه · أعدل احكام فلا هو بالحار المؤذى ولا بالبارد الردىء ولا هو مـر ولا مالح ولا كريه الرائحة · تجده وأنت رضيع فى وقت الحاجة على حـين ظمأ شديد وجوع مفرط · وقد جمع الله لك فيه بين الشراب والغذاء · تجده جاهزا حين تولد وحين تحرك شفتيـك للرضاع تجد الثدى المعلق قد تدلى اليك وفى رأسه تلك الحلمة التى هى بمقدار فمك فلا تتعب بالتقامها · ثم نقب لك فى رأسها نقبا لطيفا بحسب احتمالك ولم يوسـعه

فتختنق باللبن · ولم يضيقه فتمصه بكلفة ومشقة · بل جعله بقدر ما اقتضته حكمته ومصلحتك ·

ارجع الآن الى نفسك وكرر النظر فيك · فهو يكفيك وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو منها لما خلق له · وكيف أنها لو خلقت على غير ما خلقت ما كانت فائدتها كما هى الآن حيث أرادها ربنا لك على ما هى عليه · فاليدان للعلاج والبطش والاخذ والاعطاء والمحاربة والدفع · والرجلان لحمل البدن والسعى والركوب · والعينان للاهتداء والجمال · والزينة ورؤية مافى السموات والارض وآياتهما وعجائبهما · وكل عضو فيك له فائدته وله المنفعة التى هيأها الله له ·

لو فكرت لوجدت أنه من الحكمة خلق أعضائك بالصورة التى أنت عليها الآن · فقد خلق الله فيك أعضاء آحادا وأخرى مثنى وبعضها ثلاث وبعضها رباع فقد خلق الله رأسا واحدا ولسانا واحدا وأنفا واحدا لأنه لا مصلحة فى كون هذه الاعضاء أكثر من ذلك وتصور نفسك برأسين أو لسانين أو أنفين ·

فهل بعد كل هذه النعم التى أنعم الله بها على الانسان يكفر الانسان بمن خلقه وسواه · ويجحد نعم من كرمه ورقاه (أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو **خصيم مبين) (١) (صدق الله العظيم ·**

---

(١) سورة يس آية : ٧٧ واقرأ الكثير من حكمة خلق الانسان ونعم الله الكثيرة عليه · فى كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية ج من ص ٢٥٥ الى ص ٢٨٠

الحديث الثالث :

تسخير الحيوان للانسان من نعم الله عليه

خلق الله تعالى الانسان وميزه بالعقل وسخر له مافى السموات ومافى الارض جميعا منه سخر له الحيوان والنبات والطيور والارض والبحار والجبال والاودية والأنهار وجعل هذه الحياة بما فيها وما عليها طوع أمر الانسان الضعيف بجسمه والقوى بعقله .

وحين يفكر الانسان فى بهيمة الانعام التى سخرها الله له فقادها وذللها على كبر أجسام بعضها يحس فعلا بتكريم الله له وتفضيله على كثير من خلقه كما قال سبحانه (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)(١) وصدق الله حين يقول (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) (٢) أى مطيقين ضابطين ثم هو سبحانه يلفت أنظار الناس الى هذا التسخير للحيوان فيقول فى سورة يس :

(أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) (٣) ٠

وتأمل أخى المسلم البعير على عظم حجمه وكبر جسمه يقوده الصبى الصغير ذليلا منقادا ولو أرسل عليه هذا

---

(١) الاسراء : ٣٠
(٢) الزخرف : ١٢
(٣) آية : ٧١ ـ ٧٢

الحيوان المسخر بقدرة القادر لسواه بالارض ولفصله عضوا عضوا · فسل الجاحدين الكافرين · من الذى ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات ـ وشاء الله بهذا التسخير أن يفرغ الانسان لمصالح معاشه ومعاده فانه لو كان يزاول من الاعمال والأحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الاعمال لانه كان سيحتاج مكان الجمل الواحد أو الحصان الواحد أو الحمار الواحد الى مجموعة من الرجال يحملون أثقاله وأحماله ويعجزون عن ذلك ـ وحتى لو استطاعوا فان ذلك كان سيضيع أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم ·

وتأمل أخى المسلم حكمة الله البالغة فى اعطائه سبحانه بهيمة الانعام الاسماع والابصار ولا شك أنها لو كانت عمياء أو صماء ما كمل انتفاع الانسان بها · وما تمكن من الانتفاع بها الانتفاع الكامل وسبحان الذى سلبها العقول على كبر خلقها وحجمها بالنسبة للانسان ليتم تسخيره اياها فيقودها ويصرفها حيث شاء · ولو أعطاها الله العقل على كبر خلقها لامتنعت من طاعة الانسان واستعصت عليه · ومع ذلك أعطاها الخالق سبحانه من التمييز والادراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له وسخرت من أجله ·

(والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون · ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم ـ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) (١) والقرآن الكريم حين يعرض هذه النعمة ينبه الى ما فيها من تلبية لضرورات البشر

---

(١) النحل : ٥ ـ ٨

وتلبية لاشواقهم · كذلك ففى الانعام دفء من الجــلود والاصواف والأوبار والأشعار ومنافع فى هذه الاشــياء وفى اللبن واللحم وما اليها · حتى جمال الاستمتاع بمنظر هذه الانعام وهى فارهة رائعة صحيحة تحدث عنه القرآن حيث يراها مالكوها على هذه الصورة حين يريحون فى المساء وحين يسرحون فى الصباح ، وتأمل أخى المسلم :

ذوات الاربع من الحيوان كيف تراهـــا تتبع امهاتها مستقلة بأنفاسها فــلا تحتاج الى أن تحمل كمــا يحمــل الانسان · ولا الى التربية كما يحتاج اليه أولاد الانس · لانه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من التربيــة والملاحظة والرفق ـ ولانه ليس عندها من الآلات المتصلة والمنفصلة ما عند الانسان فقد أعطاها اللطيف الخبــير قدرة النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهــــد بالولادة · وذلك حتى لا تتعطــل مصـــالح الناس حين تنشغل أمهــات الحيــوان بأولادهــا وتربيتهم والاقامــة بجوارهم فى محل ولادتهم ، وسبحان الذى أخرج أفراخ الدجاج والبط والأوز يدرج ويلقط الحب حين يخرج من البيضـــة ·

أما ما كان من هذا الطـــير ضعيف النهوض كفراخ الحمام واليمام فقد أعطى سبحانه أمهاتها من فضـــــله العطف والشفقة والحنان حتى ينهض فرخهـــا ويستقل بنفسه ويمكنه الطيران ويظل أبواه يعالجـــانه ويعلمانه بلطف وحنان حتى يطير من وكره ويسترزق لنفسه ويأكل من حيث يأكلان · ثم يطردانه بعد ذلك عن الوكر وكأنهما لم يعرفاه ولا عرفهما قط ، فمن الذى الهمها ذلك ؟ ومن الذى عطفها على الفراخ وهى صغار أحوج ما كانت اليها ثم سلب ذلك عنها اذا إستغنت الفراخ رحمة بالامهـــات

تسعى فى مصالحها ؟ ثم تأمل أخى المسلم حكمـــة الله البالغة فى قوائم الحيوان كيف اقتضت حكمة الخبير أن تكون زوجا لا فردا اما اثنين واما اربعة ليتهيأ له المشى والسعى وتتم بذلك مصلحته ـ اذ لو كانت فردا لم يصلح لذلك لان الماشى ينتقل ببعض قوائمه ويعتمد على بعض ٠ فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الاخرى وذو الاربع ينقل اثنين ويعتمد على اثنين ٠ وذلك من خلاف لانه لـو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمـــد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الارض حال نقله قوائمه ولكان مشيه نقرا كنقر الطائر وذلك مما يؤذيه ويتعبه ٠

ثم تأمل أخى المسلم فى حكمة الله البالغة كيف جعـــل ظهور الدواب كأنها سقف وضع على عمد وذلك ليتهيأ ركوبها وتستقر الحمولة عليها وصدق الله حين يقول : وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا بعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقـولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون (١) ٠

واذا كان قـد خولف هذا فى الابل ولم يجعـل المولى سبحانه ظهورها مستوية ، وانما جعل ظهورها مسـنمة معقودة كالقبو ٠ فذلك لحكمة جليلة ٠ فالمولى سبحانه قد خص الابل بذلك لما خصت به من فضـــل القوة وعظم ما تحمله ٠ لذا كان ظهورها مسنما معقودا كالقبو ٠٠ لأن الاقبية تحمل أكثر مما تحمل السقوف ٠ حتى قيل أن عقد الاقبية انما أخذ من ظهور الابل ـ وسبحان من خلق الابل على هذه الصورة فطول عنقها لتتناسب مع طول قوائمها ٠ ولتتمكن من تناول طعامها وهى قائمة اذ لو :

---

(١) الزخرف : ١٢ ـ ١٣

قصر المولى عنقها لما تمكنت من ذلك مع طول قوائمها .
وليكون أيضا طول عنقها موازيا للحمل على ظهرها اذا
استقل به .

وتأمل كيف كسى الله أجسام الحيوان هذه الكسوة
من الشعر والوبر والصوف وكسى بعض الدواب من
الجلد ما هو غاية الصلابة والقوة . وجعل ذلك بحسب
حاجتها الى الوقاية من الحر والبرد أو العدو الذى يريد
اذاها والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من
جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم
ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى
حين) (١) .

صدق الله العظيم

---

(١) النحل : ٨٠ ـ واقرأ الكثير عن هذا الموضوع فى كتاب مفتاح
السعادة لابن القيم . جـ ١ من ص ٢٣٤ الى ص ٢٥٥

الحديث الرابع :

من حكمة الله فى الزروع والثمار

جلست أقرأ القرآن فأمسكت بكتاب الله تعـــالى أتلو بعض آياته وما ان وصلت فى سورة (عبس) الى قولـــه تعالى (فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضــــبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبـا وفاكهة رأبا متـــاعا لكم ولأنعامكم) (١) حتى توقفت وأخذت أنظر الى كلمات هذه الآيات وأفكر فى هذا القول الالهى العظيم وهذا الكلام الواضح الجلى · ونظرت أمامى فاذا ببعض ثمـرات من تفاح وبعض حبات من برتقال وبضع أصابع من فاكهـة الموز موضوعة على منضدة الطعام قريبا منى فأخـذت أتأملها وأركز النظر عليها حتى خيــل الى اننى أراهـــا لأول مرة · يا سبحان الله انها حكمة الهية هــذه التى أوجدت هذه الثمار · وأنبتت هذه الزروع والثمــار فى اشكالها المتنوعة المتبــاينة · وفى ميراتها المختلفـــة والمتنوعة بل ان هذه الحكمة أخــرجت الاقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة متتالية شيئا بعد شىء · فلم يخلقها كلها جملة واحدة وانما جعل لكل فصل من فصول العام نوعا معينا من النبات والفاكهة غير الفصول الاخرى فهذا حار وهذا بارد وذاك معتدل وكل فى فصله موافق للمصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه · فتأتى أصـــناف الفواكه والثمار للناس بحسب الوقت المناسب لهـــا · والمقتضى لوجودها ، وتتلقاها النفس بانشراح واشتياق لمحبتها · ولو كان نبات الصيف يوافى الناس فى الشتاء

---

(١) آيات : ٢٤ ـ ٣٢

لصادف منهم كراهية واستثقالا ، والعجيب أنه ثبت أن فاكهة الصيف لا تفيد الجسم الا فى الصيف وفاكهة الشتاء كذلك · وقد تضر فاكهة الصيف ان استعملت فى الشتاء · وكذلك العكس كما أن النفوس لا تستطيب الطعم ولا تلتذ منها الا اذا أكلت فى وقتها وفى زمن نضجها ·

وتأمل أخى القارىء قول الله تعالى : فلينظر الانسان الى طعامه · أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا ·

هذا الماء الذى يقول الله عنه صببناه · أى أنزلناه من عل ليعم وهاد الارض بتلولها واكامها ومنخفضها ومرتفعها · وسبحان الله ، هذا الماء المصبوب النازل من أعلا ، انما ينزله المولى سبحانه بقدر الحاجة حتى اذا أخذت الارض حاجتها منه · توقف بقدرة القادر الحكيم العليم · لان تتابع نزوله عليها يضرها فاذا زاد الماء عن حده أهلك الحرث والنسل · كما انه لو زاد عن الحاجة لفسدت الحبوب والثمار واتلفت الزروع والخضروات وأرخت الابدان · وفسد أكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل · وفى هذا يقول المولى سبحانه (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض وانا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها **فواكه كثيرة ومنها تأكلون) (١) ·**

وتأمل قول الخالق سبحانه بقدر · فهذا الماء النازل من السماء ينزل بقدر فلا هو كثير فيتلف ويتسبب عن كثرته الاضرار ، ولا هو قليل فيتسبب عن ذلك جفاف الابدان وغيضان الماء وانقطاع العيون والآبار والانهار والاودية · ولعظم بسبب عدم نزوله أو قلته احتدام الهواء ويبوس ما على الارض ولكثرت الامراض ولهذا كانت

---

(١) المؤمنون : ١٨ - ١٩

حكمة الخبير سبحانه أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الامر وصح الهواء ودفع كل واحد فيهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلح .

ولهذا قال سبحانه كما رأينا وسمعنا (وانزلنا من السماء ماء بقدر) . وقال أيضا فى سورة النحل (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر . فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) (١) .

فتأمل قوله تالى (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) وتأمل بعد قوله (وانزنا من السماء ماء بقدر) قوله (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) (٢) ويقول عن هذا الماء الذى ينزله بقدر وانا على ذهاب به لقادرون . ولكنه سبحانه مع قدرته على منعه وعدم ارساله يرسله وينزله لطفا بعباده ورحمة بهم . وتأمل أخى الكريم ما فى هذه الاقوات والازراق من منافع أخرى للانسان ، فالخشب والورق وكذلك علف البهائم والابنية والسفن والرحال والاوانى وحتى النور . وغير ذلك من منافع هى من النبات ومن الشجر .

حتى المنظر البهيج الذى يريح النفس ويشوق الناظرين لحسن مرائى الشجر وخلقتها البديعة هى أيضا من منافع هذه الثمار وهذه الاشجار . وصدق الله حين يقول عنها (متاعا لكم ولأنعامكم ، وهل هناك أكثر من اخراج ذلك النور البهى من نفس ذلك الحطب ثم الورق الاخضر .

---

(١) آية : ١٠ ـ ١١
(٢) المؤمنون : ١٩

(الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) (١) يس :

وفى سورة الواقعة يقول سبحانه (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظللتم تفكهون ، أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) (٢) ٠

وتأمل أخى المسلم فى خلق ورق الشجر وسترى فى الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة المبثوثة فيها ما يبهر الناظر ٠ فمنها غلاظ ممتدة فى الطول والعرض ومنها رقاق تتخلل تلك الغلاظ وهى منسوجة نسجا دقيقا عجيبا ٠ ولو كان مما يتولى الانسان صنع مثله بيديه لما فرغ الواحد من الورقة الواحدة فى شهور طويلة ولاحتاج الى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله ٠ لكن الخالق القادر سبحانه بث فى أيام قلائل من ذلك الورق ما يملأ الارض سهلها وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة وصدق الله حين يقول (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (٣) ٠

تأمل أخى المسلم الحكمة فى هذه العروق التى تتخلل ورقة الشجرة وكيف أنها كالعروق فى جسد الانسان فهى التى تسقيها وتوصل اليها المادة التى تحفظ عليها حياتها ونضعارتها ٠ ثم تأمل مافى العروق الغليظة من امساكها الورق بصلابة ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل فهى بمنزلة الاعصاب لبدن الانسان والحيوان ٠ وسبحان من أحكم صنعها ومد العروق فى طولها وعرضها لتتماسك فلا

---

(١) يس : ٨٠

(٢) الواقعة : ٦٣ ـ ٧٣

(٣) يس : ٨٢

يعرض لها التمزق ثم تأمل أخى المسلم حكمة اللطيف الخبير فى جعل هذه الاوراق زينة للشجر ولباسا للثمرة ووقاية لها من الآفات التى تمنع أعمالها • ثم أنظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فاذا ذهبت الثمرة بقى الورق وقاية لتلك الافنان الضعيفة من الحر أو البرد •

وأما وجود النوى فى جوف الثمرة فهو من ابداع الحكيم سبحانه ، فالنوى فى داخل الثمرة بلا شك هو كالعظم تماما لبدن الانسان والحيوان ، حيث يمسك بصلوبته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها •

ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع اليها الفساد • فالنوى بمنزلة العظم • والثمرة بمنزلة اللحم الذى يكسوه المولى سبحانه العظام • هذا بالاضافة الى مافى تلك الحبوب من أقوات للحيوانات وما فيها من المنافع والادهان والادوية والاصباغ وغير ذلك من مصالح الناس التى لا يزال يخفى عليهم بعضها •

وهكذا لو تأملنا حكمة الله فيما خلق للانسان من الحبوب والثمار لوقفنا عاجزين أمام هذه القدرة القادرة ولأحسسنا بنعم الله الكثيرة وآلائه العظيمة ، ولوجدنا من الآيات والعجائب ما يبهر العقل ويخلب الالباب •

ولقد دعا الله تعالى المؤمنين الى التفكير فى هذه النعم والى النظر اليها والتفكر فى حكمة خلقها وتكوينها وفى هذا يقول سبحانه فى سورة الأنعام (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا

الى ثمره اذا أثمـــر وينعـــه ان فى ذلك لآيات لقـــوم
يؤمنون) (١) ٠

صدق الله العظيم

---

(١) الانعام : ٩٩ ـ من أراد الاستزادة من معرفة الحكم الالهية الكبير فى اخراج الاقوات والثمار ، فليقرأ فى كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم ج ١ من ص ٢٢٤ الى ص ٢٣٣

الحديث الخامس :

حكمة ضرب الأمثال فى القـرآن الكريم

توقفت كثيرا امام قول الله تعالى فى سورة الحشر : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) (١) ٠ ثم زاد توقفى وتأملى وتفكيرى من ختم هذه الآية بقوله سبحانه (وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ٠

ولا شك أن هذه الصورة تمثلها الحقيقة ٠ فان لهـذا القرآن ثقلا وأثرا مزلزلا لا يثبت له شىء يتلقاه بحقيقته ، وحقيقة فان هذا القرآن لو فهمه الجبل وتدبر ما فيـــه لخشع وتصدع من خوف الله عــز وجل ومن خشيته مــع مافى الجبل ٠ غلظة وقساوة ولهذا فان الله تعالى يلوم بنى البشر الذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع وتتصدع من خشية الله برغم فهمهم عن الله أمــره وتدبرهم لكتابه ٠ وهو يضرب هذا المثل وغيره من الامثال الكثيرة فى القرآن لعل الناس يتفكرون ٠ ثم بعد ذلك يؤمنون بأنه الواحــد الأحد خالق كل شىء وهو على كل شىء قدير ٠

ولقد دفعتنى هذه الآية الكريمــة حين قرأتها وتوقفت عندها الى تذكر كثير من الامثال القرآنية وما أكثرها كما قلنا ٠ والى الاقتناع بعــد ذلك بجحود الانسان بنعم الله عليه وتقصير الكثيرين من بنى البشر فى الايمان بهــذا الاله العظيم الذى خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين ٠ والذى ضرب للناس فى هذا القرآن من كل مثل ٠ ليؤمنوا ويتعظوا ويتفكروا ويعقلوا لكن معظمهم وللأسف يجادلون فى الحق ويتمسكون بالباطل ٠ يقول الله تعالى

---

(١) الحشر : ٢١

فى سورة الروم (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون) (١) ويقول فى سورة الكهف (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شىء جدلا) (٢) ٠

حين حاولت حصـــر الامثـــال فى القرآن وجدتهـا أكثر من أن تحصى ويكفى تقرير القــرآن بأن الله ضرب للناس وصرف للناس فى القرآن من كل مثل وما ذلك الا للتذكير كما تقول الآية ٢٥ من ســورة ابراهيم وللتفكير كما تقول الآية ٢١ من سورة الحشــر ٠ وللبحث العلمى للتأكد مما يقال كما تقرر الآية ٤٣ من ســورة العنكبوت يقول سبحانه فى سورة ابراهيم (ويضرب الله الامثــال للناس لعلهم يتفكرون) ويقول فى الحشر (وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) أما فى العنكبوت فيقول سبحانه بعد ضرب المثل للذين اتخذوا من دون الله أولياء والعنكبوت التى اتخذت لها بيتا واهيا ضعيفا فيقـــول (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) أمثال كثيرة فى القرآن الكريم قصد بها كمـــا قلنا لفت أنظار الناس الى قدرة القادر وحكمة الحكيم سبحانـــه واثبات أنه الواحد المستحق للعبادة بالخلق والايجاد ، أمثال من كل نوع ولكل الطبقات والمستويات ، أمثال من خارج أنفسهم ومن داخلها ٠ يقول الله تعالى فى سورة محمد (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) (٣) ويقول فى سورة الروم (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) (٤) وقد ضرب أمثلة

---

(١) آية : ٥٨
(٢) الكهف : ٥٤
(٣) آية : ٣
(٤) آية : ٢٨

- بالحمار - وبالكلب وبالذباب والعنكبوت ولهذا يقول سبحانه فى سورة البقرة (ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) (١) لنأخذ مثلا من الامثلة القرآنية التى يلفت الله تعالى بها أنظار الناس الى عجزهم وعجز ما يتقرب اليه بعضهم من أصنام أو أوثان أو أشخاص عن خلق شىء مما يخلقه الله ولو كان حشرة صغيرة كحشرة الذباب التى لا تستطيع معبوداتهم أن تسترد شيئا يسلبه هذا الذباب منها ، فيقول سبحانه فى سورة الحج (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب • ما قدروا الله حق قدره ان الله لطيف خبير) (٢) •

هذه الآية تتحدث عن عجز ما عدا الله سبحانه عن خلق الذباب حتى وان اجتمعوا لذلك وسيعجزون مهما جادلوا لان الذباب يحتوى على ذلك السر المعجز • سر الحياة • ولا شك أن الذباب يستوى فى استحالة خلقه مع الجمل والفيل • الا أن الاسلوب القرآنى المعجز أختار الذباب الصغير الحقير لان العجز عن خلقه يلقى فى الحس ظل الضعف اكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل • ولعل مما يبرز هذا الضعف المزرى قوله سبحانه (وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) وما الذى يسلبه هذا الذباب الحقير ؟ ان العلم الحديث يبين كيف أنه يستطيع أن يسلب أغلى النفائس لانه يحمل أخطر الامراض • ولذا فانه يسلب العيون والجوارح • بل قد

---

(١) آية : ٢٦
(٢) آية : ٧٣

يسلب الحياة والارواح · فهو يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد · فهو فعلا يسلب كما تقول الآية مالا سبيل الا استنفاذه مع أنه الضعيف الحقير لذا كان ختم ذلك المثل المصور بتعقيب يقرر ما القاه المثل من ظلال · وما أوحى به الى المشاعر والقلوب · فيقول (ضعف الطالب والمطلوب) ولا شك أن حديث القرآن عن الذباب سيلفت النظر الى هذه الحشرة الصغيرة التى خلقها الله تعالى وخلق فيها الرأس والاجنحة والارجل وقدر لها هى الاخرى أقواتها واشتمل جسمها الصغير على جميع الأجهزة التى تمكنها من الحياة من أمعاء ومعدة وأيضا شرايين تنتشر فى هذا الجسم الصغير تعمل عملها وفق نظام محكم دقيق · وهى ولا شك خلقت لحكمة وتعمل وفق نظام وقدر قدره لها خالقها · وهى مع ذلك كما قرر القرآن فرد من أمة مثل بنى البشر وهى تتكلم بلغة لا نعرفها نحن ، وهى مع هذا ورغم كل ذلك تسبح بحمد الله وان كنا لا نفقه تسبيحها وصدق الله حين يقول فى سورة الانعام (وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحه الا أمم أمثالكم) (١) · (وهو فى سورة الاسراء يقول سبحانه (وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (٢) ‌ﺵ

أخى المستمع الكريم : اذا كنت لا تتمكن من متابعة حشرة الذباب أو البعوض لتعرف بعضا من أسرارها وأترى الدليل المادى الملموس على قدرة الواحد سبحانه فأنت تستطيع بلا شك أن تتأمل حشرة صغيرة مثلها أو قريبة منها تأمل أخى المسلم هذه النملة الضعيفة وما

---

(١) آية : ٣٨
(٢) آية : ٤٤

أعطاه الله لها من الفطنة وما منحه لها من الحياة فى جمع قوتها وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه ٠ وسترى فى ذلك عبرا وآيات ٠ سترى جماعة النمل اذا ارادت احراز القوت خرجت من أسرابها طالعة له فاذا وجدته أخذت طريقها من أسرابها اليه ثم شرعت فى نقله ، فتراها رفقتين رفقة حاملة تحمله الى بيوتها سربا ذاهبا ورفقة خارجة من بيوتها لا تعطل تلك فى طريقها ٠ واذا ثقل على واحدة أو جماعة حمل شىء اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله وستعجب أخى المسلم حين ترى النمل بعد أن ينقل الحب الى مسكنه يكسره لئلا ينبت فاذا كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعا فاذا أصابه بلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم أعادته بعد ذلك الى بيوتها ولهذا فقد تلاحظ أحيانا حبا كثيرا على أبواب مساكنها مكسرا ثم تعود مرة أخرى بعد فترة قصيرة فلا ترى واحدة ٠ ويكفى فى فطنة النمل ما قص علينا المولى سبحانه فى كتابه الكريم من قولها لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه السلام وجنوده (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) (١) **وقد أعجب سليمان بقول النملة وتبسم** ضاحكا منه وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ولا يصح أن نستبعد هذه الفطنة من أمة من الامم تسبح بحمد الله كما حكى القرآن حين قال على العموم (وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) (٢) **وقد تأكد كون النمل أمة من هذه الامم بما** روى عن رسول الله (اص) من أن نبيا من الانبياء نزل

---

(١) النمل : ١٨
(٢) الانعام : ٣٨

تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ثم أحـرق قرية النمل • فأوحى الله اليه (من أجل أن لدغتك نمـلة أحرقت أمة من الامم تسبح فهلا نملة واحدة) (١) ألستم معى فى أننا مقصرون فعلا فى شكر نعم الله الكثيرة علينا وهذا التقصير يعد جحودا بهذه النعمة وكفرانا بها •

اللهم وفقنا لما فيه طاعتك ورضاك وألهمنا الرشـــد والسداد انك على كل شىء قدير •

---

(١) راجع مفتاح دار السعادة ومنشور الولاية فى العلم والارادة ـ ابن القيم جـ ١ ص ٣٤٢ ـ طبعة رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية •

الحديث السادس :

معنى الابتلاء فى القرآن الكريم

جلس صديق يحدث صديقه عن فلان من الناس وكيف أن الله ابتلاه · فأعطاه المال الكثير ورزقه كثيرا من الطيبات فما صان هذا المال · وانما أخذ ينفقه ذات اليمين وذات الشمال متلهيا به عن ذكر الله وأداء ما يجب له ·

ونظر الصديق الى صديقه مستغربا قوله ان الله ابتلى فلانا فأعطاه المال · وقال له كيف يا أخى تقول ذلك وهل عطاء الله للانسان ابتلاء ؟ هل تجد فى منح الله لانسان مالا غير أنه رضا من الله عنه وعطاء أستحقه هذا الانسان فمنحه الله اياه ؟ ثم استرسل يقول ان الغنى من الله والفقر منه أيضا وهو يوزع الارزاق حسب استحقاقها · ولو لم يكن هذا مستحقا لهذا المال ما أعطاه الله اياه · واشتد النقاش بين الصديقين أحدهما يرى أن الغنى ابتلاء كالفقر تماما والآخر يرى أن الغنى رحمة · والفقر ابتلاء ونقمة ووجدتنى مضطرا للتدخل فى هذا النقاش · وسكت الاثنان حين أخبرتهما بأننى لن أحدثهما بغير القرآن وأن ما سأحكيه لهما هو حديث القرآن وهو خير ما يرجع اليه فى أمثال هذه المشاكل ·

كان بالامكان انهاء هذا الخلاف بآية قرآنية واحدة تدلل من غير مواراة أو مواربة على أن الغنى أيضا ابتلاء كالفقر تماما · وأن الله أبتلى الناس بالغنى كما يبتليهم بالفقر · ومن هنا اختلف العلماء هل الغنى الشاكر أفضل أم الفقير الصابر ؟ وبعضهم رجح فضل

الغنى الشاكر · لأن ابتلاء الغنى أشد من ابتلاء الفقير وهل نجد دليلا على أن الغنى ابتلاء كالفقر تماما أقوى من قول الله تبارك وتعالى فى سورة الفجر (فأما الانسان اذا ما أبتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما وأما ابتلاه ربه فقدر عليه رزقه فيقول ربىأهانن،كلا)(١)

الآية الأولى من هاتين كافية للتدليل على أن الغنى ابتلاء من الله أيضا · الا أن القرآن الكريم وفى اكثر من اية اثبت أن الله تبارك وتعالى يبتلى الناس بالحسنات أيضا كما يبتليهم بالسيئات والحسنات والسيئات أعم من الغنى والفقر ·

قال سبحانه عن بنى اسرائيل فى سورة الاعراف (وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) (٢) · وقد عبر القرآن الكريم أيضا تعبيرا آخر يفيد هذا المعنى ويعطى أيضا عمومية لابتلاء الناس · حيث يقول سبحانه فى سورة الأنبياء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) (٣) · وقد علل الله تبارك وتعالى السبب فى عدم جعل الناس أمة واحدة بأنه أراد أن يبتليهم فيما أتاهم اياه من تشريعات · (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما اتاكم

---

(١) آية : ١٥ _ ١٦ _ ١٧
(٢) آية : ١٦٨
(٣) آية : ٣٥

فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (١) ٠

وفى آية أخرى من القرآن الكريم يحدد الله سبحانه السبب فى رفع بعض الناس على بعض بأنه أيضا ابتلاء لهم وامتحان (قال سبحانه فى سورة الانعام وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ٠ ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) (٢) ٠

حتى صيد الحيوان جعل الله بعضه امتحانا وابتلاء للناس ٠ وكما قال سبحانه ليعلم الله من يخافه بالغيب وفى ذلك يقول فى سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك منكم فله عذاب اليم ٠) (٣)

من كل هذه الآيات وغيرها من الآيات الكثيرة فى القرآن نستطيع أن نؤكد أن ابتلاء الانسان ليس مقصورا على الشر وحده ٠ أو على السيئات وحدها أو على الفقر وحده فالابتلاء كما تحدث القرآن فى الخير والشر ٠ وفى السيئات والحسنات وفى الغنى والفقر والله يبتلى المؤمنين كما يبتلى الكافرين وقد يبتلى المؤمنين اكثر مما يبتلى غيرهم اذا كان ابتلاؤهم مصلحة لهم وصدق النبى (ص) حيث قال (اكثر الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الامثال فالأمثل) (٤) وقد ابتلى الله الأنبياء اكثر مما

---

(١) آية : ٤٨

(٢) آية : ١٦٥

(٣) آية : ٩٤

(٤) الجامع الصغير ج ١ ص ٤١ ٠ وقد رواه البخارى والترمذى والبخارى ماجة واحمد فى مسنده ٠

ابتلى غيرهم ففى الابتلاء مع الصبر عليه تقوية لروح المؤمن وتمحيص لما فى قلوبهم مما يؤكد أحقيتهم فى رحمة الله ورضوانه ولهذا نجد القرآن الكريم يوضح هذا المعنى فى كثير من آياته · فهو يخاطب المؤمنين فى سورة محمد فيقول (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) (١) ثم هو قبل هذه الآية وفى نفس السورة فى الآية الرابعة منها نبههم الى قدرته على الانتصار على أعدائهم بدون قتال الا أنه يريد ابتلاءهم وامتحان ايمانهم بالجهاد فى سبيل الله : فيقول عز من قائل (واذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق · فاما منا بعد واما فداء · حتى تضع الحرب أوزارها · ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) (٢) ·

لقد انكسر المسلمون فى موقعة أحد بعد أن خالفوا أمر نبيهم وقائدهم محمد (ص) حين طلب من الرماة ألا يتركوا اماكنهم مهما كانت الظروف وقال لهم قولته الشهيرة : لا تتركوا اماكنكم حتى ولو رأيتم الطير تتخطف رؤوسكم ولكنهم تركوا مواقعهم وانشغلوا بجمع الغنائم التى خلفها العدو فى أول المعركة فالتف الاعداء حولهم وطوقوهم واعملوا فيهم القتل والأسر · وأراد الله بهذا تعليم الناس وتدريبهم على ضرورة الأخذ بالاسباب وعدم الاعتماد على مجرد انتسابهم للاسلام ليأتيهم النصر · ثم أثبت أن هذا الذى حدث هو لمصلحتهم وانه ابتلاهم به ليميز الخبيث من الطيب · وليظهر المؤمن الحقيقى ويظهر نفاق المنافقين · فهو خير حتى ولو كان

---

(١) آية : ٣١

(٢) آية : ٤

ظاهره الشر . وهو لمصلحتهم حتى ولو تصوروه غير ذلك . وفى ذلك يقول المولى سبحانه فى سورة آل عمران (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) (١) ثم قال الله تعالى فى نفس السورة بعد هذه الآية بآية واحدة ردا على الذين تصوروا أن الله لم يستطع منع هزيمة المسلمين وظنوا فيه ظن الجاهلية . وقالوا هل لنا من الأمر شىء : رد عليهم ردا حاسما وأخبرهم بأن الذى حدث لم يكن سوى ابتلاء لما فى الصدور وتمحيص لما فى القلوب التى يعلم ما فى داخلها . فقال (ثم انزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم . وطائفة قد أهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء . قل ان الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان ، لنا من الامر من شىء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم . والله عليم بذات الصدور) (٢) .

وقد وضح من هذا أيها السادة أن ابتلاء المؤمن مطلوب لزيادة أجره وتمحيص ما فى قلبه . ولذا ابتلى الله المؤمنين فى غزوة الأحزاب وأجل النصر الالهى أكثر من عشرين يوما تمحيصا وامتحانا وابتلاء وفى ذلك يقول سبحانه (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا

---

(١) آية : ١٥٢

(٢) آية : ١٥٤

شديدا) (١) ، بل ان الله أوحى لمحمد بأن ابتلاء المؤمنين سيظل هو الطريق الصحيح لتثبيت هذا الايمان · وفى ذلك يقول سبحانه فى سورة البقرة (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا – اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) (٢) ·

وقال ايضا سبحانه فى سورة آل عمران (لتبلون فى اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا أذى كثيرا · وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) (٣) ·

وبعد أيها السادة لا تغتروا بغناكم فان الله ابتلاكم به حتى تشكروه واصبروا على فقركم فان الله ابتلاكم بـه أيضا ليرى هل ستصبرون عليه ؟ ولقد عرف سليمان أن ما أعطاه الله له من مال وجاه وسلطان على الانس والجن ليس الا ابتلاء من الله له ويحكى القرآن قول سليمان هذا بعد أن جىء اليه بعرش بلقيس · فيقول (فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم) (٤) صدق الله العظيم ·

---

(١) الاحزاب : ١١.
(٢) البقرة : ١٥٥
(٣) آية : ١٨٦
(٤) النمل : ٤٠

الحديث السابع :

حقيقة الاخلاص كما يصورها القرآن الكريم

الاخلاص كلمة نسمعها كثيرا لها دلالة ومعنى خاص فحين نقول فـــلان مخلص فى عمله يكون معنى ذلك أنه يتقنه ويؤديه على الوجه الأكمل · وفلانه مخلصـــة فى تربية أبنائها أو فى رعاية بيتها معنـــاه أنها تتقن عملها فى التربية ورعاية المنزل فهى اذن وفية لأبنائها وزوجها حريصة على أداء ما عليها من واجب تجاه بيتها وأسرتها دون مراءاة أو تكلف وانما عن ايمـــان واقتناع بمـــا تعمله ·

وهكذا يمكن أن يقـــال عن كل عمـــل قصـــد به وجه الله ولم يقصد به مراءاة الناس ليظهر لهم صانعه خصـــال خير من العبادة وغيرها · حبا لحمدهم وفرارا من ذمهم ليستولى بذلك على قلوبهم · وقد عرف العلماء الاخلاص بأنه حقيقة الاسلام : لأن الاسلام هو الاســـتسلام لله لا لغيره فمن لم يستسلم لله فقد استكبر ومن اســـتسلم لله ولغيره فقد أشرك وكل من الكبر والشرك ضد الاسلام ·

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الأخلاص وذكر لفظـــة مخلصا فى ثلاث آيات فقط فى سورة واحدة من ســـور القرآن الكريم هى سورة الزمر وذلك فى الآيات الثانيـــة والحادية عشرة والرابعة عشرة (١) ·أما لفظة مخلصين فقد ذكرت فى ست آيات فقط فى القرآن كله هـــذه الآيات الست ذكرت فى خمس سور هى سورة يونس والعنكبوت ولقمان وغافر والبينة (٢) ·

---

(١) راجع المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ص ٢٣٨
(٢) المرجع السابق ·

وأما لفظة مخلصين فقد ذكرت فى القرآن الكريم كله ثمانى مرات فقط خمس منها فى سورة الصافات وحدها وآية واحدة فى كل من سورة يوسف والحجر وص (١)

ولقد وقفت كثيرا أمام آيات الزمر الثلاث والتى ذكرت فيها لفظة مخلصا بكسر اللام · فمع أن هذه اللفظة لم تذكر فى سور أخرى غير سورة الزمر الا أنها أيضا لم تأت فى هذه السورة الا وصفا لمحمد (ص) وحده دون جميع الناس · واقرءوا معى أيها السادة هذه الآيات لنتأمل بعض ما فيها من عظات وعبر ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم انا انزلنا الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين · الا لله الدين الخالص) · ثم فى الآية الحادية عشرة من نفس السورة : (قل انى امرت أن اعبد الله مخلصا له الدين وامرت لأن اكون أول المسلمين) — أما الآية الثالثة وهى الآية الرابعة عشرة فى نفس السورة فتقول : (قل الله أعبد مخلصا له دينى) ·

ولا يشك واحد فى أن هذه الآيات الثلاث تقرر أخلاص النبى بالفعل لهذا الدين الذى يدعو له · ويلاحظ فى الآيات الثلاث أن كلمة مخلصا جاءت قرينة العبادة · فكأن القرآن الكريم بهذا يشير الى أن العبادة المجردة عن الاخلاص لا قيمة لها ولا وزن · وكأنه يشير أيضا حين يقصر مخلصا على النبى (ص) الى أن من محاسن هذا الرسول الكريم ومفاخره انه لم يكن يعبد الله كما يعبده معظم الناس حيث يعتقدون الاخلاص فى عبادتهم وانما هو ضرب من العبادة يتوجه الاخلاص · وعلى كل

---

(١) المرجع السابق ·

من ينتسب لهذا الدين أن تكون عبـــادته على النموذج الأمثل من العبادة ·

أما لفظة مخلصـــين · فلم تذكر فى آية واحـدة من القرآن لتقرر اخلاصا حقيقيا لمن وصفوا بها · وانما فى ثلاث آيات من الآيات الست التى ذكرت فيها هذه اللفظة يصور المولى سبحانه حالة معظم الناس · حيث يخلصون فقط فى دعاء الله وطلب عونه حين يدهمهم الخطر · فاذا زال عنهم اذا هم يعودون الى طبيعتهم الشـــريرة · فيبغون فى الارض بغير الحق · أو يشـركون ويكفرون بمـا آتاهم ربهم أو يجحدون نعمه واحسانه · وأكثر مـا يحدث هذا · حين يكونون فى البحـر بعيدين عن أسباب النجاة ويغلب عليهم عدم القدرة على الفـرار من الخطر الداهم ·

ففى الآية الأولى وهى الآية الثانية والعشـــرون من سورة يونس يقول المولى سبحانه :

(هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها · جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكـــان وظنوا انهم أحيط بهم دعوا الله مخلصـين له الدين لئن أنجيتنا من هـذه لنكونن من الشاكرين · فلما انجاهم منها اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق · يا أيها الناس انمـا بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا · ثم الينـا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) أدأيتم ما يقوله ربنا (حتى اذا كنتم فى **الفلك · وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها · جاءتهـــا** ريح عاصف) · ريح قوية ، غيرت الأوضاع فاصـــبح الشر متوقعا والغرق محتملا · فقد جاءهم الموج من كل مكان وظنوا كما يقول القرآن أنهم أحيط بهم — فى هـذا

الوقت العصيب وفى هذه اللحظات الخطرة فقط ـ دعوا الله مخلصين له الدين وقالوا لربهم (لئن انجبيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) ، لكنهم وللأسف حين نجوا اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ـ ثم تعالوا بنا الى الآية الثانية وهى فى سورة لقمان وستجدونها شبيهة بالأولى فالاخلاص اخلاص فى الدعاء وطلب العون فقط وجاء نتيجة خوفهم من هذه الغرق أيضا (واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد) أى جاحد ٠ أو متوسط فى العمل (وما **يجحد بآياتنا الا كل ختار ـ كفور) (١) ٠ أى غدار ناقض** للعهد بينه وبين ربه ٠

اما الآيات الثلاث الأخرى التى ذكر فيها لفظ مخلصين **فاثنتان منها جاءتا فى سورة غافر وقد جاءتا فى سياق** دعوة الناس الى الاخلاص فى دعائهم لله ٠ بعد أن ذكر لهم الكثير من نعمه وآلائه وبين لهم أن أكثر الناس لا يشكرون ـ والثالثة جاءت فى سورة البينة ـ وهى تتحدث عن أهل الكتاب وكيف تفرقوا بعد أن جاءتهم البينة آ٠ مع أنهم أمروا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين الآية الاولى يقولها المولى سبحانه بعد قوله (هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر الا من ينيب) ثم يقول : (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) والآية الثانية تأتى بعد قوله تعالى : (الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ٠ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) ٠ ثم يقول : ـ (هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين)

---

(١) آية : ٣٢

(أما الآية الثالثة فتأتى بعد قوله سبحانه وما تفـــرق الذين أتوا الكتاب الا من بعــــد ما جاءتهم البينة) • ثم يقول : (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصـــين له الدين حنفـــاء ويقيموا الصـــلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) •

وهكذا كان حديث القرآن عن الاخلاص • اثبـــات الاخلاص الكامـل لمحمـــد (ص) ودعوة الناس لهـذا الاخلاص • واستحقاق المولى سـبحانه لاخلاص الدعاء والعبادة له فى كل وقت • فهو صـاحب الدين يدعوهم لهذا الاخلاص •

ولعلك أخى المسلم لاحظت أن كـل الآيات التى ذكرت لفظة مخلصا ومخلصين قرن بها جميعها وبلا اسـتثناء لفظة (له الدين) - (فاعبد الله مخلصا له الدين) • انى أمرت أن اعبد الله مخلصا له الدين قل الله اعبد مخلصا له دينى - ادعوا الله مخلصـــين له الدين - فادعوا الله مخلصين له الدين - فادعوه مخلصـين له الدين - وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين •

وهكذا وفى كل الآيات أراد المولى سـبحانه أن يلفت الانظار الى أنه صاحب الدين وأن الاخلاص هو حقيقـة هذا الدين •

نعم أيها السادة فالايمان الحقيقى فى اخلاص الدين لله - واخـلاص الـدين لله ، هـــو الدين الذى لا يقبـل الله سواه - **وهو الذى بعث به الأولين والآخرين من الرسل** وأنزل به جميع الكتب - واتفق عليه ائمة أهل الايمان - كما أنه خلاصـــة الدعوة النبوية • بل هو قطب القرآن الذى تدور عليه حياة الناس ، والاخلاص لله أيها السادة لا يأتى الا مع المحبة • محبة الله ومحبة رسوله الكريم •

بل ان محبة الله ورسوله من اعظم واجبات الايمـــان ٠ واكبر اصوله وأجل قواعده ٠ بل هى أصل كل عمل من أعمال الايمان ، والدين وجميع الأعمال الايمانية الدينية لا تصدر الا عن محبة الله ٠ ومحبة رســـوله ٠ فان الله سبحانه لا يقبل من العمل الا ما أريد به وجهه ٠ كما ثبت فى الصحيح عن النبى (ص) أنه قال (يقول الله تعالى انا اغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو كله للذى أشرك) (١) ٠

ويقول النبى (ص) (ثلاث من كن فيه وجـــد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ـ ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ـ ومن كـــان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذا انقذه منـــه كما يكره أن يلقى فى النار) (٢) ٠

نسأل الله الاخلاص فى القول والعمـــل وأن يكون الله ورسوله أحب الينا مما سواهما ٠ وأن يلهمنا الاخـــلاص فى كل أمورنا ٠

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه بلفظ مقارب ٠ كتاب الزهـــد والرقائق باب (من أشرك فى عمله غير الله) صحيح مســـــلم جـ ٢ ص ٢٢٣ ط الشعب ٠

(٢) اخرجه البخارى بلفظ مقارب فى صحيحه كتاب الايمـــان ٠ باب (حلاوة الايمان) البخارى مع فتح البارى ٠ جـ ١ ص ٦٦ ـ ٦٨

الحديث الثامن :

موقف القرآن من الرياء

اذا كان الاخلاص هو كل عمل قصد به وجه الله فان الرياء هو نقيض الاخلاص تماما · أى أنه كل عمل لم يقصد به وجه الله تعالى وانما قصد به مراءاة الناس ليظهر لهم صاحبه خصال خير من العبادة وغيرها حبا لحمدهم وفرارا من ذمهم ليستولى بذلك على قلوبهم ·

ولهذا يعتبر الرياء من الامراض النفسية الخطيرة التىتحتاج الى علاج دائم ويقظة مستمرة · وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض المرائين ليفرق بينهم وبين المخلصين الجادين ·

تحدث عن المرائين بالعقائد وهم الذين يظهرون للناس أنهم موحدون يشهدون الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله · وهم يعتقدون خلاف ذلك · فيقول سبحانه عنهم (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) (١) ومنهم أيضا الذين قال الله فيهم (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون) (٢) ·

فقد ذكر الله سبحانه فى أول السورة المؤمنون الخلص ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلص · ثم ذكر المنافقين الذين وافقوا فى الظاهر الطائفة الاولى وفى الباطن الطائفة الثانية وقال عنهم (يخادعون الله والذين آمنوا وما

---

(١) البقرة : ٢٠٤

(٢) البقرة : ١٤

يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مـــرض فزادهم الله مرضا) (١) ، (أى فى قلوبهم شك وريبة) وقد روى عن عكرمة وطاووس أن المقصود بالمرض هــو الريـــاء ٠

ومن المرائين أيضا ٠ المرائون بالفرائض وهم الذين يفعلون أركان الدين من صلاة وصـــيام وزكاة وحج من أجل غرض من الاغراض ٠ وقد سماهم القرآن الكـريم بالمنافقين ٠ وقال عنهم انهم يخادعون الله ثم حـكم الله على من يظل على هذا النفاق ويستمر فى هــذا الخداع بأنه سيكون فى الدرك الاسفل من النار ولن يكـون لــه نصيرا ٠ ويصور القرآن الكريم هــذه الحالة من الخداع والنفاق فيقول فى سورة النساء (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليــلا مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) (٢) ثم يقول فى نفس السورة بعد آية واحدة (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجـــرا عظيمــا) (٣) ٠

ومن الرياء أيضا الانفــاق استجلابا لثنـــاء الناس ومدحهم دون أن يكون فى ذلك طلب وجه الله لثواب الآخرة وقد طالب المولى سبحانه المؤمنين بألا يبطـلوا صدقاتهم بالمن والأذى والمن هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها

(١) البقرة : ٩

(٢) آية : ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) آية : ١٤٥ ـ ١٤٦.

والتقريع بها . أو التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه وهو من الكبائر . أما الأذى فهو السب والتطاول والتشكى ـ وقد شبه الله تعالى هؤلاء الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى أى يذهبون أثرها ويفسدون منفعتها ، بالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وفى سورة الانفال دعا الله تبارك وتعالى المؤمنين الى الثبات فى قتال الكفار وأمرهم بطاعته وطاعة رسوله ودعاهم الى عدم التنازع حتى لا يفشلوا وتذهب ريحهم ولا يحصلون على فائدة كالذين خرجوا من ديارهم مراءاة للناس وهم يصدون عن سبيل الله ، فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ـ واطيعوا االله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين ـ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) (١) .

وقد توعد الله سبحانه وتعالى المرائين بالصلاة فقال (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم براءون ويمنعون الماعون) (٢) .

ان اقبح أنواع الرياء هو ما فعل للحصول به على لذة محرمة كأن يحتال به للفسق بامرأة أو غلام أو يستعين به على سلب مال ظلما وعدوانا . أو يتوسل به لايذاء برىء .

وقد نبه المولى سبحانه الى ضرورة أن يكون عمل الانسان دائما خالصا لوجه الله الكريم لا يرائى به أحدا

---

(١) الانفال : ٤٥ ـ ٤٧

(٢) الماعون : ٤ ـ ٧

والا فقد أشرك مع الله غيره فى العبـادة · فقال سـبحانه (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) (١) أى لا يرائى بعمله (وقال رسول الله (ص) اياكم والشرك الأصـغر قالوا : يا رسـول الله وما الشرك الأصغر قال الرياء وقال أيضـا اياكم والشرك الأصغر يقول الله تعالى يوم يجازى العباد بأعمـالهم : اذهبوا الى الذين كنتم تراءونهم باعمالكم فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) (٢) وقـد قيل فى تفسير قول الله تالى · (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) (٣) أن بعض الناس يعملون اعمالا فى الدنيا ـ يرونها حسنات فاذا هى تبدو لهم يوم القيامة سيئات) ·

ومن المرائين أيضا : المرائون بالنوافل وأوصـاف العبادة كأن يؤديها فى حضرة الناس ولا يؤديها اذا كان وحده ـ هؤلاء مراءون ولا يقبل الله أعمـالهم ، والذين يتحدثون عن أعمالهم بعد تمامها كأن يقول الواحد منهم صليت كذا وصـمت كذا وفعلت كذا من الخير مراءون أيضا ويحبطون بأقوالهم هذه أعمالهم ·

ومن المرائين أيضا · المراءون بالهيئة والزى · كالذى يتكلف نحول بدنه واصفرار وجهه كى يظهر بمظهر العابد الذى أضناه السـهر وأنحله الصـوم · أو الذى يتكلف

---

(١) الكهف : ١١

(٢) قال العراقى : رواه أحمد باسناد جيد عن ابن عباس ، والبيهقى فى الشعب · وابن الدنيا من حديث محمود الجلابيد · وله رؤية ورجال ثقات · قال المنذرى · جيـد · ورواه الطبرانى عن محمود بن لبيب محمد رافع بن خديج · راجع كتاب الكبائر للامام الحافظ شمس الدين الذهبى ص ٩ ·

(٣) الزمر : ٤٧

خفض صوته أو اغماض عينيه أو ترك شعره شعثا . أو يلبس اثوابا تختلف عن اثواب أهله وعشـــيرته ليلفت انظار الناس اليه هؤلاء جميعا أيها الســـادة مراؤون وسيحاسبهم الله على نياتهم . فالنية عليها مدار الثواب والعقاب والاخلاص فى العمل هو المطلوب والمقصود وقد روى عن قتادة أنه قال (اذا راءى العبـــد . يقول الله تعالى أنظروا الى عبدى كيف يستزىء بى) (١) وقال الحسن رضى الله عنه (المرائى يريـــد أن يغلب قدر الله فيه . هو رجل سوء يريد أن يقــول الناس هــو صالح . فكيف يقولون وقد حل من ربه محـــل الأزدراء فلابد من قلوب الناس أن تعرفه) (٢) .

والمبالغة فى العبادة مراءاة للناس مما تنهى عنـــه شريعة القرآن . لقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نظر الى رجل وهو يطأطىء رقبته . فقال يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك . ليس الخشوع فى الرقاب . انمـــا الخشوع فى القلوب)(٣)وقيل ان ابا أمامة الباهلى رضى الله عنـــه أتى على رجل فى المسجد وهو ساجد يبكى فى سجوده ويدعو . فقال له أبو أمامة . أنت أنت . لو كان هذا فى بيتك) . (٤) وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه (للمرائى ثلاث علامات يكسل اذا كان وحده وينشط اذا كان فى الناس ويزيد فى العمل اذا أثنى عليه . وينقص اذا ذم به) (٥) (وقال الفضـــيل بن عياض رحمه الله : ترك العمل لاجل الناس رياء والعمل لاجل الناس شـــرك

---

(١) راجع كتاب الكبائر ش ١٥٥
(٢) المرجع السابق ص ١٥٦
(٣) المرجع السابق
(٤) نفس المرجع السابق
(٥) نفس المرجع السابق

والاخلاص أن يعافيك الله منهما ٠) (١) ٠

يكفينا فى الرياء وخطره ما رواه مسلم عن أبى هريرة أن النبى (ص) قال (ان أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فى سبيل الله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ٠ قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ٠ ولكنك فعلت ليقال هو جرىء وقد قيل ٠ ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا انفقت فيها لك ٠ قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد وقد قيل ٠ ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ٠ قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ٠ قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم وقرأت ليقال هو قارىء ٠ ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار) (٢) ٠

أرأيتم أيها السادة خطر النفاق فى العمل ومراءاة الناس بهذا العمل ٠ لهذا عد الكثيرون من العلماء الرياء من الكبائر ٠

نسأل الله العون على الاخلاص فى كل مسألة من شئون ديننا ودنيانا وأن يجعل كل عبادة له بل كل عمل من أعمال هذه الحياة عبادة خالصة وعملا خالصا لوجهه الكريم انه سميع مجيب ٠

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١١

(٢) راجع مسلم فى صحيحه كتاب الجهاد ٠ باب (من قاتل للسمعة والرياء) جـ ١ ص ٤٧

الحديث التاسع :

الظلم وتحريمه فى القران الكريم

حرم الله الظلم على الناس وتوعد الظالمين فى كتابه الكريم وقد حدد المولى سبحانه وتعالى أنواعا من الظلم وفى المقابل أيضا حدد أنواعا من العقاب لهؤلاء الظالمين ففى سورة البقرة يقول سبحانه : (والكافرون هم الظالمون) (١) والكفر بلا شك هو أشد أنواع الظلم ويقول أيضا فى سورة البقرة (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) (٢) والذين يفترون على الله الكذب أيضا ظالمون وفى ذلك يقول القرآن (فمن أفترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) (٣) والذين يدعون غير الله ويتصورون فيه مكان دفع مكروه أو جلب محبوب هم أيضا من الظالمين وفى ذلك يقول القرآن الكريم (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذا من الظالمين) (٢) ٠

والذين يحكمون بغير ما أنزل الله هم أيضا من الظالمين وفى ذلك يقول القرآن الكريم : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (٥) ٠

والذين يوالون غير المؤمنين حتى وان كانوا اباءهم أو اخوانهم أيضا ظالمين وفى ذلك يقول القرآن الكريم (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا أباءكم واخوانكم أولياء

---

(١) آية : ٢٥٤
(٢) آية : ٢٢٩
(٣) آل عمران : ٩٤
(٤) يونس : ١٠٦
(٥) المائدة : ٤٥

ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) (١) ٠

والذين يرفضون أن تحكم شريعة الله ويعرضون عنها الى غيرها أيضا من الظالمين وفى ذلك يقول القرآن : (واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وأن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) (٢) والذين يجحدون بآيات الله ظالمين ، وفى ذلك يقول القرآن (وما يجحد بآياتنا الا الظالمون) (٣) والذين يسخرون من الناس ويلمز بضهم بعضا ويتنابزون بالألقاب ، ثم لا يتوبون من ذلك هم من الظالمين أيضا ٠

ويقول الله فيهم (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) (٤) هذا بالاضافة الى أن أكل أموال الناس بالباطل ظلم والتعدى على الناس بالضرب أو الشتم والاستطالة على الضعفاء أيضا ظلم ٠ والمماطلة بحق مع القدرة على الوفاء من أعظم الظلم وقد ثبت فى الصحيحين قول الرسول (سلعم) عطل الغنى ظلم) (٥) ومن الظلم أيضا أن يظلم المرأة حقها من صداقها ونفقاتها وكسوتها ٠

وعدم اعطاء الأجير أجره ظلم ، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل ببيع أو شراء عدوا أيضا من الظالمين بعد أن حكم عليهم بالضلال المبين وان ليس لهم ولى ولا نصير

(١) التوبة : ٢٣
(٢) النور : ٥٠
(٣) العنكبوت : ٤٩
(٤) الحجرات : ١١
(٥) أخرجه البخارى بلفظه ٠ كتاب البيوع ، باب (ان احال دين اليت عند رجل جاز) البخارى مع فتح البارى جـ ٥ ص ٣٧٣

فقال (بل الظالمون فى ضلال مبين) (١) وقال (والظالمين ما لهم من ولى ولا نصير) (٢) وقال عنهم (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) (٣) أى أشباههم وأمثالهم وأتباعهم) وبعد أن نبه سبحانه الى عدم الركون اليهم والميل اليهم بالمحبة أو مودتهم ومحاباتهم فقال (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار)(٤)وقال سبحانه مع هذا كله (والله لا يهدى القوم الظالمين) (٥) وقال أيضا (ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) (٦) وقال أيضا (ألا لعنة الله على الظالمين) (٧) وقال أيضا (انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه) (٨) ثم ينبه سبحانه الى أن الظالمين لا تقبل أعذارهم يوم القيامة ما لم يتوبوا فى الدنيا وانهم المستحقون لعنته فيقول (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) (٩) وكم من قصة فى القرآن الكريم تحدثت عن عذاب الله لأقوام ظلموا أنفسهم أو ظلموا غيرهم فاستحقوا عقابه لأنهم تعدوا حدوده أو افتروا عليه كذبا و حكموا بغير ما أنزل أو تولوا قوما غضب الله عليهم وصدق الله حين يقول (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون . انما نؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) (١٠) فى سورة هود

---

(١) لقمان : ١١
(٢) الشورى : ٨
(٣) الصافات : ٢٢
(٤) هود : ١١٣
(٥) البقرة : ٢٥٨
(٦) آل عمران : ١٥١
(٧) هود : ١٨
(٨) الكهف : ٢٩
(٩) غافر : ٥٢
(١٠) ابراهيم : ٤٢ _ ٤٣

(مثلا يتحدث القرآن الكريم عن فرعون وقومه وكيف اتبع قوم فرعون أمر فرعونهم ورأيه مع علمهم بحيفـــه وزيفه فكان جزاؤهم الغرق لأنهم ظلموا أنفسهم وفى ذلك تقول الآيات :

(وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسـهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ، وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه اليم شديد) (١) ٠

وفى سورة الانبياء يبين سبحانه كيف أنه أباد قـرى كاملة وبلادا عامرة بسبب ظلم أهلها وأن الله تعالى بعد أهلاك أهل هذه القرى جـاء بقـوم اخرين ليســوا من السابقين ولا صلة بينهم بنسب أو دين لأن الله استأصل الأولين وقطع دابرهم بالكليـــة فيقـول سبحانه (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشـــأنا بعدها قومــــا آخرين) (٢) وقد أجمع المفســرون على أن الله تعالى لا يهلك بسبب الشرك وحده وانما يهلك بسبب الفســـاد وانتشار الظلم بين الناس ولذا كان رأى بعض المفسرين أن معنى قول الله تبارك وتعالى فى سورة هود (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) (٣) أن المراد بالظلم هنا هو الشرك وأن الباء للسببية والمعنى أنـــه لا يهلك القــرى بسبب اشـراك أهلهـا وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون الى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته سبحانه ومسامحته فى حقوقه هو ولذا قيل (الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم) وقد

---

(١) هود : ١٠١
(٢) آية : ١١
(٣) آية : ١١٧

حرم الله تعالى على اليهود كثيرا من الطيبات بسبب ظلمهم وانحرافهم عن تعاليم دينهم فقال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنـــه وأكلهم أموال الناس بالباطل) (١) ٠

وقد تحدث القرآن الكريم عن أشد أنواع الظلم وافحشه فى كثير من آياته فقال سبحانه (ومن أظلم ممن منـــع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها) (٢) وقال تعالى (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) (٣) وقال (ومن أظلم ممن افتـــرى على الله كذبـا أو كذب بآياته) (٤) وقال أيضا (ومن أظلم ممن أفترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليــه شىء) (٥) وقال (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) (٦) وقال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) (٧) وقال (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) (٨) وقال (فمن أظلم ممن كذب على الله وكـذب بالصدق اذ جاءه) (٩) ٠

برغم هذا كله فان المولى سبحانه وتعالى يتوب على من ظلم اذا أصلح وأعاد الحقوق الى أصحابها وصدق الله حين يقول (فمن تاب من بعد ظلمه وأصـــلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم) (١٠) ويقول أيضا سبحانه

---

(١) الانعام : ٩٣
(٢) البقرة : ١١٤
(٣) البقرة : ١٤٠
(٤) الانعام : ٢١
(٥) النساء : ١٦٠
(٦) الكهف : ٥٧
(٧) الانعام : ١٤٤
(٨) الانعا : ١٥٧
(٩) الزمر : ٢٢
(١٠) المائدة : ٢٩

(وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) (١) وروى أن رجلا من الصالحين كان يصلى جماعة خلف الامام يقرأ قول الله تعالى (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) (٢) فأغمى على الرجل فلما أفاق سئل الرجل عن سبب أغمائه فقال سمعت الآية فخشيت على نفسى فاذا كان هذا جزاء من ركن الى الظلم فكيف بمن ظلم ؟

وبعد أيها الاخوة لقد حرم الله الظلم بكل صوره وأشكاله وقال فى حديثه القدسى (يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) (٣) وقد نبه النبى (صلعم) على أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب فقال لمعاذ بن جبل حين بعثه الى اليمن بعد أن أوصاه بوصايا (واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب) (٤) .

وفى الصحيح (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة) (٥) وقد أنشد بعض الصالحين فقال

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا
فالظلم ترجع عقباه الى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه
يدعو عليك وعين الله لم تنم (٦)

هدانى الله واياكم وأبعدنا عن ظلم أنفسنا وعباد الله .

---

(١) هود : ١١٣ (٥) الرعد : ٦

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه بلفظه . كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم) صحيح مسلم ج ٨ ص ١٦

(٣) أخرجه البخارى بلفظه . كتاب المظالم . باب (الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم) ، البخارى مع فتح البارى ج ٨ ص ١٦ .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب المظالم : باب (ان من ظلم شيئا من الارض) . البخارى مع فتح البارى ج ٦ ص ٣٠ .

(٦) راجع كتاب الكبائر ص ١١٥

الحديث العاشر :

الحلال والحرام كما بينه القرآن الكريم

ميزة الاسلام أنه يخاطب العقل ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان · وفي حكم الاسلام أن النظر بالعقل هو طريق الضمير الى الحقيقة وأن التفكير باب من أبواب الهداية التي يتحقق بها الايمان - والقرآن دستور هذه الحياة ومصلحها في كل زمان ومكان لانه يشرع الحياة الواقعية ويحيط بالحياة الانسانية كلها وبكل فرع من فروع هذه الحياة ·

وقد تحدث القرآن عن الحلال والحرام وكان واضحا في هذا كل الوضوح - والرسول وان كان قد جعل بين الحلال والحرام مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس الا أنه أراد بهذا للمسلمين اتقاء الشبهات استبراء للدين والعرض وخشية الوقوع في الحرام كذلك فان القرآن الكريم وضع كما قلت الاصول التي يمكن أن يعرف بها الحلال من الحرام · وكان حريصا على نهى المؤمنين في أكثر من آية عن أن يحرموا ما أحل الله لهم أو يحللوا ما حرم عليهم - فقال سبحانه في سورة المائدة في معرض نهى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله لهم (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) (١) وقال في سورة المائدة أيضا (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا واذا حللتم فاصطادوا

---

(١) المائدة : ٨٧ _ ٨٨

ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب) (١) ٠

وحديث رسول الله (ص) الذين يبين أن بين الحلال والحرام مشتبهات يوضح أن الحلال بين والحرام بين وهو لا يقول وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن الناس وانما يقول لا يعلمهن كثير من الناس ٠ ومعنى هذا أن بعض الناس يعرفون هذا الحلال وهذا الحرام - والقاعدة أن الأصل فى الأشياء الحل ما لم يرد نص بالتحريم سواء كان هذا النص نصا قرآنيا أو حديثا لرسول الله (ص) ٠

لكن بعض الناس بغير علم قد يحللون الحرام ويحرمون الحلال مع أن الأصول كما قلت فى القران واضحة بل اكثر من هذا كان حديث القرآن فى هذه الناحية حديثا شاملا جامعا لأصول الحلال والحرام ٠ وأيضا لفروع كثيرة من هذه الأصول ٠ الأمر الذى جعلنا ننبه الى ضرورة التأكد من هذه الأصول والفروع ٠ قبل الحكم بالحل أو الحرمة على شىء ما أيا كان هذا الشىء ٠ وقد لام المولى سبحانه رسوله محمدا (ص) حين حرم على نفسه شرب العسل أووطأ أمة له أو مارية القبطية أم أبنه ابراهيم على خلاف فى الروايات ارضاء لاحدى زوجاته فنزلت الآية تلومه على هذا وتقول له بصريح العبارة :

(يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة

---

(١) آية : ٢

(٢) الحديث : « الحلال بين والحرام بين وبينهما امور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ٠٠ » أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الايمان ٠ باب (فضل من استبرأ لدينه) البخارى مع فتح البارى ٠ جـ ١ ص ١٣٤ :

أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم) (١) ٠

ونظرا لان الأصل فى الاشياء الحل كما قلت فقد ذكر المولى سبحانه بعضا مما أحله فقط مما قد يتصور البعض حرمته أى مما كان حراما فأحله الله مثل قول الله تعالى فى سورة البقرة :

(وأحل الله البيع وحرم الربا) (٢) وفى سورة البقرة أيضا (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) (٣) وفي سورة المائدة (أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم) (٤) وفي المائدة أيضا (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) (٥) ومثل قوله فى المائدة أيضا :

(أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكموللسيارة)(٦) ومثل قوله سبحانه خاصا بالنبى :

(يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما افاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبى ان أراد

---

(١) التحريم : ١ ٠ وراجع كتب التفسير
(٢) آية : ٢٧٥
(٣) آية : ١٨٧
(٤) آية : ١
(٥) آية : ٥
(٦) آية : ٩٦

النبى أن يستنكحها خالصـــــة لك من دون المؤمنين ٠٠ الخ الآية) (١) ٠

وهكذا ذكر المولى سبحانه كما قلت بعض ما أحله مما قد يرى فيه شبهة ٠ أو كان حراما فأحل ٠ وقـــد حـــذر سبحانه من التحريم والتحليل افتراء على الله : فقـــال سبحانه فى سورة النحل (فكلوا ممـــا رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون) (٢) وبعد تفصـــيل بعض المحـــرم من هـــذا الطعـــام ، قـــال بعـــد الآية السابقة مباشرة :

(انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) (٣) ٠

ثم قال بعد ذلك مباشرة (ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) (٤) ثم هدد الذين يفترون فقال : (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم) (٥) ٠

وتعال أخى المسلم واستمع الى رأى القـــرآن الكريم فيما حرم على المسلمين خاصة وقد قلنا ان المحرم قـــد نص عليه يقـــول القرآن مثلا فى معرض حديثه عمـــا حل من الطعام (وما لكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه) (٦) ٠

---

(١) الاحزاب : ٥٠
(٢) آية : ١١٤
(٣) آية : ١١٥
(٤) آية : ١١٦
(٥) آية : ١١٦ ـ ١١٧
(٦) الانعام : ١١٩

ومعنى هذا بنص القرآن أن الله فصل للمؤمنين كل ما حرم عليهم من الطعام والشراب ولو جمعنا فعلا الآيات الكثيرة التى تحدثت عن المحرم من الطعام لوجدناها كاملة فى هذه الناحية والحقيقة أن الانسان يقف مندهشا تماما أمام حديث القرآن عن تفصيل المحرم على المسلمين حيث نجد أن هذا التفصيل شمل كل جوانب الحياة . وسأضرب مثلا فقط لبعض هذه الجوانب لادلك بهذا على ما أقول :

يقول المولى سبحانه فى سورة الانعام عن بعض المحرمات من الأصول :

(قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من أملاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) (١) .

وفى معرض المحرمات على المؤمنين فى النكاح يقول سبحانه :

(حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وامهاتكم اللاتى أرضعنكم واخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللائى دخلتم بهن) (٢) وفى معرض تحريم بعض المطعومات يقول المولى سبحانه فى سورة المائدة : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة

---

(١) آية : ١٥١
(٢) النساء : ٢٣

والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وان تستقسموا بالازلام) (١) وفى سورة المائدة أيضا (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم **حرما) (٢) .**

وهكذا كان حديث القرآن واضحا عن الحلال والحرام فالى الذين يزهدون فى الدنيا وينفرون منها وكأن التمتع بما فيها من طيبات ما أحل الله انما خلقه الله لغيرالمسلمين نسوق هذا الحديث ونحيلهم الى كتاب الله وما جمع بين دفتيه عن الحلال والحرام وهو كثير وندعوهم أيضا الى قوله سبحانه :

(قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما **وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) (٣) ثم ندعوهم** أيضا الى تدبر معنى قوله سبحانه (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق هل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات **لقوم يعلمون) (٤) .**

أسأل الله لى ولكم التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) آية : ٣
(٢) آية : ٩٦
(٣) يونس : ٥٩
(٤) الاعراف : ٣٢

الحديث الحادى عشر :

الاحسان فى ضـــوء القـــرآن الكريم

الاحسان من الالفـــاظ التى تكررت كثيرا فى القرآن الكريم اما بلفظ الاحسان أو مشتقاته كأحسنوا وأحسنتم . واحسان ، وحسنا ، ومحسن ، ومحسنون ، ومحسنين ، وغير ذلك من الالفاظ المشتقة منه ٠ وقد تكررت لفظـــة المحسنين فى القرآن الكريم فى ثلاث وثلاثين اية ، وكانت معظم هذه الآيات عن حب الله للمحسنين ، وقد ذكرت أولا فى الآية ١٩٥ من سورة البقرة ثم تكررت بعـــد ذلك فى الآية ١٣٤ من سورة آل عمران ، ١٤٨ من آل عمـــران ، والآية ١٣ من المائدة ، وآية ٩٣ من المائدة أيضا ـ أمـــا الآيات الباقية فبعضها يتحدث عن فضل الله على المحسنين واعطائهم جزاءهم الذى يستحقونه بفضل احسانهم ، مثل قوله فى سورة المائدة (خالدين فيها ، وذلك جـــــزاء المحسنين) (١) وفى الانعام (وكذلك نجزى المحسنين)(٢) ويوسف (وكذلك نجزى المحسنين)(٣)وفى الصافات فى ٤ آيات منها (انا كذلك نجزى المحسنين) وهى الآيات ٨٠ ، ١٠٥ ، ١٢١ ، ١٣١ ، بالاضافة الى الآية ١١٠ أيضا التى تقول (كذلك نجزى المحسنين) وفى الانعـــام والقصص (وكذلك نجزى المحسنين) (٤) هذا بالاضافة الى آيات أخرى تتحدث عن تقرير المولى سبحانه وتعالى لجـــزاء المحسنين ، وعدم تضييع أجورهم وحقوقهم ، جزاء هـــذا

---

(١) آية : ٨٥
(٢) آية : ٨٤
(٣) آية : ٢٢
(٤) الانعام : ٨٤ ، القصص : ١٤.

الاحسان حيث يقول سبحانه فى سورة التوبة : (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) (١) وفى هود (واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) (٢) وفى يوسف أيضا (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) (٣) وفى يوسف (نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) (٤) بالاضافة الى تقرير المولى سبحانه وتعالى بأن الله مع المحسنين وان رحمة الله قريب من المحسنين وانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) كل هذا الاهتمام بالمحسنين ، والذين كما قلنا ذكروا فى ثلاث وثلاثين آية فما هو هذا الاحسان الذى أمر المولى سبحانه به الناس . فقال في سورة النحل (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) (٥)

وما هو هذا الاحسان الذى جعل الله له هذا الاجر العظيم ، وجعل لمن يأتيه الجنة وزيادة ، والزيادة : هى باجماع العلماء النظر الى وجه الله الكريم ، والفوز برضاه والبهجة بقربه ، حيث قال سبحانه فى سورة يونس (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) (٦) فالحسنى هى الجنة الكاملة فى حسنها ، والزيادة هى النظر الى وجه الله الكريم ، والفوز برضاه ، والبهجة بقربه .

فهل الاحسان هو اعطاء بعض المال للمحتاجين كما هو معروف ومشهور ـ أم أن الاحسان هنا فى هذه الآيات أشمل وأعم من هذا الادر ـ لو قرأنا هذه الآيات التى

---

(١) آية : ١٢٠
(٢) آية : ١١٥
(٣) آية ٩٠
(٤) آية : ١٥٦
(٥) آية : ٩٠
(٦) آية : ٢٦

تتحدث عن الاحسان ودقتها فى معانيها ، وما ترمى اليه ، لوجدنا أنها لا تقتصر على هذا المعنى المحدود من الاحسان - فالتصدق بالمال وان كان نوعا من أنـواع الاحسان ، الا أن الاحسان الذى أمر الله الناس به أعم وأشمل من هـذا الجزء المحدود .

ومع أن قول الله تعالى فى سورة البقرة (واحسنوا ان الله يحب المحسنين) (١) يسبقه قوله (وانفقوا فى سبيل الله) الا انه لا يمتنع هنا دخول الاحسان بالجاه أيضا فى هذا الامر (واحسنوا) ودخول الاحسان فى الامـــر بالمعروف ، والنهى عن المنكر أيضا ، وفى تعليم العـلم النافع . ودخول قضاء حوائج الناس أيضـا فى هـذا الاحسان ، وكذا تفريج كرباتهم ، وازالة شدائدهم ،وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ، وارشاد ضالهم ، كما يدخل فيه أيضا الاحسان فى عبادة الله ، وأجادة هذه العبادة .

فالاحسان اذا : قد يكون احسان الاعمال ، وقد يكون احسان العبادة ، ومعناه على هذا يكون الاتيان بهما على الوجه اللائق ، واحسان العبادة قد يكون احسانا بحسب الكيفية ، وهو الذى يفهم من ظاهر قول الرسـول (ص) (أن تعبد الله كأنك تراه) (٢) أو بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل وغيرها ، كما يراد بالاحسان أيضا الاحســان المتعدى بالى ، لا المتعدى بنفسه فقط ، فانه يقال أحسـنه وأحسن اليه - أى الاحسان الى الناس والتفضل عليهم - وقد روى أن على بن أبى طالب مر على قوم يتحدثون فقال

---

(١) آية : ١٩٥

(٢) جزء من حديث طويل رواه البخارى فى كتاب الايمـان . باب سؤال جبريل للنبى عن الايمان والاسلام والاحسان وعلم الساعة) صحيح البخارى ج ١ ص ١٨

فيم أنتم ؟ قالوا نتذكر المروءة - فقال (أو ما كفاكم الله عز وجل ذاك فى كتابه اذ يقول :

(ان الله يأمر بالعدل والاحسـان (١) - فالعـدل الانصاف - والاحسان التفضل فما بقى بعد هذا ؟ لـو حاولنا استعراض هذه الآيات التى تحدثت عن الاحسان والمحسنين ، والتى تكررت فى كثير من سوره كما رأينا ، لوجدنا انها فعلا تشتمل على كل هذه الانواع التى ذكرناها - ولوجدنا أن الاحسان ليس انفاق المال فقط ، وان تفسير النبى (ص) له انما هو أفضل التفاسير ، وأن كان بعض الناس يفهمه على ظاهر النص ، فحين يفسر النبى (ص) الاحسان بقوله حين يسأل عنه (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) يكون هذا التفسير من وجهة نظرى من أشمل واجمع التفاسير لمعنى الاحسان ، الذى عـرفه العلماء بأنه الاتيان بالاعمال والعبادات على الوجـه اللائق - فقد يرى البعض أن كلام النبى (ص) قصد بـه الاحسان المتعدى بنفسه فقط . وليس الاحسان المتعدى بالى - الا أنى أرى غير ذلك ، خصوصا اذا عـرفنا أن عبادة الله يدخل تحتها الائتمار بكل ما امر به - والانتهاء عما نهى عنه ، وتنفيذ هذه الاوامر الالهية على الوجـه اللائق - وهذا يدخل فيها كما قلنا احسان الاعمال ، لانها مترتبة على العبادة ، والعمل يأتى نتيجة الاعتقاد كما هو معروف ، ومن هنا نفهم الحكمة فى أمر الله تبارك وتعالى الناس بالاحسان للوالدين - وقرن ذلك بالامر بعبادته حين يقول : (وقضى ربك ألا تعبـدوا الا اياه وبالوالدين

---

(١) النحل : ٩٠

احسانا)(١)نستطيع ان نفهم أن المفهوم من قول الله تعالى فى سورة النحل (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة)(٢) انه الاتيان بالاعمال الحسنة الصالحة وان المفهوم من طلب الاحسان الى الوالدين فى قوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا) (٣) هو البر بهما مع اللطف ولين الجانب ، وان كلا من الصبر والتقوى ، هما من قبيل الاحسان أيضا ، حيث يقول سبحانه فى سورة يوسف (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) (٤) وان الصبر على المكروه وعدم المعاقبة بالمثل احسان وفى ذلك يقول سبحانه فى سورة النحل (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)(٥)الى أن يقول (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (٦) لان الصبر فى هذه الحالة احســـان ـ كذلك نستطيع أن نستخلص أيضا من هذه الآيات ان الاحسان قد يكون فى مبادرة المسلمين الى أمر الله ، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه ويمكن أن نستخلص ذلك من مثل قوله سبحانه فى سورة التوبة : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصـــة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضـــيع أجـــر المحسنين) (٧) وكذا القول الطيب احسان وفى ذلك يقول

---

(١) الاسراء : ٢٣
(٢) النحل : ٣٠
(٣) النساء : ٣٦
(٤) آية : ٩٠
(٥) آية : ١٢٦
(٦) آية : ١٢٨
(٧) آية : ١٢٠

القرآن فى سورة المائدة : (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) (١) **والصبر على الطاعات احسان ، ومنه** قول الله تعالى فى سورة هود (وأقم الصلاة طرفى النهار **وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين)(٢)كذلك** فالاعتراف بفضل الله وشكر نعمته على العباد احسان وفى مثل ذلك يقول القرآن فى سورة الحج : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك **سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين(٣)**

أقرأ ان شئت قوله فى سورة القصص لتتبين ان الصبر على الابتلاء وتحمل المشاق احسان (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) (٤) .

وهكذا حين نبحث فى معان الآيات التى تحدثت عن المحسنين نجد أن الاحسان يجمع كل أنواع الفضائل ، وانه يشتمل على الاقوال والافعال ، والمعتقدات والعبادات ، وغيرها ، وان تفاصيله لا تنحصر عند عد - وان كان أعلى مراتب هذا الاحسان ، هو الاحسان الى المسىء وصدق الله حين يقول فى سورة آل عمران (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين

---

(١) آية : ٨٥
(٢) آية : ١١٥
(٣) آية : ٣٧
(٤) القصص : ١٤

الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمـــين الغيظ والعافين عن الناس . **والله يحب المحسنين) (١) .**

هدانى الله واياكم لعمل الخير والاحسان فى القـــول والعمـــل .

---

(١) آية : ١٣٣ ـ ١٣٤

الحديث الثاني عشر :

الوفاء بالعهود

اهتم الاسلام اهتماما كبيرا بالوفاء بالعهود ، وركز القرآن الكريم على هذا الجانب فنادى بضرورة الوفاء بالعهد ، حتى مع الكافرين ، ماداموا ملتزمين بشروط العهد ، ويؤدون ما عليهم ، ولم يحرضوا أحدا على قتال المسلمين · فالعهد : هو حفظ الشىء ومراعاته حالا بعد حال · ولذا فان من العهود اليمين والذمة ، ويلزمها الأمانة والوفاء والضمان – والعقود : هى العهود الموثقة ، ولذلك كان معنى قول الله تعالى فى أول سورة المائدة **(يا أيها الذين آمنوا أفوا بالعقود)** (١) أى أفوا بتعهداتكم التى ألزمتم بها أنفسكم على سبيل التأكيد · كذلك اعتبرت البيعة عهدا لأن فى البيعة ضمان بذل الطاعة للمبايع ، فالمبايع حين يبايع انما يعاهد المبايع بالطاعة ويلزم نفسه بها ·

ومن هنا كان نقض العهود ناشئا عن ضعف الوازع الدينى ، وموت الضمير وقلة الاحساس بالمسئولية ، وعدم الاعتداد بحقوق الغير · لذلك نرى فى كثير من آى القرآن الكريم الأمر الصريح بالوفاء بالعهود ، ففى سورة الأنعام يعدد المولى بعض ما حرمه على المؤمنين · ثم يأمر بالوفاء بعهد الله ، فيقول : **(ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفسا الا وسعها واذ قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى · وبعهد الله أفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون)** (٢) **كما يقول أيضا فى سورة النحل (وأفوا**

---

(١) آية : ١

(٢) آية : ١٥٢

بعهد الله اذا عاهدتم) ويقول أيضا فى الاســـراء (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا) (٢) كذلك وصف الله تعالى الموفين بالعهود ، بأنهم صـــادقون ، وأنهم هم المتقون ٠ أى الذين يصدقون فى عهدهم مع الله ، والذين يجعلون بينهم وبين النار وقاية ، يقول الله تعالى فى سورة البقرة معددا للبر الذى يدعو الله الناس ويحضهم عليـه (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأســاء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (٣) ٠

كذلك جعل من صفات المؤمنين الوفـــاء ٠ قال تعالى (قد افلح المؤمنون) (٤) ثم ذكر من صـفاتهم الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) (٥) وذكر أنه قد أعد الجزاء الاوفى لمن وفى بالعهد فقال فى سورة الفتح (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) (٦) ثم هو فى المقابل يصف الناقضين للعهد بأنهم الخاسرون فى الدنيا والآخرة فيقول فى سورة البقرة (الذين ينقضون عهـد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصـل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون)(٧) ويصفهم

---

(١) آية : ٩١
(٢) آية : ٣٤
(٣) آية : ١٧٧
(٤) المؤمنون : ١
(٥) المؤمنون : ٢
(٦) آية : ١٠
(٧) آية : ٢٧

أيضا بالفسق وهو الخروج عن الطاعة، فيقول فى سورة الأعراف وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا اكثرهم لفاسقين) (١) **ثم يبين القرآن الكريم أن الوفاء بالعهود** ليس من صفات المشركين بل انه يستبعد حصـــوله من غيرهم فيقول فى سورة التوبة (**كيف يكون للمشـــركين عهد عند الله وعند رسوله**) (٢) ٠

وقد أعد الله تعالى للناقضـــين عهـودهم عقوبات ٠ منها : أنهم مطرودون من رحمة الله ٠ وعاقبتهم يوم القيامة جهنم جزاء غدرهم وبعدهم عن طاعة ربهم ، وافســادهم **فى الأرض ٠ فهم حين ينقضون العهد يغدرون من عاهدوه** وبذلك يصـــبحون فاســـقين خارجين عن طاعة ربهم ، ويترتب على هذا الافساد فى الأرض وفى ذلك يقول المولى سبحانه فى سورة الرعد (والذين ينقضـون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى **الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**) (٣) ٠

أيها الاخوة المستمعون :

٠ لو حاولنا دراسة بعض النصـوص القرآنية فى هذا الموضوع لوجدنا أن احترام العهود وتقديس الأيمان واجب شرعى ، مادام ذلك فى اطار الخير والمصـلحة العـامة والخاصة ـ وأن العهد ملزم للوفاء به ســـواء كان بين **الفرد وبين الله أو بينهوبين أحد منخلقه ، بشرط أنيكون** خاليا من الاثم وقطيعة الرحم ٠

ولا يلزم فى العهود التلفظ بها ، بل يكفى أن يعقد العزم عليها بقلبه والعهد اذا كان بنذر فى طاعة فالوفاء به فرض

---

(١) آية : ١٠٢
(٢) آية : ٧
(٣) آية : ٢٥

بلا خلاف لقول الله تعالى (وليوفوا نذورهم) (١) كذلك جعل العهد كاليمين فلو حنث فيه فكفارته كفـــارة يمين والوفاء به واجب ما لم يكن اثما .

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران :

ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم عذاب اليم) (٢) .

نزلت هذه الآية فى شأن اليهود وهم الذين اســتبدلوا بعهد الله اليهم فى الايمان برســـول الله صلى الله عليهم وسلم) المصدق لما معهم ، والذى حلفوا به كـاذبين حين قالوا : والله لنؤمنن به ولننصرنه استبدلوا بذلك ثمنـــا قليلا ، فقد حرف قوم منهم التوراة وبدلوا صفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى مقابل أخذ الرشـــوة على ما فعلوه ، ومن هؤلاء اليهود أبو رافع وكعب الأشـــرف وحييى بن أخطب وهنا يؤكد الله سبحانه أن من يستبدلون بعهد الله الذى التزم به . ويتهاون فى أيمانه التى يقســـم عليها فى مقابل شىء من متاع الدنيا يعاقبـــون بخمس عقوبات :

انهم لا نصيب لهم فى نعيم الآخـــرة كغيـــرهم ممن يحافظون على عهودهم وأيمانهم ويقـدرونها حق قدرها ولا يفرطون فيها بشىء مهما غلا ثمنـــه وارتفع قدره ، كذلك فالله تعالى لا يكلمهم كلاما يشرح به صدورهم مثلما يكلم الصادقين من عبـــاده الملتزمين بالوفـــاء بعهودهم كذلك لا ينظر الله اليهم يوم القيامة نظر رحمة واشفاق ، فهم لا وزن لهم عنده ، بســـبب تفريطهم فى حق الله وحق

---

(١) آية : ٢٩
(٢) آية : ٧٧

أنفسـهم وحق غيرهم ـ ثم انه سـبحانه لا يطهرهم من آثامهم ، ولا يثنى عليهم بأعمالهم ، لأن جـرمهم عظم عن الطهارة وأعمالهم لا تتوجب أى ثنـاء · وفوق ذلك لهم عذاب يؤلم أبدانهم ونفوسهم ، لأن جوارحهم كانت تتحرك فى اتجاه مضاد لمبادىء الاسلام الذى يدعو الى المحافظة على العهد واحترام الأيمان ·

وهذه الآية التى تدل على ضـرورة احترام العهـود وتقديس الأيمان تشير أيضا الى أن متاع الدنيا مهمـا كثر لا يساوى شيئا بجانب عهد الله والقسم به وصدق الله حين يقول :

(قل متاع الدنيا قليل) (١) ·

وقد روى أبو أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة · فقال له رجل وان كان شـيئا **يسيرا يا رسول الله قال وان كان قضيبا من أراك) (٢)** والأراك شجر يستاك به والذين يحلفون على السلع حين يريدون بيعها بما ليس مطابقا للواقع ويقسمون الأيمـان الكاذبة ترويجا لها ، وتسهيلا لبيعها ، يدخلون أيضـا تحت قول الله تعالى :

(ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا)(٣)

وعليهم أن يعلموا أن تعريض أنفسهم للأيمان الكاذبة

---

(١) النساء : ٧٧

(٢) رواه البخارى فى كتاب البيوع · باب (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) ـ صحيح البخارى ج ٣ ص ١٢

(٣) آل عمران : ٧٧

لم يتوبوا . وقد زجر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى مقابل ربح أكثر تلحقهم بسببه عقوبة الله وغضبه اذا التاجر الذى ينفق سلعته بالحلف الكاذب وقال (الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة) (١) .

وهناك نوع آخر من الناس يعاهدون الله على الانفاق والتصدق اذا أغناهم الله من فضله وأن يلتزموا الصلاح حين يستجيب الله لدعائهم ، ثم اذا ما منحهم الله ما طلبوه اذا بهم ينكثون عهدهم ، ولا يوفون بوعودهم ، التى عاهدوا الله عليها ، بخلا وطمعا فيكون جزاء نقضهم لعهودهم تمكين النفاق فى قلوبهم الى يوم القيامة وتسجيل المولى عليهم .. خلف الوعد ، ونقض العهد والكذب . وقد نزل القرآن يذمهم بسوء فعالهم . مما يدل كما قلنا على أن العهد ملزم للوفاء به وأن الوفاء به فرض اذا كان بنذر .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به . وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب)(٢)

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه . وقد رواه مسلم . كما رواه مالك من حديث أبى أمامة الحارث بن ثعلبة الحارثى . الترغيب والترهيب المنذرى . راجع كتاب الكبائر ص ١١١

(٢) التوبة : ٧٥ ـ ٧٧

واذا كانت هذه الآيات قد نزلت فى شأن جماعة من المنافقين ، حدث منهم ذلك بالفعل ، وأجرى الله عليهم هذه التجربة ، فقد أراد الله بذلك أن يكون درسا لمن تسول له نفسه أن يبطن غير ما يظهر ، وأن يكون زاجرا لمن يفكر مجرد تفكير فى نقض عهده مع ربه ، أو الهروب من نذره الذى عاهد الله عليه · والمفروض فى المؤمن الذى يذوق حلاوة الايمان أنه لا ينكث العهود ، ولا يخلف الوعود · فالمؤمن بطبيعته يعرف أن نقض العهد قد يبطل أعماله ، ويطرد فاعله من رحاب الله ، ويترتب عليه غضب الله عليه وحرمانه من النعيم فى الدنيا والآخرة ·

لهذا كان الأمر من المولى سبحانه ، بوفاء المسلمين بما عاهدوا الله عليه فى جميع شئونهم الخيرية ، وكان النهى الصريح عن التهاون بما التزموا به من أيمان تؤكده · ويبين القرآن الكريم ذلك ، ويبين لهم أن التحلل من الوفاء بالعهد ، داع الى فقد الثقة ، ووقوع المنازعات ، وأنه لا تصلح حال الجماعة بهذا التصرف المعيب · يقول المولى سبحانه فى سورة النحل (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون · ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا · تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة انما يبلوكم الله به - وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) (١) ·

---

(١) آية : ٩١ - ٩٢

فها هى الآية تأمر بالوفاء بما عاهدوا عليه ، وتأمر بعدم نقض أيمانهم ، حتى لو كثر عدد عدوهم ، لأنه لا يحل لهم نقض الأيمان والعهود ، مهما كانت أمة أقوى وأكثر عددا من أخرى ، وقد كانت قريش تفعل ذلك . فاذا كان بينهم وبين قوم عهد . ثم رأوا حلفاءهم يعادون قوما أكثر شوكة منهم ، نقضوا عهد الضعفاء . وحالفوا الأقوياء ، فبين الله أن ذلك لا يحل . وقال لهم (قد جعلتم الله عليكم كفيلا) . أى متكفلا وشاهدا ـ فلا ينبغى الخداع حين تظهر أمة أكثر عددا وعدة ، فانكم ان فعلتم ذلك أملا فى خير عاجل . فانكم تفقدون ثقة غيركم فيكم ، فيتربصون بكم ويكيدون لكم بسبب مناوراتكم وخداعكم . وقد تنقلب الدائرة عليكم فتفسد القيم ، وتنهار العلاقات بين الناس .

وهكذا فرض القرآن الكريم الوفاء بالعهود ، وحفظ الأيمان ، وبين أن فى ذلك استقرار حال الأفراد والجماعات ، لما يترتب على ذلك من حق الله الذى تكفل بها ، وكان شاهدا عليها ، ومن حق العباد لما ترتبط به من شئون حياتهم الخاصة والعامة . كما بين أن الوفاء بالعهود من أخلاق الأمم التى تقدر المبادىء ، وتبنى نفسها على المثل العليا ، واحترام المواثيق التى تعقدها بينها وبين غيرها من الأمم الأخرى ، وفى ذلك حفظ لكرامتها ،

وتأكيد للثقة فيها ، وبذلك تكون قدوة طيبـــة لغيرها من الأمم .

فهل هناك بعد كل ذلك كلام يمكن أن يقال لاثبات امتياز الاسلام وسبقه لأى نظام وجد أو يمكن ان يوجد على وجه الأرض ؟

خامسا:

نماذج لبرنامج ديني متكامل
(موضوع واحد)

وتشمل الموضوعات التالية:

١ - فلسفة القرآن فى تشريع العقوبة .
٢ - عقوبة الزنا .
٣ - عقوبة الرجم للزانى المحصن .
٤ - جريمة اللواط .
٥ - جريمة القذف .
٦ - جريمة شرب الخمر .
٧ - جريمة السرقة .
٨ - جريمة الحرابة « قطع الطريق » .
٩ - جريمة الردة والبغى .
١٠ - جرائم القصاص والدية .
١١ - عقوبة القصاص وتلمس الحكمة من تشريعها .
١٣ - عقوبة الدية وتلمس الحكمة من تشريعها .
١٣ - تفوق الشريعة الإسلامية على القوانين الوضعية .

هـذه ثلاثة عشر نموذجاً لبرنامج دينى متـكامل . ذى موضـوع واحد ، وهذا الموضوع يقسم إلى مجموعة أحاديث ، متسلسلة ، يرتبط بعضها ببعض ، ويُسلم كل حديث نفسه للآخر . ليتكون فى النهاية موضوع واحد ، يثبت نتيجة محددة معينة يريد أن يصل إليها المتحدث ، ويقنع بها المستمعين و

وهذه النماذج وإن كانت فى جملتها موضوعاً واحداً . إلا أنها مجزأة إلى أجزاء ، كل جزء منها يمكن أن يكون موضوعاً مستقلا ، ويمكن أن يكون موضوع خطبة جمعـــة أيضاً . بجانب كونه أساساً ، موضوعاً إذاعياً ، جهز ليكون حديثاً فى سلسلة من الأحاديث الموضوعية ، التى تقدم كبرنامج لموضوع متكامل .

وقد اخترت هذه الأحاديث ، من بين ثلاثين حديثاً ، سجلتها لإذاعة الرياض بالمملـكة العربية السعودية فى صيف عام ١٩٧٥ م الموافق ١٣٩٥ هـ . فى برنامج عنوانه « حكم القرآن » أذيع خلال شهر شعبان من ذلك العام .

إلا أن على المتحـدث « الخطيب » الذى يريد أن يربط النـاس بكل جزئيات الموضوع ، أن يبدأ حديثه الجديد ، بتلخيص مُركز لمـا تحدث عنه فى الأحاديث السابقة كلها . أو بعضها ، أو الأخير منها ، حسب الظروف ، حتى يربط المستمع بالموضوع ككل ، ويذكّـره بالسابق ، ليجمع بينـه وبين ما يسمعه .

وقد تعمدت الإكثار من هذه النماذج بالذات ، لأن هذا الموضوع من الموضوعات التى يحتاج إليها المجتمع فى العصر الحديث . كما أن هذه الأحاديث بجانب اشتمالها على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، اشتملت أيضاً على مقارنة بين شريعة القرآن ، وشرائع الناس ، وقوانينهم . لنثبت فى النهاية أن شرع الله هو الأصلح ، والأجدر بالتقرير والبقاء .

كما أن القارىء الكريم يستطيع أن يستفيد كثيراً من هذه النماذج ، ويأخذ منها مايقدمه للمستمع - إما فى برنامج كهذا الذى قدمت فيه هذه الأحاديث وإما كخطب جمعة ، يمكن أن يقدمها لمجتمع مثقف ، وبخاصة بمجتمع شباب الجامعة .

وقد راعيت أيضاً ذكر المراجع ، لمن يرغب فى الاستزادة من الأدلة والبراهين ، وللتثبت أيضاً من صحة هذه الأدلة .

هذا . وأسأل الله أن أكون عند حسن ظن القارىء ، وأن أكون قد وفقت فى اختيار هذه الموضوعات .

والله الموفق والمعين .

الحديث الأول :

فلسفة القرآن فى تشريع العقوبة

القرآن الكريم هو دستور هذه الحياة ومصلحها فى كل زمان ومكان، حيث يشرع للحياة الواقعية ويحيط بالحياة الإنسانية كلها، وبكل فرع من فروع هذه الحياة، وأنه كدستور وأصل ثابت، جمع أصول نظام إلهى شامل كامل لكل نواحى الحياة. كما أنه اشتمل على كل ما يحتاج إليه الناس من النظم الإدارية والثقافية، والقضائية، والاقتصادية، والمالية، والاجتماعية، ووضع المبادىء والقوانين لكل فرع من فروع هذه الحياة.

ولو حاولنا حصر موضوعات الحياة، لوجدنا أنها تدخل تحت جوانب ثلاثة كبرى ينبنى عليها هذا الدين وهو الجانب العقدى الخلقى، وهو الأصل والأساس، والجانب السياسى، والجانب الاقتصادى، وهذه الجوانب الثلاثة فى الإسلام، تعتبر وحدة مترابطة لا ينفصل واحد منها عن الآخر.

وقد تحدثنا فيما سبق[1] عن تصور القرآن لهذه الأصول الكلية، وهذه الجوانب الكبرى التى يتفرع عنها كل الأمور الحياتية، واليوم سنحاول أيها السادة الدخول إلى بعض تفصيلات هذه الجوانب الكبرى لنرى حكم القرآن فيها، وفلسفة هذا الحكم، وسأختار بعض الموضوعات التى تدخل تحت الجانب السياسى والاجتماعى، الذى لو بحثنا فى تفصيلاته، لوجدناه يقوم كما تقوم كل الأنظمة التى تقوم عليها الجماعات فى أقطار الأرض، على أربعة دعائم يقوم عليها كل مجتمع على وجه هذه البسيطة.

---

[١] ألقيت هذه الأحاديث ضمن برنامج سجل بإذاعة الرياض تحت عنوان حكم القرآن وكان عبارة عن ثلاثين حديثاً اشتملت على الجوانب الثلاثة للإسلام وأذيعت صيف عام ١٩٧٥ م ١٣٩٥ هـ.

وهذه الأنظمة الأربعة هى :

١ — نظام الأسرة .

٢ — نظام الملكية الفردية .

٣ — النظام الإجتماعى للجماعة .

٤ — نظام الحكم فى الجماعة .

ولكل هذه النظم أو الدعائم حكم قرآنى، ونظام إلهى شرعه لمصلحة الناس وخيرهم لدنياهم وآخرتهم ، وهذه الأنظمة الأربعة التى يقوم عليها كيان المجتمع كل مساس بها يمس المجتمع فى أصل وجوده ، ويهدم أهم مقوماته ، ولذا حرصت شريعة القرآن على أن تحمى هذه النظم من كل اعتداء ، لأن فى حمايتها بقاء الجماعة وصلاحيتها للبقاء ، ولأن كل تهاون فى حياطتها وحمايتها يؤدى إلى انحلال الجماعة وسقوطها .

وقد تقصت شريعة القرآن الإعتداءات الخطيرة التى يمكن أن تمس هذه الأنظمة فوجدتها تنحصر فى جرائم الحدود ، وجرائم القصاص والدية ، وهى الزنا ، والقذف ، وشرب الخمر ، والسرقة والحرابة ، والردة والبغى والقتل والجرح فى حالتى العمد والخطأ ،

ولما كان فى هذه الجرائم مساس مباشر بكيان المجتمع كان عقاب الشريعة عليها عقابا رداعا ، وأهملت الشريعة عند تقدير العقوبة شخصية الجانى ، إبقاء على الجماعة وحماية لها . ومع أن كل جريمة أيا كانت تمس الجماعة ، إلا أن هذه الجرائم التى ذكرناها بالذات تمس الأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع مساساً مباشراً ، ولذا احتفظت لها الشريعة بعقوبات تتناسب معها ، وكانت شريعة القرآن منطقية وواقعية حين أهملت شخصية الجانى فى الجرائم التى تمس كيان المجتمع ، وتتصل بالأسس التى يقوم عليها ، وكانت أيضا منطقية وواقعية حين ميزت بين هذه الجرائم من ناحية ، وبقية الجرائم من ناحية أخرى، لتفاوت

الخطورة والآثار فى النوعين ، ولما كانت جرائم القصاص والدية ، برغم مساسها بكيان المجتمع يصيب ضررها المباشر الافراد أكثر مما يصيب الجماعة ، ترك الشارع للمجنى عليه وأوليائه ، أن يختاروا بين القصاص والدية فى حالة العمد وجعلت الدية من حق المجنى عليه كتعويض له عما أصابه من الجريمة ، وجعل له أو أوليائه حق العفو عن القصاص وعن الدية معاً - أما الزنا والسرقة والحرابة والقذف والشرب والردة والبغى ، فهى فى ذاتها تهديد للجماعة واعتداء على أمنها ونظامها أكثر من كونها تهديد واعتداء على الأفراد الذين تقـع عليهم . فقد يُسرَق من الشخص بعض ماله فلا يحزنه ذلك ، بقدر ما يهدده هذا العمل ويخيفه على بقية ماله ، وبقدر ما يخيف جيرانه ومعارفه وأهل بلده ويهدد أموالهم بخطر السرقة . وما يقال عن السرقـة يقال عن بقية الجرائم ، حيث نجد أن ضررها على الجماعة أشد من ضررها على الأفراد ، على خلاف القتل والجرح ، فغالباً ما يقصد مرتكبها الإعتداء على شخص بعينه ، فإن لم يستطع الوصول إليه لم يعتد على غيره ، لذا كانت هـذه الجرائم شخصية وأعطى صاحبها أو وليه حق الاختيار بين القصاص والديه ، أو التنازل عن الإثنين معا ، ومن المبادىء المتفق عليها الآن أن الجريمة عبارة عن فساد فى نفس المجرم ، لذا كان من الحكمة فرض عقوبة ، لتكون إصلاحا له ووقاية للمجتمع من فساده ، ومصلحة المجتمع مقدمة على مصلحة الفرد ، ولا تُغفل مصلحةُ الفرد فى سبيل مصلحة الجماعة ، إلا إذا كانت إحدى المصلحتين معارضة للأخرى ، وإن كانت شريعة القرآن قد جعلت تأويل الشبهة لمصلحة المتهم ، وأنه لا يُدان إذا وقع الشك فى أدلة الإدانة . كذلك فى شريعة القرآن . لا وزر على القاصر ولا على المكره ، ولا على المجنون ، ولا وزر أيضا على من تاب وصلح على التوبة(١) .

---

[١] هناك آيات فى القرآن الكريم تثبت سقوط الوزر عن التائبين - كذلك وردت أحاديث كثيرة يستطيع أن يحصل عليها القارىء الكريم فى سقوط الإثم عن المكره والمجنون والقاصر .

نستطيع بعد هذه المقدمة الطويلة بعض الشيء، أن نعرف الغرض من فرض العقوبات على من قرر الشارع فرض العقوبة عليهم — فالعقوبة هي الجزاء المقرر لمصلحة الجماعة على عصيان أمر الشارع - والمقصود من فرض هذه العقوبة هو إصلاح حال البشر وحمايتهم من المفاسد، واستنقاذهم من الجهالة، وكفهم عن المعاصي، ودعوتهم إلى الطاعة، والله تبارك وتعالى لم يرسل رسوله للناس ليسيطر عليهم، أو ليكون عليهم جبارا، وإنما أرسله هداية لهم ورحمة للعالمين .

قال تعالى : (لست عليهم بمسيطر)[1] وقال أيضا (وما أنت عليهم بجبار)[2] وقال سبحانه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[3] . فالأفعال التي اعتبرها الشارع جرائم، يأمر بها أو ينهى عنها، لأن في إتيانها أو في تركها ضرراً على نظام الجماعة أو عقائدها، بل على حياة أفرادها، أو أموالهم أو أعراضهم، أو مشاعرهم، أو غير ذلك من الاعتبارات التي تستوجب حال الجماعة صيانتها وعدم التفريط فيها، ومع أن الله نهى عن الفعل أو أمر بإتيانه، إلا أن ذلك لا يكفي وحده لحمل الناس على إتيان هذا الفعل أو الانتهاء عنه، ولذا شرع العقاب على الجريمة، لمنع الناس من اقترافها، ولولا العقاب لكانت الأوامر والنواهي، أموراً ضائعة وضربا من العبث، فالعقاب هو الذي يجعل للأمر والنهي معنى مفهوماً ونتيجة مرجوة، وهو الذي يزجر الناس على الجرائم ويمنع الفساد في الأرض .

صحيح أن هناك أناسا يفعلون الفعل لأنهم مأمورون به، وينتهون عنه لأنه منهى عنه، لا خوفا من عقوبة، ولا حذرا من نكال، ولكن حياء

---

[١] سورة الغاشية آية ٢٢
[٢] سورة ق آية ٤٥
[٣] سورة الأنبياء آية ١٠٧

وخجلا من أن يكونوا عاصين، ومبادرة الطاعة وتحقيقا لمصلحة الجماعة، ولكن أمثال هؤلاء قليلون جداً، والاحكام دائما تشرع للكثرة الغالبة، لا لمثل هذه القلة النادرة.

فالعقاب إذن ضرورة، وقد قرره القرآن وحكم به على من يستحقه من أمروا بالفعل ولم يفعلوه، أو أمروا بالانتهاء عن فعل ولم ينتهوا عنه، وقد ذكر لفظ العقاب فى القرآن (عشرين مرة)[١] ومعظم هذه الآيات التى ذكر فيها لفظ العقاب كانت تصف الله تعالى بأنه شديد العقاب، وذلك تهديداً وتخويفا لأولئك الذين اعتمروا الخطأ واستمروا عليه، مثل قوله تعالى (واعلموا أن الله شديد العقاب)[٢] (إن الله شديد العقاب)[٣] (إن ربك سريع العقاب)[٤] (إن الله قوى شديد العقاب)[٥] (وإن ربك لشديد العقاب)[٦] (إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم)[٧].

لقد ظهرت نظريات كثيرة مختلفة عن العقوبات فى عالم القوانين الوضعية، وقد منع تعدد هذه النظريات من وضع أساس واحد ثابت للعقوبة فى كل القوانين الوضعية، مما جعل كل دولة تأخذ لنفسها اتجاها خاصا بحسب ماتراه متفقا مع مصلحتها، أو بحسب الفكرة السائدة فيها، وقد حاول واضعوا هذه القوانين أن يجمعوا بين هذه النظريات والإتجاهات المختلفة بقدر الامكان،

---

[١] راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
[٢] سورة البقرة آية ١٩٦
[٣] سورة المائدة آية ٢
[٤] سورة الأنعام آية ١٦٥
[٥] سورة الأنفال آية ٥٢
[٦] سورة الرعد آية ٦
[٧] سورة فصلت آية ٤٣

وأن يتغلبوا على ما وجه إليها من انتقادات بحلول عملية بحتة ، ولعل مما يدهش الكثيرين ، أن يعلموا أن للعقوبة فى شريعة القرآن، نظرية عملية فنية تامة التكوين لا يأتيها النقد من بين يديها ولا من خلفها — وإذا كانت نظرية الشريعة قد جمعت بين النظريات التى سادت فى القوانين الوضعية من القرن الثامن عشر حتى الآن ، بعد اجتهادات الكثيرين من مفكرى الغرب أمثال روسو — وبكاريا وبنتام ، وكانت، وغيرهم ، فإن نظرية الشريعة قد تنزهت عن العيوب التى شابت هذه النظريات الوضعية وسلمت من الانتقادات التى وجهت إليها ، وسنرى ذلك إن شاء الله حين نتحدث عن فلسفة هذه الأحكام القرآنية عند حديثنا إن شاء الله عن العقوبات التى حكم بها القرآن لجرائم القصاص والدية وجرائم الحدود .

٢ - الحديث الثانى :

عقوبة الزنا

تحدثنا فى الحديث السابق عن أن كل الأنظمة التى تقوم عليها الجماعات فى جميع أقطار الأرض ، تقوم على دعائم أربعة ، وهى نظام الأسرة ونظام الملكية الفردية ، والنظام الاجتماعى للجماعة - ونظام الحكم فى الجماعة ، وأن لكل هذه النظم أو الدعائم حكم قرآنى ، وتقنينات إلهية شرعها الله لمصلحة الناس وخيرهم فى الدنيا والآخرة ونظراً لأن هذه النظم الأربعة التى يقوم عليها كيان المجتمع ، كل مساس بها يمس المجتمع فى أصل وجوده ، ويهدم أهم مقوماته . فقد حرصت شريعة القرآن على حماية هذه النظم من كل اعتداء ، لأن فى حمايتها بقاء الجماعة وصلاحيتها للبقاء . وقلنا إن شريعة القرآن حين تقصت الإعتداءات الخطيرة التى يمكن أن تمس هذه الأنظمة ، وجدت أنهـــا تنحصر فى جرائم الحدود وجرائم القصاص والدية : وهى الزنا والقذف وشرب الخمر . والسرقة . والحرابة والردة . والبغى . والقتل . والجرح فى حالتى العمد والخطأ . (١)

وسنتحدث عن كل واحدة من هذه الجرائم على حدة ، وننظر بتمعن فى حكم القرآن فى كل جريمة من هذه الجرائم وفلسفة هذا الحكم . مع محاولة الرد على بعض ما أثير حول هذه الأحكام من شبهات .

ونبدأ بعون الله تعالى هذه الحلقة : بجريمة الزنا - والعقوبة التى قررها الشارع لهذه الجريمة وفلسفة هذه العقوبة .

للزنا فى الشريعة الإسلامية ثلاث عقوبات ، وهى الجلد ، والتغريب ، والرجم - فالجلد والتغريب معاً هما عقوبة الزانى غير المحصن . أى غير المتزوج .

---

[١] هذا الحديث وما بعده من الأحاديث اعتمدت فيهما اعتماداً كبيراً على الكتاب القيم (التشريع الجنائى فى الإسلام) للشهيد عبد القادر عوده

والرجم هو عقوبة الزانى المحصن أى المتزوج . وإن كان أحدهما محصناً ، والثانى غير محصن نُفذ فى المحصن الرجم ، وفى غير المحصن الجلد والتغريب .

ونبدأ بعقوبة الجلد : — لقد عينت شريعة القرآن هذه العقوبة وقدرتها ، فجعلتها مائة جلدة ، وذلك قول الله عز وجل (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)(١) . هذه العقوبة التى قررها القرآن وحكم بها ، لو تأملنا فيها ، لوجدناها قد وُضعت على أساس محاربة الدوافع التى تدعو للجريمة ، بالدوافع التى تصرف عن الجريمة . ولم يضع المقنن الأوحد سبحانه عقوبة الجلد للزنا اعتباطاً ، وإنما وضعها سبحانه على أساس من طبيعة الإنسان التى يعرفها جيداً ، فهو خالقها — فحين قرر الحق سبحانه عقوبة الجلد للزنا ، أراد أن يدفع العوامل النفسية التى تدعو الزنا ، بعوامل نفسية مضادة تصرف عن الزنا — والمعروف أن الدافع الذى يدعو الزانى للزنا هو : إشتهاء اللذة ، والاستمتاع بالنشوة التى تصحبها ، والدافع الوحيد الذى يصرف الإنسان عن اللذة ، هو الألم ، ولا يمكن أن يستمتع الإنسان بنشوة اللذة إذا تزورق مس العذاب ، وأى شىء يحقق الألم ويذيق العذاب أكثر من الجلد مائة جلدة ؟ .

ولعلكم معى فى أن الزانى إذا ارتكب جريمته مرة ، كان فيما يصيبه من ألم العقوبة وعذابها ، ما ينسيه اللذة ويحمله على عدم التفكير فيها .

وقد عارض بعض شراح القوانين الوضعية من الغربيين تقرير عقوبة الجلد وعللوا ذلك بسببين (٢) : أولهما النفور من الألم البدنى — وثانيهما إنقاص الاحترام الواجب نحو الإنسان . إلا أن هؤلاء قد وجدوا من بين شراح

---

[١] سورة النور آية ٢
[٢] راجع (التشريع الجنائى فى الإسلام)

القوانين أيضاً من يخالفونهم فى الرأى ، ولهم رأى مضاد لرأيهم ، حيث يردون على هؤلاء بأن عقوبة الجلد تمتاز بأنها موجهة إلى حساسية الجانى المادية . وأن الخوف من ألم الجلد هو أول ما يخافه المجرمون - فيجب الإستفادة من ذلك فى إرهابهم - أما إنقاص الإحترام الإنسانى ففكرة لا محل لها فى العقاب - ولا يصح أن يحتج بها من لا يوفر الاحترام لنفسه .

أما أغلب شراح القوانين الوضعية اليوم فهم يفكرون فى العودة إلى تقرير عقوبة الجلد ، ويسعون فى وضع هذه الفكرة موضع التنفيذ ، وإن كانوا يرون أن تكون مقصورة على المجرمين الذين لا يتأثرون بغيرها من أنواع العقوبات سواء كانوا أحداثاً أم بالغين - ومنهم من يرى تخصيص عقوبة الجلد لجرائم السكر ، وجرائم هتك العرض ، وجرائم النهب والسرقة ، وكسر الأسوار ، وإتلاف المزروعات ، وقتل المواشى ، وعلى العموم لكل الجرائم التى تدل على القسوة وعدم المبالاة .

ومع أن عقوبة الجلد كانت قد ألغيت من أكثر القوانين الجنائية الوضعية ، إلا أنها لا تزال عقوبة معترفاً بها فى قوانين بعض الدول ، وتعتبر فى إنجلترا إحدى العقوبات الأساسية فى القانون الجنائى ، وفى قانونى الجيش والشرطة ، وفى مصر وانجلترا وكثير من دول العالم يعتبر الجلد عقوبة أساسية - والعالم يعتبر الجلد عقوبة أساسية - والعالم حين يقرر عقوبة الجلد فى القوانين العسكرية ، إنما يعترف بأن هذه العقوبة ضرورية لحفظ النظام بين الجند ، وحملهم على طاعة القانون - وعجيب منطق هؤلاء الناس ، أليس المدنيون هم الذين يمدون الجيش والشرطة بالجنود ؟ .

لقد أصبح الناس جميعاً فى جميع أنحاء العالم فى حاجة ماسة إلى هذه العقوبة ، بعد أن أصبحوا لا يخضعون على النظام ، ولا يعترفون بالطاعة للقوانين . ثم أى عيب فى أن يدين أفراد الأمة جميعاً بالخضوع للنظام وبالطاعة للشرائع ؟ .

هذه عقوبة الجلد وهذا هو رأى علماء القانون الوضعى ورأى الدول فيها ، فمن أراد أن ينتقد هذه العقوبة فليقل أن العالم كله مخطىء وأنه وحده المصيب ـ ولن يستطيع مهما قال ، إلا أن يعترف بأن التجربة أثبتت حاجة الإنسانية لتقرير هذه العقوبة .

لقد امتازت شريعة القرآن بأنها جعلت الجلد عقوبة الزنا ، لتحارب الجريمة فى النفس قبل أن تحاربها فى الحس ، وعالجتها بالعلاج الوحيد الذى لا ينفعها غيره . وإذا كانت عقوبة الزنا فى القوانين الوضعية الآن هو الحبس وليس الجلد كما قرر القرآن ـ فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هذه العقوبة عقوبة لا تؤلم الزانى الإيلام الذى يحمله على هجر اللذة التى يتوقعها من وراء الجريمة ـ كما أنها لا تثير فيه العوامل النفسية المضادة التى تصرف ما بداخله من عوامل نفسية تدعو للجريمة ، أو على الأقل تؤدى إلى كبتها ـ كما ثبت أيضاً أن عقوبة الحبس للزانى قد أدت إلى إشاعة الفساد والفاحشة ـ وأكثر الذين يمتنعون اليوم عن الزنا لا تصرفهم عنه العقوبة ، وإنما يمسكهم عنه الدين أو الأخلاق الفاضلة ، التى لم يعرفها أهل الأرض جميعاً إلا عن طريق الدين .

وبعد : فإذا كان النبى ﷺ قد قرر تغريب الزانى غير المحصن مع جلده مائة جلدة كما قرر القرآن ـ فإن هذه العقوبة تعتبر عقوبة تكميلية بالنسبة لعقوبة الجلد ـ ولعلنا نتلمس الحكمة من ذلك وهى أن إبعاد المجرم عن مسرح الجريمة ، قد يجنبه مضايقات كثيرة قد يلقاها إذا لم يُبعد ، كذلك التمهيد لنسيان الجريمة بأسرع ما يمكن ـ كذلك فإبعاد الزانى يهيء له حياة جديدة كريمة ومن هنا نستطيع أن نقول إن عقوبة التغريب إنما شُرعت لمصلحة الجانى أولا ، ولصالح الجماعة ثانياً .

ومع أن عصرنا الحالى انعدم فيه كثير من الحياء ، إلا أن كثيرين ممن تصيبهم معرة يتركون موطن الجريمة مختارين ، ليبتعدوا عن الذلة والمهانة التى تصيبهم فى هذا المكان .

الحديث الثالث :

عقوبة الرجم للزانى المحصن

تحدثنا فى الحديث السابق عن عقوبة الجلد والتغريب للزانى غير المحصن ، وفلسفة هذه العقوبة ، وكيف أن هذه العقوبة وغيرها من العقوبات التى قررتها الشريعة لم تجىء ارتجالا ، أو توضع اعتباطاً . وإنما جاءت بعد فهم صحيح لتكوين الإنسان وعقليته ، وبعد تقدير دقيق لغرائزه وميوله وعواطفه ، وأن الله حين قرر عقوبة الجلد للزانى غير المحصن ، إنما أراد أن يدفع العوامل النفسية التى تدعو للزنا بعوامل نفسية مضادة تصرف عن الزنا . وأن الدافع الوحيد الذى يصرف الإنسان عن اللذة هو الألم ، لأن الإنسان لايمكنه الاستمتاع بنشوة اللذة إذا تذوق مس العذاب .

واليوم نستكمل حديثنا عن جريمة الزنا ، وعن العقوبة التى قررها الإسلام للزانى المحصن ، رجلا كان أم امرأة .

شريعة القرآن تقوم على الفضيلة المطلقة ، وتحرص على الأخلاق والأعراض والأنساب من التلوث والاختلاط — وهى تفرض على الإنسان مجاهدة شهواته وألا يستجيب لهذه الشهوات إلا من طريق الحلال ، وشهوة الفرج جعل الله لها طريقا حلالا هو الزواج . وأوجب على هذا الانسان أن يتزوج إذا بلغ سن الزواج ، إذا كانت عنده القدرة عليه ، حتى لايعرض نفسه للفتنة أو يحملها مالايطيق — فإذا لم يتزوج وغلبته شهوته ، وانتصرت على عقله وعزيمته ، فعقابه أن يجلد مائة جلدة ، وشفيعه فى هذه العقوبة الخفيفة تأخيره فى الزواج ، الذى أدى به إلى هـذه الجريمة ، أما إذا تزوج فأحصن ، فقد حرصت شريعة القرآن ألا تجعل له بعد الاحصان سبيلا إلى الجريمة . وهى حين جعلت الزواج حقاً من حقوق الانسان ، دعت إليه طبيعته وفطرته ، لم تجعله زواجا أبدياً ، حتى لايقع فى الخطيئة أحـد الزوجين إذا ماوقع شقاق بينهما . فقد أباحت

للزوجة أن تجعل العصمة فى يدها وقت الزواج ، وأباحت لها أيضاً أن تطلب الطلاق للغيبة الطويلة أو للمرض ، أو للضرر ، أو للإعسار .

كما أباحت شريعة القرآن أيضاً للزوج أن يطلق فى أى وقت ، وأحلت له أن يتزوج بأكثر من واحدة بشرط العدل بينهن — وبهذا فتحت شريعة القرآن للمحصن كل أبواب الحلال ، وأغلقت دونه باب الحرام ، فكان عدلا وقد انقطعت الأسباب التى تدعو للجريمة من ناحية العقل والطبع ، أن تنقطع المعاذير التى تدعو إلى تخفيف عقاب الزانى المحصن . وكان عدلا أيضاً أن يؤخذ المحصن بالعقوبة التى لا يصلح غيرها لمن استعصى على الاصلاح . وهنا كان الرجم وهو (القتل) رمياً بالحجارة . وهى العقوبة المناسبة لهذا الرجل . أو لهذه المرأة . التى فتح الله أمامهما أبواب الحلال فأعرضا عنها طائعين مختارين . والإحصان يصرف الشخص عادة عن التفكير فى الزنا — فإن فكر فيه بعد ذلك فإنما يدل تفكيره فيه على قوة اشتهائه للذة المحرمة . وشدة اندفاعه للاستمتاع بما يصحبها من نشوة . لذا وضع الله له عقوبة . فيها من قوة الألم وشدة العذاب ما يجعله يتردد ألف مرة ومرة . حتى فى مجرد التفكير فى هذه اللذة المحرمة ومن هنا كان الأمر القرآنى واضحاً وصريحاً فى النهى عن الزنا قال تعالى : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا)(١) .

وقال تعالى : (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب . . .)(٢)

وقد نهى الله تعالى عن تزويج الزناة الذين لم يتوبوا . واعتبر الرجل الذى يتزوج زانية زان مثلها . وكذلك المرأة التى تتزوج من الزانى هى زانية مثله

[١] سورة الاسراء آية ٣٢
[٢] سورة الفرقان آية ٦٨ — ٧٢

(الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك وُحرم ذلك على المؤمنين)[١] وقيل فى معنى (والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك) أن المتزوج بالزانية إن كان مسلماً فهو زان ، وإن لم يكن مسلماً فهو كافر . فإن كان مؤمناً بما جاء به الرسول من تحريم هذا — وفعله فهو زان وإن لم يكن مؤمنا بما جاء به الرسول فهو مشرك) وقد قيل فى معنى (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة) أن الزانى الذى لم يتب لايجوز له أن يتزوج عفيفة وهذا أحد روايتى الإمام أحمد[٢] وقد قيل أيضاً إن الرجل مادام يزنى بنساء الناس كان هذا مما يدعو إلى أن تمكن منها غيره — كما هو الواقع كثيراً ، حيث أن زنا الزوج يحمل امرأته فى الغالب على أن تزنى بغيره مقابلة على تلك ومغايظة له[٣]

وقيل أيضاً أن الذى اعتاد الزنا استغنى بالبغايا ، فلا يكف امرأته فى الإعفاف فتحتاج إلى الزنا . كما أن الزانى إذا زنى بنساء الناس طلب الناس أن يزنو بنسائه فامرأة الزانى تصبح زانية من وجوه كثيرة ، وإن استحلت ماحرمه الله كانت مشركة . وإن لم تزن بفرجها زنت بعينها — وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية . لايكاد يعرف فى نساء الرجال الزناة المصرين على الزنا الذين لم يتوبوا منه ، امرأة سليمة سلامة تامة . وطبع المرأة يدعو إلى الرجال الاجانب إذا رأت زوجها يذهب إلى النساء الأجانب وقد جاء فى الحديث الشريف (بروا آباءكم تبركم أبناءكم وعفوا تعف نساؤكم) فقوله (الزانى لاينكح إلا زانية) إما أن يراد أن نفس نكاحه ووطئه لها زنا . أو أن ذلك يفضى إلى زناها . وأما الزانية فنفس وطئها مع إصرارها على الزنى زنى .

---

[١] سورة النور آية ٣

[٢] راجع تفسير ابن كثير ص ٢٦٢ جـ ٣

[٣] راجع تفسير سورة النور لأبى الأعلى المودودى وهذه الآراء أيضاً ذكرت فى معظم كتب التفسير .

عقوبة الرجم لم يرد ذكرها فى القرآن . ولذلك أنكرها الخوارج ، ومذهبهم يقوم على جلد المحصن وغير المحصن والتسوية بينهما فى العقوبة ، وفيما عـــدا الخوارج فالإجماع منعقد على قرار عقوبة الرجم ، لأن الرسول ﷺ أمر بها وأجمع عليها أصحابه من بعده . وقد أمرنا الله تعالى أن نأتمر بأمر الرسول ، وننتهى عما ينهى عنه فهو لاينطق عن الهوى (قال سبحانه) (وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا)(١) وقال أيضاً سبحانه : (من يطع الرسول فقد أطاع الله)(٢) وقد ثبت عن النبى ﷺ قوله (لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمارق من الدين التارك الجماعة)(٣) .

كما أنه مما أثر عنه ﷺ أنه أمر برجم ماعز والغامدية وصاحبة العسيف . فالرجم إذن سنة فعلية ، وسنة قولية فى وقت واحد(٤) .

وهنا لابد لنا من وقفة قصيرة ، مع من يستكثرون عقوبة الرجم على الزانى المحصن . مع أنك لو بحثت عن الحقيقة لوجدت أنه قول يقولونه بأفواههم ولاتؤمن به قلوبهم . وأنا أطرح عليهم هذا السؤال : ماالذى تصنعه حين تجد امرأتك أو ابنتك فى أحضان رجل تزنى معه ؟ لاشك أنك لو استطعت أن تقتلها ومن يزنى بها ماتأخرت عن ذلك . ومع ذلك فقد سارت شريعة الإسلام فى هذه

---

[١] سورة الحشر آية ٧

[٢] سورة النساء آية ٨٠

[٣] صحيح البخارى — كتاب الديات باب ٦ جـ ٨ ص ٣٦

[٤] راجع صحيح مسلم باب الحدود باب رجم الثيب فى الزنا ص ١٣٢٢ — ١٣٢٣ جـ ٣

المسألة كما سارت فى كل أحكامها على أدق المقاييس وأعدلها . فالزانى المحصن مثل سيء لغيره من الرجال أو النساء المحصنين . وليس للمثل السيء فى الشريعة حق البقاء .

ولو أن هؤلاء الذين يجزعون من قتل الزانى ، رجعوا إلى الواقع لاستقام لهم الأمر . ولعلموا أن شريعة الإسلام حين أوجبت قتل الزانى المحصن ، لم تأت بشيء يخالف مألوف الناس .

وبعض الناس يستكثرون عقوبة الرجم على الزانى المحصن ، مع أننا نرى بلاداً إسلامية كثيرة تحكم القانون الوضعى فى هذه الجريمة وغيرها ومع ذلك فأهلها لا يرضون حكم القانون الوضعى مرغمين ، ويُقبلون على عقوبة الشريعة المعطلة مختارين . فهم يقتصون بالقتل من الزانى ، ويحرقونه . أو يقطعون أوصاله ويهشمون عظامه . ويمثلون به أشنع تمثيل وأقلهم جرأة على القتل يكتفى بدس السم — ونحن لو أحصينا جرائم القتل التى تحدث بسبب الزنا فى غير البلاد التى تطبق شريعة القرآن . لوجدنا أنها تبلغ نصف جرائم القتل جميعاً على الأقل — ولو طبقت الدول الاسلامية شريعة القرآن بالنسبة للزانى لكان ذلك اعترافا منها بالواقع المحسوس .

ولعل بعض الناس يتصور أن فى عقوبة الرجم شيء من القسوة : ولكنا نقول لهم : إن الرجم هو القتل لا غير . وقوانين العالم كله اليوم تبيح القتل عقوبة لبعض الجرائم . ولا فرق إطلاقا بين من يقتل شنقاً أو ضربا بالفأس . أو تسميما بالغاز أو صعقا بالكهرباء . أو رجما بالحجارة . أو رميا بالرصاص .

وربما كان فى رجم الحجارة سرعة فى إزهاق الروح أكثر من الرمى بالرصاص . أو الشنق . كما أن التسميم بالغاز والصعق بالكهرباء يبطيء بالموت أحيانا أكثر مما يبطيء الشنق أو الرصاص . ومع ذلك فإن الموت إذا تجرد من الألم والعذاب كان من أتفه العقوبات — وإذا كان العقاب لا قيمة له فى المحكوم عليه بالموت فإن قيمته يجب أن تظل محفوظة للزجر والتخويف .

وليس من مصلحة المجتمع فى شىء أن يفهم أفراده أن — العقوبة هينة لاتؤلم ولا تدعو للخوف والرأفة بالمجرمين . وتشجع على الإجرام . والعذاب الذى يصحب العقوبة .هو الذى يؤدب من أجرم ويزجر من لم يجرم . ولقد بلغت آية الزنا الغاية فى إبراز هذا المعنى . حيث جاء بها (ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله)(١) وحيث قالت (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)(٢).

[١ ، ٢] سورة النور آية : ٢

الحديث الرابع :

جريمة اللواط

عرفنا من الحديثين السابقين فلسفة العقوبة التي قررها الإسلام للزاني المحصن ، والزاني غير المحصن . وكيف أنها لم تجيء ارتجالا ، أو توضع اعتباطاً ، وإنما جاءت بعد فهم صحيح لتكوين الانسان وعقليته ، وبعد تقدير دقيق لغرائزه وميوله وعواطفه ، وأن الله بتقريره لهذه العقوبات ، أراد بها أن تكون عوامل زاجرة ومانعة لهذا الجرم.

ويقتضينا البحث أن نتحدث عن جريمة اللواط ، لما بينها وبين جريمة الزنا من صلة وثيقة ، وجريمة اللواط أبشع من جريمة الزنا ، ومن يصنعونها شواذ ، وهي ما يطلق عليها بمفهوم هذا العصر « شذوذ جنسي » . وإذا كان الله تعالى لم يحدد لها في قرآنه عقاباً محدداً ، فإن رسول الله ﷺ حدد لنا هذا العقاب وبينه في أكثر من حديث له ، وأجمع صحابة النبي ﷺ على هذا العقاب ، فكان ذلك تفسيراً لحكم القرآن في هذا الموضوع ، والذي تضمنته آيات ذكرت لنا قصة قوم لوط الذين اشتهروا بهذا العمل ، وقد سمي إتيان رجل رجلا آخر لواطاً ، نسبة إلى قوم لوط ، وقد تكررت هذه القصة في أكثر من موضع من مواضع القرآن الكريم ، لزيادة التنبيه على فظاعتها وبشاعتها ، بل كان في ذكر القرآن لما حدث لقوم لوط بسببها ، معنى الزجر والتخويف ، والتهديد بأن تتفشى فيهم العادة الخبيثة مثل ما أصاب قوم لوط : ومن ذلك قول الله تعالى (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهي من الظالمين ببعيد [1]) ومعنى قوله سبحانه (وما هي من الظالمين ببعيد) أي ماهي من ظالمي هذه الأمة ، إذا فعلوا فعلهم أن يحل بهم ما حل بأولئك من العذاب ، ولهذا قال

---

[1] سورة هود آية ٨٢ و ٨٣

النبي ﷺ (أخوف ما أخاف عليكم عمـــل قوم لوط(١)) وقد لعنهم النبي ثلاثا فقال « لعن الله من عمل عمل قوم لوط . لعن الله من عمل عمل قوم لوط . لعن الله من عمل عمل قوم لوط » ، ولهذا أجمـــع المسلمون على أن التلوط من الكبائر التى حرمها الله تعالى: قال سبحانه (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون(٢))اى يجاوزون من الحلال إلى الحرام وقال سبحانه مخبراً عن نبيه لوط عليه الســـلام (ونجيناه وأهله من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) (٣)

ولبشاعة هذه الجريمة وفظاعتها ، كانت عقوبة اللائط والملوط به . القتل رجماً بالحجارة سواء كانا محصنين أو غير محصنين ، وهذا هو قول على ، وابن عباس ، وجابر ، وغيرهم من الصحابة وبه قال الامام احمد ومالك وهو أحد قول الإمام الشافعى أيضاً واستدلوا على ذلك بقول النبي ﷺ (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به (٤)) وفى لفظ آخر (فارجموا الأعلى والأسفل) وإن كان بعض العلماء كابن المسيب وغيره يرون حده حد الزنا حيث يرجم المحصن ويجلد غير المحصن إلا أن الصحابة اتفقوا على قتلهما جميعاً وذهب أبو حنيفة إلى أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط(٥)

ولعلنا نستطيع أيضـــاً أن نتلمس الحكمة من تشديد العقوبة بهذه الصورة بالنسبة للواط حيث حكم برجم المحصن وغير المحصن ،وهى أن زنى شاب بفتاة

---

[١] راجع الفتح الربانى ج ١٠٣ ص ١٦
[٢] سورة الشعراء آية ١٦٥ و ١٦٦
[٣] سورة الأنبياء آية ٨٤
[٤] فى رواية الإمام أحمد بن ابو عباس قول النبي ﷺ واقتلوا الفاعل والمفعول به فى عمل قوم لوط . راجع الفتح الربانى ج ١٦ ص ١٠٢
[٥] راجع تفسير ابن كثير الجزء الثانى ص ٤٥٥

(وغير متزوجين طبعاً) لن يؤدى إلى الفساد الذى يؤديه زنى شاب بشاب ، أو رجل برجل ، فقد يتزوج الشاب فتاته التى زنى بها أو قد ينتهى عن هذا العمل حين يتزوج فتاة غيرها . لكن بالنسبة لإتيان رجل لرجل فان الوضع يختلف ، فهو مريض ولاشك ، ومرضه خطير ، حيث يمارس عملا مخالفاً لفطرة الانسان التى فطر الله الناس عليها . وقد تشيع هذه الفاحشة بين الذين آمنوا . لذا كان لابد من عقوبة حاسمة تقطع دابر هذه الجريمة الشنعاء . وتكون عبرة لمن يفكر فى عملها .

إن شريعة القرآن تحفظ دائماً للمجتمع حقه ولا تضحى به فى سبيل الأفراد والعقوبة التى تحابى الأفراد على حساب الجماعة . إنما تضيع مصلحة الفرد والجماعة معاً . لأنها تؤدى إلى ازدياد الجرائم . واختلال الأمن . ثم توهين النظام وانحلال المجتمع . وإذا دب الإنحلال فى مجتمع فقل على الأفراد وعلى المجتمع العفاء وقد رأينا ياسادة . كيف أن هذه العقوبات التى قررها الإسلام لهذه الجريمة وغيرها . تقوم على فهم لنفسية المجرم . والعقوبة التى تعتمد على هذه العوامل يكتب لها النجاح . لأنها تحارب الاجرام فى نفس الفرد . وتحفظ مصلحة الجماعة ومن هنا كانت من أعدل العقوبات . برغم مايراه بعض الناس فيها من قسوة . لكنهم لو فكروا جيداً بعقولهم . بعيداً عن العواطف وحب الشهوات . لعرفوا أن هذه العقوبات لا تظلم المجرم ولا تهضمه ولا تحمله ما لا يطيق فى سبيل الجماعة ثم كيف تظلمه وهى كما قلنا بنيت على أساس قدرته واشتقت من طبيعته ونفسيته

لقد كان لعقوبات الزنا التى جاءت بها شريعة القرآن ، الأثر الواضح والفعال فى محاربة الجريمة فى كل زمان ومكان . ونستطيع أن نلمس هذا الأثر القوى فى أى بلد يأخذ بأحكام الشريعة ـ ولعلنا نلمسه أكثر فى المملكة العربية السعودية التى حكمت بقرآن الله وسنة نبيه ـ وحتى فى البلاد التى لا تحكم الآن شريعة الله ، يلمسه أهلوها فى الفرق بين ما كانوا عليه يوم كانت شريعة الله دستورهم ، وبين ما هم عليه الآن بل أن بعض هذه البلاد التى لا تحكم الآن بشريعة الله يلمسه أهلوها فى

تشكيك فى صحة نظام الأسرة . فمن يقذف شخصا فإنما ينسبه لغير أبيه — وبالتالى لغير أسرته . وإذا ضعف الإيمان بنظام الأسرة فقد ضعف الإيمان بالجماعة نفسها لأن الجماعة تقوم على هذا النظام .

وقد جعل القرآن للقذف عقوبتان : أحداهما أصلية وهى الجلد ، والثانية تبعية ، وهى عدم قبول شهادة القاذف — والاصل فى هاتين العقوبتين للقذف قول الله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) (١) ، كذلك فقد توعد القرآن القاذفين بالعذاب العظيم واللعن فى الدنيا والآخرة قال تعالى (والذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون)(٢) ومعنى ذلك أن من قذف امرأة محصنة حرة عفيفة بالزنا والفاحشة ، فهو ملعون فى الدنيا والآخرة ، وله عذاب عظيم ، وعليه فى الدنيا الحد ثمانون جلدة ، وتسقط شهادته وإن كان عدلا ، وفى الصحيحين أيضا أن رسول الله ﷺ قال (اجتنبوا السبع الموبقات) (٣) ، وذكر منها قذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وبواعث القذف للإفتراء والاختلاف كثيرة منها : الحسد ، والمنافسة ، والانتقام ، وهى جميعا تنتمى إلى غرض واحد يرمى إليه كل قاذف وهو إيلام المقذوف وتحقيره .

وقد وضع البارى جل وعلا عقوبة القذف على أساس محاربة هذا الغرض .

---

[١] سورة النور آية ٢

[٢] سورة النور آية ٢٣ و ٢٤

[٣] راجع نص الحديث بصحيح البخارى كتاب الحدود — باب رمى المحصنات جـ ٨ ص ٨٨

ولما كان القاذف يرمى إلى إيلام المقذوف إيلاما نفسيا ، كان جزاؤه الجلد ليؤلمه إيلاما بدنيا ، والإيلام البدنى كما قلنا : هو الذى يقابل الإيلام النفسى . والإيلام البدنى أشد وقعا من الإيلام النفسى على النفس والحس معا . إذ أن الإيلام النفسى ، هو بعض ما ينطوى عليه الإيلام البدنى .

وسبحان الله العادل . لمّا كان القاذف يرمى من قذفه إلى تحقير المقذوف كان جزاؤه أن يحقر من الجماعة كلها ، وأن يكون هذا التحقير العام بعض العقوبة التى تصيبه فأسقط الله عدالته . ولا تقبل له شهادة أبداً ، ويوصم وصمة أبدية بأنه من الفاسقين .

وهكذا : وكما هى القاعدة فى شريعة القرآن ، حُوربت الدوافع النفسية الداعية إلى الجريمة ، بالعوامل النفسية المضادة ، التى تستطيع وحدها التغلب على دوافع الجريمة اصرف الانسان عنها . فإذا مافكر شخص فى قذف شخص آخر ليؤلم نفسه ويُحقر شخصه ذكر هذه العقوبة التى قررها ربنا من فوق سبع سماوات وكانت حكما قرآنيا ثابتاً خالداً . وهى عقوبة تؤلم النفس والبدن معاً ، وذكر أيضاً التحقير الذى تفرضه عليه الجماعة ، فارتدع وازدجر وفكر ألف مرة ومرة ، قبل أن يدعى هذه الدعوى ، أو يفكر فى هذا التفكير ، ومع أن الآية القرآنية الكريمة ، قد تحدثت عن قذف المحصنات المؤمنات ، فإن الإجماع منعقد على أن هذا الحكم يسرى على الرجال والنساء ، وليس خاصاً بالنساء وحدهن ، وإن كان القرآن الكريم قد ذكر النساء هنا دون الرجال ، فذلك لعظم هذا الأمر بالنسبة للنساء . حيث أن الإيلام النفسى ومعرة الزنا تؤثر فى المرأة أكثر من الرجل .

والقذف ، كأن يقول لإمرأة أجنبية حرة عفيفة مسلمة (يا زانية) أو (يا باغية) أو (يا قحبة) . أو يقول لزوجها (يا زوج القحبة) أو يقول لبنتها (يا بنت الزانية) أو (يا بنت القحبة) (والقحبة معناها أيضا الزانية) كذلك تماماً ما يقال لرجل ـ كأن يقال له (يا زانى) أو (يا عاهر) أو غير ذلك من الألفاظ الصريحة فى الزنا :

الفرق بين ما كانوا عليه من خمسين أو حتى ثلاثين سنة . ويبين ما هم عليه الآن ـ مع أن هذه البلاد لم تكن شريعة القرآن تطبق فيها من هذه المدة إلا أن أثر هذه الشريعة القوى . كان لايزال باقياً متمثلا فى أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم. ثم أخذ يضعف ويتضاءل للأسف على مر الأيام .

ونستطيع ياسادة أن نلمس أثر شريعة القرآن واضحاً جلياً فى الفـــرق بين مجتمعات الشرق الإسلامى عامة وبين بلاد الغرب الآن . مع أن بلاد الشرق جميعاً وقد أخذت بقوانين الغرب وحكمتها بلادهم . وراحت تتشبه بالغرب حتى فيما يتصل بالأعراض والأخلاق ـ برغم ذلك فلا يزال الشرق والحمد لله ينفر من جريمتى الزنا واللواط وينفر من مرتكبيها ـ ويستقل كل عقوبة مهما عظمت عليها ، بينما الغرب لا يحفل بهذه الجريمة . ولا يهتم أبداً بالأخلاق ولا بالأعراض بل يرى الآن فى جريمة الزنا تقدماً ومدنية وحضارة وعملا عادياً لا غبار عليه ولا إثم فيه ـ وهو من جهة نظرهم عمل مشروع وتمتع بالحياة الذى يجب عليهم ألا يضيعوا منها لحظة دون استمتاع بها .

بل وصل الأمر فى مجتمعات الغرب أيضاً . إلى اعتبار جريمة اللواط عملا عادياً مشروعاً . لا يحرمه القانون وصدر قانون من مجلس العموم الانجليزى وهو السلطة التشريعية عندهم بإباحة اللواط ـ كما صدر قانون آخر فى ألمانيـــا بإباحة اللواط وتبادل الزوجات أيضاً (١) . وأصبح زواج رجل من رجل زواجاً رسمياً عملا مشروعاً تقره بعض بلاد الغرب الآن. وهذا هو الفرق بين الشرق والغرب . أو بين الشريعة الإلهية والقانون الوضعى . كل قد ترك طابعه فى الجماعة التى حكمها طويلا ـ فعقوبة الشريعة العادلة الرادعة قد خلفت وراءها مجتمعاً صالحاً يقوم على الأخلاق الفاضلة . أما عقوبة القانون الوضعى الهينة فقد أفسدت الأفراد وضيعت الجماعة . وتركت وراءها مجتمعاً فاسداً منحلا تسيره الأهواء وتحكمه الشهوات .

---

[١] راجع كتابنا . معالم الثقافة الإسلامية وأصول النظام الاسلامى

الحديث الخامس :

جريمـــة القـذف

قلنا عند حديثنا عن فلسفة القرآن فى تشريع العقوبة . إن الأنظمة الاربعة التى تقوم عليها كل مجتمع إنسانى حرصت شريعة القرآن على أن تحميها من كل اعتداء . لأن فى حمايتها بقاء الجماعة وصلاحيتها للبقاء ، وأى تهاون فى حياطتها وحمايتها يؤدى إلى انحلال الجماعة وسقوطها . وكما قلنا هذه الأنظمة الاربعة هى نظام الأسرة . ونظام الملكية الفردية ـ النظام الاجتماعى للجماعة . ونظام الحكم فى الجماعة (١) ـ تقصت شريعة القرآن الاعتداءات الخطيرة التى يمكن أن تمس هذه الأنظمة موجدتها تنحصر كما قلنا فى جرائم الحدود وجرائم القصاص والدية ـ وهى الزنا والقذف وشرب الخمر والسرقة والحرابة والردة والبغى والقتل والجرح فى حالتى العمد والخطأ . ولما كان فى هذه الجرائم مساس مباشر بكيان المجتمع كان عقاب الشريعة عليها عقاباً رادعاً وبما يتناسب مع هذه الجرائم

وقد تحدثنا فى الاحاديث الثلاثة الماضية ، عن العقوبات التى قررتها الشريعة عقاباً لجريمتى الزنا واللواط ، وعن فلسفة هذه العقوبة التى قررتها الشريعـــة ، بعد تقدير دقيق لغرائز الإنسان وميوله وعواطفه ، واليوم نتحدث عن جريمة أخرى اعتبرها الشارع من الجرائم التى تمس كيان المجتمع أيضاً . وهى جريمة القذف . وجريمة القذف فيها إعتداء على نظام الأسرة أيضاً ، لأن القـذف فى الشريعة مقصور على ما يمس الأعراض . والقذف الماس بالاعراض ، هو

---

[١] يلاحظ أننا نكرر بعض ماقلناه فى الاحاديث السابقة . وهذا ضرورى بالنسبة للموضوعات حتى يتنبه المستمع إلى ما سبق ويستطيع أن يربط بين مايسمعه قبل ذلك وحتى لا يصبح الموضوع الذى يستمع إليه موضوعا مستقلا ـ ويعتبر ذلك ضرورة بالنسبة لمثل هذه الموضوعات (المؤلف)

وقد قرر القرآن هذه العقوبة كما قلنا، صيانة للأعراض، ومحافظة على سلامة المجتمع، ومن هنا طلب القرآن من القاذف أن يأتى بأربعة من الشهود، يشهدون بأنهم رأوا بأعينهم ذكر فلان فى فرج فلانة. وهذا طبعاً مما يتعسر عمله. إذ كيف يستقيم أن يرى أربعة فى وقت واحد هذا العمل، وبهذه الصورة الدقيقة التى لا تحتمل شكا أو تأويلا. وإذا لم يستطع أن يأتى بالشهود الذين يشهدون على صحة دعواه بقذف فلان أو فلانة من الناس، جلد ثمانين جلدة، وأبعد عن الحياة العامة. فلا قيادة ولا رئاسة ولا أمر ولا نهى، لأنه فى هذه الحالة أصبح كاذباً، ومن كذب سقطت شهادته، ومن سقطت شهادته سقطت عدالته. ومن سقطت عدالته، سقطت عنه قيادته ورئاسته. كذلك فالأمر والنهى من حق المتقين ولا يكون أبداً للفاسقين. وصدق الله العادل حين قال: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً. وأولئك هم الفاسقون) (١).

وأما من يقذف شخصاً بلفظ يحتمل الزنا وغيره. فإن فسره بالزنا. طبقت عليه العقوبة المقررة، لأنه أقر بالقذف، وإن فسره بما يحتمل غير الزنا قبل مع يمينه، لكنه مع ذلك يعزر تعزيراً يردعه وأمثاله، وما أكثر الذين يحقرون بعضهم الآن فى كثير من مجتمعات المسلمين، ويشوهون سمعة بعضهم بالحق والباطل، وما أكثر الذين يتبادلون القذف والسب وكأنهم يتقارضون المدح والثناء.

لو أن أحكام القرآن طبقت على هؤلاء بدلا من القوانين الوضعية التى تحكم هذه المجتمعات، لما جرؤ شخص واحد على أن يكذب على أخيه كذبة واحدة.

---

[١] سورة النور آية ٤

إن طبيعة الناس لا تتغير ولا تتبدل ، مهما تغيرت مظاهرهم ، وتبدلت وسائلهم ، وطبيعة الناس مهما تقدموا أو تأخروا ترجوا الثواب وتحرص عليه . وتخشى العقاب ولا ترضاه لنفسها ، وقد استغلت شريعة القرآن هذه الطبيعة فأقامت أحكامها على أساس ما فى خلائقهم الأصيلة من رجاء وخوف . فجاءت أحكاماً صالحة لكل زمان ومكان . لأن طبيعة البشر واحدة فى كل مكان. وهى لا تتغير بتغير الأزمان .

وهذا هو السر فى صلاحية الشريعة الإسلامية للقديم والحديث ، وهو أيضاً السر فى صلاحيتها للمستقبل القريب والبعيد .

الحديث السادس :

جريمة شرب الخمر

أثبتنا فى أحاديثنا السابقة ، أن العقوبات التى قررتها شريعة القرآن لم تجىء ارتجالا أو توضع اعتباطاً ، وإنما جاءت بعد فهم صحيح لتكوين الانسان وعقليته ، وبعد تقدير دقيق لغرائزه وعواطفه وميوله — وقد أريد بهذه العقوبات ، دفع العوامل النفسية التى تدعو لإرتكاب الجريمة ، بعوامل نفسية مضادة تصرف الإنسان عن التفكير فى هذه الجريمة ، خاصة وأن شريعة القرآن تقوم على الفضيلة المطلقة ، وتحرص على الأخلاق ولاتحمى المجتمع من الشرور والآثام . وتفرض على الانسان مجاهدة شهواته وألا يستجيب لهذه الشهوات إلا من طريق الحلال — وقد قلنا أن شريعة القرآن ، حين تقصت الإعتداءات الخطيرة التى تمس الأنظمة التى يقوم عليها كيان المجتمع ، وجدتها تنحصر فى جرائم الحدود ، وجرائم القصاص والدية — وقد تحدثنا فى الأحاديث الأربعة السابقة عن جريمتى الزنا والقذف ، وهما من جرائم الحدود — واليوم نتحدث عن الجريمة الثالثة من جرائم الحدود وهى شرب الخمر — لنرى مدى حرص شريعة القرآن على حماية كيان المجتمع من كل اعتداء يقع ، لأن فى حماية المجتمع بقاء الجماعة وصلاحيتها للبقاء .

ولعله قد أصبح من الواضح جيداً ، بعد معرفتنا لفلسفة العقوبة التى قررها القرآن لجريمتى الزنا والقذف ، أن هذه العقوبات هى أفضل علاج لهذه الجرائم باعتبار أن الألم البدنى هو الدافع الوحيد الذى يمكن أن يصرف الإنسان عن اللذة ، حيث لايستطيع الإنسان أن يستمتع بنشوة اللذة إذا تذوق مس العذاب — ومن هنا حكم القرآن بالجلد على الزانى غير المحصن ، وعلى القاذف بالزنا ، لأنها العقوبة الوحيدة التى يمكن أن تصرفه عن الجريمة — وعقوبة شرب الخمر التى قررتها شريعة القرآن ، هى الجلد أيضاً ، وتقصد منها كما تقصد من كل العقوبات الشرعية . إصلاح حال الناس وحمايتهم من المفاسد ، واستنقاذهم من الجهالة

وكفهم عن المعاصى ، ودعوتهم إلى الطاعة — ولو بحثنا عن الدافع الذى يدفع شارب الخمر لشربهـــا ، لوجدنا أن ذلك راجع إلى رغبته فى أن ينسى آلامه النفسية ، ويهرب من عذاب الحقائق . إلى سعـادة الأوهام التى تولدها نشوة الخمر — وقد يكون ذلك فى نظر بعض الناس شيئاً شخصياً . ولـكن حقيقة الأمر أن هذا العمل بجانب ضرره البالغ على شارب الخمر نفسه — وكونها مفسدة لعقله وصحته — فيها ضرر بالغ على كيان الأسرة وعلى المجتمع كله — ومن هنا وجدنا على بن أبى طالب (رضى الله عنه) حين يستشيره عمر بن الخطاب فى حد شارب الخمر يفتيه بأن يحده ثمانين جلده — ويعلل ذلك بقوله ، بأنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى وحد المفترى ثمانون جلدة — وقد وافق أصحاب الرسـول على رأى على واقتنعوا به ، ولهذا حاربت شريعة القرآن الدافع الذى يدفع شارب الخمر إلى شربها ، وهو رغبته فى أن ينسى آلامه النفسية ـ ويهرب من عذاب الحقائق إلى سعادة الأوهام التى تولد نشوة الخمر . بعقوبة الجلد التى وضعتها هذه الشريعة القرآنية على أساس متين من علم النفس ـ وحاربت الدوافع النفسية متى تدعو لهذه الجريمة بدوافع نفسية مضادة . تصرف بطبيعتها عن الجريمة . بل لا يمكن أن يقوم غـــيرها من الدوافع النفسية مقامها — فهو إن أراد أن يهرب من الألم النفسى يرى أمامه عقوبة الجلد ـ فترده هذه العقوبة إلى ما هرب منه ، وتضاعف له الألم ، إذ تجمع له بين ألم النفس وألم البدن — فهو إن يريد أن يهرب من عذاب الحقائق إلى سعادة الأوهام ترده عقوبة الجـلد إلى العـذاب الذى هـــرب منه وتجمع له بين عـذاب الحقائق وعذاب العقوبة وفى هذا ما يصرف الشخص غالباً عن ارتكاب الجريمة — وإذا لم يصرف عنها وارتكبها مرة، كان فيما يصيبه من العقوبة هـــذه المرة ما يغلب العوامل النفسية الصارفة عن الجريمة ـ على العوامل النفسية الداعية إليها . إذا ما فكر فى الجريمة مرة أخرى .

إن تحريم الخمر مصدره القرآن الكريم: قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمـــل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) (١)

وفى الآية الأخيرة ، ، يمكننا أن نلمس حكمة التشريع لهذا التحريم ، حين يقول المولى سبحانه (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) .

وقد روى مسلم عن النبى ﷺ قوله : (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر فى الدنيا ومات وهو مدمنها لم يشربها فى الآخرة) (٢) .

وقد روى مسلم أيضـاً عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال (إن على الله عهداً لو شرب المسكر أن يسقيه الله من طينة الخبال — قيل يا رسول الله وما طينة الخبال . قال عرق أهل النار)(٣) كذلك روى احمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص — أن النبى ﷺ قال (لا يدخل الجنة منان ولا مدمن خمر) (٤) .

وقد روى الإمام احمد أيضاً عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال , لعنت الخمر

---

[١] سورة المائدة : آية ٩٠ ، ٩١ .
[٢] رواه مسلم عن ابن عمر . راجع كتاب الاشربة باب بيان كل مسكر خمر . صحيح مسلم جـ ٣ ص ٢٥٨٣
[٣] نفس المرجع السابق
[٤] وفى سنن النسائى زيادة العاق . أخـــرجه الدارمى . وأبو داود والطيالسى بزيادة العاق والزانى. راجع الفتح الربانى مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى : احمد عبد الرحمن البنا جـ ١٣ ص ١٣٦

وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وعاصرها ومعتصرها وآكل ثمنها) (١)

أما مصدر العقوبة التشريعي فهو ماثبت فى صحيح البخارى عن أنس وعن عقبة بن حرث وعن أبى هريرة من أن النبي ﷺ ضرب فى الخمـــر بالجريد والنعال أنه أقام الحد على النعيمان أو ابن النعيمان (على خلاف فى الرواية) (٢) . وأمر من فى البيت أن يضربوه بالجريد والنعال .

ومن هنا كان القرآن مصدر تحريم الخمر ـ والعقاب مصدره السنة ، ومقدار الحد ومصدره الإجماع ، وقد أثبت الطب الحديث أن أضرار الخمر لا تحصى . فهى تفسد العقل . وتفسد الصحة وتؤدى إلى العقم أحياناً ، وإلى ضعف النسل غالباً بجانب ضياع المال وضياع الكرامة .

وإذا كان الإسلام قد حرم الخمر وعاقب على شربها منذ من أكثر من أربعة عشر قرنا . وانفرد بتحريمها والعقاب عليها طيلة هذه المدة . فقد جاء العالم فى القرن العشرين ليشهد للإسلام بأنه كان على الحق فى موقفه من الخمر وأن غيره كان يعمه فى الضلال . وثبت للعالم فعلا أن الخمر أم الخبائث كما قال عنها الإسلام .

لقد نسمع ونرى فى العالم غير الاسلامى . جماعات تدعو إلى ترك الخمر ولهذه الجماعات مجلات ورسائل ومؤتمرات . وكان الأثر لدعايات بعض هذه الجماعات فى الولايات المتحدة وأمريكا وفى الهند ، واستجاب الرأى العام فى هاتين الدولتين . بعد أن رأى آثار شرب الخمر وكثرة الجرائم بسببها وسنت فى الدولتين القوانين

---

[١] راجع الفتح الربانى مسند الإمام احمد مع مختصر شرحه بلوغ الامانى . أحمد عبد الرحمن البنا .

[٢] راجع كتاب الحدود ص ١٢ ج٨

الخمر تحريماً تاماً — وفي كثير من البــلاد الأخرى سنت قوانين تحرم الخمر تحريماً جزئياً فمنعت تداولها أو تقديمها في أوقات معينة — ومع ذلك لم تنجح هذه القوانين في محاربة الخمر . لأن العقوبات التي فرضتها لم تكن عقوبات رادعة لعقوبات الاسلام . ولم تراع نفسية الإنسان وعقليته كما راعت شريعة القرآن .

وإذا بالذين شرّعوا تحريم الخمر في أمريكا والهند يكتشفون أن القانون الذي شرعوه لم يمنع الناس من تعاطي الخمر . وأصدروا بأنفسهم قانوناً آخر يلغي القانون الذي أصدروه .

وإذا كان الناس جميعاً قد آمنوا بأحقية الاسلام في تحريم الخمر . فقد بقي عليهم أن يؤمنوا بالعقوبة التي فرضها الاسلام على شارب الخمر — ويوم يؤمنوا بهذا تنجح القوانين التي تسن لتحريم الخمر وتؤدي مهمتها خير أداء .

الحديث السابع :

جريمة السرقة

تحدثنا فى خمس أحاديث سابقة عن ثلاث جرائم من جرائم الحــدود ، وفلسفة الإسلام فى تشريع العقوبات التى قررها لهذه الجرائم ، وكيف أن هذه العقوبات قد جاءت بعــد تقدير دقيق لغرائز الإنسان وعواطفه وميوله — وتكوينه النفسى والعقلى — واليوم نتحدث عن جريمة السرقة — وحكم القرآن فيها — لنرى كيف قرر القرآن هذه العقوبة بالذات — ولم تكن جلداً مثلا كما هو الحال فى عقوبات الزنا غير المحصن ، أو القذف أو شرب الخمر — ولم يجعل العقوبة مثلا هى الحبس وجعلها بهذه الصورة ؟ — حيث قرر القرآن قطع يد السارق — فهل العقوبة قاسية كما يقول البعض ؟ — ولا تتفق مع ماوصلت إليه الإنسانية والمدنية فى عصرنا الحاضر كما يدعى كثير من الناس ؟ وللأسف من بينهم كثيرون من المسلمين المثقفين .

يقول الله تبارك وتعالى : (السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم)[1] .

وهذا النص الواضح يعنى أن عقوبة السرقة جزاؤها قطع اليد — ومن المتفق عليه بين الفقهاء أن لفظ أيديهما يدخل تحته اليد والرجل أيضاً — فإذا سرق السارق أول مرة قطعت يده اليمنى فإن عاد للسرقة ثانية قطعت رجله اليسرى — وهكذا — وهذه الجريمة هى من الجرائم التى تمس كيان المجتمع مساساً مباشراً ، ولذا كانت عقوبتها رادعة — وكما قلنا فى حديث سابق (السارق حين يطلب المال لا يطلبه من شخص بعنيه ، وإنما هو يود سرقة أى شخص ، لأنه

---

[١] سورة المائدة آية ٣٨

يقصد المال ولا يقصد صاحبه بالذات ، والمال فى يد كل الافراد — لذا أعتبرت جريمة السرقة جريمة عامة ، و ليست جريمة خاصة ، ولذا تقطع يد السارق حتى ولو تنازل صاحب المال المسروق — فالجريمة هى جريمة فى حق المجتمع ، و ليس فى حق شخص بعينه - قال صفوان بن أمية للنبى ﷺ حين سرق رداؤه وضبطه مع واحد من الناس (أنا أهبه ردائى) فقال النبى ﷺ فهلا قبل أن تأتينى به(١) .

لذا كان قطع يد السارق حقاً واجباً لله تعالى وليس لرب المال — بل إن رب المال يأخذ ماله وتقطع يد السارق — وقد نهى النبى ﷺ عن الشفاعة فى حد من حدود الله — فقال صلوات الله وسلامه عليه : من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره .

وقصة المخزومية التى سرقت وتشفع فيها أسامة بن زيد ورفض النبى شفاعته مشهورة — وقد رد الرسول ﷺ شفاعة أسامة قائلا : أتشفع فى حد من حدود الله تعالى ؟ ثم قام خطيباً فقال : إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد — وأيم الله (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)(٢) .

ونستطيع فهم فلسفة هذه العقوبة حين نعرف الدافع الذى يدفع الإنسان إلى السرقة ، ولاشك أن السارق حين يفكر فى السرقة ، إنما يفكر فى أن يزيد

---

[١] راجع النص : بكتاب الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى للشيخ أحمد عبدالرحمن البنا ج ١٥ ص ٦٣ الناشر دار الحديث — القاهرة

[٢] كتاب الحدود : باب قطع يد السارق الشريف وغيره — صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣١٥

كسبه بكسب غيره ، حيث يستصغر مايكسبه عن طريق الحلال ، فيحاول أن ينميه عن طريق الحرام — ثم هو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق ، أو الظهور ، أو ليرتاح من عناء الكد والعمل — أو ليأمن على مستقبله ، فالدافع إذن هو زيادة الكسب أو زيادة الثراء — وشريعة القرآن كما عرفنا حين تعالج ، إنما تحارب الدوافع فى نفس الإنسان ، بتقرير العقوبات المناسبة له ، وتدفع العوامل النفسية التى تدعو لارتكاب الجريمة ، بعوامل نفسية مضادة تصرف عن الجريمة — ولما كان زيادة الكسب أو زيادة الثراء هو المقصود غالباً من وراء السرقة — كان تقرير قطع اليد أو الرجل ، هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يحارب هذا الدافع ، فقطع اليد أو الرجل ، يؤدى إلى نقص الكسب ، لأن اليد أو الرجل كلاهما أداة العمل أيا كان — ونقص الكسب يؤدى إلى نقص الثراء ، وهذا يؤدى إلى نقص القدرة على الإنفاق وعلى الظهور ويدعو إلى شدة الكدح ، وكثرة العمل ، والتخوف الشديد على المستقبل ، ولو فرضنا أن العوامل النفسية المضادة التى أرادتها شريعة القرآن صارفة عن الجريمة، كان فى العقوبة التى نفذت فيه ، والمرارة التى تصيبه منها ، مايغلّب العوامل الصارفة ، فلا يعود للجريمة مرة ثانية .

أرأيتم ياسادة : الأساس الذى قامت عليه عقوبة السرقة فى شريعة القرآن ؟ إنه لعمرى خير أساس قامت عليه عقوبة السرقة من يوم نشأة عالمنا حتى الآن ، وإنه السر فى نجاح عقوبة السرقة فى الشريعة الإسلامية قديماً ، وهو السر الذى جعلها تنجح نجاحاً باهراً فى المملكة العربية السعودية حين تحول من بلد كله فساد واضطراب ، ونهب وسرقات ، إلى بلد كله نظام وسلام وأمن وأمان . لقد كان المسافر إليه ، أو المقيم فيه ، لايأمن على نفسه أو ماله أو عياله ساعة من نهار ، وكان معظم السكان لصوصاً أو قطاع طرق خصوصا فى منطقة الحجاز

فلما طبقت شريعة القرآن ، أصبحت هذه البلاد خير بلاد العالم كله أمنا . يأمن فيه المسافر والمقيم ، وتترك فيه الأموال على الطرقات ، دون حراسة لا تمد إليها يد ولا يفكر فى الحصول عليها عقل .

إن القوانين الوضعية تطبق عقوبة الحبس على السارق . فهل نجحت هذه العقوبة ؟ لقد أخفقت عقوبة الحبس فى محاربة الجريمة على العموم، والسرقة على الخصوص والسبب فى هذا الإخفاق أن عقوبة الحبس لاتخلق فى نفس السارق العوامل النفسية التى تصرفه عن جريمة السرقة . لأن عقوبة الحبس لاتحول بين السارق وبين العمل والكسب ، إلا مدة الحبس فقط . فإذا خرج من محبسه استطاع أن يعمل وأن يكسب ، وكان لديه أوسع الفرص لزيادة كسبه من الحلال والحرام على السواء ، بل إنه قد يندفع إلى الحرام أكثر ليعوض أيام سجنه — أما عقوبة القطع فتحول بين السارق وبين العمل ، أو تنقص من قدرته على العمل والكسب نقصاً كبيراً ، كذلك فأثر الجريمة فى جسمه ويده المقطوعة ، تعلن عن سوابقه فيضطر هو إلى الحرص ، خوفا من قطع آخر ، ويحترس الناس أيضاً منه لمعرفتهم إياه — كما أن طبيعة الناس جميعاً أنهم لا يقدمون على عمل تتحقق فيه الخسارة .

أما من يقولون أن عقوبة القطع ، لاتتفق مع ماوصلت إليه الإنسانية والمدنية فى عصرنا الحاضر ، فماذا يريدون ؟ هل الإنسانية والمدنية عندهم أن نقابل السارق بالمكافأة على جريمته ؟ وأن نشجعه على السير فى غوايته ؟ وأن نعيش دائما فى خوف واضطراب ؟ وأن نكد ونشقى ليستولى على ثمار عملنا العاطلون واللصوص ؟

وإذا كانت العقوبة الصالحة حقاً ، هى التى تتفق مع المدنية والإنسانية ، فإن عقوبة الحبس قد حق عليها الإلغاء وعقوبة القطع قد كتب لها البقاء . لأن عقوبة القطع تقوم على أساس متين من علم النفس وطبائع البشر ، وتجارب الأمن ومنطق المعقول وطابع الأشياء ، وهى نفس الأسس التى تقوم عليها المدنية

والإنسانية . أما عقوبة الحبس فلا تقوم على أساس من العلم ولا التجربة ولا تتفق مع منطق العقول . ولا طبائع الأشياء .

إن قانونكم الوضعى أيها السادة الرحماء . يوجب الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة فى بعض جرائم السرقة . فكيف ترضى قلوبكم الرحيمة أن يوضع المحكوم عليه فى السجن . كما يوضع الحيوان فى قفصه . أو الميت فى قبره طوال هذه المدة محروما من حريته . بعيداً عن أهله وذويه وأظنكم تعرفون جيداً مايؤدى إليه هذا . الحبس الطويل من مفاسد للمسجون نفسه ، ولأزواجه وأولاده .

فأيهما أقسى بالله عليكم ؟ قطع يد المحكوم عليه . وتركه بعد ذلك يتمتع بحريته ويعيش بين أهله وذويه ؟ أم حبسه على هذا الوجه الذى يسلبه حريته وكرامته وإنسانيته .

ياسادة : إن شريعة القرآن حين قررت عقوبة القطع لم تكن قاسية . فهى لا تعرف القسوة ومايراه البعض قسوة إنما هو القوة والحسم اللذان تمتاز بهما شريعة القرآن ويتمثلان فى العقوبة كما يتمثلان فى العقيدة وفى العبادات وفى الحقوق والواجبات .

الحديث الثامن :

جريمة الحرابة (قطع الطريق)

تحدثنا عن أربع جرائم من جرائم الحدود فى شريعة القرآن ، وعن فلسفة العقوبة التى حكم بها القرآن على هـــذه الجرائم ، والتى راعت الظروف النفسية والعقلية للإنسان ، واليوم نتحدث عن الجريمة الخامسة من هذه الجرائم التى اعتبرتها الشريعة من الجرائم التى تمس كيان المجتمع . ووضعت لها العقوبات ، التى تؤدى إلى الغرض منها ، وهى جريمة الحرابة ، أو قطع الطريق ، ولا يصح أن ننسى أن الغرض من العقوبة كما قلنا هو : — منع الكافة من الجريمة قبل وقوعها ، وتأديب الجانى على جنايته ، إذا ارتكبها ، ليزجر غيره عن التشبه به وسلوك طريقه . وعلى أساس حماية الجماعة من شر المجرمين ، رغبة فى صلاح الأفراد واستصلاح المجرم ، ومع كونها عقوبات ، إلا أنها شرعت رحمة من الله تعالى بعباده ، فهى صادرة عن رحمة الله بالخلق ، وإرادة الإحسان اليهم .

لابد لنا أن نؤمن إيماناً قاطعاً ، بأن شريعة القرآن حين قررت عقوبات هذه الجرائم ، من جلد ، أو رجم ، أو قطع ، لم تكن أبداً قاسية . فهى الشريعة الوحيدة فى العالم التى لاتعرف القسوة .

وقد قلنا فى حديثنا السابق ، إن مايراه البعض قسوة إنما هو القوة والحسم اللذان تمتاز بهما شريعة القرآن والقوة والحسم يتمثلان فى العقيدة ، وفى العبادات وفى الحقوق والواجبات .

وقد كان لفظ الرحمة من أكثر الألفاظ ورودا فى القرآن ، ودعا النبى ﷺ للرحمة حيث قال : (الراحمون يرحمهم الرحمن) وحيث قال إرحموا من

فى الأرض يرحمكم من فى السماء) . فالرحمة إذا : أساس من أسس الشريعة الاولية ، وشريعة هذا شأنها ، لا يمكن أن تعرف للقسوة سبيلا .

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخـــرة عذاب عظيم) (١) هذا النص الواضح القاطع هو حكم القرآن فى جريمة الحرابة (أى قطع الطريق) وهى أربع عقوبات حكم بها القرآن وقررها لهذه الجريمة التى تمس كيان المجتمع .

وهذه العقوبات كما هو واضح من الآية الكريمة — هى القتل ، والقتل مع الصلب — القطع — النفى — وحين نحاول البحث عن علة تحديد هذه العقوبات بالذات نجد أن الشريعة كانت موفقة إلى أبعد الحدود . خاصة حين فرقت بين عقاب القتل وحده ، والقتل المقترن ، بأخذ المال ، لأن الجريمتين مختلفتان ، وكلاهما لاتساوى الاخرى ، فوجب من ناحية العقل والمنطق ، أن تختلف عقوبة إحداهما عن الاخرى ، كذلك فالعقوبة بالنسبة لقاطع الطريق إذا قتل ، حـــد لاقصاص . ولذا فهى لاتسقط بعفو ولى المجنى عليه . على خلاف القتل بالنسبة لغير قاطع الطريق .

فقد أعطت الشريعة ولى المجنى عليه الحق فى التنازل عن القصاص وأخذ الدية ، أو التنازل عن القصاص والدية لأن هـذا الإعتداء كان اعتداء على فـرد بعينه ، أما هنا فالإعتداء على المجتمع نفسه ، والقتل الذى وقع من قاطع طريق

---

[١] سورة المائدة آية ٣٣

لم يقع على شخص معين أراد قتله ، على خلاف القتـــل العمد ، فالقتل عقوبة وجبت على قاطع الطريق إذا قتل ، ولا يسقط بعفو ولى المجنى عليه ، لأنه حد كما قلنا ، والقتل مع الصلب وجب على قاطع الطريق إذا قتل وأخذ المال ، فهى عقوبة على القتل والسرقة معاً ، أى أنهما جريمتين ، وعقوبة القطع وجبت لقاطع الطريق إذا أخذ المال ولم يقتل .

أما عقوبة النفى فقد وجبت على قاطع الطريق إذا خاف الناس ، ولم يأخذ مالا ولم يقتل . أرأيتم يا سادة عدل الشريعة وأحكام قرآنها ؟ : فالقاتل تدفعه للقتل غريزة تنازع البقاء . أى قتل غيره ليبقى هو .

أما حين يعلم حين يقتل غيره إنما يقتل نفسه ، إمتنع فى الغالب عن القتل ، وهنا نجد أن تقرير عقوبة القتل هنا ، كان هو السبيل الوحيد لدفع العوامل النفسية التى تدفع لارتكاب الجريمة ، وهى تصرفه غالباً عنها .

أما إذا قتل وسرق المال فيكون حينئذ قد ارتكب جريمتين : احداهما بالاخرى أو ارتكبت إحداهما وهى لتسهيل الآخرى وهو أخذ المال فكان جزاؤه عقوبتين ، وهما القتل مع الصلب . وإن كان الفقهاء قد اختلفوا فى تقديم الصلب على القتل أو تأخيره، فإنهم جميعاً اتفقوا على ضرورة الصلب ، وإن كان رأى الشافعى وأحمد ، ان يكون الصلب بعد القتل ، لأنه لم يشرع لردع القاتل ، لأن القتل يجب ، وإنما عقوبة الصلب شرعت للزجر حيث قصد من الصلب اشتهار أمره فيرتدع بذلك غيره .

وقد يقال إنه لافائدة لأى عقوبة أخرى مع عقوبة القتل ، خصوصاً وأن الصلب مع القتل ليس القتل مصحوبا بالتهويل — فالصلب زيادة لا فائدة منها ، ونستطيع أن نقول لمن يقول ذلك ، إنه إذا كان الصلب حقيقة لايؤثر على المحكوم

عليه ، خصوصاً إذا كان بعد الموت . فان تأثيره على الجمهور شديد . بل قد يكون هو الشيء الوحيد الذى يجعل لعقوبة القتل قيمتها بين الجمهور عامة ، وبين قطاع الطرق بخاصة ، فالصلب إذا : له أثره الذى لاينكر فى زجر الغير وكفه عن الجريمة ، أما عقوبة القطع : فقد وجبت كما قلنا على قاطع الطريق إذا أخذ المال ولم يسرق ، والقطع هنا ليس كالقطع عند السارق العادى ، فالقطع هنا قصد به قطع يد المجرم اليمنى ورجله اليسرى دفعة واحدة ، أى قطع يده ورجله من خلاف ، وهى عقوبة عادلة وضعت أيضا على نفس الأساس الذى وضعت عليه عقوبة السرقة ، إلا أنه نظراً لأن الجريمة ترتكب عادة بعيداً عن العمران كان فيها ردع أكثر من السرقة العادية ، ولأن قاطع الطريق فى أغلب الأمر على ثقة من نجاح جريمته وفى أمن من المطاردة .

كذلك فإن العوامل النفسية الداعية للجريمة ، قد تقويها هذه الأمور ، وترجحها على العوامل الصارفة عنها التى تبعثها فى النفس عقوبة السرقة العادية ، لذا وجب تغليظ العقوبة حتى تتناسب العوامل الصارفة عن الجريمة ، مع العوامل النفسية التى تدعو إليها — فهى عقوبة تساوى عقوبة السارق الذى يسرق مرتين ، وهى عقوبة ولا شك عادلة ؛ لأن خطورة قاطع الطريق لا تقل عن ضعف خطورة السارق العادى ، أما عقوبة النفى فقد أوجبها الشرع على قاطع الطريق إذا أخاف الناس ولم يأخذ مالا ولم يقتل أحداً .

وقد وضعت هذه العقوبة أيضاً على أساس العلم بطبيعة النفس البشرية : مع النفى يحبس الجانى فى البلد الذى ينفى إليه . وليس للحبس حدٌّ معين ، بل هو متوقف على ظهور توبة المحكوم عليه وصلاحه فان ظهرت أطلق سراحه ، وحجة الفقهاء فى حبس المنفى ، أن العقوبة يجب أن يكون لها معنى ، إذ أن نقل قاطع الطريق من بلد إلى آخر ، لامعنى له إذا بقى مطلق السراح .

وإذا كان بعض الناس يعتبر أن عقوبة القطع للسارق ، أو لقاطع الطريق قاسية . ويكفى فيها الحبس لزجرها ، فقد ثبت بالإحصائيات فى كثير من البلاد التى تحكم القوانين الوضعية ، أن نصف المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فى جرائم السرقة ، وقطع الطريق يعودون إلى ارتكاب الجرائم فى ظرف عام واحد ، من تاريخ الافراج عنهم وأنهم يخرجون من السجن ، وهم أشد ميلا للإجرام وأكثر حذقاً له ، وهم بعد خروجهم من السجن يصبحون خطراً يهدد الأمن والنظام

لكن هل يتصور العقل أن رجلا مقطوع اليد والرجل يصلح لارتكاب الجرائم أو يصبح خطراً على الأمن والنظام ؟

إنها ياسادة شريعة الله وكفى .

جريمة الردة والبغى

تحدثنا فى الأحاديث السبعة السابقة عن خمس جرائم من جرائم الحدود ، وبينا حكم القرآن فيها ، وأثبتنا أن العقوبات التى قررتها شريعـــة القرآن لهذه الجرائم ، قررت بعد تقدير دقيق لغرائز الإنسان وعواطفه وميوله وتكوينه النفسى والعقلى .

واليوم نتحدث باختصار عن الجريمتين الباقيتين من جرائم الحدود السبع ، وهما جريمة الردة والبغى ، وقد جمعت بينهما لوجه الشبه الشديد بين الجريمتين ، ومع أن المرتد خرج بردته عن الإسلام ، إلا أن الجريمتين موجهتان إلى نظام الحكم والقائمين بأمره .

وكان هذا هو السبب فى تشديد العقوبة لهاتين الجريمتين ، لأن التساهل فيها يؤدى إلى الفتن والاضطرابات وعدم الاستقرار . وهذا بدوره يؤدى إلى تأخر الجماعة واضمحلالها .

كما أن التساهل فى جريمة الردة بالذات ، يؤدى إلى زعزعة النظام الإجتماعى للجماعة ، الذى يقوم على أساس الدين ، ولذا كانت العقوبة القتل ، استئصالا للمجرم من المجتمع ، حماية للنظام الإجتماعى من ناحية ، ومنعاً للجريمة وزجراً عنها من ناحية أخرى ، وعلى هذا اعتمد رد الإمام ابن القيم على من اعترضوا على عقوبة المرتد بحجة أن الإسلام ترك الحرية العقائدية للناس ، فقال ابن القيم رحمه الله (١) (إنها مسألة لا علاقة لها بحرية العقيدة المقررة فى الإسلام ، وأنها سياسة قصد بها حياطة المسلمين ،وحياطة تنظيمات الدولة الإسلامية وأسرارها ، من تذرع أعدائها المتربصين بها ، للنيل منها بادعاء الاسلام .

---

[١]

وقد أشار القرآن لهذا المعنى حيث قال ، (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنو بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون).(١)

والردة وهى ترك الدين الإسلامى والخروج عليه بعد اعتناقه عقوبتان ، عقوبة أصلية وهى القتل وعقوبة تبعية وهى المصادرة ، قال تعالى : (ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٢) وقال رسول الله ﷺ (من بدل دينه فاقتلوه) (٣) ولا شك أن عقوبة القتل هى أقدر العقوبات على صرف الناس عن الجريمة .

وفى العصر الحديث نرى أكثر الدول تحمى نظامها بأشد العقوبات التى تفرضها على من يخرج على هذا النظام أو يحاول هدمه أو إضعافه — وعقوبة الإعدام قررتها القوانين الوضعية عقاباً على من يخل بالنظام الاجتماعى وفرضتها لحماية هذا النظام — وهى بنفسها العقوبة التى وضعتها شريعة القرآن لحماية النظام الاجتماعى الاسلامى : أما عقوبة المصادرة التى قررها الإسلام على المرتد ، فهى عقوبة تبعية تفرض مصادرة أموال هذا المرتد ، إلا أن الفقهاء اختلفوا فى مدى المصادرة ، فذهب مالك والشافعى والرأى الراجح فى مذهب احمد ، على أن المصادرة تشمل كل ما للمرتد ، أما مذهب أبى حنيفة وبعض فقهاء مذهب احمد فهم يرون أن مال المرتد الذى اكتسبه بعد الردة هو الذى يصادر أما المال الذى اكتسبه قبل الردة فهو من حق ورثته المسلمين ؟ وأما جريمة البغى . فتعاقب عليها شريعة القرآن بالقتل أيضاً ، والأصل فى ذلك قول الله تبارك وتعالى (وإن طائفتان من المؤمنين

---

[١] سورة آل عمران آية : ٣٢

[٢] سورة البقرة آية : ٢١٤

[٣] من حديث رواه البخارى عن ابن عباس . باب حكم المرتد والمرتدة كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم جـ ٨ ص ٥٠ صحيح البخارى

اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) (١) وقال أيضاً سبحانه (إنما السبيل على الذين يظلمون النــــاس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) (٢).

وقد حرم الله البغي ونهى عنه في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم فقال سبحانه : (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق) (٣) وقال أيضاً سبحانه (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) (٤)

وفي الآية الأولى التي تقول (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) تنبيه من الله تبارك وتعالى إلى أن بعض طوائف المسلمين قد تتقابل مع بعضها — وقد تحاول طائفة أن تظلم أخرى وتبغي عليها فنبه سبحانه إلى ضرورة الإصلاح بينهما أولا ، فإذا بغت واحدة منها بعد ذلك قوتلت لأنها لم تترك القتال ولم تجب إلى الصلح ، فلا يندفع شرها إلا بقتالها ؛ ويصـــير قتالها بمنزلة قتال الصائل ، أي المعتدي الذي لا يندفع ظلمه عن غيره إلا بالقتال ، كما قال النبي ﷺ (من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون حرمته فهو شهيد) (٥)

---

[١] سورة الحجرات آية : ٩

[٢] سورة الشورى آية ٤٢

[٣] سورة الأعراف : ٣٢

[٤] سورة النحل ٩٠

[٥] راجع نص الحديث في صحيح البخاري كتاب : في المظالم والغصب . باب من قتل دون ماله ص ١٠٨ جزء (٢)

وما أكثر الخلافات التى تحدث بين بعض القبائل أو بعض الأسر والعائلات فى مجتمعات المسلمين ، فتقوم بينهما حروب أو ما شابه الحروب وتحاول كل واحدة أن تنتصر على الأخرى ، بل و تقضى عليها ،

وهنا يجر التساهل كما قلنا فى هذه الحالة ، إلى زيادة الفتن والإضطرابات ، وعدم الاستقرار ، وتؤدى هذه الحروب والخلافات إلى تأخر الجماعة وانحلالها ،

وهنا كان من الواجب محاولة الإصلاح بين المتخاصمين ، كما قال القرآن (فأصلحوا بينهما) فإن بغت إحداهما على الأخرى ولم يقبلوا الإصلاح كانت العقوبة التى قررها القرآن هى القتل .

وهنا يقول القرآن : (فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) لأن الجريمة فى هذه الحالة تكون موجهة إلى نظام الحكم نفسه ، والقائمين بأمره ، ولا شك أن عقوبة القتل هى أقدر العقوبات على صرف الناس عن هذه الجريمة ، التى يدفع إليها الطمع وحب الاستعلاء .

وكل دول العالم اليوم تعاقب على البغى بالإعدام ، وهو نفس العقوبة المقررة لهذه الجريمة فى شريعة قرآن ـ وصدق الله القائل (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) (١) فالباغى الظالم ينتقم الله منه فى الدنيا والآخرة .

قال ابن مسعود رضى الله عنه ولو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغى منهما دكا)

وقال الشاعر : —

قضى الله أن البغى يصرع أهله — وأن على الباغى تدور الدوائر

---

[١] سورة الشورى آية ٤٢ ، ٤٣

يشهد لهذا قول المولى عز وجل — إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا)[1] وفى حديث المصطفى ﷺ (ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع مايدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم)[2]

أرأيتم كيف أراد الله بهذه الحدود إصلاح الافراد ، وحماية الجماعة ، وصيانة نظامها ؟ أرأيتم كيف أن الغرض من فرض العقوبة فى شريعة القرآن هو إصلاح البشر، وحمايتهم من المفاسد ، واستنقاذهم من الجهالة وانتشالهم من الضلالة ، وكفهم عن المعاصى ، وبعثهم على الطاعة ؟ أرأيتم كيف فرض الله العقاب على مخالفة أمره لحمل الناس على مايكرهون ، مادام ، ذلك يحقق مصالحهم ، ولصرفهم عما يشتهون مادام ذلك يؤدى لفسادهم ، اللهم أنت الحكيم الرحيم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

---

[١] سورة يونس آية ٢٣

[٢] رواه ابن ماجة والترمذى وقال حسن صحيح ، كما رواه الحاكم فى مستدركه وقال صحيح الاسناد من حديث أبى بكر . راجع كتاب الكبائر ص ٢١٧

الحديث العاشر

جرائم القصاص والديــــة

لعلنا قد لاحظنا عند حديثنا عن جرائم الحدود ، أن شريعة القرآن أرادت بالعقوبات التى قررتها لهـذه الجرائم منع الجريمة قبل وقوعها . فإذا وقعت الجريمة كانت العقوبة بحيث تؤدب الجانى على جنايته ، وتزجر غيره عن التشبه به وسلوك طريقه ، كما رأن حد العقوبة إنما شرع لحاجة الجماعة ومصلحتها ، وقد قلنا إن الجرائم الماسة بكيان المجتمع مساسا شديداً نوعان ، لكل منهما حكم مختلف .

وقد تحدثنا عن النوع الأول من هذه الجرائم ، وهى جرائم الحدود السبع الزنا والقذف والشرب والسرقة والحرابة والردة والبغى ، وقد رأينا كيف أن شريعة القرآن قـد وضعت لهذه الجرائم السبع عقوبات مقدرة ، ليس للقاضى أن ينقص فيها أو يزيد فيها ، أو يستبدل بها غيرها . فمن ارتكب جريمة منها أصابته العقوبة المقررة لها ، دون نظر إلى رأى المجنى عليه ، أو إلى شخصية الجانى ، وليس لولى الأمر أن يعفو عن الجريمة أو العقوبة بحال من الأحوال ، واليوم نبدأ فى التحدث عن النوع الثانى من الجرائم الماسة بكيان المجتمع ، وهى جرائم القصاص والدية ، وهى جرائم القتل والجرح ، سواء كانت عمدا أو خطأ ، وهى على وجه التحديد . القتل العمد ، والقتل شبه العمد ـ القتل الخطأ ـ والجرح المتعمد ـ والجرح الخطأ ، وقد قررت شريعة القرآن لهذه الجرائم عقوبتين هما القصاص أو الدية ، فى حالة العمد ، والدية فى حالة الخطأ .

ومع أن الشريعة قـد حرمت العفو فى هذه الجرائم أيضاً على ولى الأمر ، إلا أنها أباحته للمجنى عليه أو وليه ـ فإذا عفى المجنى عليه أو وليه ، سقط

القصاص ، وحلت محله الدية ، إذا كان العفو لدية ، كما أباحت التنازل نهائيا عن القصاص والدية معا ، وعلة العفو هى إما الصفح ، وإما الفائدة المادية التى قد يرى المجنى عليه أو وليه أن فيها مصلحة له ، ويهمه الاحتفاظ بها ، وهى ولاشك علة مشروعة ، تضعها الشريعة موضع الاعتبار ، ففى الصفح قضاء على الخصومات والاحقاد ، وقد حض الله على الصفح حين قال (فمن عفا وأصلح فأجره على الله)(١) كما أن فى تفضيل الفائدة المـــادية على العقوبة البدنية ، معنى التسامح والصفح أيضا ، وفيه أيضا إضعاف حدة الخصومات .

وقبل أن نبدأ الحديث عن العقوبات التى قررتها شريعة القرآن بالنسبة لجرائم القصاص والدية ، لابد لنا من وقفة ولو قصيرة أمام جريمة القتل ، يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما)(٢) وقال تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العـذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا)(٣) ويقول أيضا سبحانه (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا)(٤) .

ومن هذه الآيات البينات الواضحات يتبين لنا عظم جريمة القتل العمد ، الذى جعل الله جزاءه جهنم والخلود فيها ، مع غضب الله عليه ولعنه وإعداد العذاب العظيم له ، وفى حـــديث لرسول الله ﷺ رواه البخارى ومسلم

---

[١] سورة الشورى آية ٤٠

[٢] سورة النساء آية ٩٣

[٣] سورة الفرقان آية ٦٨ - ٧٠

[٤] سورة المائدة آية ١٧٢

وغيرهما قال : أول مايقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء)(١) وقال أيضاً : صلى الله عليه وسلم :

(لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا)(٢) وقد روى الإمام أحمد قول رسول الله ﷺ (من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة لقى الله مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالى)(٣) ، وقال أيضاً : (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً)(٤) .

من هذه النصوص من كتاب الله وسنة رسوله الكريم ، يتبين لنا عظم هذا الجرم ، وهو إزهاق نفس بغير حق وحرمانها من الحياة — لهذا كانت عقوبة القصاص فى الدنيا هى أعدل العقوبات التى قررتها شريعة القرآن على من يقتل نفساً بغير نفس ، إذ لايجازى المجرم إلا بمثل فعله ، كما أنها أفضل العقوبات للأمن والنظام ، خاصة حين تعرف أن المجرم قد لايرتكب جريمته حين يعلم أنه سيجزى بمثل مافعله ، ولاشك أن هذا العقاب الإلهى ، سيجعل المجرم يتردد مئات المرات قبل أن يفكر مجرد تفكير فى الإقدام على جريمته ، خاصة وأنه

---

[١] رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ابن مسعود قاله المنذرى فى الترغيب ، راجع كتاب الكبائر للإمام شمس الدين أبى عبدالله الذهبى ص ١٣ .

[٢] رواه النسائى والبيهقى من حديث بريدة ، وشاهده مسلم والنسائى والترمذى من حديث عبدالله بن عمر مرفوعا وموقوفاً قاله المنذرى المرجع السابق

[٣] رواه الإمام أحمد وابن ماجه وفى إسناده مقال راجع كتاب الكبائر ص ١٤ .

[٤] أخرجه النسائى والحاكم ، وقال صحيح الإسناد ، وروى أبوداود وابن حبان وصححه عن أبى الدرداء ، راجع المرجع السابق .

يعرف أن فى الإبقاء على فريسته إبقاء على نفسه ، ولعلنا نجـــد أن من الأمثلة العملية التى نراها كل يوم مايؤكد لنا صحة مانقول ، فالرجل العصبى المزاج ، السريع إلى الشر ، تراه أهدأ مايكون وأبعد عن الشر وطلب الشجار إذا رأى خصمه أقوى منه . أو عرف أنه سيرد على الاعتداء بمثله — كما أن الرجل المسلح يتراجع ويتردد كثيراً ، حين يرى خصمه مسلحاً مثله ، ويمكنه أن يرد على الاعتداء بالاعتداء ، وهل رأينا فى حياتنا مصارعا أو ملاكما يتحدى أحدهما شخصاً يعلم أنه أكثر منه قوة أو مرانا أو جلدا . إنه غالباً مايتحدى بسهولة من يظن أنه أقل منه قوة وأضعف جلداً ، هذه هى طبيعة البشر التى وضعت شريعة القرآن على أساسها عقوبة القصاص — فكل دافع نفسى يدعو إلى الجريمة ، يواجه من عقوبة القصاص دافعاً نفسياً مضاداً يصرف عن الجريمة — أليس ذلك أيها السادة هو مايتفق تمام الاتفاق مع علم النفس الحديث .

مصدر عقوبة القصاص هو القرآن والسنة ، يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون)[١] — ويقول أيضاً جل شأنه (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)[٢] وقد جاءت السنة مؤكدة لما جاء به القرآن ونفذ النبى ﷺ ذلك كما بينته كتب السنة[٣] .

---

[١] سورة البقرة آية ٧٨ ، ٧٩

[٢] سورة المائدة آية ٤٥

[٣] راجع صحيح البخارى باب (إذا أقر بالقتل مرة قتل به) كتاب (الديات) ص ٣٩ ، ٤٠ ج ٨

وقال رسول الله ﷺ : (من قتل له قتيل فهو بخير النظرين)(١) إما أن يفتدى ، وإما أن يقتل .

[١] رواه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، فى هذا الحديث دليل على أن ولى المقتول بالخيار ، إن شاء اقتص ، وإن شاء أخذ الدية ، وإن لم يرض القاتل وقيل ليس له إلا القصاص ، ولا أخذ الدية إلا أن يرضى القاتل ، والأول أصح .

راجع صحيح البخارى . كتاب الديات وهذا جزء من حديث رواه أبو هريرة جـ ٨ ص ٣٨ .

الحديث الحادى عشر :

عقوبة القصاص وتلمس الحكمة من تشريعها

عرفنا من الحديث السابق ، كيف أن عقوبة القصاص التى فرضتها شريعة القرآن ، قد وضعت على أساس من طبيعة البشر ، لتكون دافعاً نفسياً يصرف عن الجريمة — على أساس أن المجرم حينما يعلم أنه سيجزى بمثل فعله لا يرتكب الجريمة غالبا — وأنه يبقى على فريسته إبقاء على نفسه — وقد جعلت شريعة القرآن القصاص عقوبة للقتل العمد والجرح العمد .

ومعنى القصاص ، أن يعاقب المجرم بمثل فعله ، فيقتل كما قتل ، ويجرح كما جرح ، والقوانين الوضعية الحديثة تعترف بعقوبة القصاص ، ولكنها تطبقه على جريمة القتل فقط . فتعاقب بالإعدام على القتل ، ولكنها لاتعاقب بالقصاص على الجراح ، وتكتفى فى عقاب الجوارح بالغرامة والحبس أو بأحدهما .

لكننا حين نفكر جيداً فى منطق شريعة القرآن ، حين سوت بين القتل والجراح فى نوع العقوبة ، نجد أنها كانت طبيعية ومنطقية ، ونجد أن القوانين حين فرقت بين جريمة القتل والجراح ، قد باعدت بين نفسها وبين المنطق — فمن البديهى أن جريمتى القتل والجرح من نوع واحد ، وينبعان عن دافع واحد ، فالقتل لايكون قتلا قبل أن يكون ضرباً أو جرحا فى أغلب الأحوال ، كما أن بعض الجروح أو الضربات تنتهى بالوفاة — وتسمى فى هذه الحالة قتلا — أما حين تنتهى الجروح أو الضربات بالشفاء ، فتسمى جراحاً ، والمنطق يقول إنه مادامت الجريمتان من نوع واحد ، فوجب أن تكون العقوبتان من نوع واحد .

وإذا كانت النتيجة فى كل من الجريمتين تخالف الأخرى فإن نتيجة العقوبة مخالفة أيضاً بنفس المقدار ، لاتزيد ولا تنقص ، فنوع الجريمتين واحد ، وهو القصاص ، فالجريمة التى تنتهى بقتل المجنى عليه ، عقوبتها قتل المجرم ، والجريمة التى تنتهى بجرح المجنى عليه ، عقوبتها جرح المجرم ـ وهذا هو المنطق

الدقيق ، والفهم العميق لشريعة القرآن التى لم يصل إلى منطقها وفهمها القانون الوضعى حتى الآن — وربما يصل إليه بعد فترة من الزمان ، وإن كنت اعتقد انه لابد واصل إليه ، لأن الأساس الأول لشرائع الله هو المنطق .

وما دامت قوانين الناس الوضعية قد اعترفت بعقوبة القصاص ، وطبقتها على جريمة القتل ، والمنطق السليم يقتضى أن يطبق القصاص أيضاً على جريمة الجرح ، فلابد ولو بعد حين أن تخضع قوانين الناس لهذا المنطق ، الذى أخذت بأسبابه واعترفت بمقدماته .

لابد لنا من وقفة أمام منطق الشريعة ، التى أعطت المجنى عليه ولوليه ، فى حالتى حق العفو عن عقوبة القصاص .

كيف تسقط العقوبة عن الجانى بعفو المجنى عليه أو وليه ؟ ولم منح هذا الحق فى هـــذه الجريمة بالذات ؟ أليس فى القتل اعتداء أيضاً على حرمة وكرامة المجتمع كما هو حادث بالنسبة لجرائم الحدود ؟ ثم كيف تسقط العقوبة بمجرد عفو المجنى عليه . مع أن السرقة لا يسقط حدها وإن عفى المجنى عليه عن السارق وتنازل عن ماله المسروق ؟ .

الأصل فى الشريعة أيها السادة ، أن المجنى عليه ليس له فى الجرائم ، عامة حق العفو عن العقوبة ، ولكن هذا الحق أعطى استثناء للمجنى عليه أو وليه فى جرائم القصاص والدية ، دون غيرهما من الجرائم ، والسبب أنها تمس المجنى عليه أكثر مما تمس أمن الجماعة ونظامها .

والمعروف أن القتل أو الجرح أو الضرب . لايكون إلا عن دافع شخصى ، والإنسان يخاف سارق غيره ، لكنه لايخاف قاتل غيره أو ضاربه ، ويخشى سارق غيره أن يسرقه ، لكنه لا يخشى قاتل غيره أن يقتله إلا إذا كان القاتل

قاطع طريق ، وهنا لا يجوز العفو عن القصاص لأن قاطع الطريق لا يقطعه على واحد معين ، فاعتداؤه فى هذه الحالة يكون موجهاً للمجتمع كله كذلك فإعطاء حق العفو للمجنى عليه أو وليه ، لن يؤثر على الأمن العام . لأن هـــذا التأثير لا يكون إذا أسرف المجنى عليه فى استعمال هـذا الحق ، والاسراف بعيد الاحتمال جداً . لأن الجريمة كانت موجهة إلى شخص المجنى عليه ، وهذا يدعوه إلى التشدد فى استعمال حق العفو ، إذ أن طبيعة الإنسان الميل إلى الإنتقام ممن اعتدى عليه أكثر مما يميل إلى العفو عنه .

لقد كانت شريعة القرآن عملية ومنطقية ، فى منح العفو للمجنى عليه أو وليه، لأن العقوبة فرضت أصلا لمحاربة الجريمة ، إلا أنها تمنع وقوع الجريمة فى أغلب الأحوال . أما العفو فيؤدى إلى منع الجريمة فى أغلب الأحوال ، خاصة وأن العفو لا يكون إلا بعد الصلح والتراضى ، وصفاء النفوس وخلوها من كل ما يدعو إلى الجريمة والإجرام .

فالعفو هنـا يؤدى وظيفة العقوبة ، وينتهى إلى نهاية تعجز العقوبة عن الوصول إليها ، وهذا هو الوجه العملى لتقرير حق العفو — كذلك فمن ناحية المنطق ، أنه مادامت الجريمة موجهة أصلا إلى المجنى عليه ، وهى تمس حيـاته وبدنه أكثر مـا تمس المجتمع فى أمنه ، لذا كان من حق المجنى عليه أن يكون لشخصيته اعتبار فى توقيع العقوبة ، ما دامت الجريمة متصلة بشخصه هـــذا الإتصـال .

وهنا كان حكم القرآن العظيم - تقرير مبدأ القصاص ، وجعله حقاً من حقوق المجنى عليه أو وليه ، وفى نفس الوقت دعوة للمجنى عليه أو وليه بالعفو ، لقطع دابر الفتنة ، والتراضى بالصلح وصفاء النفوس ، قال تعالى (يا أيهـا الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحـــر والعبد بالعبد والأنثى

بالأنثى)(١) ثم قال بعدها مباشرة (فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) . (٢)

وقال أيضاً سبحانه (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) . (٣)

وقد دعا الله تبارك وتعالى إلى هـذا العفو فى أكثر من آية من آيات القرآن العظيم : قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله)(٤)

وقال أيضاً سبحانه (وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم) (٥)

وقال أيضاً عز من قائل (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم)(٦)
وهكذا كان تقرير حق العفو فى جرائم القتل والجرح يؤدى إلى الوفاق والوئام ويقضى على دواعى النفور وبواعث الانتقام فتقل بذلك الجرائم وتخف حدة الاجرام .

وإذا كانت شريعة القرآن قد اعترفت بحق المجنى عليه ، فى أن يعفوا عن عقوبة بعض الجرائم ، فإن القوانين الوضعية قد اعترفت بنفس هذا المبدأ ، لكنها لا تطبقه على نفس الجرائم التى ينطبق عليها فى الشريعة ، فبعض القوانين الوضعية مثلا تعطى للزوج أن يعفو عن عقوبة زوجته الزانية .

---

[١] ، [٢] سورة البقرة آية ١٧٨
[٣] سورة المائدة آية ٤٥
[٤] سورة الشورى آية ٤٠
[٥] سورة البقرة آية ٢٣٧
[٦] سورة التغابن آية ١٤

وتقرير حق العفو فى جريمة الزنا يودى كما تعرفون إلى شيوع الفاحشة وفساد الأخلاق ، ويهدم نظام الأسرة . وهدم الأسرة هدم الركن الركين الذى يقوم عليه المجتمع . والقانون لم يوجد إلا للمحافظة على الجماعة وليس لهدمها .

ومن هنا تبقى شريعة القرآن متفوقة على القانون الوضعى تفوقاً ظاهراً ، لأنها أحسنت اختيار المنطقة التى يطبق فيها المبدأ .

ألم نقل لكم يا سادة إنها شريعة الله ؟ وكفى ذلك .

الحديث الثانى عشر :

عقوبة الدية وتلمس الحكمة من تشريعها

فى الحديثين السابقين تحدثنا عن جريمة القتل ، وعن القصاص الذى حكمت به شريعة القرآن بالنسبة للقتل العمد أو الجرح العمد ، وعللنا حكمة إعطاء المجنى عليه أو وليه حق التنازل عن القصاص ، أو القصاص ، والدية وقلنا إنه نظرا لكون الجريمة شخصية . وموجهة إلى نفس المجنى عليه دون غيره . فقد أعطى حق التنازل عن عقوبة الجانى ، وذلك لأن التنازل أحياناً يكون من صالح المجتمع نفسه . ففى هذا التنازل معنى التسامح والصفح . كما أن هذا التنازل يؤدى إلى الوفاق والوئام ، ويقضى على دواعى النفور ، وبواعث الانتقام ، فيؤدى ذلك بالتالى تخفيف حدة الإجرام . كما أن العفو لا يكون إلا بعد الصلح والتراضى ، وصفاء النفوس ، وخلوها من كل ما يدعو إلى الجريمة والإجرام . فهو يؤدى وظيفة العقوبة ، وينتهى إلى نهاية تعجز العقوبة عن الوصول إليها وقد قارنا بين موقف الشريعة . وموقف القانون الوضعى ، بالنسبة لحق العفو الذى قرره القانون الوضعى لجريمة القتل والزنا ، وموقف الشريعة من عدم إعطاء هذا الحق المجنى عليه وهو الزوج - إذا زنت زوجته ، وأثبتنا بذلك تفوق شريعة القرآن على القانون الوضعى . لأنها أحسنت المنطقة التى يطبق فيها هذا المبدأ .

وتعالوا بنا أيها السادة إلى حكم القرآن بالنسبة لعقوبة الدية ، ونحاول أن نستكشف الحكمة من هذا الحكم القرآنى ، وفلسفة هذه العقوبة بالذات ؟ لكنه قبل أن نتحدث عن هذا الموضوع لابد لنا من إضافة بالنسبة لما قلناه أمس : وهو أن القصاص إذا كان قد جعل عقوبة للقتل العمد . والجرح العمد فإن الحكم بالقصاص مقيد بإمكانه ، وبتوفر شروطه . فإذا لم يكن ممكنا ولم تتوفر شروطه . امتنع الحكم ، ووجب فى هذه الحالة الحكم بالدية ، ولو لم يطلب المجنى عليه أو وليه الحكم بها لأن الدية عقوبة لا يتوقف الحكم بها عـــلى طلب الأفراد .

كما أن شريعة القرآن . ليس فيها ما يمنع من عقوبة الجانى بعقوبة تعزيرية مع دفعه للدية ، وذلك فى حالة عدم إمكان الحكم بالقصاص إذا اقتضى تعزيره مصلحة عامة . بل إن مذهب الإمام مالك يحتم وجوب عقوبة التعزير كلما سقط القصاص ، أو امتنع الحكم به حالة القتل والجرح . فالقصاص إذا أيها السادة : هو العقوبة الأصلية للقتل والجرح فى حالة العمد . أما الدية والتعزير فكلاهما عقوبة بدلية تحل محل القصاص عند امتناع القصاص أو سقوطه بالعفو .

لقد جعلت شريعة القرآن الدية عقوبة أصلية للقتل والجرح ، بالنسبة للقتل الخطأ ، وفى ذلك يقول المولى عز وجل « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا[1] » والدية عبارة عن مقدار معين من المال يضاف إلى مال المجنى عليه ، ولا يدخل خزانة الدولة ، وهى من هذه الناحية أشبه بالتعويض ومقدارها يختلف تبعاً لجسامة الإصابات ، ويختلف بحسب تعمد الجانى للجريمة ، وعدم تعمده لها .

ولعل بعض الناس يتصور أن الدية هى تعويض ، لوجه الشبه الشديد بينها وبين التعويض . لكنهم يجب أن يعرفوا أنها ليست تعويضا ، وإنما هى عقوبة جنائية . لا يتوقف الحكم بها على طلب الأفراد ، وهى أيضاً ليست عقوبة خالصة ، لأنها مال خالص للمجنى عليه . ولذا فإنه فى الإمكان اعتبارها عقوبة وتعويضاً معاً .

وعقوبة الدية ذات حد واحد فليس للقاضى أن ينقص منها شيئاً أو يزيد فى مقدارها . ومع اختلافها بالنسبة للقتل الخطأ والجرح . إلا أن مقدارها ثابت . لكل جريمة ولكل حالة . وهنا يتمثل العدل المطلق فى شريعة القرآن ، حين يجعل دية الصغير كدية الكبير . ودية الضعيف كدية القوى . ودية الوضيع كدية الشريف . ودية المحكوم كدية الحاكم . فالجميع كما قلنا سواء أمام القانون .

---

[١] سورة النساء آية (٢٩) .

فى الحقوق والواجبات . لا فضل لواحد على واحد إلا بالتقوى . والتقوى حسابها عند الله وليس عند الناس .

لذا كانت دية الجميع واحدة . لأن روحا قد أزهقت ، أو جزءا من إنسان قد قطع . أليس الجميع بشرا ؟ أليسوا جميعاً يستحقون شرف الحياة ؟ لذا كانت دية الجميع واحدة باتفاق . أما دية المرأة . فقد اتفق جميع الفقهاء على أن ديتها على النصف من دية الرجل فى القتل . أما فى الجراح . فقد رأى أبو حنيفة والشافعى أن لها نصف ما للرجل مطلقا ، وأما مالك وأحمد فقد رأيا أنها تساوى الرجل الى ثلث الدية . فإن زاد الواجب على ثلث الدية فلها نصف ما يجب للرجل.

وقد فرقت الشريعة بين عقوبة القتل العمد . وعقوبة القتل الخطأ . حيث جعلت فى العمد القصاص أو الدية المغلظة فى حالة العفو عن القصاص ، وجعلت فى القتل الخطأ الدية المخففة ولعل المنطق يؤيد ذلك فالجانى فى جرائم العمد يتعمد الجريمة . ويفكر فيها ، وينتهز الفرص لارتكابها بمختلف الوسائل . ليحقق لنفسه مصلحة مادية أو معنوية . أما الجانى فى جرائم الخطأ فإنه غير متعمد الجريمة . ولم يفكر فيها ، وليس هناك دافع يدفعه لارتكابها - ولذلك جاء العقاب نتيجة اهماله . أو عدم احتياطه . الذى أدى الى وقوع الجريمة - كما أن الشريعة لم تعاقب بالقصاص فى القتل الخطأ ، وذلك لانعدام الدوافع النفسية لدى الجانى . ولأنه كما قلنا لم يتعمد الجريمة ولم يفكر فيها ، ولما كانت هذه الجريمة قد تسبب عنها فى الغالب أضرار مالية للمجنى عليه ، أو لورثته بطريق مباشر . أو غير مباشر . فقد رأت شريعة القرآن أن تكون عقوبة الجانى نتيجة اهماله . وعدم حرصه . وبسبب ما لحقه بالمجنى عليه . أو ورثته من أضرار مالية كانت العقوبة فى أعز ما يحرص عليه الإنسان بعد النفس وهو المال .

وكان جزاء عدم حرصه . هو حرمانه من المال الذى يتعب الناس أنفسهم فى الحرص عليه . وهذه لا شك عقوبة كافية لحمل المتهاون المهمل على أن يكون حريصاً ويقظا . ولفظ الدية اذا أطلق يقصد منه الدية الكاملة وهى مائة من

الإبل ، سواء كانت الدية مغلظة أو مخففة ـ أما ما هو أقل من الدية الكاملة فيطلق عليه لفظ الأرش فيقال أرش الرجل ، وإن كان الكثيرون يستعملون لفظ الدية أحيانا فيما يستعمل فيه لفظ الأرش ـ وتقديرات أرش كل جزء من الإنسان ، حددتها الشريعة ومحلها كتب الفقه ، ولا وقت الآن لذكرها .

هذه هي شريعة القرآن ، وهذا هو حكمها ، وهذه أحكامها . ولعله من الملاحظ أن شريعة القرآن قد سوت تماماً في العقوبة . حين تكون حداً ، أو قصاصاً لا فرق في ذلك بين كبير أو صغير ، أو غني أو فقير ، أو حاكم ، أو محكوم ، لأن العقوبة معينة مقدرة ، وكل من يرتكب جريمة أيا كان وضعه يعاقب عليها ، ويتساوى في هذا العقاب مع غيره في نوع العقوبة وقدرها ـ أما إذا كانت العقوبة التعزير ، فقد أعطت شريعة القرآن للحاكم حرية التصرف فيها . بما يؤدي إلى الزجر والتأديب بالنسبة لبعض الجرائم . فليس من المفروض أبداً أن يسوى الحاكم في نوع العقوبة ، وقدرها إذ أنه لو اشترطت المساواة لأصبحت عقوبة التعزير حدا . كل ما في الأمر أن ـ المطلوب هو تحري المساواة في أثر العقوبة على الجاني ، والأثر المطلوب لعقوبة التعزير هو كما تعرف الزجر والتأديب وبعض الناس يزجرهم التوبيخ ، وبعضهم قد لا يزدجرون إلا بالضرب أو الحبس ومن هنا تعتبر المساواة واقعة بالفعل إذا عوقب المشتركون في جريمة واحدة بعقوبات مختلفة . تكفي كل منها لردع من وقعت عليه . بحسب حاله وظروفه . ألم أقل لكم يا سادة إنها شريعة الله .

الحديث الثالث عشر:

تفوق الشريعة الإسلامية على القوانين الوضعية

لقد رأينا كيف أن شريعة القرآن . جعلت القتل عقوبة لأربع جرائم من جرائم الحدود . وهى الزنا والحرابة . والردة . والبغى وجعلته عقوبة فى جريمة واحدة من القصاص وهى القتل العمد .

ولو قدرنا أن الجرائم التعزيرية . التى يمكن العقاب عليها بالقتل ، تصل إلى خمس جرائم أيضا لكان معنى ذلك أن كل الجرائم التى تعاقب عليها شريعة القرآن بالقتل لا تزيد عن عشر جرائم عند من يجيزون القتل تعزيراً . وكان عددها لا يزيد على خمس جرائم . عند من لا يبيحون القتل تعزيراً . وهذه ميزة انفردت بها شريعة القرآن من يوم نزولهـا . فهى لا تسرف فى عقوبة القتل ولا تعرضها دون داع .

ويمكننا معرفة مدى تفوق هـذه الشريعة . إذا عرفنا أن القوانين الوضعية كانت حتى أواخر القرن الثامن عشر تسرف فى عقوبة القتل إلى حـد بعيد . فالقانون الانجليزى مثلا كان يعاقب على مائتى جريمة بالإعدام . والقانون الفرنسى كان يعاقب على مائة وخمس عشرة جريمة بالإعدام . وقد حاولت بعض البلاد الأوربية فى العهد الأخير أن تلغى عقوبة القتل . وألغتها فعلا بعض البلاد مثل إيطاليا وروسيا والنمسا . إلا أن هذه البلاد عادت فقررت عقوبة القتل فى قوانينها . وكل الدول الكبرى فى العالم الآن تقر عقوبة القتل ، وشراح القوانين الوضعية فيها يبررون عقوبة القتل . بأنها وسيلة صالحة لمقاومة المجرمين الخطرين على الجماعة . وهذه هى نفس المبررات التى قال بها فقهاء شريعة القرآن التى حكمت بهذا الحكم قبل أربعة عشر قرنا من الزمان ، والواضح أن الجرائم التى اهتمت بها شريعة القرآن . وحددت لها عقوبات معينة . هى السبع جرائم الخاصة بالحدود . والتى تحدثنا عنها جميعها فى أحاديثنا السابقة . وأربع جرائم القصاص والدية وهى القتل العمد . والقتل الخطأ والجرح العمد والجرح الخطأ ومعنى هذا أن جميع الجرائم التى اهتمت بها الشريعة هى إحدى عشرة جريمة

فقط ، ولذا أهملت فى هذه الجرائم شخصية الجانى . أما بقية الجرائم فقد نظرت فيها الشريعة إلى الجريمة وإلى المجرم معاً . والعجيب أن بقية الجرائم تعد بالمئات، ولذا فقد لا يستطيع بعض الناس أن يفهم حكمة الشريعة من تشددها فى هذه الجرائم بالذات ، وتساهلها فى بقية الجرائم برغم كثرتها .

ولكننا قد نصل فى سهولة ويسر إلى حكمة الشريعة فى تشددها فى جرائم الحدود ، وجرائم القصاص والدية إذا عرفنا أن الجرائم لا تقع بنسبة واحدة ، وأن أكثر الجرائم وقوعاً وتكراراً هى جرائم الحدود ، وجرائم القصاص والدية . أما معظم الجرائم الباقية فهى نادرة الوقوع ، وأقلها هو الذى يتكرر ويكثر وقوعه ، ومع ذلك فهو لا يصل أبدا إلى الدرجة التى تتكرر بها جرائم الحدود والقصاص ، وقد ثبت ذلك فعلا عن طريق الاحصائيات على مستوى العالم كله ، ولو أخذنا دليلا من إحدى الدول العربية مثلا لوجدنا أن جرائم الحدود وجرائم القصاص والدية قد بلغ فى متوسط عشرين سنة . ما بين عامى ١٩٢٢ إلى ١٩٤٢ فى هذه الدولة العربية ٧٢ر٧٢٪ من مجموع الجنايات ، ٦٣ر٦٣٪ من مجموع جرائم الجنح وهكذا تثبت لنا الاحصائيات التى لا تكذب . ما قد يخفى على بعض الناس، من أن شريعة القرآن اهتمت بجرائم الحدود والقصاص والدية على قلة عدد هذه الجرائم ، وذلك لتقضى على أكثر الجرائم تكرارا وأشدها هولا . أو ربما قصدت أن تقضى على الإجرام قضاء مبرما .

وبعد أن توضح لنا الاحصائيات . حكمة الشريعة فى وضع هذه العقوبات بالذات لجرائم الحدود والقصاص ، واهتمامها بها هذا الاهتمام ، يتأكد لنا فعلا قصد الشريعة من الوصول للأغراض الثلاثة ، التى يقوم عليها بنيان المجتمعات وكيانها ، وهى حفظ الأمن ، وتثبيت النظام وصيانة الأخلاق . والأمة إذا سلم أمنها ونظامها وأخلاقها فقد سلم لها كل شىء ، ولم يقف فى طريق تقدمها ورقيها أى شىء .

أرأيتم أيها السادة كيف ثبت لنا أن الاسلام نظام كامل شامل لكل نواحى الحياة، وأن الدين كان ضرورة لهذا الإنسان الضعيف مهما قوى، العاجز أمام قوى الطبيعة القاهرة مهما أرتى من علم، أو توصل إلى إختراع؟ أرأيتم لم أمرنا الله تبارك وتعالى بالحكم بالقرآن، والأخذ بأوامره ونواهيه. حيث قال سبحانه (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق)(١) أرأيتم السبب فى نهيه عن الأخذ بالأحكام التى تخالف شرع الله لأنها من فصيلة أحكام الجاهلية حيث قال (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)(٢) أرأيتم السبب فى نهى الله تبارك وتعالى عن الحكم بغير ما أنزل واعتبار من لم يحكم بما أنزل كافر، وفاسق، وظالم. حيث قال سبحانه (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)(٣).

لايزال القرآن، وسيظل أبد الآبدين إن شاء الله دستور هذه الحياة ومصلحها فى كل زمان ومكان - فهو يشرع للحياة الواقعية، ومحيط بالحياة الإنسانية كلها، وبكل فرع من فروع هذه الحياة، وهو كمصدر وأصل ثابت. جمع أصول نظام إلهى شامل كامل لكل نواحى الحياة. اشتمل علــى كل ما يحتاج إليه الناس. من النظم الإدارية، والثقافية، والاقتصادية، والمالية، والاجتماعية ووضع المبادىء والقوانين لكل فرع من فروع هذه الحياة، واشتمل على أحكام مالا يتناهى من الوقائع فهو قرآن (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(٤) أحكامه أحكام حق وعدل لأنها أحكام الله الحق.

---

[١] سورة المائدة : ٤٨

[٢] سورة المائدة : ٥٠

[٣] سورة المائدة : ٤٤

[٤] سورة فصلت : ٤٢

وصدق الله القائل (الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير،)(١) إذا حكم القرآن هو حكم الله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) .

أرأيتم أيها السادة أن هذا الكتاب كما قال ربنا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) أرأيتم كيف أن هذا القرآن قد أنزله الله تبارك وتعالى على محمد (ص) ليبين للناس ما أنزل إليهم ، وليحكم بينهم به فيما اختلفوا فيه قال تعالى : (إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أتاك الله(٢)) وقال تعالى (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان(٣)) وقال أيضاً (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم(٤)) .

أرأيتم لماذا أمرنا الله تبارك وتعالى بالحكم بالقرآن ، والأخذ بأوامره ونواهيه ، حين قال سبحانه (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق(٥)) .

إنها كما رأيتم مصلحة الناس ، وخير الناس . ولذا كان نهيه عن الأخذ بالأحكام التى تخالف شرع الله . لأنها من فصيلة أحكام الجاهلية . حيث قال سبحانه (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون(٦)) .

وكانت مصلحة الناس أيضاً . هى السبب فى نهى الله تبارك وتعالى عن الحكم بغير ما أنزل الله ، واعتبار من لم يحكم بما أنزل الله كافرا ، وفاسقا ، وظالما . حيث قال سبحانه (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وفى آية أخرى فأولئك هم الظالمون وفى آية ثالثة فأولئك هم الفاسقون .

---

[١] سورة هود : (١) [٢] سورة النساء . ١٠٥
[٣] سورة الشورى : ١٧ [٤] سورة الإسراء : ٩
[٥] سورة المائدة ٤٨ [٦] سورة المائدة : ٥٠

خبير) . (١)

سادسا وسابعا :

نماذج من الخطابة الأكاديمية والخطابة المتطورة

(أ) الخطابة الأكاديمية : (خطبة فى مضار الزنا) .

(ب) الخطابة المتطورة :

١ ـ الخطبة الأولى : هل الدين ضرورة للانسان ؟

٢ ـ الخطبة الثانية : هل يتناقض العلم مع الدين ؟

٣ ـ الخطبة الثالثة : اهتمام الإسلام بالصحة .

قد يعجب القارى لما أسميناه [خطابة أكاديمية] - [خطابة متطورة] . لكنه سيستريح حين يعرف أننا لا نقصد بالتطور فى الخطبة الدينية ، تغيير الأصول التى تعتمد عليها خطبة الجمعة ، وإلغاء أركانها ، أو سننها ، أو ما كان عليه هدى النبى (ص) فى خطبة الجمعة . وإنمـــا قصدنا بالتطور تغيير الطريقة والأسلوب فقط ، والتى سار عليهما الناس منذ زمن بعيد ، فلم يغيروا أو يبدلوا فأصبح المستمع ينظر إلى مايستمع إليه نظرة استخفاف وملل ، وأصبح مايستمع إليه مجرد كلام مكرر معاد .

وقد جرت العادة من قديم . تضمين الخطيب لموضوع خطبته فى مقدمة هذه الخطبة . ثم يبدأ بعد المقدمة بقوله : أما بعد - فيقول الله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام . . . » إذا كان يتحدث عن الخمر مثلا . أو يقول: « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم . . . » إذا كان يتحدث عن الصيام . وهكذا . فكان من أسباب ذلك عدم إهتمام المستمعين الاهتمام الكافى ، بمثل هذه الخطب التى تكاد تكون صورة واحدة مكررة ، يكررها جميع الخطباء ، ويعتمدون على نفس الأسلوب وطريقة العرض ، ونفس الشواهد والاستدلالات .

وتجد نوعاً آخر من الخطباء ، يحفظ مقدمة واحدة لجميع الخطب ، يكررها فى كل خطبة . ثم يبدأ بعد المقدمة . بما اعتاده الناس منه ، ومن كثير من أمثاله بذكر الآية ، والدخول للموضوع بنفس الأسلوب السابق .

ولا شك أن الناس فى حاجة إلى تغيير هذه الطريقة ، وهذا الأسلوب . وبخاصة فى مجتمعات المثقفين . حتى يشد الخطيب رواد مسجده إليه ، ويلفت أنظارهم إلى الحكم والعظات التى تشتمل عليها خطبته ، كأن يبدأ بذكر حادثة معينة ، يجعلها مقدمة لموضوعه . أو يلقى خطبته على طريق حوار دار بينه وبين آخرين . أو يبدأ الموضوع ، باستفهام يجيب هو عليه من خلال خطبته . كأن

يقول مثلا : « هل الدين ضرورة للإنسان ؟ » أو يقول مثلا : « هل يتناقض العلم مع الدين ؟ » أو غير ذلك من الأساليب الجديدة ، التي يرى فيها براعة الاستهلال . والتي تشد المستمعين شداً . وعلى أن يراعي الخطيب الالتزام بأركان الخطبة ، وسننها والإلتزام بهدى النبي ﷺ ، وضرورة توافق الخطبة مع القواعد العلمية التي توصل إليها علماء التربية ، لإجادة التوجيه ، والوصول إلى المصلحة .

هذا هو ما قصدته من كلمة [الأكاديمية] و [المتطورة] . وسترى أيها القارىء الكريم الفرق بين الإثنين . حين تجرب بنفسك الطريقتين ، وتتطلع إلى وجوه الجمهور بعد الانتهاء من خطبتك .

وقد اخترت نموذجاً واحداً للخطبة الأكاديمية . وهي مشهورة معروفة ولذا لم أكثر منها ، رغبة مني في محاولة ترك هذه الطريقة القديمة العتيقة ، التي لم تعد تتناسب مع هذا العصر ، واخترت ثلاثة نماذج من الخطابة المتطورة ، وأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت .

نموذج واحد من الخطابة الأكاديمية :

فى مضار الزنا[1]

الحمد لله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ـ الحكيم الذى أعز من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى والفجور . لا إله إلا هو له الملك وإليه مرجع الخلق أجمعين . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم. وأشهد أن محمداً رسول الله جاء بالحق الواضح والشرع القويم . اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين .

أما بعد ـ فقد قال الله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا» ابن آدم : عمرك فى الدنيا وإن طال فأيامه قصيرة . لذاتك مهما حلت لك فى الحال فستورثك فى المآل حسرات كثيرة . إرتكابك للزنا بلا حياء دليل منك على انطماس البصيرة .

إذ لو كنت من الراشدين ماسلكت مسالك الزناة الفاجرين . وكيف تقرب الزناة وقد أباح الله لك أربعاً من النساء ؟ كيف تتصرف بنفسك فى الذل والمرض وأنواع البلاء ؟ مالك تنفق مالك فيما يغضب ربك ويرضى الشيطان وهو لك عدو مبين ؟ الشيطان يزين لك الفحشاء ويجرك إلى الأذى والفساد والله يدعوك إلى الفلاح والهدى والرشاد . فلماذا تركت الرشاد إلى الفساد ؟ وهجرت الهدى إلى الضلال المبين ؟ أيليق بك أن تطيع من يدعوك إلى ما فيه ضياع المال وخيبة الآمال ، وتعصى من يأمرك بما فيه لك العز فى الحال ، والسعادة فى المآل . أما تستحى ممن يراك وأنت لا تراه . قبل أن تصبح من النادمين .

يا هذا : كيف تمزق العفاف ، وتكشف عن عورة أختك المسلمة ؟ وكيف

---

[١] نقلت هذه الخطبة بنصها من كتاب هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص ٤٩٣ - ٤٩٤ .

تخون أخاك وتعصى مولاك بهذه الجريمة الشنيعة المحرمة ، ويلك أيها الزانى فقد تجرأت على هتك الأعراض وكنت من الفاسقين . ألم تعلم أن الزنا يعود عليك فى الدنيا بالفقر والوبال ، ويوقع فى الحسرة والندامة يوم لا ينفع أهل ولا مال ويورث العداوة والبغضاء والتفرق بين المسلمين . أما تدرى أن الله مطلع عليك وأنت على هذه الحالة الشنيعة . أما تخشى أن تنزل عليك وأنت تزنى صاعقة من السماء ؟ أما سمعت قوله تعالى « وأملى لهم إن كيدى متين » .

الزنا يا قوم عين الهلاك ، ورأس كل فساد ومضيعة الأموال والأعراض والأولاد ومخل بالشرف والمروءة ، ومؤد إلى المرض والخزى والعذاب المهين . فهلا زجرك عنه الحياء إن لم يزجرك باعث الدين ؟ هلا منعك منه شرفك الذى تدعيه إن لم يمنعك الخوف من رب العالمين ؟ أم رضيت أن تكون فى الدنيا من الفاسقين وفى الآخرة من الخاسرين . فالخيبة كل الخيبة لمن استعبدته شهوته لامرأة زانية ، والندامة كل الندامة لمن أضاع نصيبه من الجنة واستبدل بها ناراً حامية . والذل كل الذل لمن جاء يوم القيامة والصديد يسيل من فرجه كما ورد عن سيد المرسلين .

فيا أيها المؤمنون ـ اتقوا الله وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم ، راقبوا الله ولا تضيعوا بالزنا أولادكم وأنسابكم ، وتوبوا إلى الله واستغفروه . إن ربكم كريم يقبل التائبين . فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزنى الزانى حين وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق ، وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » وفى رواية « فإذا فعل ذلك خلع ربقة الإسلام من عنقه . فإن تاب تاب الله عليه » ، وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : « من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الرجل قميصه من رأسه » .

نماذج من الخطابة المتطورة

تشمل هذه النماذج ثلاث خطب هي :

١ ـ هل الدين ضرورة للانسان ؟ ولماذا ؟

٢ ـ هل يتناقض العلم مع الدين ؟

٣ ـ اهتمام الإسلام بالصحة .

الخطبة الأولى

هل كان الدين ضرورة للانسان

يقول بعد المقدمة :

هل الدين ضرورة لازمة[١] :

المعروف أن الله خلق الخلق لعبادته قال تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون[٢] » ، وتعبدهم له يكون بطاعته وطاعة رسله . وقد سخر الله تبارك وتعالى للانسان ما في السموات وما في الأرض : وطالبه بعمارة الأرض والسعى على رزقه فيها ومعاملة الناس بما يجب أن يعاملوه به ، وجعل ذلك عبادة . قال تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة[٣] » .

وقال أيضاً « وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها[٤] » .

ومما لا شك فيه أن الانسان على الرغم من أن الله قد خصه بنعمة العقل أو المسئولية تلك النعمة التي تجعل منه سيد الكائنات جميعاً ، فإنه لا يزال أبعد ما يكون عن التحكم في قدره أو مصيره . لذا كان لابد له من هاد يهديه إذا ضل

---

[١] خلت هذه الخطبة وما بعدها من بعض شروط صحتها كخطبة جمعة ، استنادا على أن هذا مما لا يجهله القارىء الكريم وقد ذكرنا أركان وسنن الخطبة في القسم الأول من هذا الكتاب ـ فمن أراد معرفته فليرجع إليه هناك .

[٢] سورة الذاريات : آية ٥٦

[٣] سورة الحج : آية ٦٥

[٤] سورة إبراهيم : آية ٣٣ ، ٣٤

عقله وغوى ، ومرشد يرشده . إذا ابتعد عن فطرته التي فطره الله عليها وهي فطرة التوحيد . ثم إن الإنسان مهما كان . لا يستطيع وحده أن يخطط لنفسه ما يصلحه وما يفيده .

ولذا كانت حكمة بعث الأنبياء وإرسال الرسل ليكون هؤلاء المرسلون الواسطة بين الناس وخالقهم ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وحتى يحاسبهم إن أخطأوا وآثروا الضلال على الهدى ، وصدق الله حين يقول :

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما[1] » وصدق أيضاً حين يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[2] » ويقول أيضاً « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله[3] » ويقول « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله[4] » .

وهكذا كان لابد من إرسال هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين ، ومعهم كتب من عند ربهم ليحكموا بها بين الناس فيما اختلفوا فيه . قال تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم[5] » .

إذن فالدين ضرورة لهذا الإنسان الضعيف مهما قوى . العاجز أمام قوة الطبيعة القاهرة مهما أوتى من علم ، أو توصل إلى إختراع فهو إن استطاع أن يتحكم فيها يوما ، وقف أمامها عاجزا في حالات كثيرة . لا يستطيع صنع شيء

---

[١] سورة النساء : آية ١٦٥
[٢] سورة الإسراء : آية ١٥
[٣] سورة آل عمران : آية ٦٤
[٤] سورة آل عمران : آية ٨٠
[٥] سورة البقرة : آية ٢١٣

عنها ، وهو لا يستطيع أن يعرف ما يخبىء له الغد . لا يستطيع أن يغير مجرى الرياح - ولا يستطيع فى موسم الجفاف أن يجعل المطر يأتى مبكرا ، أو أن يعرف حتى متى يسقط المطر ، لأن هذه الأشياء لا تدخل فى حيز قدرة الإنسان ، وإنما تخص الله وحده ، فهو الأول والآخر ، وهو القوة الكبرى التى تحكم وتهيمن على جميع قوى الطبيعة . ولذا يجد الإنسان نفسه فى حاجة إلى طلب العون من الله فيدعوه ويتقرب إليـــه . ماذا يصنع حين تدهمه العواصف والفيضانات ؟ أو الزلازل والبراكين ؟ ماذا يعمل عند القحط والجفاف والأوبئة والمجاعات ؟ لا يسع الإنسان فى هذه الحالات إلا أن يشعر بالضعف والتواضع وهذا هو الوقت الذى يشعر فيه الإنسان بقربه إلى الله ، وهو إذ يشعر بالخطر الماثل ، ويخشى أن تسحقه الطبيعة الجبارة يتطلع إلى وجود قوة أعلى تسيطر عليها ، وتستطيع كبح جماحها . مما يضطره إلى الإيمان بوجودها وقدرتها ، واستجابتها للدعاء .

ومع أن إيمان الإنسان أيا كان بهذه القوة الكبرى فطرة فيه ، ويضطره ضعفه إليه . إلا أنه قد يخطىء فى طريقة التوصل إليه ، والتقرب منه ، فيشرك مع الله شيئاً آخر يتقرب به إليه مع إيمانه أصلا بالقوة القاهرة ولذلك كان المشركون يردون على من يسألهم عن سبب عبادتهم للأصنام قائلين « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى[1] » ، وهنا كانت مهمة الأنبياء والمرسلين . توجيه الناس لفطرتهم ، وتبليغ الناس أوامر ربهم ، والناس دائماً فى حاجة الى من يذكرهم . بل ويكرر هذا التذكير ، ومعظمهم لا يعرف ربه الا عند الحاجة إليه . قال تعالى : عن بعض الناس وإنحرافهم « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر . فنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختال كفور » [2].

---

[1] سورة الزمر : آية ٣
[2] سورة لقمان : آية ٣٢

وقد أبرز القرآن فى موضع آخر نكران الإنسان لنعم الله وغدر الإنسان بعد أن يكتب الله له النجاة : قال تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً)(١) .

هذا الموقف السلبي من الإنسان لا يمكن أن يكون فى صالحه أبدا ، فلن يضر الله شيئاً . والانسان هو الخاسر ، وما الله بخاسر قط ، وصدق الله القائل (إن الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم)(٢) .

إذن فالدين ضرورة لبنى البشر . بل إن الانسان صنعه لنفسه حين لم يكن ثمت دين حقيق ، وكان البدائيون فى عصور اندثار التوحيد يعتمدون على العاطفة والغريزة والإستلهام أكثر مما يعتمدون على العقل والمنطق والحكمة ، ولذا وضعوا لأنفسهم رمزاً مادياً ، من شأنه أن يجعل فكرة الله أقرب إلى إدراكهم وتصورهم ، وكانوا يجسمون فكرة وجود الله فى مثل هذا الرمز المادى ، وهو ماعرف باسم الوثن ، أو الصنم ، وذلك لضعف الإدراك وفقر الخيال ، من هنا كانت ضرورة الأديان ، ولهذا جاءت لتدعو للتوحيد الخالص للإيمان برب واحد ، قال تعالى : (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون)(٣) وقال أيضاً (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(٤) وإنه لهذا التوكل على الله وحده يستطيع الإنسان أن يحرر نفسه من الخوف وأن يشعر بالسعادة والإطمئنان .

---

[١] سورة الاسراء آية ٦٧
[٢] سورة آل عمران آية ١٧٧
[٣] سورة القصص آية ٨٨
[٤] سورة آل عمران آية ١٦٠

الخطبة الثانية

هل يتناقض العلم مع الدين ؟

عرفنا من خطبة الجمعة الماضية(١) أن الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية وأنه ضرورة لهذا الانسان الذى لايستطيع الحيـــاة الصحيحة الهادئة بنظريات يصنعها لنفسه ، وربما لاحظنا أن لازمية الدين للجماعات البشرية ليس لانها مصلحة وطنية ، أو حاجة نوعية ، لان الدين قد وجد قبل وجود الأوطان ، بل صنعه البدائيون لأنفسهم ، اعتماداً على عاطفتهم وغرائزهم واستلهامهم ، وليس فى وسع أى فيلسوف صادق النظر ، أن ينسى أن الأديان قد وجدت بين جميع البشر ، وأنها من ثم حقيقة كونية لايستخف بها عقل يفقه معنى مايراه من ظواهر هذه الحياة .

والعجيب أن الذين يبطلون الأديان فى العصر الحديث باسم الفلسفة المادية ، يستعيرون من الدين كل خاصة من خواصـــه ، وكل لازمة من لوازمه ، ولا يستغنون عما فيه من عناصر الإيمان والاعتقاد ، التى لاسند لها غير مجرد التصديق والشعور ، ثم يجردونه من قوته التى يبثها فى أعماق النفس ، لأنهم اصطنعوه اصطناعا ، ولم يرجعوا به إلى مصدره الأمين ، والمؤمنون بهذه الفلسفة المادية ، يطلبون من شيعتهم أن يكفروا بكل شىء غير المادة ، وأن يعتقدوا بأن الأكوان تنشأ من هذه المادة فى دورات مسلسلة ، تنحل كل دورة منها فى نهايتها ، لتعود إلى التركيب فى دورة جديدة وهكذا بلا انتهاء .

---

[١] يقول هذا إذا اتبع هذه الخطبة الخطبة السابقة ، وكان يخطب فى نفس المسجد أما إذا كانت خطبة مستقلة لم يخطب قبلها فى نفس المسجد فى الموضوع السابق فيمكن أن يبدأ موضوعه من عند قولنا فى الصفحة التالية : المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنه يحث على التفكير فى مجال العلم .. إلخ .

ونعيمهم المقيم الذى يطالبون شيعتهم بانتظاره على هذه الأرض ، هو عندما تتحقق نبوءتهم عن زوال الطبقات الإجتماعية ، التى يؤكدون لهم تحققها ، ويحاولون إقناعهم بأن زوال الطبقات الاجتماعية بعد عام أو أعوام هو بداية الفردوس الأبدى الذى يدوم ما دامت السموات والأرض ، وتنتهى إليه أطوار التاريخ كما تنتهى بيوم القيامة فى عقيدة المؤمنين بالأديان .

ولعلكم معى فى أن أى دين من الأديان لايكلف اتباعه تصديقاً أغرب من هذا التصديق ، ولاتسليما أتم من هذا التسليم ، ولذا نرى هذا العصر تتصارع فيه معانى الحياة بين الايمان والتعطيل ، وبين الروح والمادة ، وبين الأمل والقنوط ، ويلوذ المسلمون بعقيدتهم المثلى وقرآنهم العظيم ، وهم لايخطئون الملاذ ، فهى عقيدة بقرآنها تعطى كل مايعطيه الدين من خير ، ولاتحرم المسلمين شيئاً من خيرات العلم والحضارة ، وها هو قرآنكم أيها الاخوة المسلمون يرد على أولئك الذين يتصورون أن هناك تعارضاً بين العلم والدين .

أيها الإخوة المسلمون :

المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنه يحث على التفكير فى مجـــال العلم ، ولايتضمن حكماً من الاحكام يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم مااستطاع إلى ذلك سبيلا . بل إنه يجعل التفكير السليم والنظر الصحيح إلى آيات خلقه ، وسيلة من وسائل الايمان بالله . قال تعالى :

(إن فى خلق السموات والأرض لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)(١) .

وهو يحث المسلم على أن يفكر فى عالم النفس ، كما يفكر فى عالم الطبيعة

---

[١] سورة آل عمران آية ١٩٠ ، ١٩١

قال تعالى : (أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى)(١) .

ويقول أيضاً : (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفراداً ثم تتفكروا)(٢) وفى آية أخرى (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)(٣) وفى آية رابعة (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)(٤) وخامسة (ونفصل الآيات لقوم يعلمون)(٥) . وسادسة (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون)(٦) وسابعة (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)(٧)

وعشرات أخرى من الآيات القرآنية ، يحكم الله بها حكماً قاطعاً على فتح أبواب المعرفة للمسلمين ، وحثهم على ولوج هذه الأبواب والتقدم فيها ،وقبول كل مستحدث من العلوم ، على تقدم الزمن وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم .

ولكنا نحب أن نوضح شيئاً للإخوة المسلمين . إذا كان القرآن الكريم لا يتناقض مع العلم ويحث على التفكير فى مجاله ، ولا يتضمن حكماً من أحكامه يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الإستزادة من هذه العلوم ، فلابد لنا هنا أن ننبه إلى شىء هام وخطير . القرآن كتاب عقيدة ولا يطلب من

---

[١] سورة الروم : ٨

[٢] سورة سبأ : ٤٦

[٣] سورة البقرة : ٢٦٦

[٤] سورة الحشر : ٢١

[٥] سورة التوبة : ١١

[٦] سورة الأنعام : ٩٨

[٧] سورة المجادلة : ١١

معتقدى الاسلام ، أن يستخرجوا من كتابه الكريم تفصيلات العلوم التى يكتشفها بعض الناس ، فليس من الضرورى أن تطابق مسائل العلم ماتحدث به القرآن عن بعض هذه العلوم ، والاشارة إليها دون تفصيل ، لأن هذه التفصيلات تتوقف على محاولات الانسان وجهوده ، كما تتوقف على حاجاته وأحوال زمانه ، والعلم كما تعرفون لايعرف الكلمة الأخيرة ، والعجز عن الكمال ضريبة المخلوقية لأن الكمال لله وحده ، ولذا فقد أخطأ جماعة من الناس حين فسروا السموات السبع بأنها السيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، ثم ظهر أنها عشر لاسبع . وأخطأ أناس أيضاً فى العصور الأخيرة حين أنكروا القول بدوران الأرض واستدارتها إعتماداً على مافهموه من ألفاظ بعض الآيات وأخطأ آخرون حين زعموا أن مذهب التطور والارتقاء ثابت من بعض آيات القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)[1] أو قوله تعالى : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض)[2] فالواضح من الآيتين الكريمتين أنهما تؤيدان تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ولكن مذهب التطور والارتقاء لايزال عرضة لكثير من الشكوك والتصحيحات . بل إنه عرضة لسنة التطور والارتقاء التى تنتقل به من تفسير إلى تفسير : فالقرآن الكريم يطابق العلم بل يوافق العلوم الطبيعية . لكن بالمعنى الذى تستقيم به العقيدة ولاتتعرض للنقائض والأظانين ويكفى أنه يحث على التفكير ولايحول بين العقل وبين استزادته من العلوم . ولا يتضمن حكما يشل حركة العقل فى هذا التفكير وقد رأينا كيف جعل التفكير السليم والنظر الصحيح إلى آيات الخلق وسيلة من وسائل الإيمان الله .

والحقيقة أيها الإخوة المسلمون ، أن كل تقدم علمى فى أى ميدان من ميادين الحياة لمحاولة الوقوف على كنهها وسرها ، يحمل معه آيات بينات على وجود الله

---

[١] سورة البقرة : ٢٥١

[٢] سورة الرعد : ١٧

الخالق ، المدبر الحكيم ، وعلى أن هذه الحياة لاتقوم وحدها ، وأن عظمة هذا الكون تنبي عن عظمة خالقه .

أيها الإخوة المسلمون : إن فهم القرآن وما تعنيه أحكامه فهما صحيحا فى هذا الموضوع ، وعلى هذا الأساس الذى شرحناه ، سيمكن المسلم من السيطرة على الواقع والطبيعة ، كما تمكن الغربيون منها ، إلا أنه فى نفس الوقت سيبتعد عن هذا الجفاف الذى يحياه الغربى ، وعن هذا القلق النفسى الذى يعيشه ، وسيكون أكثر إلماما بالحقيقة حين يسخر الطبيعة ويسيطر عليها . وسيرتفع المسلم بفضيلة العلم بل إنه لن يرتفع بفضيلة كما يرتفع بهذه الفضيلة ، وصدق الله القائل (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون)[1] بل إن المسلم لايسأل ربه نعمة أقوم وألزم من العلم .

(وقل رب زدنى علما)[2] (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[3] .

---

[١] سورة الزمر : ٩

[٢] سورة طه : ١١٤

[٣] سورة فاطر : ٢٨

الخطبة الثالثة :

نموذج خطبة جمعة أخرى

فى مقدور الخطيب الناجح أن يربط بين العبادات ، وبين الحياة الاجتماعية، فمن الوضوء والغسل مثلا يتعلم الناس النظافة ، ومن مواقيت الصلاة يتعلمون النظام فى سلوكهم ، وهكذا يستطيع الخطيب أن يجد ربطاً بين أى موضوع اجتماعى وبين العبادات المفروضة ، وسيجد أن الإسلام قد سبق إليه ، والناس فى حاجة إلى تغيير الأساليب وتطويرها ، حتى وإن تحتم تكرار الموضوعات مئات بل آلاف المرات ، ولكن كما قلنا مع تغيير الأساليب وتطويرها بما يتناسب مع المخاطبين .

ولنفرض مثلا أن خطبة الجمعة موضوعها .

إهتمام الاسلام بالصحة

بعد المقدمة : يقول الخطيب :

لم تكن عناية الإسلام بالصحة ، بأقل من عنايته بالعلم ، ذلك أن الإسلام يبنى أحكامه على الواقع ، والواقع أنه لاعلم إلا بالصحة ولامال إلا بالصحة ولا عمل إلا بالصحة ولا جهاد إلا بالصحة ، فالصحة رأسمال الإنسان وأساس خيره وهنائه .

وإذا كانت أصول الطب الحديث التى وصل إليها الإنسان بعد التجارب العديدة ، قد أثبتت أن خير علاج للإنسان هو الوقاية من المرض قبل وقوعه والمسارعة إلى العلاج منه فى أوله وقبل استفحاله ، فإنا نجد فى القرآن الكريم قبل أن تظهر هذه الأصول الطبية الحديثة ، وفى إرشادات النبى العظيم صلوات الله وسلامه عليه ما يؤكد كثيراً من هذه الجزئيات ، وفى القرآن والسنة كثيراً من الأمثلة التى تؤكدها هذه الأصول الطبية الحديثة ، وقد عرض القرآن الكريم للمرض ، وكان له فى تشريعه الذى يعالج به القلوب ، أعظم إيحاء وأوضح إشارة إلى اتخاذ وسائل الصحة البدنية والوقاية الصحية .

حرم القرآن الكريم شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، والإسراف فى الأكل والشرب وكل مايؤذى ، وأباح الفطر فى رمضان للمسافر والمريض محافظة على صحتهما ، ووقاية لهما ، كذلك أباح لمن خاف المرض أو تأخر الشفاء حين يستعمل الماء ، أن يتيمم ولايستعمل الماء وقاية وحماية له من المؤذيات .

والوضوء الذى تحدث عنه القرآن وفرضه الله حين قال :

(ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين)(١) .

هذا الوضوء كما هو واضح من الآية عبارة عن غسل الأطراف والأماكن الظاهرة من جسم الإنسان ، وهى الأماكن المعرضة للأمراض ، هـذا الوضوء لاشك وقاية من المرض .

ويكفينا من القرآن الكريم ، للتدليل على أنه سبق الطب الحديث بمئات السنين فى الدعوة للوقاية ، واتخاذ وسائل الصحة البدنية ، والوقاية الصحية ، والحماية من المؤذيات ، يكفينا فيه هذه الآية الكريمة من البقرة ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (بسم الله الرحمن الرحيم) (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولاتقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)(٢) فقد أثبت الطب الحديث أن وقت الحيض هو أنسب وقت لانتشار العدوى فى الجهاز التناسلى ، بسبب مايحدثه من الإلتهابات التى من طبيعتها تقوية الجراثيم المرضية وإكثارها كما ثبت أن دم الحيض يقتل مادة التناسل ، إذ لاتجد مكاناً صالحاً للاستقرار فيه.

أيها الإخوة المسلمون : إن الحجر الصحى المعمول به حالياً فى البلاد المتقدمة سبق الإسلام به دول العالم كلها ، ووضع قواعده الرسول العظيم منذ أكثر من

---

[١] المائدة : ٦
[٢] آية : ٢٢٢

١٤٠٠ عام ، حين قال : (إذا سمعتم به « الطاعون » فلاتدخلوا عليه وإذا وقع بارض وأنتم بها . فلا تخرجوا منها فراراً منه)[1] .

وقد نفذ عمر بن الخطاب أوامر الرسول ﷺ فى هـذا الشأن وهو حاكم المسلمين ، وحبس نفسه فى بلاد الشام حينما ظهر الطاعون فى بعض مدنه ،ومنع الناس من الدخول إلى مكان الوباء أو الخروج منه ، وامتثل الناس ومعهم الخليفة عمر لحديث رسول الله ﷺ السابق ، ولقوله أيضاً :

(مامن عبد يكون فى بلد فيه الطاعون فيمث فيه لايخرج صابراً محتسباً يعلم أنه لايصيبه إلا ماكتبه الله له إلا كان له مثل أجر شهيد)[2] .

وحينما تصور أحد الصحابة أن امتناع عمر عن الدخول إلى مكان الوباء فراراً من قضاء الله وقال له :

(أفراراً من قدر الله تعالى) رد عليه عمر وقال (نعم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى)[3] .

---

[١] هذا جزء من حديث رواه البخارى ومسلم ، عن عامر بن أبى وقاص عن أبيه وقد أخرج الشيخان ، الحديث أيضاً عن ابراهيم بن سعد عن أبيـه ، وأسامة بن زيد — والحديث أخرجه أيضاً مالك والنسائى وأحمد ومحمدبن الحسن فى موطئة وراجع فى هذا الموضوع (الطب النبوى) لابن قيم الجوزية ص ٢٨ ومابعدها .

[٢] راجع القصة بالتفصيل — بكتاب الطب النبوى — وقد رويت القصة فى الصحيح ، راجع الطب النبوى ص ٣٥ .

[٣] القائل هذا الكلام لعمر هو أبو عبيدة بن الجراح — وقد أقنع عبدالرحمن بن عوف عمر بن الخطاب بعدم الخروج حين جاء إلى مكان عمر،وكان متغيباً فى بعض حاجاته وقال : إن عندى فى هذا علماً ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليها » وقد أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه وأحمد .

والمتتبع للسنة الشريفة ، يرى الكثير والكثير من هذه الأصول الطيبة ، فقد دعا النبي ﷺ إلى الاغتسال الأسبوعي فقال

(الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم وأن يستن وأن يمس طيباً إن وجد)(١)

ودخل رجل عليه وهو منفوش الشعر فأشار إليه أن يصلح شعره ثم قال :

(أما وجد هذا ما يمشط به شعره) ، وقال بعد أن أصلح الرجل شعره قال : (أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الشعر كأنه شيطان) ولما رأى رجلا رث الثياب غضب وقال :

(أما وجد هذا ما يغسل به ثوبه) ، ودعوته ﷺ لاستعمال السواك من أجل نظافة الأسنان التي ثبت طبياً أنها تتسبب في معظم الأمراض الجسمية يعرفها الكثيرون ، ومنها قوله ﷺ (لولا أن أشق على أمتي أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة) وقال أيضاً : (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب)(٣) .

ومن أعظم ما يقال عن الوقاية من الأمراض قول النبي ﷺ (اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد — وقارعة الطريق — والظل)(٤) وتنفق

---

[١] صحيح البخاري كتاب الجمعة باب الطيب للجمعة ج ١ ص ٢١٢

[٢] الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة كتاب الجمعة باب (السواك يوم الجمعة) ص ٢١٤ ج ١ صحيح البخاري .

[٣] هذا الحديث روى عن عائشة ، وقد رواه النسائي وابن خزيمة في صحيحه بأسانيد صحيحة ، وذكر البخاري هذا الحديث في صحيحه تعليقاً بصيغة جزم ، أي محذوف أول سنده ، راجع دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج٦ ص٣٧٢

[٤] هذا الحديث ، رواه أبو داود وابن ماجه عن معاذ رضي الله عنه ، وعند مسلم عن أبي هريرة ، اتقوا اللاعنين . قالوا : وما اللاعنان ؟ قال الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم ، وعند مسلم أيضاً عن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ نهى أن يبال في الماء الراكد ، وما اشتمل عليه حديثا مسلم جمعه الحديث السابق راجع دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ص٢٢٧ ، ٢٢٨ ج ٨

وزارات الصحة فى كثير من البلاد ملايين الجنيهات والدولارات فى علاج أمراض الإنكلستوما والبلهارسيا وهى الأمراض التى تنتقل عن طريق التبول والتبرز فى المياه والطرقات وهى الأماكن التى نهى حديث الرسول ﷺ عن التبول والتبرز فيها .

أيها الإخوة المسلمون :

إن ترك أوانى الطعام والشراب مكشوفة يتسبب عنه بلا شك سقوط بعض الحشرات المؤذية التى تولد جراثيم المرض ، هكذا أثبت الطب الحديث ، ولكن قبل هذا بمئات السنين قال محمد بن عبد الله الأمى ابن بيئة الصحراء :

(اطفئوا المصابيح إذا رقدتم ، وغلقوا الأبواب وأوكو الأسقية وخمروا الطعام والشراب)[1] أى غطوا الطعام من سقوط الحشرات المؤذية التى تولد جراثيم المرض .

وبعد أيها السادة :

ألا تؤكد هذه الأمثلة اهتمام الاسلام بصحة الانسان ورغبته فى حفظ قوته وحمايته من المؤذيات ، واستخراج المواد الفاسدة من بدنه ، وسبقه العالم الحديث إلى نظريته التى يعتقد أنه مكتشفها وهى نظرية (الوقاية خير من العلاج)

فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أن تشريعات السماء إنما أراد الله بها خير الانسان فى الدنيا والآخرة ، حرصاً على هذا الانسان ورحمة به وخوفا عليه فآمنوا بالله ربكم وأسلموا له أنفسكم[1] ... الخ .

---

[1] راجع صحيح البخارى - كتاب الأشربة . باب (تغطية الإناء) ص ٢٥٩ ج ٢ .

ثامنا :

نماذج للمحاضرات

وتشتمل على محاضرتين

المحاضرة الأولى : الجهاد فى الاسلام

المحاضرة الثانية : الجزية وموقف الإسلام من أهل الذمة

هذا نموذج لمحاضرتين فقط من المحاضرات الدينية ، أقدمها للقارىء الكريم كنموذج فقط .

والمعروف عن المحاضرة أنها تختلف عن الخطبة ، بأنها أطول منها .

فموضوع المحاضرة أكثر سعة من موضوع الخطبة ، لأن التقسيم كما ذكرنا قبل ذلك يبدأ فى المحاضرة أولا بالمبادىء ، ثم تقسم المبادىء إلى عناصر ، وطول المحاضرة أيضاً ضرورى لأنها تعتبر بحثاً علمياً تقدم للمستمعين ، تعتمد على المنطق والتحليل ، والتوضيح ، ويغلب عليها أسلوب تقرير الحقائق .

ومع طول المحاضرة ، إلا أنه يمكن تقسيمها إلى عدد من الأيام ، مع ملاحظة أن يحذر المحاضر من بيان تقسيم موضوعه فى المقدمة ، أو بيان حقيقة عناصره ، أو ينحو نحو التقسيمات الفلسفية أو التعمق النظرى مع ملاحظة الشروط الواجب توافرها فى اختيار موضوع المحاضرة ، وأن يكون الموضوع من صميم مايجرى به الحياة ، ومن واقع البيئة التى يعيشها المحاضر ، ومع استحضار مايؤكد ويوضح كل عنصر من عناصر الموضوع ، بأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وسيرة صحابته ، وكذا عبر التاريخ والأيام ، أو حوادث الزمان ، مما نقرأ أو تسمع أو تشاهد .

وإذا كنت أقدم هنا نموذجين لمحاضرتين فى موضوعين مختلفين ، فإنه بالإمكان الزيادة أو النقص حسب الحاجة ، ويمكن توسيع الموضوع أكثر مما ذكرنا ، وإضافة عناصر أخرى للموضوع حسب الحاجة ، على أن يراعى المحاضر الوقت المحدد لمحاضرته بدقة ، ويمكن للمحاضر أن يقرأ محاضرته مكتوبة من الورق ، كما أن فى إمكانه أن يرتجل المحاضرة بشرط أن يضع أمامه عناصر الموضوع مكتوبة ، وكذا الأدلة النقلية ، وبعض النقاط التى يرى أنه سيتعرض إليها بالإضافة إلى الأرقام والإحصاءات التى أعدها وجهزها ، للتدليل بها على صحة مايقول ، ولايصح إطلاقاً أن يرتجل المحاضر دون إعداد سابق لموضوعه ،

وعلى أن ينظم أفكاره ويدرس الموضوع دراسة وافية من جميع جوانبه ، وإذا ماوجد فى نفسه القدرة على مواجهة الجمهور تحدث واستطاع بذلك أن يفرض نفسه حتى يعرف ماسيقوله ، وبذلك يكون قد جمع بين الإعداد والارتجال .

وهاتين المحاضرتين التى أقدمهما للقارىء الكريم ، يمكن أن يجعلها أكثر من خطبة من خطب الجمعة حيث يجزىء المحاضرة إلى ثلاث أو أربع خطب .

وهذه الطريقة تتناسب مع جمهور مسجد ، فى حى من الأحياء التى يغلب على جمهوره طابع ثقافى معين ، أو طلاب جامعة يصلون فى مسجد خاص بهم داخل مسكن الطلاب مثلا ، لأن غالبية المصلين من هـــذا النوع تغلب عليهم النواحى العقلية ، فيعنيهم أكثر من غيرهم سماع موضوعات دينية تعتمد على التحليل وتقرير الحقائق ، وتقل عندهم عملية استثارة العواطف والمشاعر التى تعتمد عليها الخطبة العادية .

وهذه الطريقة تستعمل الآن بنجاح فى بعض مساجد القاهرة ، وأنا شخصياً أستعملها كثيراً ، وهى تربط جمهور المسجد بالخطيب ، وتشجعهم على الحضور للمسجد مبكرين ، لاستكمال الموضوع العام ، أو القضية الكبرى التى بدأ فى شرحها الخطيب ولم ينته منها بعد .

هذا وأسأل الله التوفيق .

نموذج لمحاضرة فى موضوع (الجهاد فى الإسلام)[١]

الإسلام ليس دين استسلام ، وليست الفضيلة فى الإسلام فى الركون إلى الدعة ، إنما الفضيلة فى الإسلام هى رد الاعتداء ، ومنع الخضوع للأقوياء ولذلك شرع القتال لمنع الفساد فى الأرض ، إذ أنه لو ترك الأشرار يعيثون فساداً من غير رادع يردعهم ، ولا مانع يمنعهم ، لعم الفساد فى البر والبحر ، ولصار الهوان الذى يسيطر ، والرحمة بالأشرار ، قسوة بالأخيار ، وإن الذين يهذب فرط حبهم للتسامح مع الأشرار وهم لايلوون على شىء إلا جعلوه خراباً ، إنما يحرضون على الشر ، ورب تسامح يحوى فى ذاته أكبر الجرائم فتكا بالجماعة الإنسانية ، ولذلك قال الله تعالى :

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)[٢] .

والمعروف أنه لابد لكل دعوة من الدعوات من قوة تحميها ، وترد عنها أذى المعتدين ، والإسلام وهو دعوة الخير ، لابد له من قوة تحميه ، حتى لايذهب الخير ولايبقى إلا الشر ، ولهذا أذن الله بالقتال دفاعا عن الفضيلة ، (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)[٣] .

ولقد فرض الجهاد للضرورة التى تلزمه وتحث عليه ، ضرورة الدفاع عن

---

[١] هذه المحاضرة عبارة عن ثلاثة أحاديث إذاعية أذيعت بإذاعة الرياض فى برنامج حديث من القرآن عام ١٩٧٦م — ١٢٩٦هـ .

[٢] سورة البقرة : ٢٥١ وراجع موضوع الجهاد — مؤتمر علماء المسلمين الرابع — مجمع البحوث الإسلامية ص ٢٦٨

[٣] سورة الحج : ٣٩ ، ٤٠

النفس والحوزة ، ولولم يمنع المسلمون من الدعوة إلى الله وتركهم الناس فى دعة واطمئنان ماتعرضوا بالقتال لاحد ، لأنه فى هذه الحالة يكون اعتداء والله لايحب المعتدين فالقتال فى ذاته غير مرغوب فيه ، بل هو مما تكرهه النفس وتأباه ، قال تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم)(١) .

والجهاد باب من أبواب الدعوة ، والقتال لإزالة الحواجز التى تقف فى وجه هذه الدعوة وتمنع وصولها إلى الناس ، هو آخر درجاتها وأعلى مستوياتها ، فالمسلم يقدم نفسه للموت وهى أعلى مافى الإنسان ، وهذه أعلى درجات الإيمان. وإن كان جهاد النفس جهاداً شاقاً له ثمراته ، خصوصاً حين يجعل المؤمن أعماله كلها له ، لايبتغى بها سوى مرضاته ، وقد أثر عن النبى ﷺ أنه قال بعد رجوعه من إحدى الغزوات (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) .

وأول درجات الجهاد الدعوة إلى الحق بالتى هى أحسن ، والمجادلة بالحسنى وإن كانت هذه غايته المقصودة ، وفى هذا يقول الله تعالى (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن)(٢) .

والقلوب ليست مفتوحة لكل دعوة خير ، وليست العقول مستعدة لأن تزن الحق مجردة عن الهوى والتقليد ، وإنما سيقولون دائماً (بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون)(٣) .

ولهذا كان الداعى دائماً مايجد صعوبة بالغة فى توصيل الحق — حيث أن تغيير المألوف الذى يكون فيه اتباع الهوى وسيطرة الشهوات ، من أعسر الأمور وأصعبها ، ولذلك كان الدعاة إلى الإسلام لايسلكون سبيلا معبداً ، بل يسلكون

---

[١] سورة البقرة : ٢١٦

[٢] سورة النحل : ١٢٥

[٣] سورة البقرة : ١٧٠

سبيلا وعرا ، ولا يجدون قلوبا صاغية ولا آذانا مستمعة ، فلا يكفى أن يبينوا بل عليهم أن يجاهدوا ، وقد ضرب الله مثلا صادقا ، فقال سبحانه :

(واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون)(١).

وكانت أعلا صورة من هذا النوع من الجهاد ، جهاد النبي ﷺ في مكة قبل الهجرة ، حيث ذاق النبي ﷺ في سبيل ذلك الأذى والعذاب بهذا الصبر الجميل ، وتحمل الأذى كان رفيق الدعوة والجهاد الأول في الإسلام ، وليس ذلك عن ضعف في شخص الداعي ، ولكن عن رفق في الدعوة نفسها ، ليدخل الناس طائعين مختارين ، مطمئنين إلى الحق ، وليكون من بعد ذلك رجال جهاد صابرين ، ينفذون الحق بأنفسهم وأموالهم ، وقد كان النبي ﷺ يتحمل الأذى في الدعوة لتكون رفيقة من جانبه . وليكون الإيمان صادرا عن رغبة لا عن رهبة ، أيا كانت صورها وأشكالها(٢) .

وبعد تأسيس الدولة الإسلامية وهجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، بدأ نوع جديد من الجهاد ، وهو العمل على حماية هذه الدولة التي نشأت ، ومنع الاعتداء على المستضعفين من المسلمين ، الذين يخضعون لسلطان غير المسلمين ، ومنع استمرار فتنتهم ، فكان ثمت جهادان .

١ — جهاد في تبليغ الدعوة الإسلامية والإعلام بها .

---

[١] سورة يس ١٣ — ١٩ .
[٢] الجهاد . أبحاث علماء المسلمين المؤتمر الرابع ص ٨٢ . بتصرف .

٢ - وجهاد فى منع العدوان والاعتداء على الدولة الإسلامية على المسلمين عموما فى كل مكان[1] .

وقد أرسل الرسول ﷺ إلى الملوك والزعماء ، يدعوهم إلى الإسلام ، وأن يخلوا بينه وبين شعوبهم ويدعوهم إلى الإسلام، فأرسل إلى ملوك عصره وزمانه كبارهم وصغارهم ، لتستمر الدعوة فى طريقها (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)[2] .

ونحن باعتبارنا حملة أمانة الدعوة الاسلامية بعد الرسول ﷺ والتعريف بها للعالمين ، مسئولون عن تبليغها وتوصيلها ، وذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فوجب علينا أن ندعو الناس إلى الاسلام ، وأن نبين لهم حقائقه ، ويهتدى به من يهتدى ، ويضل به من يضل بعد أن نبينه لهم ، وهذه شعبة من شعب الجهاد ، تطالب به الأمة ، وعليها ممثلة فى ولى أمرها ، أن يكون فيها طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[3] .

أيها الاخوة :

كانت أول آية نزلت فى القتال بإجماع المفسرين ، هى آية سورة الحج (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير)[4] وقد بينت هذه الآية السبب الذى من أجله أصبح للمسلمين حق القتال ، وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق ، لأنهم قالوا ربنا الله ، يعنى أنهم ظلموا من أهل مكة وأوذوا بسبب اعتقادهم ، وتعتبر هذه بمثابة تفسير لآية الشورى (ولمن

---

[١] راجع كتابنا : الدعوة الاسلامية بين التنظيم الحكومى والتشريع الدينى . جـ ١ ص ٢١٤

[٢] سورة المائدة : ٦٧

[٣ ، ٤] سورة الحج : ٣٩

انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق)(١) .

فقد أراد الله تبارك وتعـــالى أن يوضح أسباب إذنه لهؤلاء بالقتال ، وبالانتصار بعد الظلم ، فبين أن هذا الإذن ليس مخالفاً لما تقضى به سنة التدافع بين الناس ، حفظاً للتوازن، ودرءاً للطغيان، وتمكيناً لأرباب العقائد والعبادات من أداء عباداتهم ، والبقاء على عقيدة التنزيه ، ثم وصف الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هى فى الحقيقة تنبيه لهم إلى مايجب أن يفعلوه اذا هم انتصروا على من ظلمهم ، وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

والآية فى مبناها ومعناها تنطق بأنه ليس فيها شائبة من شوائب الإكراه فى العقيدة ، وأنها تقرر أن التدافع بين الناس من سنن الله الكونية ، لابد منها لحفظ النظام وبقاء العمران .

أيها الأخوة تهدف كثير من الدول الى سيادة شعوبها على غيرها من الشعوب — وتحاول كل دولة مااستطاعت أن توسع ملكها بين الدول ، حتى تكون أعظم دولة فى الأرض — وحتى تستأثر بكل خيرات الأرض ، ولهذا تقوم الحروب بين الدول ، وأسبابها هو الطمع المرذول . والجشع الممقوت ، والطغيان الذى يؤدى الى هذه الحروب وتثيرها بين الشعوب .

أما دولة الإسلام التى أسسها محمد ﷺ وتولى حكمها من بعـــده الخلفاء الراشدون ، والتزمنا نحن بأن نسير على نهجهم وسنتهم ، فإن أهدافها لاترمى الا الى تبليغ الدعوة الإسلامية ، ليس طمعاً فى ملك أو إمارة — أو لسيادة شعب على شعب آخر — وانما القصد من الدعوة الإسلامية التى تتحمل مسئوليتها هذه

[ ] آية : ٤١

الدولة، هو توحيد الله والحكم بالعدل بين الناس، وهما غايتان من أشرف الغايات.

ولقد كان النبي ﷺ حريصاً على الدعوة، من غير أن يضطر لقتال، ولذلك نجده حين أرسل معاذ بن جبل مع طائفة من المسلمين لفتح اليمن، لايوافق على أن يقاتلوهم على غرة، ويطلب من المسلمين أن يخيروهم قبل القتال، بين الإسلام، أو العهد، أو القتال، بل يجب أن يتحرى القائد، فلا يقاتلهم إلا إذا منعوه من الدعوة، وأكثر من هذا لايقاتلهم إلا إذا قاتلوه أولا وقتلوا من أصحابه.

نجد ذلك كله في وصية الرسول ﷺ لمعاذ، حين أرسله مع من أرسلهم لفتح اليمن، وعرض الدعوة الإسلامية على أبنائها حيث قال لهم:

لاتقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإن بدؤوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا، ثم أروهم ذلك، وقولوا لهم هل إلى خير من هذا السبيل، فلأن يهدى الله على يديك رجلا واحداً، خير مما طلعت عليه الشمس وغربت (١).

وهكذا نرى أن المقصود واضح، وهو أن يؤخذوا برفق ليسهلوا موضع وصول الدعوة إلى الناس، وكان المسلمون يستمسكون بهذا أشد الإستمساك، ويفعلون ذلك عن بصيرة وعدالة. ويروى أن قتيبة بن مسلم دخل جزءاً من سمرقند من غير أن يخيرهم، فجاء أهل سمرقند إلى الحاكم العادل عمر بن عبدالعزيز يشكون إليه أن قتيبة دخل أرضهم من غير أن يخيرهم. فأرسل عمر بن عبدالعزيز إلى القاضي بشكواهم، وأمر أن يجلس ليستمع إليهم فإن ثبت ماقالوا أمر جيش قتيبة أن يخرج من أرضهم، ويعود إلى معسكره، ثم يخيرهم، فحقق القاضي

---

[١] راجع أبحاث علماء المسلمين (المؤتمر الرابع) خاص بالجهاد ص ٩٦ بحث الشيخ محمد أبو زهرة.

الأمر ، وتبين له صحة شكواهم ، فأمر الجند أن يعودوا إلى ثكناتهم، ويُخيرهم ذلك التخيير ، فدخلوا فى العهد آمنين مطمئنين(١) .

موقف الرسول من الجهاد :

شغلت الآيات القرآنية فى موضوع الجهاد من حيث كثرتها وعددها حيزاً كبيراً يكاد يبلغ نصف القرآن المدنى ، وفى هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية فى العهد المدنى أو أهمها(٢) .

فقد كان النبى محوطاً بالأعداء من كل جانب . اليهود فى قلب المدينة وحواليها ولهم حصونهم وقراهم ومزارعهم وأموالهم الكثيرة ، ولهم مركزهم القوى المتغلغل فى حياة العرب ، ومكة بقيادة زعمائها الأقوياء وما كان بينه وبينهم من عداء شديد ، والقبائل العربية الأخرى ، تنظر إلى هؤلاء وأولئك فترى أن النبى ﷺ مايزال ضعيفاً ومنعزلا مع مسلمى الأوس والخزرج ومهاجرى مكة القليلين . فكان منهم من يقف موقف المتربص،ومنهم من يقف موقف المناوىء ومنهم من يجرؤ على الغدر والخيانة ليتقرب بعمله هذا إلى مشركى مكة ، أو يهود المدينة . وهـــذا كله يحتاج إلى الحرب والدفاع والتنكيل وإرسال البعوث والسرايا والغزوات حسب ظروفه . وبصورة دائمة ومستمرة ، ويكفى أن نعلم أن عدد الغزوات والسرايا والبعوث قد بلغ ٦٥ خمس وستون ، قاد النبى ﷺ منها بنفسه ٢٧ سبعاً وعشرين(٣) .

وكان هذا كله فى حوالى تسع سنوات ، ومن هنا كانت الحكمة من شغل الجهاد لذلك الحيز الكبير من القرآن . وآيات الجهاد فى القرآن على نوعين :نوع

---

[١] المرجع السابق ص ٩٦ — ٩٧

[٢] راجع سيرة الرسول . محمد عزة دروزة ج ٢ ص ٢٢٠

[٣] راجع عدد الغزوات والسرايا والبعوث : ابن هشام ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ القسم الثانى .

تضمن الدعوة إليه بالنفس والمال ، والحث عليه . والترغيب فيه ، وتضمنت بعض سوره لمواقف من الدعوة إلى الجهاد ، ونوع آخر أشير فيه إلى وقائع جهاد الرسول البارزة ، وما كان فيها ، ولم تكن سرداً للوقائع وسيرها ونتائجها وإنما كانت بمثابة تعقيبات عليها ، قصد بها التشريع ، أو التنبيه ، أو التنويه ، أو التنديد ، أو الطمأنة ، أو التسكين ، أو غير ذلك مما اقتضته ظروف كل واقعة وسيرها . بل إن هذه النواحي هي البارزة فيها أكثر من مشاهد الوقائع وسيرها ، وهذا مايفسر عدم ذكر وقائع حربية مهمة في حياة الرسول . ذكرتها روايات السيرة . مثل غزوات مؤته واليمن وفتح الطائف . ويفسر لنا أيضاً اكتفاء القرآن بإشارات خاطفة إلى وقائع مهمة كفتح خيبر ومكة وماتم في أثناء غزوة تبوك من شئون(١) .

وقد كانت وقائع الجهاد كلها في حياة الرسول ، تسير ضمن المبادىء القرآنية وكل سرية أو غزوة وقعت في زمن النبي ﷺ إنما كانت رداً على عدوان . وانتقاماً منه أو دفعاً لأذى أو تنكيلا بناكث أو غادر . أو تأديباً لبغاة الأشرار أو ثأراً لدم إسلامى أهدر . أو طمأنة لحرية الدعوة والاستجابة المهددتين . أو المعطلتين بغيا وعدوانا . ولا يمكن أن يكون قد وقع من النبي ﷺ نقض للمبادىء التي قررها القرآن وبلغها النبي ﷺ(٢) .

بل إن المشركين الذين كانوا يدخلون في عهد النبي ﷺ شددت الآيات بالوفاء لهم . ماداموا محافظين على عهدهم غير غادرين به . كما أنه كان هناك مشركون يلتزمون الحياد والمسالمة . في حرب بين قومهم ، فنبه القرآن إلى أنه لاسبيل عليهم بقوله تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)(٣) .

---

[١] سيرة الرسول : لدروزه بتصرف ص ٢٢٠ ج ٢

[٢] راجع كتب السيرة والسنة

[٣] سورة الممتحنة : ٨

وقوله : (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)(١) ولم يرد فى الروايات خبر وثيق بأن النبى ﷺ رفض طلب صلح أو عهد أمان من أعداء محاربين ، كما أنه لم يرد خبر بأنه قاتل أناساً مسالمين وحياديين دون سبب مبرر بدأ منهم ، مما هو متسق مع المبادىء والقيم التى لاشك فى أنه أشد المسلمين وأسبقهم تمسكا والتزاما بها(٢) .

ومن درس غزواته ﷺ وسراياه ، وجدها إما حربا لعدو لم يدع أذى وصلت اليه يده الا فعله كغزوة بدر ، أو دفاعا عن عدو مهاجم كغزوة أحد . وغزوة حنين . أو مبادرة لعدو تحفز للشر كغزوة بنى قريظة وغزوة المريسيع وغزوة دومة الجندل . وغزوة ذات السلاسل . أو كسراً لشوكة عدو نقض العهد وعرف بمحاربة الدعوة واتخذ كل وسيلة للانتقام من القائمين بها والقضاء عليها كفتح مكة(٣) .

ولست هنا فى معرض الحديث عن المراحل المتعددة فى تشريع الجهاد . والتى بدأت بالجهاد السلمى قبل الهجرة . وانتهت بالأمر بالحرب العامة ضد كل المشركين . أيا كان نوعهم وجنسهم . ومكانهم وزمانهم . حيث صدر الأمر الإلهى (قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين)(٤)

---

[١] سورة النساء آية ٩٠

[٢] راجع سيرة الرسول . لدروزه جـ ٢ ص ٢٢٦

[٣] راجع كتاب رسائل الاصلاح . للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين . جـ ٣ ص ١٢

[٤] سورة التوبة آية ٣٦

ولست هنا فى معرض الحديث عن مراحل الجهاد(١) ولكنى أريد أن أن أوضح فقط أن مراحل الجهاد لاتخرج عن مبدأ الدفاع الذى تؤكده وقائعه المذكورة فى كتب السيرة أو القرآن الكريم.

ولم يكن الرسول ﷺ يتعرض فى قتاله لغير قريش ، ولم يكن بينه وبين غيره من مشركى العرب خلاف أو عداء يؤدى إلى الدخول معهم فى حرب ولهذا نرى أن الدستور أو الصحيفة التى كتبها الرسول ﷺ وألزم أهل المدينة بها ، بما فيهم اليهود كانت تبيح للمسلمين واليهود أيضاً أن يجيروا من يشاءون إلا القرشيين فقط . وذلك لما بينهم وبين الرسول من عداء ، فكانت حالة الحرب تعتبر قائمة بين الدولة الإسلامية فى المدينة ، وبين دولة مكة (القرشيين) فهم قد اعتدوا والمسلمون ظلموا .

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا)(٢) وأمروا برد العدوان القائم فعلا (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا)(٣) .

وكان هذا هو السبب فى أن الرسول لم يفكر إطلاقاً فى قتال أى قبيلة من قبائل العرب غير أهل مكة لما اعتدوا أو فكروا فى العدوان ، إلا ماكان من صد لاعتداء أو منع لعدوان ، كما حدث حين أغار كرز بن جابر الفهرى على المدينة . واستاق بعضاً من إبلها أثناء غياب الرسول خارج المدينة(٤) ، وكما حدث من تجمع بنى ثعلبة ومحارب من غطفان يريدون الغارة على المدينة مما

---

[١] راجع كتابنا (الدعوة الإسلامية بين التنظيم الحكومى والتشريع الدينى الجزء الأول ص ٢١٩

[٢] سورة الحج : ٣٩

[٣] سورة البقرة . ١٩٠

[٤] راجع سيرة ابن هشام ص ٦٢ القسم الأول

اضطر الرسول ﷺ إلى الخروج إليهم فى أربعمائة وخمسين من أصحابه بعد أن خلف على المدينة عثمان بن عفان .

وحين اتحد مشركوا العرب مع أهل مكة ضد المسلمين ، كان الأمر الإلهى بقتال المشركين كافة ، وصار الجهاد عاما ضد من ليس له كتاب من العرب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)[1] وعندئذ قال الرسول (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)[2] ، ولهذا كان هناك شبه إجماع على أن الرسول قصد بلفظ الناس هنا ، ليس عموم الناس وإنما مشركى العرب خاصة .

وليس من شك فى أن حروب الرسول ﷺ قد أفادت كثيرا من حاربوه إذ أسلم بعضهم الرسول بعد أن رأوا حماس المسلمين وإخلاصهم الدين وتأكدوا من صحة هذا الدين حين رأوا سماحته ورفقه بالمحاربين ، فضلا عن أن وقوع هذه الحروب قد حمل ذكر الإسلام إلى الآفاق البعيدة فكان خير دعاية له ، كذلك يمكن أن نعتبر طرد اليهود من المدينة وانتشارهم فى بلاد العرب والشام دعاية صامتة للإسلام رفعت من ذكره فى تلك الآفاق التى شاءت قدرة الله أن تخفق عليها راية الإسلام بعد سنوات .

أيها الأخوة ، الجماعة الإسلامية جماعة مستقلة لها كيانها واستقلالها ولها هدفها وغايتها ومنهجها فى الحياة ، وهى مترابطة بترابط أفرادها بعضهم ببعض حتى تحرص على هذا الاستقلال — ولابد أن تكون عندها القوة والقدرة على رد العدوان عليها ، وعدم التهاون فى ذلك ، ولهذا طلب الإسلام من الجماعة الإسلامية أن تكون على حذر واستعداد مادى وروحى معاً لمقاومة من يحتك بها قاصداً إضعافها وإذهاب استقلالها ، ولكن هذه التعبئة المادية والروحية ،

---

(١) سورة التوبة ، ٣٦

(٢) الحديث بطوله ، متفق عليه بين البخارى ومسلم وابن ماجه . وهو صحيح (الجامع الصغير) ج ١ ص ١١٠

إنما يطلبها الاسلام من المؤمنين به . ليضعها دائمـــا فى خدمة السلام لا للغزو والاعتداء . فيقول القرآن الكريم (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)(١)

والجماعة الاسلامية ، المفروض فيها أن تكون لها غاية وشخصية مستقلة ، حينذاك لاتسعى إلى تأمين استقلالها فقط . وإنما الواجب عليها كذلك أن تؤمن فكرتها . ورعايتها فى الحياة ، بل يجب عليها ألا تهادن الكفر أينما وجد فهو مصدر عدائها . والكفر يتمثل فى الشرك .كما يتمثل فى الالحاد . ومن هنا كان دفع هذا الخطر فرضاً لازماً لقيام الجماعة الاسلامية . فى أطوار حياتها . وفى كل أجيالها . وعليها أن تكون متهيئة بصفة مستمرة للقدرة على دفعه . وفى ذلك يقول القرآن الكريم (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)(٢) .

لكن كيف نحارب : ؟

هنا يجدر بنا أن نقف أمام الإعجاز الالهى . الذى رسم لنا عوامل الانتصار وعناصره . وعلمنا كيف نخطط للمعارك التى نضطر إليها . فالحرب ليست مجرد لقاء بين قوتين عسكريتين . تنتصر إحداهما على الأخرى . وتعتمد كل منهما على الحظ فقط ، أو القوة فقط . سواء تمثلت هـذه القوة فى كثرة الجند أو فى نوع السلاح أو غير ذلك ، وإنما الحرب قبل أن تكون أفراداً وسلاحا ، إنما هى تخطيط وتنظيم ، ولا بد لمن يريد الانتصار ، من توفر عدة عناصر حتى يتم النصر .

---

(١) سورة الأنفال : ٦

(٢) سورة البقرة : ٢١٦

ولقد تحدث القرآن الكريم بتفصيل وإسهاب فى هذه العناصر ، وركز عليها حتى لايتكاسل المسلمون ويتواكلوا ، ظنا منهم أن الايمان هو كل مايطالب به المسلم لتحقيق النصر — ولكن القرآن الكريم أراد أن يبعد هذا الفهم الخاطىء عن أذهان الناس وأفكارهم ، ويفهمهم أنه لابد من الأخذ بالأسباب ، بالإعداد والاستعداد المادى ، مع الاعداد والاستعداد الروحى : فطالب القرآن الكريم المسلمين أول ماطالبهم بإعداد القوة المادية أولا ، فقال : (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) والأمر هنا للوجوب — أى لابد من إعداد كل ما استطعتم إعداده من القوة حتى ولو كانت (قنابل ذرية) والقوة كلمة تتسع لكل ماعرف ويعرف من آلات الحرب — برية ، وبحرية ، وجوية ، والرباط كلمة تتسع أيضاً لكل ماعرف ويعرف من تحصين الثغور ومداخل البلاد ، وقوى الأمن الظاهرة والمتخفية ، ثم إن الآية تعلن أن فائدة هذا الاعداد العام الشامل ، ليس للنصر فى المواقع الحربية فقط ، وإنما هى قبل ذلك وسيلة قوية لإقرار الحق ، ومنع العدو من التفكير فى الاعتداء عليه (ترهبون به عدو الله وعدوكم)[1] ومن هنا كانت القوة المادية عاملا من عوامل السلم ، تحفظ الحقوق وتقيها من الاعتداء عليها ، وتنشر على العالم ظلال الأمن والاستقرار .

وليست القوة المادية التى يطلبها القرآن ، هى فى كثرة العدد والآلات فقط ، ولكن القرآن يرشد أيضاً فى دائرة القوة المادية ، أن تكون الأمة كلها جنوداً مدربين على السلاح ، مدافعين عن وطنهم وعقيدتهم — ولايستثنى القرآن فى ذلك أرباب الأعذار ، التى تحول بينهم وبين القيام بهذا الواجب ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله)[2] وكما أرشد القرآن

(١) سورة الأنفال : ٦٠ (٢) سورة التوبة : ١٢١

الكريم إلى القوة المادية فى عدتها وعددها ، وخطط لنا من أجل النصر ، أرشدنا إلى أشياء أخرى لابد من الالتزام بها ، حتى يتحقق النصر المطلوب ، فليس المطلوب فقط إعداد الأفراد وكثرتهم ، أو أن يعطوا السلاح ونكتفى بذلك ، حتى ولو كان هذا السلاح من أحدث ماعرف من آلات الحرب — وإنما لابد من التنظيم الحربى الذى يجب على المحاربين وحملة السلاح اتباعه ومراعاته ، والتمسك به إذا نشبت المعركة والتقى الجمعان ، وإلا فربما كانت الكثرة والسلاح فى أيديهم لكن بدون تخطيط أو تنظيم حربى ، سبباً من أسباب هلاكهم ، أو هلاك الكثيرين منهم ، فقد يتسبب سوء التخطيط والتنظيم فى أثناء المعركة عند تحرك القوات من موقع لآخر ، فى فقد عدد كبير من الجنود بسبب الكثرة مع سوء التخطيط ، حيث تتداخل بعض القوات مع بعضها ، فتثقل حركتها ، ويسهل على العدو حصارها ، وتصبح لقمة سائغة لطائراته أو مدفعيته ودباباته .

ومن هذا التنظيم الحربى الذى أمرنا الله تبارك وتعالى به ، وعلمنا إياه المصطفى ﷺ وأوصى به فى الأعمال التمهيدية للغزو : توزيع وحدات الجيش على مواضع الدفاع وفى ذلك يقول القرآن الكريم — والدستور العظيم (وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال)(١) أى تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة ، حيث أمرتهم ووضعتهم، فلا يتصرفون إلا بأمر ، ولا يتحركون إلا بأمر .

كذلك فقد تحدث القرآن الكريم عن عنصر آخر من العناصر الهامة للانتصار هذا العنصر هو : السمع والطاعة للقيادة وفى ذلك يقول القرآن :(وأطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)(٢) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٢١
(٢) سورة الأنفال : ٤٦

وحتى ينتصر الجيش أى جيش ، لابد أن يكون ملتزما ، بل مؤمنا كل الإيمان بهذا العنصر الهام (إطاعة الاوامر) فالقائد يعرف من الأمر أكثر مما يعرف الجندى ، وهو ينظر إلى الأمور بحذر وحيطة أكثر من غيره ، لذلك كان من الضرورى إطاعة الأمر ، وإلا فسيؤدى عدم الطاعة إلى التنازع ، ثم الفشل فى النهاية ، وضياع القوة مهما كانت هذه القوة ، ولذلك نجد القرآن الكريم يطمئن الجند ، ويطلب منهم عدم التسرع فى تعجيل النصر أو استعجاله ، فربما لم يكن الوقت قد حان بعد ، ويجد القائد مثلا أن المصلحة فى التأخير لاستعداد أو غيره ، كذلك يطلب منهم أن ينفذوا أمر القائد ، إن طلب منهم التحرك لتنفيذ خطة من الخطط ، وليس من الضرورى أو يعرف الجنود كل تفصيلاتها وخطوطها وإنما عليهم تنفيذ الأمر فقط والصبر عليه ، اللهم إلا إذا كان جندى يرى رأيا خاصا يشير به على قائده ، ولقائده مع ذلك أن يأخذ به إن وجد فيه فائدة لقواته أو لايأخذ به وعند ذلك لابد أيضاً من تنفيذ الأمر ، على الأقل حتى تتحدد المسئوليات .

لذلك نرى القرآن الكريم بعد طلب إطاعة الأمر وتخويف المسلمين من الفشل ، وذهاب قوتهم عند تنازعهم يقول بعد ذلك مباشرة (واصبروا إن الله مع الصابرين) .

ثم بعدها يذكرهم بأن سبب فشلهم فى غزوة أحد كان يرجع إلى المخالفة والتنازع وعدم إطاعة أمر الرسول ﷺ وهو قائد الجيش والمسئول عن جميع خطط الحرب ، حيث نظم الصفوف ، ووضع كل جندى فى مكانه ، وجعل ظهر الجيش إلى أُحد ، ثم قال ﷺ (لايقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال) ثم وضع الرماة وكانوا خمسين رجلا وعلى رأسهم عبدالله بن جبير فى مكان يمكنهم فيه حماية ظهور المسلمين ، ومنع المشركين من اختراق صفوفهم ، وقال لرئيس

---

(١) سورة الأنفال : ٤٦

الرماة (وهم كالمدفعية الثقيلة عندنا الآن تحمى ظهور المشاة) (انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا) وقال لهم أيضاً (إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك)(١) .

لكن الرماة بعد أن رأوا جيش المشركين قد تقهقر ، وولى أكثره الأدبار، نسوا الأمر فتركوا أماكنهم ، ونزلوا يجمعون مع إخوانهم الغنائم التى تركتها قريش ففتحوا بذلك ثغرة فى صفوفهم للعدو ، وأمكن منها إحاطة المسلمين ، وإتيانهم من الخلف ، والانتصار عليهم ، مع أن الأمر كان من القائد الرسول ﷺ واضحاً وصريحاً (الزموا أماكنكم . ان كانت النوبة لنا أو علينا حتى ولو رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم) فكانت مخالفتهم الأمر وعدم صبرهم أو تبصرهم للأمور سبباً من أسباب هزيمتهم ، لهذا ذكرهم القرآن بذلك وأفهمهم أسباب هزيمتهم وفشلهم فى أُحد فقال (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم)(٢) .

ولما طلب الله من المسلمين إعداد أنفسهم ، والاستعداد دائماً بكل ما يمكنهم من قوة ، وطلب منهم أن ينظموا أنفسهم تنظيماً حربياً سليماً ، حتى لا تكون هذه الكثرة وبالا عليهم ، وفرصة سانحة للعدو لقتل أكبر عدد منهم . وطلب منهم أن يوزعوا وحدات الجيش على مواضع الدفاع ، وأن يراعى فى ذلك المكان المناسب ، والوقت المناسب ، وأمرهم بالسمع والطاعة لولى الأمر، وهو

---

(١) راجع سيرة النبى لابن هشام تحقيق المرحوم الشيخ محمد محى الدين عبدالحميد ج ٣ ص ١٠ : توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض — السعودية .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٢

فى المعركة القائد المسئول عن إدارة المعركة ، وطالبهم بالصبر حتى يأتى النصر ، وذكرهم بأن هزيمة المسلمين فى أحد كانت بسبب تنازعهم فى الأمر وعدم إطاعتهم الأوامر .

وقد طالب القرآن منهم شيئاً آخر لابد منه ، وهو الثبات فى الموقف ، والجلد والمصابرة ، وأفهمهم أن من لم يثبت فى القتال ، ويحاول الهرب والفرار، فإنه مع هزيمته فى الدنيا ، يبوء بغضب من الله، ويكون مصيره إلى جهنم وبئس المصير .

لكن القرآن الكريم استثنى من ذلك من رجع لينحاز إلى فئة أخرى يتقوى بها ، أو رجع ليعود مرة أخرى بتكتيك جديد يمكنه من الفوز على عدوه ، والانتصار عليه ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)(١) .

ثم يعلمهم القرآن الكريم كيفية الحرب وبمن يبدؤون ، هل يحاربون معتمدين على القوة فقط ، وإطاعة الأمر والثبات دون تصرف أو حكمة ؟ وماذا يصنعون لو تعدد الأعداء ؟ أيحاربونهم فى وقت واحد ، أم يحاربونهم واحداً واحداً ؟ وبمن يبدؤون ؟

والقرآن يعلمهم ترتيب الهجوم عند تعدد الأعداء ، على أن يؤخذ الأقرب فالأقرب ، حتى لا يتعرض الجيش لحركات التفافية من الأعداء ، وفى هذا يقول القرآن : (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين)(٢) .

---

(١) سورة الأنفال : ١٥

(٢) سورة التوبة : ١٢٣

ومن عناصر الانتصار أيضاً أخذ الحذر دائماً ، حتى لانؤخذ على غرة ، فنكون دائما على استعداد جاعلين لكل شيء عدته ، والمسلم لابد وأن يكون كيّساً فطناً ، فإذا كان الله يأمرنا بالاستعداد الحربى ، فإنه يطالبنا فى نفس الوقت باتخاذ الحذر من الأعداء . بما تقضى به مستحدثات الزمن . من أنواع القوة والسلاح . فهو حين يقول (ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً)(١) .

إنما يطالبنا بالتنبه دائماً لمتطلبات العصر . من تسليح وتنظيم حربى . فلا يصح إطلاقا أن نستعد بسلاح لا يصد عدوا . ولا يمنع غازيا . ونقول إننا نفذنا أمر الله بالاستعداد . فإن الله حين يقول لنا (خذوا حذركم) فإنه ينبهنا إلى مواقع الخطر وأماكنها . ومحاولة أخذ الحذر منها . فنستعد بسلاح جديد قوى يمكن أن نقهر به الأعداء . ويطالبنا بتنظيم دفاعنا ودفاعاتنا . تنظيما يمكننا أيضاً من صد هجوم مفاجىء . عند ذلك نكون قد امتثلنا لأمر الله . ونفذنا ماأمرنا به وعلمنا إياه .

وليست الآية مقصورة على أخذ الحيطة فقط . والحذر من العدو وانتظاره دائما وأبدا . حتى يبدأ هو فنرد عليه وندافع عن أنفسنا . وربما بعد فوات الأوان وإنما يعلمنا القرآن أن هذا ليس هو كل المطلوب . وإنما المطلوب منا أن نكون على علم بحال عدونا فى عدده . وعُدده . ومسالكه . وخططه . وتنظيماته . وأن نكون على علم بوسائل المقاومة المعروفة المستعملة . لذلك أمرت الآية بعد أخذ الحذر مباشرة بالنفير . وهو الخروج لمقابلة الأعداء . على حسب ماتقضى به الأحوال . ببعض الجيش أو كله (فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً)(٢) فلا نظل دائما فى موقف الدفاع ، وإنما يمكننا أن ننفر ببعض الجيش أو كله .

---

(١) سورة النساء . ٧١
(٢) سورة النساء ٧١

ونتنقل إن لزم الأمر من مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم . اذا كان هناك استعداد لذلك .

ثم طمأنت الآيات التالية لهذه الآية المسلمين. وطالبتهم بالقتال والاستبسال فى سبيل الله فإما نصر . وإما شهادة . فقالت (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما) .[1]

ثم رغبت الآيات فى القتال . واستثارت نحوه النفوس . بإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان . وقررت أن الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله . لإقامة العدل فى الارض . وأن الذين كفروا يقاتلون فى سبيل اقرار الظلم . والطاغوت (ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها)[2] .

وبعد أليست هذه أيها السادة دروس رائعة فى الجهاد فى الإعداد للحرب، فى مادته وتنظيمه يجدها المسلمون فى القرآن الكريم فيزداد إيمانهم به ويتأكدون من أنه صالح فعلا لكل زمان ومكان . وأنه لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد؟

وهل رأيتم كيف أن الفرق كبير بين جهاد المسلمين وحروب غيرهم ؟

لجهاد المسلمين . ليس طمعاً فى الدنيا ، وانما طاعة لله ورسوله — وأما حروب غيرهم فهو استئثار للدنيا وطمع فيها وعدوان على دين الله ورسوله .

(١) سورة النساء : ٧٤

(٢) سورة النساء : ٧٥

المحاضرة الثانية :

الجزية وموقف الإسلام من أهل الذمة

أوجب الإسلام الجزية على غير المسلمين ممن يخضعون لحكم المسلمين - وقد انتقد المستشرقون وأعداء الاسلام فرض الإسلام للجزية . وحاولوا تصويره فى صورة غير صورته الحقيقية ، فذكروا أن الجزية كانت نوعا من الضغط الاقتصادى على غير المسلمين ، حتى يقبلوا الإسلام ويؤمنوا بدعوته ، لأن غير المسلم (كما يقولون) إما أن يسلم ، وإما أن يدفع الجزية ، وإما أن يتعرض للقتال والحرب . ومعناه فرض الإسلام ونشره عن طريق الضغط والإكراه .

وقبل أن نرد على هذه الشبهة ، نود أن نتحدث أولا عن الجزية ولم شرعت وممن تؤخذ ؟

شرعت الجزية فى السنة الثامنة من الهجرة بعد نزول سورة التوبة ، وأخذها النبى ﷺ من المجوس ، ومن أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) ولم يأخذها من عباد الأصنام ولهذا كان رأى الامام الشافعى ، والامام أحمد فى إحدى روايتيه . أنها لا تؤخذ إلا من هذه الطوائف الثلاثة . أما الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد فى روايته الاخرى فقد أجازا أخذها من أهل الكتاب ، وغيرهم من الكفار عبدة الأصنام وغيرهم من العجم دون العرب - وهما يقولان : إن رسول الله ﷺ لم يأخذها من مشركى العرب ، لأنها فرضت بعد أن أسلمت ديار العرب جميعها ، ولم يبق فيها مشرك ، حيث نزلت بعد فتح مكة ودخول العرب فى دين الله أفواجا[1] .

ومن هنا نستطيع أن نعرف السبب فى أخذ رسول الله ﷺ الجزية من المجوس وهم ليسوا بأصحاب كتاب ، وليس لنا أن نقتنع بدون دليل بأنه كان لهم

---

[1] راجع زاد المعاد ص ٨٠ ج ٢ .

كتاب ورُفع ، وابن قيم الجوزية ينكر الحديث الذى استدل به البعض على أن المجوس كان لهم كتاب ورفع ، وهو يقول[١] : (بأنه لا يثبت مثله ولا يصح سنده) ثم يقول[٢] (بأنه لا فرق بين عباد النار وعباد الأصنام ، بل أهل الأوثان أقرب حالا من عباد النار ، وكان فيهم من التمسك بدين إبراهيم ما لم يكن فى عُباد النار ، بل عباد النار أعداء إبراهيم الخليل . فإذا أخذت منهم الجزية فأخذها عن عباد الأصنام أولى) .

والحقيقة أن وجهة نظر الامام ابن القيم معقولة ، وهى أقرب إلى العقل ممن يرى أن الجزية لا تؤخذ عن عُباد الأصنام — ويؤيد رأى ابن القيم الذى أميل إليه ، ما ثبت فى صحيح مسلم من قول رسول الله ﷺ إلى أحد قادة جيشه : (أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا — أغزوا باسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله . لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث . فأيتهن ما أجابوك إليها فأقبل منهم واكفف عنهم — أدعهم إلى الدخول فى الإسلام فإن فعلوا فأقبل منهم وأكفف عنهم — ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، وإن دخلوا فى الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ويجرى عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم فى الفىء ولا فى الغنيمة شىء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية . فإن فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم)[٣] .

ولعلنا نلاحظ هنا تعبير الرسول ﷺ بلفظ (المشركين) حين يقول : (إذا لقيت عدوك من المشركين) فتعبيره بالمشركين ، دون أهل الكتاب

[١ ، ٢] المرجع السابق .

[٣] صحيح مسلم بشرح النووى ص ١٢ ، ص ٢٣٧ ، ص ٣٨ إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤٥ ، ص ٣٤٦ .

دليل على قبول الجزية من أهـــل الـكتاب ومن غيرهم ، ولو كانوا عبدة أصنـــام .

ثم ما الفرق بين أهل الـكتاب وقـد حرفوا دينهم وأشركوا مع الله إلهاً آخر وبين عباد الأصنام ؟ ناهيك عن عباد النار الذين هم أبعد حالا من عباد الأوثان كما يقول ابن القيم .

ومن هنا فإنى أرى أن الجزية التى فرضها الاسلام ، يمكن أخذها من أهل الـكتاب وغيرهم ، سواء كانوا مجوسا أم عبدة أصنام . بشرط ألا يكونوا من العرب ، كما رأى الامام أبو حنيفة والامام أحمد فى روايته الثانية .

وقـد ثبت أن رسول الله ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فعقد لمن لم يسلم من يهودها الذمة ، وضرب عليهم الجزية ، كذلك عقد الرسول الجزية مع نصارى نجران ومع أكيدر دومة فى أثناء عودته من تبوك[1] .

ولعل سائلا يسأل . لم لم يأخذ الرسول الجزية من يهود خيبر ؟

نقول لقد ظن بعض الناس أن أهل خيبر كان لهم حكم خاص بهم ، وبناء عليه لم تؤخذ منهم الجزية ، مع أخذها من سائر أهل الـكتاب .

ولـكن الحقيقة أن الرسول ﷺ نزلت عليه آية الجزية بعد إتفاقه مع أهل خيبر وعقد الصلح معهم ، وإقرارهم على أن يكونوا عمالا فى الأرض بالمناصفة ولم يشأ الرسول ﷺ ، أن يلغى هذا العقد وهذا الصلح . لأنه لم يكن من طبيعته نقض العهود طالما التزم طرفها الآخر بشروط العهد .

والمعروف أن آية الجزية نزلت بعد اتفاق الرسول مع أهـــل خيبر بحوالى عامين . فآية الجزية نزلت فى السنة الثامنة من الهجرة ــ أما يهود

---

[١] راجع زاد المعاد ص ٧٩ ، ص ٨٠ ج ٢ .

خيبر فمعروف أن الاتفاق معهم كان بعد الحديبية مباشرة فى أواخر السنة السادسة من الهجرة . (١)

ولو كان بين الرسول ﷺ وبين أحد عقد أو عهد ، كما كان بينه وبين أهل خيبر لاكتفى به .

ولهذا نجد الرسول ﷺ ، يعقد جزية مع نصارى نجران ويهود اليمن وغيرهم ونرى عمر رضى الله عنه يعامل يهود خيبر معاملة غيرهم ، حين يجليهم إلى الشام ، ويتغير بهذا العقد الذى تضمن إقرارهم فى أرض خيبر . (٢)

مقدار الجزية :

لم تكن الجزية مقدرة ولا ثابتة ولا معينة بنوع معين . فقد أخذها النبى ﷺ مالا وأخذها ملابس — ومعناه أنها تجوز أن تؤخذ نقداً أو عيناً — وقد اتفق الرسول مع أهل نجران على ألفى حلة (٣) النصف فى صفر والباقية فى رجب . يؤدونها إلى المسلمين وعارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها ، والمسلمون ضامنون بها حتى يردوها عليهم ، إن كان باليمن كيد أو معرة ، على ألا يهدم لهم بيعة ولا يُخرج قس ولا يُفتنوا عن دينهم ، مالم يحدثوا حدثاً أو يأكلوا الربا (٣) — كذلك فان الرسول ﷺ أمر معاذاً واليه على اليمن أن يأخذ من كل محتلم ديناراً أو قيمته من المعافر وهى ثياب موجودة باليمن .

---

[١] راجع زاد الميعاد ص ٨٠ ج ٣

[٢] المرجع السابق ص ٧٩

[٣] الحلة وزن من أوزان النقود كان مستعملا فى نجران (هامش التمدن الإسلامى / جورجى زيدان ص ٢٢٨) وقيل نوع من الملابس لأنه فرض عليهم أيضاً مع كل حلة أوقية من الفضة أبو يوسف ص ٧٢

[٥] زاد المعاد ص ٨٠ ج ٢

وقد صالح النبي ﷺ أهل أذرح على مائة دينار كل رجب(١).

وتحديد الرسول ﷺ لمعاذ بأن يأخذ الجزية من كل محتلم ، دليل على أنها لا تؤخذ من الصبي أو المرأة ، وإن كان عبدالرزاق في مصنفه وأبو عبيد في الأموال قد رويا أن النبي ﷺ ، أمر معاذ بن جبل أن يأخذ من الذكور والإناث والعبيد والإماء ، فإن الإمام ابن القيم يعترض على هذه الرواية ويرى أن هذا الحديث منقطع لا يصح وصله ثم يقول(٢) ، (والزيادة التي زادها عبدالرزاق وأبو عبيد مختلف فيها ولم يذكرها سائر الرواة ولعلها من تفسير بعضهم — وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم هذا الحديث فاقتصروا على قوله : (أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً) ولم يذكروا هذه الزيادة ، وقد ذكر أبو يوسف في كتابه (الخراج)(٣) أن الرسول ﷺ لم يأخذ أكثر من دينار واحد عن كل فرد في العام ، وأعفى من ذلك النساء والأطفال والرقيق والعميان والسفراء والرهبان الذين لا يخالطون الناس .

كذلك كان من شروط الصلح بين خالد بن الوليد وأهل الحيرة ، إعفاء الضعفاء الذين لا يستطيعون العمل أو المصابين بآفة من الآفات ، أو من كان غنياً ثم صار فقيراً ، يتصدق عليه ، وقد شرط لهم خالد ، أن هؤلاء يعفون من الجزية ، ويعالجون من بيت مال المسلمين . هم وعيالهم ما أقاموا بدار الهجرة أو دار الإسلام(٤).

وقد ظلت الجزية في أيام أبي بكر كما كانت في زمن الرسول ﷺ بلا تحديد حتى جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأخذ في اعتباره ما كان سائداً من

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ص ٢٢٨
(٢) راجع زاد المعاد ص ٨١ ج ٢
(٣) ص ١٢٢ - ١٢٣ (٤) راجع الخراج ص ١٤٤

العادات والتقاليد فى فارس وغيرها من البلاد الأخرى ، لحدد مقداراً ثابتاً لهذه الضريبة — فصارت أربعة دنانير عن كل رجل من الأغنياء وديناران عن كل فرد من أبناء الطبقة الوسطى ، وديناراً عن الفقراء الذين لايقوون على كسب عيشهم[١] .

وقد فرض عمرو بن العاص مبلغاً موحداً للجزية فى مصر كان عبارة عن دينارين عن كل رجل[٢] .

لكن لم هذه الجزية ؟

يقول جورجى زيدان والحقيقة أن الجزية ليست من محدثات الإسلام ، بل هى قديمة من أول عهد التمدن القديم ، وقد وضعها يونان أثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى ، حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين — وفينيقيا يومئذ من أعمال الفرس — فهان على سكان تلك السواحل دفع المال مقابل حماية الرءوس — والرومان وضعوا الجزية على الأمم التى أخضعوها وكانت أكبر كثيراً مما وضع العرب بعدئذ — فإن الرومان لما فتحوا غالية (فرنسا) وضعوا على كل واحد من أهلها جزية ، يختلف مقدارها مابين تسعة جنيهات وخمسة عشر جنيها فى السنة ، أى نحو سبعة أضعاف جزية المسلمين .

وحين فرض الإسلام الجزية على غير المسلمين ، لم يكن ذلك لأن الشعوب الأخرى قد فرضتها ، وإنما كانت هذه الجزية وهى مبلغ صغير كما رأينا ، وكما قال جورجى زيدان أقل من سُبع الجزية التى فرضها الرومان على أهل فرنسا حينما

---

(١) الإدارة العربية تأليف س . ا . ق حسينى — ترجمة ابراهيم العدوى سلسلة الألف كتاب نشر مكتبة الآداب بالجاميز ص ٨٨

(٢) المرجع السابق .

فتحوا بلادهم ، وإنما كانت هـذه الجزية عند المسلمين ، مقابل تمتع الذميين بحقوقهم ، وأمانهم على أنفسهم وأموالهم ، تماما كما أوجب على المسلمين الزكاة فى مقابل هذا التمتع وهـذا الأمان ، فالذميون ينتفعون بمرافق الدولة العامة كما ينتفع المسلمون ، وهم لاتجب عليهم الزكاة ، ولا أنواع الصدقات الواجبة على المسلمين — فكأن الجزية وجبت عليهم بدلا من الزكاة — ولهـذا فإنه إذا ماأسلم واحد منهم سقطت عنه الجزية على الفور ، ووجب عليه أن يؤدى الزكاة فى ماله إن كان ذا مال — فهى كسائر الموارد الإسلامية ، واجب فى نظير الحقوق — ولقد رد أبو عبيدة الجزية والخراج بعد أن صالح عليها أهل الشام - حين بلغه أن الروم قد جمعوا له ، واستعدوا لحربه وقتاله ، وكتب إلى ولاته الذين خلفهم فى المدن ، أن يردوا هذه الأموال إلى أصحابها — وكتب إليهم أن يقولوا لهم : (إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ماجمع لنا من الجموع ، وإنكم قد اشترطتم أن نمنعكم وإنا لانقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ماأخذنا منكم ، ونحن على الشرط وماكتبنا ، بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم) (١) .

فهذه ضريبة فرضت بل اتفق عليها بين الطرفين ، ونص صراحة فى فرضها على أنهـــا فى مقابل ماتبسطه الدولة على دافعيها من حماية حربية — وحين لايستطيع المسلمون الدفاع عن ذلك الإقليم ، فإنه ترد حصيلة ماجبى من هـــذا الاقليم — بل إن بعض العلماء يرى أنه إذا أسهم أحد من أهل الذمة فى أية حملة من حملات المسلمين وشارك معهم فيها — أو أدى أحدهم خدمة للجيش سقطت عنه الجزية . (٢)

وحين فتحت جزيرة قبرص فى عهد عثمان رضى الله عنه لم تجب الجزية من أهلها ، لأن الخليفة لم يكن قد استيقن بعد من قدرته على حمايتهم من الهجمات الأجنبية (٣)

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٣٩ - والسياسة الشرعية / عبد الوهاب خلاف ص ١٠٥ (٢) الإدارة العربية ص ٨٩ (٣) نفس المرجع السابق

وقيل فرض عليهم سبعة آلاف ومائتي دينار ، ويؤدونها كل عام صلحاً وليس أهلها أهل ذمة وإنما أهل فديه[1] .

ويقول سير توماس أرنولد[2] في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) : عند حديثه عن الغرض من فرض الجزية (ولم يكن الغرض من فرض الضريبة على المسيحين كما يريدنا بعض الباحثين على الظن ، لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام — فإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة ، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة ، الذين كانت تحول دياناتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش ، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين — ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه ، ذكروا صراحة أنها إنما دفعوا هذه الجزية ، على شريطة أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيره — وكذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله (فان منعناكم فلنا الجزية ، وإلا فلا) .

ويستدل أرنولد على اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط ، بما صنعه أبو عبيدة حين رد الأموال التي جمعها من بلاد الشام ، حين أحس بأنه لن يستطيع الدفاع عنها ، والتي ذكرناها قبل قليل ، ولذلك دعا المسيحيون من أهل الشام حين رد أبو عبيدة لهم أموالهم — دعوا بالبركة لرؤساء المسلمين فقالوا : (ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي الروم) فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً ، وأخذوا كل شيء بقي لنا) .

إذا فالجزية كانت في مقابل حماية هؤلاء المعاهدين ، الذين قال أرنولد عنهم بأن دياناتهم كانت تحول بينهم وبين الخدمة في الجيش — ولذلك فقد فرضت على القادمين من الذكور فقط ، مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا سيطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين .

---

(١) راجع فتوح البلدان ص ١٨١ - ١٨٦ .　(٢) ص ٧٩ .

ويقول أرنولد(١) : —

(إن أى جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت فى خدمة الجيش الإسلامى ، وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة ، وهى قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار إنطاكية سالمت المسلمين ، وتعهدت أن تكون عونا لهم . وأن تقاتل معهم فى مغازيهم ، فى ألا تؤخذ بالجزية) ... الخ .

ويقول أيضاً (٢) : —

(ولما اندفعت الفتوح الاسلامية إلى شمال فارس فى سنة ٢٢ هـ أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التى تقيم على هذه البلاد ، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية) .

ويقول أرنولد أيضاً(٣) : —

(ولما أعفى الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية ، على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام ، فرضت عليهم الجزيـــة فى نظير ذلك ، كما فرضت على المسيحين)(٤) .

ولقد أراد أرنولد بذكر هذه الوقائع أن يدلك على أن الجزية التى فرضها الإسلام على غير المسلمين ، لم تكن لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام ، وإنما كانت نظير حمايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية .

ويروى التاريخ ، أن عمر بن الخطاب حين طلب من بنى تغلب وهم نصارى أن يدفعوا الجزية أو الضريبة المفروضة على الرعايا من غير المسلمين ، شمروا

---

[١] الدعوة إلى الإسلام ص ٧٩ ، ٨٠ .
[٢] المرجع السابق ص ٨٠ .
[٣] المرجع السابق ص ٦٧ — ٦٨ .
[٤] هى فى الحقيقة ليست جزية وإنما هى ضريبة فرضتها الدولة عليهم نظير عدم مشاركتهم فى الجندية .

أن من الإذلال لكبريائهم ، والحط من كرامتهم ، أن يدفعوا ضريبة فرضت عليهم مقابل حمايتهم ، وحماية أموالهم ، فالتمسوا من الخليفة أن يسمح لهم بأن يعاملوا معاملة المسلمين فى دفع الضرائب . لذلك نراهم يؤدون فى مقابل الجزية صدقة مضاعفة ، وهى ضريبة كانت تجبى من المسلمين على أراضيهم وماشيتهم وما إلى ذلك ، لتنفق على الفقراء(١) .

موقف الإسلام من أهل الذمة :

كانت الجزية كما قلنا تؤخذ من الرجال فقط دون النساء والصبيان . وقد مر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل ، شيخ كبير ضرير البصر ، فضرب عضده من خلفه ، وقال من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال يهودى : قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال أسأل الجزية والحاجة والسن . قال : فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله ، فرضخ له شيء من المنزل(٢) : ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : أنظر هذا وضرباءه . فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه — وقد ذهب عمر بن الخطاب إلى الشام ، فمر بإحدى قرى دمشق على قوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت .

وقد أوصى الرسول ﷺ بالمعاهدين خيرا فقال (من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه)(٣) . كذلك فقد روى أن الرسول ﷺ ولى

---

[١] الدعوة إلى الإسلام أرنولد ص ٦٧ ، ٦٨ .

[٢] أرضخ له أى أعطاه شيئا ليس بالكثير والحادثة يرويها أبو يوسف (الخراج) ص ١٢٦ .

[٣] الخراج ص ١٢٥ .

عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذمة فلما ولى من عنده ناداه فقال (ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة)(١) .

وقد أوصى عمر بن الخطاب عند وفاته ، الخليفة من بعده على أهل الذمة ، وكان فيما قال :

(أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم)(٢) .

وفى رواية أخرى أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرا — أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم(٣).

وقلما حظى رعايا أجانب ، فى أية دولة من الدول الأخرى ، فى العصر القديم والحديث على السواء ، مثلما حظى أهل الذمة فى دار الإسلام ، ولقد أوجب الاسلام لهم من الحقوق ما أوجبه للمسلمين وأسقط عنهم واجب حمل السلاح ، مقابل هذه الضريبة التى يدفعونها — وجعل الدولة مسئولة مسئولية كاملة عن الدفاع عنهم وحماية أراضيهم وذراريهم ، ، جعل لهم الحرية الكاملة فى اعتناق الدين الذى يرغبون فيه ، دون ما تدخل أو اكراه لهم على اعتناق الإسلام . بل كان المسلمون يتركون لهم حرية التخلف عن دعوة القضاء ، إن صادفت هذه الدعوى يوما من أيام أعيادهم تمكينا لهم من أن يشعروا بوجودهم العقائدى(٤) .

---

[١] المرجع السابق .
[٢] الخراج أبو يوسف ص ١٢٥ .
[٣] المرجع السابق .
[٤] الاسلام نظام إنسانى د/ مصطفى الرافعى ص ١٨٤ .

وأباح لهم التمتع بما هو حلال عندهم ، وإن كان هـذا الحلال حراما عند المسلمين ، كالخمر والخنزير — ولم يفرض عليهم أدنى عقاب لذلك .

ولقد أُلزم الولاة المسلمون بأن يراعوا حق الجوار للذميين ، وأن يعاملوهم معاملة الأخ لأخيه وقد أوصى عمر واليه عمرو بن العاص بهم ، فقال : (إن معك أهل الذمة فى العهد فاحذر أن يكون رسول الله خصمك)(1) .

ولقد جاء فى عهد رسول الله ﷺ لأهل نجران وهم نصارى ، مايدل دلالة واضحة على اهتمامه بأهل الذمة ، ورعايتهم نصارانهم ، فقد جاء فى هـــذا العهد « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم — وغائبهم وشاهدهم وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير لا يُغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يوطأ أرضهم » .(2)

وقد عاملهم الصحابة معاملة الرسول ﷺ بلا تعصب ، وتركوا لهم حرية إقامة شعائرهم الدينية ، وكانوا يعودون فى أحوالهم الشخصية إلى رؤسائهم الدينيين ، على أن الولاة المسلمين استوجبوا من رجال الكنائس القريبة من المساجد ، أن يقتصدوا فى قرع النواقيس فى أوقات محددة وهى أوقات صلوات المسلمين .(3)

وقد ذكر (آدم متز) أن بعض الخلفاء كانوا يحضرون مواكب النصارى وأعيادهم ، ويأمرون بصيانتها ، وأن الحكومة فى حالة انحباس المطر كانت تأمرهم بتنظيم مواكب يسير فيها النصارى ، وعلى رأسهم الأساقف واليهود ومعهم النافخون فى الأبواق .(4)

---

(١) راجع الخراج ص ١٨٨ ومابعدها
(٢) زاد المعاد ص ٤٠ ج ٣
(٣) الإسلام نظام إنسانى (الرافعى) ص ١٨٧ ، ص ١٨٨
(٤) المرجع السابق .

ويكفي للتدليل على احترام الإسلام لأهـــل الكتاب ، أنه أباح لرجال المسلمين أن يتزوجوا من بنات أهل الكتاب ولوظلت على دينها ، مع أنه حرم عليهم ذلك بالنسبة للمشركين ، وعبده الأوثان ، وقد عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمن ، مالبعض أهل الكتاب وغيرهم من المهارة في كثير من الأعمال ، فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب ، حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في أسبانيا (١) ، ولقد اشتهرت حرية الأديان في بلاد الإسلام حتى هاجر يهود أوربا فراراً بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها (٢) .

هذا وما كان من أمر المسلمين في معاملاتهم لمن أظلوهم بسيوفهم ، لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته ، وألقوا بذلك بين أيديهم - وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه - فالذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام ، وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم ، حتى دخلوا فيه أفواجا ، وبذلوا في خدمته مالم يبذله العرب أنفسهم(٣) .

وقد يقول قائل : أليس ذلك كله يتعارض مع قول الله تعالى :

« حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .(٤)

نقول : لقد كان الأصل في فرض الجزية على أهل الكتاب ، قول الله تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) .(٥)

---

(١) رسالة التوحيد ص ٩٦

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق

(٤) سورة التوبة آية ٢٩

(٥) سورة التوبة آية ٢٩

فقد قيدت الجزية بقيدين اثنين .

١ — أن تكون صادرة عن يد (أى قدرة واسعة) فلا يظلمون ولا يرهقون.

٢ — القيد الثانى المعبر عنه فى الآية بقوله (وهم صاغرون) المراد هنا بالصغار خضد شوكتهم والخضوع لسيادة المسلمين وحكمهم[١] ، وعلى ذلك لايكون المقصود هنا من الصغار المعنى المتبادر إلى الذهن وهو الإذلال .

ولذلك نرى الأستاذ / محمد رشيد رضا رحمه الله يقول : عند تفسيره لهذه الآية : هذه غاية[٢] الأمر بقتال أهل الكتاب ، ينتهى بها إذا كان الغالب لنا - إذا وجد مايقتضى وجوب القتال ، كما حدث فى غزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية فى الحالين اللتين قيدت بهما ، ثم يقول :

القيد الأول :

أن تكون صادرة عن يد أى قدرة واسعة فلا يظلمون ولا يرهقون .

والقيد الثانى :

لكم وهو الصغار المراد به خضد شوكتهم ، والخضوع لسيادتكم وحكمكم، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم للإسلام بما يرون من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التى يرونكم أقرب بها ، إلى هداية أنبيائهم منهم - فإن أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد ، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم ، بالمساواة فى العدل ، ولم يكونوا حائلا دونها فى دار الإسلام ، والقتال لما دون هـذه الأسباب التى يكون بها وجوبه عينيا أولى ، بأن ينتهى بإعطاء الجزية ، ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم ، والدفاع عنهم وإعطائهم حريتهم فى دينهم بالشروط التى تعقد بها الجزية ، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم مالايطيقون كالمسلمين ويسمون أهل الذمة لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله ورسوله .

---

[١] راجع الوحى المحمدى ، رشيد رضا ، ص ٢٦٠ .

[٢] تفسير المنار ص ٢٤١ ، ٢٤٢ جـ ١٠ .

أهم مراجع الكتاب

(أ)

١ القرآن الكريم

٢ الأزهر تاريخه وتطوره: مطبوعات وزارة الأوقاف وشئون الأزهر سنة ١٩٦٤

٣ الإدارة العربية : س . أ . ق حسيني ترجمة ابراهيم العدوى مطبوعات الألف كتاب

٤ أصول الخطابة : للشيخ محمد أبو زهرة

٥ الإدارة الإسلامية : محمد كرد على

٦ الأحكام السلطانية : الماوردى

٧ الاستشراق والتبشير : محمد عزت الطهطاوى

(ب)

٩ البيان والتبيين : للجاحظ

١٠ بحث فى [أهداف الرسالة الإسلامية وبيان دور الأزهر فى نشرها] المرحوم الشيخ كامل محمد حسين — المؤتمر الخامس — مجمع البحوث الإسلامية .

١١ بحث فى [وظيفة المسجد المعاصر] الشيخ عبدالله المشد — مطبوعات مجمع البحوث — المؤتمر الخامس

١٢ بحث فى [الدعوة والمجتمع] الدكتور : عبد العزيز كامل — مطبوعات مجمع البحوث — المؤتمر الخامس

(ت)

١٣ تفسير الألوسى

١٤ تفسير ابن كثير

١٥ تفسير سورة النور أبو الأعلى المورودى

١٦ تلخيص الخطابة ابن رشد — تحقيق د/عبدالرحمن بدوى

١٧ تاريخ الإمام محمد رشيد رضا

١٨ تذكرة الدعاة البهى الخولى

١٩ الترغيب والترهيب للمنذرى

٢٠ التبشير والاستعمار للدكتور عمر فروخ ، مصطفى إخالدى

٢١ التشريع الجنائى فى الإسلام د/عبدالقادر عودة

٢٢ التفسير والمفسرون د/محمد حسين الذهبى

٢٣ التأثير فى الجماهير عن طريق الخطابة (ديل كانيجى) ترجمة رمزى يسى

التوعية الاجتماعية أنور أحمد [مطبوعات إدارة المعلومات والعلاقات بوزارة الشئون الاجتماعية

(ث)

٢٠ ثقافة الداعية د/يوسف القرضاوى

(ج)

٢١ جمهرة خطب العرب

٢٢ الجامع الصغير للسيوطى

جريدة النور الأسبوعية المصرية بتاريخ ١٩٨٢/٦/٢٢

(خ)

٢٢ الخطابة لارسطو

٢٣ الخطابة الشيخ على محفوظ

(د)

٢٤ الدعوة الإسلامية　　　د/أحمد غلوش

٢٥ الدعوة الإسلامية بين التنظيم الحكومى والتشريع الدينى د/عبدالغفار عزيز

٢٦ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين :　　　الصديق الشافعى

٢٧ الدر المنثور　　　للسيوطى

(ر)

٢٨ رياض الصالحين　　　للإمام النووى

٢٩ الرأى العام والدعاية　　　د/حسنين عبدالقادر

(س)

٣٠ سيرة النبي　لابن هشام تحقيق المرحوم محمد محي الدين عبدالحميد (أربعة أجزاء)

٣١ السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الأبيارى ، عبدالحفيظ شلبي الطبعة الثانية ١٩٥٥ ــ مصطفى البابى الحلبي (مجلدين)

(ص)

٣٢ صحيح البخارى

٣٣ صحيح مسلم

٣٤ صحيح البخارى مع فتح البارى

(ع)

٣٥ علم الخطابة　　　د/أحمد غلوش

٣٦ عيون الأخبار　　　ابن قتيبة

(ف)

٣٧ فن الخطابة وتطوره عند العرب　ايليا حاوى ــ دار الثقافة بيروت

٣٨ فتح القدير — الشوكانى

٣٩ فجر الإسلام — أحمد أمين

٤٠ فن الخطابة — د/أحمد الحوفى

٤١ فتوح البلدان — البلاذرى

٤٢ الفقيه والمتفقه — الخطيب البغدادى

٤٣ الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى — د/محمد البهى

٤٤ الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل
مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى — أحمد عبدالرحمن البنا

(ق)

٤٥ قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين — د/أحمد غلوش

٤٦ قانون رقم ١٠٣ سنة ١٩٦٠ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها

(ك)

٤٧ كتاب الكبائر — الإمام شمس الدين أبو عبد الله الذهبى
الناشر مكتبة الرياض الحديثة ١٣٩٢ هـ ١٩٧١ م

٤٨ كيف ندعو الناس — عبدالبديع صقر

(ل)

٤٩ لمحات من الثقافة الإسلامية — عمر عودة الخطيب

(م)

٥٠ معالم الثقافة الإسلامية وأصول النظام الإسلامى — د/عبدالغفار عزيز

٥١ مفتاح دار السعادة ومنشور الولاية فى العلم والإدارة ابن قيم الجوزية
طبعة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشاد —
الرياض (السعودية)

٥٢ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبدالباقى

الموضـــوع	الصفحة
١ ـ التركيز	٦٥
٢ ـ التكرار	٦٧
٣ ـ الترابط	٦٨
حاجة الخطيب إلى معرفة كل العلوم والثقافات	٦٨
الصفات البيانية للخطيب	٧٢
١ ـ النطق الحسن	٧٢
٢ ـ المعانى المعقولة والمفيدة	٧٤
المحظورات الأخرى التى يجب أن يبتعد عنها الخطيب	٧٨
١ ـ الوقوع فى الروايات الموضوعة والضعيفة	٧٨
٢ ـ المبالغة فى تعليل العبادات	٨٠
مراعاة الأحكام المهمة	٨٤
أهم الكتب التى يعتمد عليها الداعية	٨٥
أولا : بالنسبة لكتب التفسير	٨٥
ثانياً : كتب السنة	٨٧
ثالثاً : كتب السيرة النبوية	٩٢
رابعا : كتب الفقه	٩٣
خامساً : كتب العقيدة والثقافة الإسلامية	٩٦
هل يؤدى خطيب الجمعة خطبته كما ينبغى ؟	٩٧
أسباب تخلف الخطبة	٩٧
تطوير الأزهر كضرورة لتطوير الدعاة	٩٩
هل أفاد التطوير ؟	١٠١
كيف يؤتى التطوير ثماره المرجوة ؟	١٠٢
رأى المسئولين بالدولة فى أسباب قصور الدعاة وعلاجهم لهذه المشكلة	١١٣

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة